




***فصلية تعنى بالتواصل الثقافي الكردي - العربي***
***تصدر عن دار سردم للطباعة والنشر***

***السنة الخامسة- العدد (٢١) صيف ٢٠٠٨***

موقع المجلة على الإنترنيت
www.serdam.info

المراسلات
عن طريق مدير التحرير
nawzadaa@yahoo.com
آسيا سيل: ٠٧٧٠١٤٢٠٩٠٩
سانا تيل: ٠٧٥٠١١٨٠١٤٢

**مطبعة دار سردم للطباعة والنشر**

# محتويات العدد

سردم العربي - العدد (21) 2008

## دراسات وبحوث



## دراسات تأريخية



## دراسات أدبية ونقدية



## شعر



## قصة

# محتويات العدد

سردم العربي – العدد (21) 2008

موقعنا الالكتروني الجديد

www.serdam.info

# الزردشتية
# نشأتها وفلسفتها



مهدي مجيد عبد الله

## المقدمة

استنفد مني هذا البحث وقتا وجهدا لا يستهان بهما وهوليس بحثا بالمعنى الدقيق والعلمي للبحث انما هوشذرات اجتماعية وتاريخية حول الزردشتية.

الدين اوالفلسفة الوحيدة التي اعتنقها الكورد قبل الاسلام هي الزردشتية ولا تزال جذورها ضاربة في المجتمع الكوردي لوقتنا هذا فضلا عن تركه اثارا في الوجدان الشعبي ولا يزال الكورد يحتفظون بطقوس واعياد شعبية زردشتية على النطاق الاجتماعي لا الديني، وقد انطبع اثر الزردشتية في الآداب الكردية قديمها وحديثها.

لكن الدراسات الشاملة والوافية للزردشتية لم تنجز من قبل الكتاب والمثقفين الكورد وهذا ما اتاح الفرصة الى تشويهها وتفسيرها بصورة خاطئة من قبل كتاب اخرين من قوميات (عربية، وفارسية، وتركية) حيث تناولوها وقلوبهم مليئة با لحقد والكراهية والضغينة وعقولهم تنتج احابيل ومكائد لتشويه الثراث الكردي وقطع جذوره بغية استعباده وسلخه تاريخيا.

تأتي سطور هذا البحث طامحة ان تكون خطوة جادة من اجل تحريك المياه الراكدة التي تغمر اقلام الباحثين والكتاب الكورد من اجل القيام بمسؤليتهم الملقاة على عاتقهم وهي الحفاظ على

التراث من التشويه والتزوير والتحريف والتهميش وذلك عن طريق البحث فيه وتبيينه وتوضيحه بصورة راقية وخطوة هادفة.

ولقد تعرضت في هذه السطور الى النشاة التاريخية والاجتماعية لـزردشت وديانته اوفلسفته المسماة نسبا الى اسمه الزردشتية ورؤيته وفهمه للظواهر الكونية والحياتية من طقوس وعبادات وحياة وموت واسلوب المعاملة بين الناس والعلاقات على الصعد الاجتماعية فضلا عن خلق الكون والروح والنفس البشرية.

## ولادته

لا توجد بين أيدينا مصادر تاريخية مباشرة تعيننا على رسم سيرة كاملة لحياة زردشت، ولكننا نستطيع رسم ملامح عامة لها اعتماداً على المصادر الإغريقية التي تعود إلى القرنين السادس والخامس ق م وعلى المصادر الزردشتية ذاتها، وأهمها مجموعة الأناشيد التي وضعها زردشت نفسه، والمدعوة بالغاثا، ومجموعتان من الأدبيات الزردشتية معروفتان باسم الافستا والافستا الصغرى، وتحتويان على تعاليم زردشت وأحاديثه الشفوية التي نقلت عبر الأجيال وعلى شروح وتعليقات اللاهوتيين الزردشتيين. وقد تم تدوين هاتين المجموعتين خلال الحقبة الساسانية بعد قرون طويلة من التداول الشفهي. وعندما ولد زردشت، على ما تقصُّه الأدبيات الزردشتية اللاحقة، احتفلت كل مظاهر الطبيعة، وحدثت سلسلة من المعجزات التي رافقت ذلك الحدث المهم في تاريخ الكون وتاريخ الإنسانية. أما الشيطان فقد هرب واختفى من على وجه الأرض؛ ثم ما لبث أن أرسل زبانيته لإهلاك الرضيع. فلما اقتربوا منه تكلم في المهد وتلا صلاةً للربِّ طردت الشياطين. وعندما شب على الطوق جاء الشيطان لكي يجربه ووضع في يده سلطان الأرض كلِّها مقابل تخلِّيه عن مهمته القادمة، ولكن زردشت نهره وأبعده عنه.

انخرط زردشت منذ يفاعه في الكهنوت وصار كاهناً على دين قومه (وهودين هندإيراني شبيه بدين أسفار الفيدا الهندية). وكان ينتمي إلى فئة خاصة من الكهان تدعى زاوتار، يتميز أفرادها بسعة العلم والخبرة في الشؤون الدينية، ولا يُرسَمون كهنة إلا بعد خضوعهم لتدريب طويل يتمرسون إبانه بشتى المعارف اللاهوتية والفنون الطقسية. غير أن زردشت ما لبث أن انشق على المعتقدات التقليدية التي نشأ عليها وأحدث انقلاباً دينياً كان له أعمق الأثر على الحياة الروحية للإنسانية.

## نبوته

عندما كان زردشت في الثلاثين من عمره جاءه وحيُ النبوة من السماء يأمره بالتبشير والدعوة إلى دين الله الحق. فحين كان يشارك في إحدى المناسبات الطقسية دعت الحاجة إلى بعض الماء، فتطوَّع زردشت لجلبه ومضى إلى النهر القريب حيث خوَّض الماء حتى ركبتيه وملأ وعاءه. وحين كان خارجا منه الماء، تجلَّى له على الضفة كائن نوراني، فخاف لدى رؤيته وهمَّ بالرجوع. ولكن الكائن كلَّمه وطمأنه قائلاً بأنه فوهوماناه، أحد الكائنات الروحانية الستة التي تحيط بالإله

الواحد أهورا مزدا وتعكس مجده. ثم أخذ الملاك بيد زردشت وعرج به إلى السماء حيث مَثُل في حضرة أهورا مزدا والكائنات الروحانية المدعوة بالأميشا سبنتا؛ وهناك تلقَّى من الله الرسالة التي وجب عليه إبلاغها لقومه ولجميع بني البشر.

بعد تلقيه الرسالة انطلق زردشت يبشر بها في موطنه وبين قومه مدة عشر سنوات، ولكنه لم يستطع استمالة الكثيرين إلى الدين الجديد. فلقد وقف الناس العاديون موقف الشك والريبة بسبب ادعائه النبوة وتلقي وحي السماء، في حين اتخذ منه النبلاء موقفاً معادياً منه بسبب تهديده لهم بعذاب الآخرة، ووعده للبسطاء بإمكانية حصولهم على الخلود الذي كان وقفاً على النخبة في المعتقد التقليدي.

## نشر رسالته

ولما يئس النبي من قومه وعشيرته عزم على الهجرة من موطنه، فتوجَّه إلى مملكة خوارزم القريبة، حيث أحسن ملكها فشتاسبا استقباله، ثم اعتنق هووزوجته الزردشتية وعمل على نشرها في بلاده. ولكن ملوك المناطق المجاورة طالبوا فشتاسبا بنبذ الزردشتية والرجوع إلى دينهم التليد، وانتهزوا الفرصة للإغارة على حدود بلاده، فدخل معهم في حروب طاحنة خرج منها منتصراً. وبذلك تم فتح الطريق أمام الزردشتية للانتشار التدريجي.

عاش زردشت عمراً مديداً، ووجد الوقت الكافي لنشر رسالته والعمل على تبسيط تعاليمه الأولى التي أوردها في الأناشيد، وذلك بلغة تقرِّبها إلى أفهام عامة الناس وتستميلهم إليها. تزوج ثلاث مرات وأنجب ثلاثة ذكور وثلاث بنات؛ وكان زواجه الثالث من ابنة الوزير الأول لمملكة خوارزم.

## الشهادة الزردشتية

بعد وفاة الملك فشتاسبا سادت الفوضى في المملكة وفقد زردشت سنده وحاميه؛ فكان عليه أن يكافح ويثبت بقواه الخاصة؛ وهذ الامر مهمة حققها بنجاح بعد نضال شاق وطويل. وإلى هذه الحقبة العصيبة يرجع قانون العقيدة الزردشتي الذي يجب على المؤمن فهمه وإعلانه لدى دخوله في الدين الجديد، وفي مقدمته الشهادة التي تقول: "أشهد أني عابد للإله أهورا مزدا، مؤمن بزردشت، كافر بالشيطان، معتنق للعقيدة الزردشتية، أمجِّد الأميشا سبنتا الستة، وأعزولأهورا مزدا كل ما هوخير." لدى نطقه بهذه الشهادة يكون الفرد قد انسلخ عن الدين القديم وصار عضواً في جماعة المؤمنين.

## جذور ومعاني زردشت

لزردشت أسماء متعددة. زردشت، زوردشت، زرتشت، زردشت، زوردسترا وما عدا هذه فله إثنا عشر اسماً آخر واسمه في (الآفستا) زرادسترا وأسبيتامازرادسترا ويسميه الأوربيون (زرواستر) وفي البهلوية (زراتوشت) وبالفارسية الجديدة (زوردشت) وينفرد ابن النديم وحده في القول بأن زردشت هوابن (أسبيتمان) وصاحب كتاب (باسيتاني) والفلسفة ويسميه (شتاشوزاردوشت). لكن المصادر التأريخية الموثوقة والمعتبرة تؤكد

على ان اسمه الحقيقي هو (زردشت) زار تعني اللغة أوالحديث ودشت تعني الحقيقة والإستقامة أي (الناطق بالحقيقة) ولكن يذهب البعض من المؤرخين الى القول بأن زارد تعني الأصفر (زر) وأوشترا بمعنى أوشتر وهوالجمل أي صاحب الجمل الأصفر. ويكتب الفيلسوف الألماني (نيتشه) اسمه زارا لأن كلمة (زار-زاراف) بالكردية تعني اللغة أوالحديث.

واسم والد زردشت هو (بروشف-بروشب) أحد أبناء (فريدون)الذي كان ملكاً على إيران وزردشت هوابن (بروشف) بن دوخد بن هاتي كاتاسبا ويستدل من كتب زردشت بندهشين، زادسبادم، ويكركارت، دينجة، أن نسبه يتصل بـ(منوشهر بن إيرج بن فريدون) وأن اسم والدته (دوخدو) وهي من نفس عائلة أبيه.

## الشك واليقين

ولكن وجود زردشت نفسه موضع شك لدى بعض المؤرخين حيث هناك نظرتان حول ذلك: الأولى تذهب الى القول أن زردشت ليس له وجود ولم يأت أبداً الى هذه الدنيا وكل ماقيل فيه هوهراء وقصص وخرافات جاؤوا بها على لسانه ونرى مشابهاً لهذه القصص والخرافات في ثنايا التاريخ الذي بورد اناسا كالملا المشهور جحا وبهلول واليوم لم يعد أحد يؤمن بهذه النظرة وهي غير صحيحة لأن المكتشفات الأثرية أثبتت أن زردشت كان موجوداً وشخصية تاريخية واقعية وحقيقية وكان صاحب دين ومذهب وكتاب أما النظرة الثانية فتقول: أن زردشت شخصية حقيقية أثبتها التاريخ وصاحب هذه النظرة هو(أفلاطون) الفيلسوف اليوناني الشهير حيث يقول إن (مازديسرمزدا) ابن أورهونبي إيران وقد ضحك في اليوم الأول من ولادته.هذا وقد اختلف المؤرخون حول زمن وسنتها ولادته ويرى البعض أنه ولد في بداية القرن السادس قبل الميلاد والبعض الآخر يميل الى الاعتقاد بأنه ولد في القرن العاشر قبل الميلاد وآخرون يقولون إنه ولد قبل الميلاد بستين قرناً ويدعي أصحاب النظرة الثانية أن دارا ملك الفرس المشهور كان يدين بالزردشتية فيما بين سنتي ٥٢١-٤٨٥ق.م أوسنة ٤٧٩ق.م وجعلها دين الدولة الرسمي وتم الإستدلال على ذلك مما ورد في كتابات ونقوش (بهستون) ولكن اعتماداً على الآثار والحفريات القديمة وخاصة النقوش والمخطوطات الآشورية يمكن القول إن الزردشتية كانت موجودة في دولة ميديا قبل الملك الإيراني كي خسرو(قورش) بمئتي سنة هذا الملك الذي حكم إيران بين سنتي ٥٥٨-٥٣٠ق.م أي قبل الميلاد بـ ٧١٤ عام لأن اثنين من ملوك ميديا سميا نفسيهما (مزداكا) الذي جاء من كلمة مزدا وبما أن زردشت كان يطلق على إلهه اسم (أهورا-مزدا) فيمكن عندئذ الاعتقاد بأن هذين الملكين الميديين كانا يعتنقان الديانة الزردشتية ولهذا فمن المفروض أن تكون هذه الديانة منتشرة قبلهما بمئات السنين بل،ربما بالف سنة.ويذهب أصحاب النظرة الأولى إلى أن الزردشتية كانت منتشرة قبل الميلاد ب ستمائة عام ويمثل هذا الاتجاه كل من درمستد وهواردن الفرنسيين وويست بروان الانكليزي وجاكسون الأمريكي وهؤلاء العلماء والمؤرخون يميلون الى

الاعتقاد بأن ظهور زردشت كان في النصف الأخير من القرن السابع قبل الميلاد وكانت ولادته في سنة ٦٦٠ق.م تحديداً وقتل في عام ٥٨٣ق.م وكان عمره سبعاً وسبعين عاماً وأن موطن ولادته هو أذربيجان وجاهر برنيه في مدينة بلخ في عهد الملك (كوشتاسب). ويعتقد البعض بأنه هاجر من فلسطين الى إيران وهناك ألف كتابه ونشر أفكاره ولكنه لم يؤمن به أحد ولم يصدقه أحد وبعد قرابة عشر سنوات ذهب الى كوشتاسب فآمن به الملك الإيراني وبنى له موقداً للنار ويقال كانت في يد زردشت كتلة من النار لم تحرق أحداً إذا مسته وكانت الضياء والنور. هذا والنظرة الأخيرة لم تعد مجدية وأفلست تاريخياً واتخذت النظرة الإيرانية قبولاً وجدية أكثر يؤمن بها معظم الناس وحسب هذا الرأي فإن زردشت هومن أكراد ميديا ولد في منطقة أذربيجان(أتروباتين) الحالية بالقرب من بحيرة أورمية ويعتقد البعض بأنه بشر بديانته في ميديا وآخرون يميلون الى مدينة بلخ (باكيتا-بختيريا) وقد جاهر هناك بدعوته كنبي وكان موقده يسمى (أترافان) أي بيت النار وفي اللغة الهندية أترافان تعني بيوت النار وكلمة آفان كردية وأبادان فارسية واسم كتابه الذي كتبه باللغة الميدية هو (كاتاها) وهوأول وأقدم كتاب كتبه في ميديا.

## كردية زردشت

وباختصار فإن زردشت هوكردي من ميديا وسم والده بروشف ولد قرب بحيرة أورمية في سنة ٦٦٠ق.م وقتل في بلخ على يد الأتراك عام ٥٨٣ق.م وبقي على قيد الحياة ٧٧عاماً وهاجر الى بلخ (بكتيريا) وهناك جاهر بديانته الزردشتية وأمضى عشر سنوات يتجول هائماً على وجهه في السهول والجبال.هذا وأن كوشتاسب ليس والد دارا الملك الفارسي الشهير الذي كان ملكاً على برسوبوليس في إيران.

ويعد زردشت واحداً من أهم الشخصيات الدينية التي أثَّرت على مجرى الحياة الروحية عبر تاريخ الحضارة. ولا تكمن أهمية هذا النبي والمعلِّم الأخلاقي الكبير في مدى الانتشار الجغرافي والزماني للديانة الزردشتية التي قامت على وحيه وتعاليمه بقدر ما تكمن في مدى تأثير أفكاره على الديانات العالمية اللاحقة.

مع أننا نفهم من الأفستا الصغرى أن زردشت عاش وبشَّر برسالته قبل عصر الإسكندر بثلاثة قرون، أي فيما بين أواخر القرن السابع وأوائل القرن السادس ق م، إلا أن الباحثين في تاريخ الزردشتية مختلفون في تاريخ ميلاد المعلِّم. في حين يرجعه فريق من الباحثين إلى أواسط الألف الثاني ق م استناداً إلى التحليل الفيلولوجي لِلَهجة أناشيد الغاثا التي تشفُّ عن بُنى لغوية مغرقة في القدم فإن فريقاً ثانياً يقبل بالمعلومة الأفيستية ويحدِّد ميلاده في أوائل القرن السادس ق م، ويطابق بين اسم الملك فشتاسبا الذي يتكرر في أناشيد الغاثا واسم والد الملك قورش المدعوهيستابس. وهنالك فريق ثالث يؤرِّخ لمولد زردشت في مطلع الألف الأول ق م، حوالي عام ٩٠٠ تقريباً؛ وحجة هذا الفريق قِدَم لهجة أناشيد الغاثا، من جهة، وعدم تعرضها، ولوبالإشارة العابرة، إلى ذكر مملكة

الميديين أوالأخمينيين، من جهة ثانية. يضاف إلى ذلك ما تكشف عنه الدراسة المدققة للأناشيد من وجود نظام سياسي كان سائداً خلال حياة الكاتب، يقوم على الإمارات الصغيرة التي لا تخضع لسلطة سياسية مركزية؛ ومثل هذا النظام لم يكن ممكناً بعد عام ٩٠٠ ق م. وهذا التاريخ المتوسط لميلاد نبي الزردشتية يلقى الآن تأييد معظم الباحثين. أما عن المنطقة التي ولد بها المعلم وعاش سنوات يفاعه إلى أن جاءه وحي النبوة فإن الآراء تتفق على وقوعها في المناطق الشرقية المتطرفة والبعيدة عن المراكز الحضرية التي كانت تعيش على الرعي وتربية الماشية.

## اراء حول شخصية زردشت

ذاع صيت زردشت في العالم القديم. فعده الإغريق سيداً للحكمة وللمعارف السرَّانية؛ وعزا إليه الفيثاغوريون تأثيراً مباشراً على معلِّمهم فيثاغوراس؛ ونظر إليه فلاسفة الأكاديميا بإكبار وإجلال باعتباره مؤسِّساً لفلسفة الثنوية؛ ثم رأت فيه المسيحية المبكرة مبشراً بقدوم السيد المسيح بسبب تعاليمه حول المخلِّص المنتظر الذي سيأتي في آخر الأزمان. وعندما ظهرت المدارس الغنوصية في سورية ومصر خلال القرون الأولى للميلاد وجدت في زردشت واحداً من معلِّميها الكبار. ثم جاء ماني، المعلِّم الثاني لمعتقد الثنوية، فعد زردشت ثالث الأنبياء العظام الذين سبقوه، إضافة إلى موسى ويسوع. وفي العصور الحديثة أصبح زردشت موضع اهتمام الأوروبيين منذ عصر النهضة. وكان الفيلسوف الألماني نيتشه من أكثر الفلاسفة المحدثين إعجاباً به، واستعار اسمه لحكيم كتابه (هكذا تكلم زردشت).

## مقتل زردشت

في عهد زردشت وقعت حرب بين إيران وطوران وكانت حرباً قاسية حيث كانت القتلى بمئات الآلاف والسلب والنهب قائمين على قدم وساق بين الطرفين وذاق الناس الويلات من جراء هذه الحرب الضروس التي سالت فيها الدماء بغزارة ثم جاء وقت تصالح فيه الطرفان الإيراني بقيادة الملك (كوشتاسف) والتركي بقيادة الملك (خارزاسف) ولكن هذه ليست المرة الأولى التي يتصالح فيها الطرفان ثم تندلع الحرب من جديد. وهنا اقترح زردشت على الملك شيئين:أن يخرج ابنه (اسفنديار ) من السجن ثم يسلمه قيادة الجيش لقتال تركستان ولكن الملك لم يصغ لنصائح زردشت وأرسل جيشه الى تركستان دون أن يطلق سراح ولده كما طلب منه زارا ذلك لأن اسفنديار كان متهماً بجناية كبيرة هي ان أخاه كان قد وشى به سراً عند أبيه الملك مخبراً إياه بأن اسفنديار يريد قتله لتولي العرش فصدق الملك العجوز الوشاية وأدخل ابنه القوي والشجاع السجن ولم يوافق على طلب زردشت بإخراجه وتسليمه قيادة الجيش وبعد معارك طاحنة بين الطرفين تمكن الملك التركي من تحقيق عدة انتصارات على الجيش الإيراني ودخل العاصمة بلخ فتم تدميرها وإحراقها ونهبها وسلبها وكان من جملة الضحايا زردشت نفسه مع ثمانين من أتباعه قتلوا في أترافان بلخ أوبيت النار وبذلك اختلطت دماؤهم مع النار المقدسة وهكذا ثم قتل زردشت على يد الترك.

## الزردشتية

الزردشتية تنسب إلى زرداشت (٥٨٣ ق.م-٦٦٠ ق.م) الذي يسجل أهم تعاليمه في كتابه (الافستيا) وتنطلق الزرداشتية من الاعتقاد بان الحياة تعتمد على عنصرين أساسيين، هما إله الخير وإله الشر، وما الحياة إلا صراع بينهما، وأعطت الزرداشتية قيمة كبرى للظواهر الطبيعية والقوى المتحكمة فيها، وعلى رأسها الماء والأرض والشمس والقمر والنار، وعدت النار رمزا لإله الخير لكونها معبرة عن النور، وتطور هذا الاعتقاد الى عبادة النار نفسها لدى الفارسيين (الديانة المجوسية) المأخوذة من الزرداشتية، ومن أهم خصائص الفكر الزرداشتي الديني الاهتمام بالجوانب السلوكية الخيرة لدى الإنسان وخاصة في مجال المعاملات.

وبعد وفاة زردشت بقيت تعاليمه الأصلية التي بثها في أناشيد الغاثا بمثابة الإنجيل الذي يحفظ جوهر الدين ويجمع المؤمنين حول العقيدة والأخلاقيات والشعائر الزردشتية. ونستدل من لهجة الغاثا المغرقة في القدم أنها حُفِظَت في شكلها الأصلي، دون أن يمسسْها تعديل جوهري، عبر التداول الشفهي الطويل السابق لعصر التدوين. ولكن الشكل الأدبي الرفيع الذي صيغت فيه الأناشيد وأسلوبه المختصر البليغ دعا الكهنة إلى التوسط من أجل شرحه وبسط افكاره وتطويره للناس العاديين. وقد تراكمت هذه الشروح تدريجياً حتى شكّلت مصدراً آخر من مصادر الدين الزردشتي؛ وبذلك ولدت مجموعة الأفستا والأفستا الصغرى اللتان اتخذتا شكلهما شبه التام نحونهايات الفترة الأخمينية. ثم تطلبت الأفستا بدورها الشرح والتفسير، فنشأ على هامشها كتاب الزند، أوالزندأفستا (أي الشروح والتعليقات على الأفستا).

## التدوين

لم تدوَّن هذه الأدبيات الدينية خلال الحقبة الأخمينية بسبب عزوف الكهنة عن استخدام الكتابة لحفظ النصوص المقدسة لأنهم رأوا في الكتابة شأناً دنيوياً وعدوها تدنيساً للنص. ولكن الأفستا صارت مهددة بالضياع عقب غزوالإسكندر المقدوني وما تلاه من حقبة النفوذ السلوقية، فأمر الملك البارثي فلاكش (حوالى عام ٦٠ ق م) بجمع أسفارها من شتى المناطق ومقارنتها من أجل تثبيتها كتابة في صيغتها النهائية المعتمدة. غير أن هذه المهمة لم تنجَز كاملة إلا في عصر الملك الساساني كسرى أنوشروان، عندما تم تدوين الأفستا في واحد وعشرين جزءاً يتصدَّرها الجزء الخاص بأناشيد الغاثا.

## دور المجوس

ولقد لعب كهنة الماجي، أوالمجوس، دوراً مهماً في تحرير وتطويره الأفستا. وهؤلاء المجوس ينتمون إلى قبيلة ماجي، وهي قبيلة متخصصة في الشؤون الدينية، وأغلب الظن أنها من أصول ميدية. ويرجح بعض الباحثين أن المجوس كانوا على الديانة الإيرانية التقليدية، ثم تحولوا إلى الزردشتية حتى لا يخسروا مكانتهم الاجتماعية، وبثوا فيها الكثير من معتقداتهم وأفكارهم وطقوسهم القديمة. لهذا السبب عُرِفوا في العالم القديم، باستقلال عن

الدين الزردشتي، لكونهم حكماء متضلِّعين بالسحر والتنجيم والمعارف السرَّانية. لقد أدخل المجوس العديد من آلهة الديانة الهندإيرانية القديمة إلى المعتقد الزردشتي، وتبنَّوا بعضاً من آلهة البانثيون الرافدي، وعلى رأسها عشتار التي اتخذت في إيران اسم أناهيتا، أي «البتول». وأخذت عبادة أناهيتا بالانتشار منذ عهد الملك الأخميني أردشير الثاني الذي كان أول من بنى المعابد وصنع صوراً للكائنات القدسية. ووسَّع المجوس مفهوم زردشت عن قوى النور وقوى الظلام، وبنوا حوله لاهوتاً متكاملاً عن مجمع الملائكة ومجمع الشياطين؛ فصارت الملائكة التي تعمل تحت إمرة الأميشا سبنتا تعد بالآلاف، وكذلك الشياطين التي تعمل تحت إمرة أنغرا مانيو. وتحوَّل الأميشا سبنتا من قوى مجرَّدة غير مشخَّصة إلى كائنات إلهية، لكل منها وظيفة محددة في نظام الكون والطبيعة، وصارت فروض العبادة والتقديس تُقدَّم إليها بما هي كذلك. ومن أهم التحريفات التي أدخلها المجوس على العقيدة الزردشتية أنهم جعلوا أنغرا مانيوعلى قدم المساواة مع أهورا مزدا، ونظروا إليهما كخصمين متصارعين منذ البداية. وبذلك تحول أهورا مزدا من إله يسموفوق الروحين المتنافسين اللذين صدرا عنه إلى طرف مباشر في الثنوية الكونية.

## الزروفانية

وفي العقيدة الزورفانية، التي طورها فريق من المجوس، صار أهورا مزدا وأنغرا مانيو (الذي اتخذ اسم أهريمان) ابنين توأمين للإله زورفان، وهوالزمان. وقد عهد زورفان إلى أهورا مزدا بمهمة خلق العالم ليغدومسرحاً للصراع المكشوف بين قوى الخير وقوى الشر، وحـدَّد لصراعهما مدة محددة تنتهي بغلبة أهورا مـزدا على خصمه أهريمان. وبقي زورفان بمثابة العلَّة الأولى والإطار الذي تجري ضمنه أحداث الكون. وقد انتقلت هذه العقيدة من هرطقة تعيش على هامش زردشتية الأفستا إلى دين رسمي للدولة في عهد الساسانيين، حوَّل الزردشتية من ديانة عالمية تتوجه لجميع بني البشر إلى ديانة قومية خاصة بإيران. وهذا ما أضعف موقف الزردشتية تجاه الديانات العالمية اللاحقة، وخصوصاً المانوية ثم المسيحية فالإسلام.

## الافستا

كلمة الافيستا باللغات القديمة تعني (الاساس والبناء القوي)، ويدعي الفرس أن الكتاب كتب باللغة البهلوية القديمة أوألسنسكريتية، مع العلم أن المصادر تذكر أن اللغة التي نزلت بها (ألأفيستا) هي لغة خاصة بالاقوام الكاردوخية أوالكاردوية أوالكوردية (وهي تسمية حديثةأطلقت على الكوردبعدما كانوا معروفين (بالكاردوخيين) وقد كتبها الفرس البهلويون بلغتهم قبل الاسلام، طمعا في تنسيب الديانة الزردشتية الى الفارسية، ويقول المؤرخين أن (الافيستا) المقدسة كتبت على ١٢٠٠٠ قطعة من جلود البقر اتلف أغلبها نتيجة لمرور تلك القرون من الزمن وبقيت ٣٨٠٠٠ الف كلمة منها، وتقول بعض الروايات انها كانت تقدر بـ٣٤٥،٧٠٠ كلمة اي اربعة أضعاف، ما قيل عن الباقي وكانت من واحد وعشرين جزأ وخمسة اقسام:

اولا: (يسنا) وتعني النوع أو الشكل وهي على

شكل ( اناشيد أوتراتيل) وهي ادعية ومعلومات حول الدين وهي أشهر أقسامه وينسب اغلبها الى النبي زردشت.

ثانيا: (ويسبرد)

ثالثا: ونديداد (قانون ضد العفاريت) وهي حول الحلال والحرام، والطاهر والنجس

رابعا (يشتها) وتعني الاناشيد والتسابيح

خامسا: افيستاي بجوك (خردة افيستا) وهي الاعياد والمراسم الدينية والمذهبية.

في الديانة الزردشتية هناك اعتقاد بوجود ستة معاونبن أومساعدين لزردشت وهم باعتبارهم من الملائكة المقدسين يأتمرون بأمر (سبنتا مئنيو) أي الروح المقدسة وهم:

اولا: وهومن.

ثانيا: واهيشته أشا.

ثالثا: واريا خشاترا.

رابعا:سبنته أرمئيتي.

خامسا:هوروارتات.

سادسا:امريتات.

## اللغة

تدل جميع الدراسات الأثنوغرافية الحالية على أن الأمة الكوردية هي من السلالات الميدية، ولعل أكبر المستشرقين الذين دافعوا عن هذا الرأي هوالعلامة (مينورسكي). ويقول الأستاذ (احسان نوري) بهذا الصدد: ((في الحقيقة مع أن الألفاظ والكلمات الميدية قد اختلطت بالكلمات والألفاظ الطورانية والسامية من جهة، ومرت عليها عصور مختلفة أحدثت فيها تغييرات كبيرة، لا يمكن نكرانها أواجتنابها من جهة أخرى، ولكنها مع ذلك هي أقرب إلى اللغة الكوردية من أي لغة أخرى)). ويتفق الأستاذ (ديرك كينين) مع هذا الرأي أيضاً، ويقول: ((إن اللغة الكوردية متفرعة من اللغة الميدية، حيث يعد الميديين أصلا رئيساً للكورد)).

وقد أيد هذا الرأي كثير من المؤلفين العرب أيضاً، نذكر منهم الدكتور (محمد السيد غلاب)، أستاذ الأنثروبولوجيا بجامعة القاهرة، إذ يقول: ((وقد ظلت أرض الجزيرة وشمال العراق تستقبل هجرات البدوالهندية الأوروبية من وسط آسيا، بما تحمله من صفة الشقرة، وهذه المنطقة هي وطن الكورد في الوقت الحاضر، وهم سلالة الميديين القديمة التي ظهرت في الألف الأول قبل الميلاد، وتنتشر بينهم صفات الشقرة بشكل واضح، وهم يتحدثون لغة هندية أوروبية، ويحتلون منطقة الحدود المشتركة بين العراق وإيران وتركيا ويقول إحسان نوري) فقد ان كلمة زردشت نفسها هي كلمة كوردية أصيلة: ((كانوا يسمون زردشت بزرتوشرا سبي تمه،ويأتي بمعنى زردشت بياض الأصل، وهذه الألفاظ التي كانت من لغة قوم زردشت، أي لغة ماد نسبة إلى الميديين،ليست لها فروق أساسية مع اللغة الكوردية الحالية، علماً أن (زرتوشرا سبي تمه)، في اللغة الكوردية تعني الشعاع الذهبي للشمس البيضاء.

وهكذا، نتوصل إلى نتيجة، وهي أن أقدم المؤلفات الكوردية قاطبة، والتي وجدت حتى الآن، هي الجزء (كاتها) من كتاب (آفستا)، الذي كتب في القرن السابع قبل الميلاد، استناداً إلى أن زردشت

نفسه كان ميدياً، وكان يتكلم لغة الميديين، وأن الميديين هم كورد اليوم. وقد كتب عن هذا الرأي أيضاً ميجر(سيون) الحاكم البريطاني، والضليع باللغة الكوردية، فقد كتب في تقريره عن لواء السليمانية مايأتي: ((وقد صار من المسلم به، أن زردشت الذي كان يتكلم اللغة الميدية الأخيرة، قد ولد في شمال مقاطعة ميدية، وهي الآن معروفة بمقاطعة مُكري، ولغة زردشت هذه، كما نراها في زند آفستا قريبة جداً من اللهجة الموكرية الكوردية الحالية.

## الواجب الخلقي

يقف الإنسان على قدم المساواة مع الأميشا سبنتا وبقية الكائنات القدسية في مسؤوليته عن مكافحة الشر في العالم. وينبغي عليه في الدرجة الأولى أن يُعنى بأخيه الإنسان وببقية مخلوقات الأرض لأنهم جميعاً صنعة الله الواحد. وعليه أن يراعي جسده وروحه معاً. وتتحقق رعاية حقوق الجسد باتباع الفرد لقواعد النظافة والصحة العامة والاعتدال في الأكل والمشرب وتجنب الإفراط في كل شيء. أما رعاية حقوق الروح فتتحقق باتباع النظام الأخلاقي السليم الذي اختطّه النبي والذي، رغم تشعبه، يتلخّص في ثلاثة عناصر هي: الفكر الحسن، فلا يتداول الفرد في عقله إلا الأفكار الطيبة ويستبعد الأفكار الخبيثة؛ والقول الحسن، فلا يصدر عنه سوى الكلام الطيب؛ والعمل الحسن الذي يفيد به نفسه وعائلته ومجتمعه، ولا يبادر إلى ما فيه أذية مخلوق قط. فالإنسان هوأنبل خلق الله، وعليه أن يستخدم ما وهبه الله من وعي وذكاء لأجل الارتقاء بالعالم نحوالمستوى الماجد والجليل الذي ينتظره في آخر الزمان. وأن الخلاص الذي يسعى إليه الإنسان ليس فقط خلاصاً فردياً من ربقة المواد إلى دار الخلود، ولا خلاصاً جمعياً للإنسانية طُرّاً، بل هوخلاص للعالم بأسره، لأن الإنسانية تتخذ مكان المركز في خلق الله، وعليها وحدها تقع مسؤولية تحرير هذا الخلق بكامله من سلطة الشيطان.

## الطقوس والعبادات

كانت الديانة الأصلية التي أسَّس لها زردشت ديانة بسيطة لا تعتمد إلا على القليل من الطقوس والشكليات الدينية. وفيما عدا الأساطير القليلة الأساسية المتعلقة بنشأة عالم الخير وعالم الشر، وتلك المتعلقة بالمخلِّص ونهاية الزمن، لم يكن للميثولوجيا دور في المعتقد الزردشتي. وحتى هذه الموضوعات الأسطورية الأساسية لم تُعالَج في أناشيد الغاثا بأسلوب القص الميثولوجي، وإنما بالإشارات الموجزة والصور الشعرية البالغة التأثير، الأمر الذي ترك شخصياتها أقرب إلى المفاهيم المجردة منها إلى الشخصيات المجسدة.

دعا زردشت المؤمنين إلى خمس صلوات في اليوم، تقام عند الفجر والظهيرة والعصر والمغرب ومنتصف الليل. وتتخذ صلاتا الظهيرة ومنتصف الليل أهمية خاصة لأن منتصف النهار هوالوقت الذي تكون فيه قوى النور في ذروة سيطرتها على العالم الذي يشبه عندها ما كان عليه في كمال البدايات؛ أما منتصف الليل فهوالوقت الذي تكون فيه قوى الظلام في ذروة فعالياتها. يقوم المؤمنون

لإيقاد النار دعماً لقوى النور ولترتيل الصلوات، وتسبق الصلاة عملية الوضوء التي تتضمن غسل الوجه واليدين والقدمين. بعد ذلك يقف المصلي منتصباً مسبل الذراعين في حضرة أهورا مزدا، ويتلوفي صلاته مقاطع خاصة من أناشيد الغاثا كان زردشت نفسه يتلوها في صلاته. ولكن بمرور الوقت، وبغياب لهجة الغاثا القديمة عن الاستخدام اليومي، عمد الكهنة إلى إضافة نشيد طقسي منظوم بلهجة أكثر حداثة يُدعى الياسنا، ويتألف من فصول قصيرة تحاكي في بنيتها أسلوب الغاثا. وحين تكون عينا المصلي مثبتتين على النار المقدسة أمامه يقوم بحلِّ شاله ويمسك به بكلتا يديه؛ وفي نهاية الصلاة يقوم المصلي بإعادة الشال إلى وسطه فيلفه ثلاث مرات، ثم يعقده من الأمام ومن الخلف إشارة إلى عناصر الأخلاق الزردشتية الثلاثة. وهذا الشال هوالشارة التي يميز بها الزردشتيون أنفسهم؛ كما أن حله وإعادة ربطه هوفعل طقسي يرمز إلى تمسك المؤمن بتعاليم النبي وتذكرها على الدوام.

تتجلَّى بساطة الديانة الأصلية التي بشَّر بها زردشت في غياب الهياكل والمعابد والمذابح. فلقد منع زردشت تشييد أماكن خاصة للعبادة لأن الله موجود في كل مكان ويمكن التوجُّه إليه بالصلاة في أي مكان طاهر. ومنع النبي صنع الصور والمنحوتات لأهورا مزدا ولبقية الكائنات القدسية السماوية. لذا فقد خلت المراكز الحضرية للمملكة الأخمينية من المعابد الضخمة التي عرفتها بقية ممالك المنطقة المشرقية؛ وسار الملوك الأخمينيون الأوائل على خطى المعلِّم في تحريمهم للتماثيل والصور، فكانت الصلوات تقام في البيوت أوفي أماكن مخصصة للعبادة في الهواء الطلق ومزودة بموقد للنار المقدسة. وقد ذكر المؤرخ الإغريقي هيرودوتس (٤٨٥-٤٢٥ ق م) أن الفرس كانوا يحتقرون المعابد ويرون فيها خطيئة لأن الله الذي لا تسعه السماوات والأرض لا يسكن في بيت مصنوع بيد الإنسان ويصف الجغرافي والمؤرخ الأغريقي سترابو(٦٤ ق م - ٢٣ م) بقايا معبد أقامه الملك قورش، فيقول إنه كان عبارة عن تلة في الهواء الطلق محاطة بجدار يصعدها المؤمنون للصلاة. ولكن أردشير الثاني (٤٠١-٣٥٩ ق م) الذي جاء بعد قورش بأكثر من قرن ونصف خرج على هذه التقاليد، فكان أول من بنى المعابد الضخمة على الطريقة البابلية وصنع صوراً للكائنات السماوية. وهذا ما تبيِّنه لنا آثار العاصمة الفارسية القديمة.

استطاع أردشير الثاني استمالة فريق من الكهنة إلى معابده فراحوا يقيمون فيها الصلوات. إلا أن فريقاً آخر عارض ذلك ورأى فيه انتهاكاً للمعتقدات التقليدية. وقد بدأ الكهنة المعارضون، بدعم من الجماهير المؤمنة، يردون على هذا الإجراء بإقامة معابد لهم تتصدرها شعلة النار المقدسة بدلاً من تماثيل الآلهة؛ وبذلك ظهرت لأول مرة معابد النار في إيران. وشيئاً فشيئاً أخذت نار المعبد تكتسب قدسية خاصة بها بعد أن كانت مجرد رمز للألوهة الخافية، وأخذ أهل الديانات الأخرى يصفون الزردشتيين بأنهم عبدة النار. ومثل هذا الوصف لم يَرِدْ في كتابات المؤرخين الذين تحدثوا عن إجلال الإيرانيين للنار دون أن يصلوا حد القول بعبادتها. لقد قاد نشوء

معابد النار إلى إحداث تغييرات عميقة في الديانة الزردشتية. فبعد البساطة التي ميَّزت الممارسات الدينية في السابق انتشرت المعابد الدينية الضخمة الباذخة، ونشأت طبقة جديدة من الكهنة المتفرغين لطقوس النار التي زادت تعقيداً بمرور الزمن وبعداً عن بساطة الطقوس الأصلية. وقد عُرِفَت هذه الطبقة من كهنة النار تاريخياً باسم ماجي وباليونانية Μάγοι (مفردها Μάγος، وبالعربية "مجوس".

## طقوس الموت

شغلت طقوس الموت حيزاً مهما من الطقوس الزردشتية بعد عصر النبي. وهي تقوم على نظرة زردشت إلى الموت على أنه من نواتج فعاليات الشيطان في العالم. فأجسام الأحياء تنتمي إلى عالم أهورا مزدا، أما جثث الموتى فإلى عالم أنغرا مانيو؛ فهي خبيثة ونجسة، لا فرق بين جثة إنسان وجيفة حيوان، ولا بين جثة إنسان صالح وجثة إنسان شرير. إن لمس أية جثة هومصدر للنجاسة، وعلى من احتك بها أن يتطهر بالماء. وأي جزء مقتطع من جسم الحي، مثل قصاصات الشعر والأظافر، هوجزء ميت ويجب عدم الاحتكاك به. وبالمثل أيضاً، فإن نَفَس الزفير الذي يطلقه الكائن الحي من رئتيه هواء ملوث بالموت، على عكس نَفَس الشهيق الذي يحمل الحياة. لهذا كان كهنة النار يضعون كمامات قماشية على أفواههم عندما يقتربون من الشعلة المقدسة. وجميع الحيوانات التي تتغذى على الجثث مثل النمل والذباب والكلاب والضباع وما إليها هي حيوانات نجسة يجب قتلها أينما وجدت لأنها وكلاء للشيطان. وقد قاد تابوالموت هذا إلى إفراز جماعة من الاختصاصيين بشؤون التخلص من الجثث، وهم الذين يقومون بطقوس الجنازات ويعرفون كيف يتطهرون عقبها. أما عن الدفن فإن صرامة تابوالموت كانت تحظر وضع الموتى على تراب الأرض مباشرة كي لا تلوثه؛ فكانت الجثة تُسجَّى على مصطبة حجرية في سفح جبل أوفي منطقة نائية مهجورة، حيث تُترَك مكشوفة في العراء حتى تتحلَّل بتأثير العوامل الطبيعية أوانقضاض الجوارح عليها. وبعد فترة كافية لتحلُّل الجسم تُدفَن العظام تحت التراب في انتظار يوم النشور.

## قواعد الطهارة

لم تضاهِ قبل الزردشتيةَ ملَّةٌ في الحفاظ على طهارة الجسم والملبس والمأكل. ويأتي حرصُ الزردشتي المبالغ فيه على النظافة من اعتقاده بأن الفساد والتحلُّل والعفونة وكل أنواع القذارة هي من عمل أنغرا مانيو. من هنا فإن النظافة والبعد عن الاحتكاك بكل ما هوقذر وملوث شأن يعادل الصلاة والعمل الطيب لأن في التزام قواعد الطهارة محاربة لقوى الشيطان ووقوفاً إلى جانب الرحمن. وبذلك يستطيع الإنسان الاسهام في محاربة الشر الكوني من خلال أدائه لأصغر واجباته اليومية.

لا يمكن سرد جميع قواعد النظافة التي راكمتْها الشريعة الزردشتية عبر العصور، وإنما يفي بالغرض التعرُّضُ لأهمِّها، وهي المتعلقة بالطعام والماء والنار والدم. فالطعام ينبغي أن يُحضَّر وفق قواعد صارمة تمنع احتكاكه بأي مصدر للقذارة،

وينبغي أن يُؤكَل في خشوع مثلما تُؤدَّى الطقوس الدينية، لأن كل مكوِّناته هي بشكل أوبآخر من مخلوقات الله الأخرى. وأما الماء فيجب التأكد من كونه نظيفاً وطاهراً وأنه قد نُضِحَ من مصدر غير ملوث قبل استهلاكه في الشرب والطبخ والاغتسال. وفيما يتعلق بالنار المنزلية أوالنار الطقسية فإن وقودها يجب أن يقتصر على القش والعيدان والحطب وألا يُحرَق فيها الروث والقمامة وما إليها. وبدلاً من حرق فضلات المنازل فإنها تُنقَل إلى أماكن بعيدة خاصة، حيث تجري معاملتُها بالسوائل الحامضية. ويشكل الدم مصدراً للنجاسة في حال سيلانه من الجسم لأن هذا السيلان شكل من أشكال اختلال الحالة الفسيولوجية السليمة للكائن الحي وعـرضٌ من أعـراض اقتحام قوى المرض والموت. وعلى المتلوث تطهير نفسه بوسائل شتى تختلف باختلاف كمية الدم ومكان الجرح وملابسات الإصابة. وعلى النساء في زمن الطمث عدم ممارسة الطبخ والأعمال المنزلية ومراعاة عدد من قواعد الغُسل والطهارة.

وبما أنه يصعب على المرء تجنب الاحتكاك بمصادر النجاسة تجنباً مطلقاً فقد وضع فقهاء الشريعة أصولاً معينة للتطهُّر بما يتناسب مع درجة التلوث. وغالباً ما يوصى المتنجس بالاغتسال بالماء من رأسه إلى أخمص قدميه. غير أن بعض درجات التلوث تستدعي الاستعانة بالكاهن الذي يقوم بتلاوة الآيات المقدسة ويسير بالمتنجس أعبر مراحل تطهيرية متعددة قد تستمر بضعة أيام. وتَشغَل هذه الإجراءات التطهيرية وكيفية تطبيقها حيزاً من برامج إعداد وتدريب الكهنة الذين يجب عليهم أنفسهم مراعاة أدق قواعد النظافة والطهارة واصعبها.

## الزمن الكوسموغوني

سار خلق الله للكون على درجتين، الأولى تدعى مينوغ، وهي حالة من الوجود المثالي غير المتحقق في شكل مادي؛ والثانية تدعى جيتنغ، وهي حالة الوجود المادي المتحقق في أشكال ذات قوام وخواص. والحالة الثانية خيرٌ من الحالة الأولى لأنها انتقلت بالكون من حالة الهيولى إلى حالة الثبات والنظام. وهذا ما يميز خلق الله عن خلق الشيطان، وقدرة الله عن قدرة الشيطان الذي لا يستطيع منحَ ما يخلقه (القوامَ والمادةَ) ويخرج به إلى حيز الوجود الفعلي. ونحن هنا أمام رؤية فلسفية جديدة لا ترى في المادة حالة دنيا من أحوال الوجود، بل أنبل وأسمى أشكال الوجود. أما ما يبدولنا من قصور وشـواش في صيرورة العالم المـادي فليس إلا نتيجة لامتزاجه بعناصر الشر التي جاءت من الشيطان؛ وهي عناصر مؤقتة التأثير سوف يتخلص منها العالم، إنْ عاجلاً أم آجلاً. وتنعكس هذه الرؤية للعلاقة بين المادة والروح على نظرة الزردشتية إلى الإنسان في روحه وجسده. فروح الإنسان ليست أسمى من جسده، والجسد ليس منبعاً للشرور ولا رداءً مؤقتاً نسعى إلى التخلص منه من أجل الالتحاق بالعوالم الروحانية، بل هوالشرط الأمثل الذي يحقق للروح حياة ذات معنى. لذا فإن الأرواح، عندما تنفك عن أجسامها بالموت، فإنها تبقى في حالة انتظار تحن إلى الاتحاد بأجسادها من جديد في يوم البعث الأخير. من هنا

تستبعد الزردشتية كلَّ ممارسات الزهد والتقشف الهادفة إلى تعذيب البدن طمعاً في تخليص الروح من آثامه، لأن على الإنسان أن يكافح الشر بروحه وجسده معاً، وأن يبقيهما في أفضل حالة تمكِّنهما من أداء هذه المهمة على أفضل وجه.

ولقد انتقل العالم من درجة المينوغ إلى درجة الجيتنغ على ست مراحل زمنية: في البداية خلق الله السماء من صخر بلوري، ثم خلق الماء، فالأرض، فالحياة النباتية، فالحياة الحيوانية؛ وأخيراً خلق الإنسان الأول. وفيما يتعلق بالأرض – وهي بؤرة الكون – فقد أقام الله حولها سلسلة جبال شاهقة تتصل بشروش تحتية بجبل يقع في مركز الأرض يدعى جبل هارا؛ ومنه تنطلق أرواح الموتى في رحلتها إلى السماء. ثم قسَّم الأرض إلى سبعة أقاليم، جميعها أراضٍ سهلية لا التواء فيها ولا وهاد ولا تلال. أول هذه الأقاليم يدعى خافي نيراينا؛ وهووحده المأهول بالسكان، وحوله تتوزع الأقاليم الستة الأخرى. وصنع بحراً يغطي الأرض لجهة جنوبها، وفي وسطه جبل مصنوع من جبلَّة السماء. ومن البحر فجَّر نبعين غزيرين شكَّلا نهرين كبيرين هما دايتا ودانها اللذان يحدان الجهة الشرقية والجهة الغربية للإقليم المسكون. وزرع في البحر شجرة تحتوي على البذور المعروفة بأنواعها، تدعى شجرة كل البذور، وشجرة أخرى تدعى شجرة الشفاء والحياة الأبدية.

بعد انتهاء أهورا مزدا من صنع الكون قام أنغرا مانيومن فوره بالانقضاض عليه، لأن حالة الوجود المتحقق جيتنغ أكثر عرضة للتخريب والبعثرة والإفساد من الحالة غير المتحققة مينوغ.

واقتحم أنغرا مانيوالجزء الأسفل من قبة السماء فشوَّهها، ثم انتصب مثل الحية وقفز نحوتجمعات النجوم، فشتَّتها وأحلَّ الاضطراب في نظام السماء. ثم غطس في البحر، فأفسد ماءه بالملح؛ وتوجَّه نحوالينابيع، فجففها؛ وإلى السهول الخضراء، فأذبل مزروعاتها، ونشر فيها الصحارى، وبث فيها الأفاعي والعقارب وكل دابة مؤذية؛ وانقض على النار فلوثها بالدخان، وعلى الإنسان الأول فذبحه. وهكذا زرع الشيطان الموت والفساد في خلق الله. ومع أن الأميشا سبنتا قد تصدت للهجوم وباشرت إصلاح ما خربه الشيطان، إلا أن العالم لن يعود إلى سابق عهده من النقاء والطيبة لأن الفساد قد عشَّش فيه. لقد أخذ الأميشا سبنتا نبات الأرض اليابس، فطحنوه، ثم نثروه، فحملته الرياح إلى الجهات الأربع. ثم دفع الأميشا الرياح فحملت الغيوم وأنزلت المطر، فنبتت من ذرور الزرع اليابس حياة جديدة. ثم أخذوا بذور الإنسان الأول القتيل فطهَّروها بضوء الشمس وزرعوها في التربة، فخرجت منها نبتة انطوت أوراقها على الزوجين البشريين الأولين ماشيا وماشيو. وعندما افترقت عنهما الأوراق كانا ملتصقين في وضعية العناق، لا يُتبيَّن منهما الذكر من الأنثى؛ فنفخ فيهما الله روحاً، فانتصبا أمامه بشرين سويين، وقال لهما: "أنتم الإنسان، وأنتم سلف العالم. خُلقتما كاملين، فحافظا على الفكر الحسن والكلمة الحسنة والعمل الحسن، ولا تخضعا للشيطان." ثم جاء الملائكة وعلَّموهما إشعال النار واستخدامها، وألبسوهما ثياباً من جلد، وعلَّموهما استخراج المعادن وصنع السكاكين والأدوات وغير ذلك من الفنون اللازمة لحياة الإنسان.

بعد ذلك التفت الأميشا سبنتا إلى بقية مظاهر الطبيعة التي زُرِعت فيها سموم الشر لترميمها؛ ولكن أنغرا مانيولم يـترك لهم فرصة لإتمام عملهم على أحسنه، فراح يهاجم العالم بكل قواه بمعونة بقية جند الظلام؛ فجلبوا الأمراض والآلام للكائنات الحية وصنعوا كل نقيصة مادية. ثم تسلَّلوا إلى عقل ماشيا وماشيو، فزرعوا بذور كل نقيصة أخلاقية. فتصدَّى لهم الأميشا وجندهم، واستمر الصراع بين الفريقين بلا هوادة وبلا كلل. وهذا الصراع لن تكون له نتائج إيجابية إلا بعون الإنسان الذي يجب عليه أن يعي مسؤولياته الخلقية في هذه الحياة، ويدعم قوى الخير بفكره وقوله وفعله؛ فبدون عون الإنسان لن يتم حسم هذا الصراع الكوني ودفع التاريخ إلى مرحلته الأخيرة عندما تتم تنقية الوجود المادي والروحاني مما داخَلهما من خبث.

## مراحل التاريخ وظهور المخلِّص

لقد عـرف أهـورا مـزدا، الـذي يطال علمُه البدايات والنهايات، أن آخرة الشر قادمة لا ريب فيها، فوضع خطة للقضاء عليه تندرج على ثلاث مراحل، يؤشِّر كل منها لطور من أطوار الزمن.

١. فقد خلق أهورا مزدا العالم في أحسن تقويم وأطيب صورة ممكنة، واستمر على هذه الحالة ردحاً من الزمن كان الشيطان خلالها نائماً؛ وهذه هي المرحلة الأولى، مرحلة الخلق الكامل.

٢. في المرحلة الثانية يهاجم الشيطان خلق الله ويبث فيه سمومه، فيختلط الخير بالشر؛ وهذه هي مرحلة الامتزاج.

٣. في المرحلة الثالثة تبدأ عملية الفصل بين الخير والشر وتنتهي بدحر الشيطان ورهطه، ليعود الكون كاملاً وطيباً إلى الأبد، ويأتي التاريخ إلى نهايته ليعقبه زمـن سـرمـدي، لا تتناوبه المتناقضات والمتعارضات، وينتفي منه المرض والألم والحزن والموت.

ولقد ابتدأت المرحلة الثالثة بميلاد زردشت، وتأتي إلى خاتمتها بميلاد المخلِّص المدعوشاوشنياط (أوشاوشيانز) — وهوالذي يقود المعركة الفاصلة بين قوى النور وقوى الظلام. وسوف يولد المخلِّص من عذراء تحمل به عندما تنزل للاستحمام في بحيرة كانا سافا، فتتسرب إلى رحمها بذور زردشت التي حفظها الملائكة هناك إلى اليوم الموعود. وبذلك تُفتتَح حقبة التاريخ الأخير بزردشت، وتُختتَم بمخلِّص أومهدي من نسله تحمله أمه حملاً معجِزاً. وعلى الرغم من المعجزة الإلهية التي قادت إلى ولادة هذا المهدي فإنه يبقى إنساناً مولوداً من أبوين بشريين، لأن خلاص العالم في النهاية هومسؤولية الإنسان، ويقوده ابن الإنسان الذي سيعلن عن نفسه في الوقت المناسب، فيلقي الرعب في قلوب جند الظلام ويطاردهم في كل مكان ويمحوأثرَهم من الأرض.

تعود فكرة المخلص إلى أناشيد زردشت القديمة. فلقد بشَّر بقرب انتهاء مرحلة التمازج، وحلول مرحلة الفصل الأخير، وقَرَنَ ذلك بقدوم المخلِّص، وألمح في أكثر من موضع في مجموعة الغاثا إلى أنه سيأتي من بعده ليُحِلَّ الحق ويدحر البهتان. وقد دخلت هذه الفكرة في صلب العقيدة الزردشتية منذ بداياتها. ولكن الفكرة اتخذت أشكالاً جديدة

خلال الحقب اللاحقة. ففي العصر الأخميني ذكر اللاهوتيون ظهور ثلاثة مخلِّصين، وذلك في نهاية كل ألفية من الألفيات الأخيرة من عمر الزمن الأرضي. ففي نهاية الألفية الأولى يظهر المخلص المدعوأوخشيا تريتا؛ وفي نهاية الألفية الثانية يظهر المدعوأوخشيا تنيما؛ وفي نهاية الألفية الثالثة يظهر المخلص شاوشنياط، من نسل زردشت من عذراء البحيرة. لكن هذه التصورات اللاهوتية اللاحقة لم تتأصل في صميم المعتقد الشعبي، وبقي الناس مثبتين قلبهم على المخلِّص الأخير منتظرين ظهوره.

## التصورات الإسخاتولوجية (الأخروية)

يرتبط معتقد نهاية التاريخ ارتباطاً وثيقاً بمعتقد البعث والحساب والحياة الثانية. فبعد أن دخل الموت في نسيج الحياة خلال حقبة التمازج بين الخير والشر صار الموت من نصيب كل كائن حي، وبوابة عبور من حالة الجيتنغ المادية إلى حالة المينوغ الروحانية الهلامية القاصرة. فالأرواح بعد مغادرة الأجسام عقب الموت تبقى في برزخ المينوغ تنتظر يوم القيامة بشوق وترقُّب لكي تلتقي بأجسادها التي تبعث من التراب. ويحدثنا زردشت في أناشيد الغاثا عن مصير الروح بعد الموت وأحوالها إلى زمن البعث والنشور. فبعد مفارقتها الجسم تَمثُل الروح أمام ميترا قاضي العالم الآخر (وهورئيس فريق الأهورا الذين يشكلون مع الأميشا سبنتا الرهط السماوي المقدس) الذي يحاسبها على ما قدمت في الحياة الدنيا من أجل خير البشرية وخير العالم. ويقف على يمين ميترا ويساره مساعداه سرواشا وراشنواللذان يقومان بوزن أعمال الميت بميزان الحساب، فيضعان حسناته في إحدى الكفتين وسيئاته في الأخرى. وهنا لا تشفع للمرء قرابينُه وطقوسه وعباداته الشكلانية، بل تشفع له أفكاره وأقواله وأفعاله الطيبة. فمن رجحت كفة خيره كان مآله الفردوس، ومن رجحت كفة شره كان مثواه هاوية الجحيم. وبعد ذلك تتجه الروح لتعبر صراط المصير، وهوعبارة عن جسر يتسع أمام الروح الطيبة، فتسير الهوينى فوقه إلى الجهة الأخرى نحوبوابة الفردوس، ولكنه يضيق أمام الروح الخبيثة، فتتعثر وتسقط لتتلقَّفها نار جهنم. وهناك يسوم أنغرا مانيو بنفسه المذنبين سوء العذاب. أما من تساوت سيئاته وحسناته فيعبر الصراط إلى مكان وسط بين النعيم والجحيم، حيث يستمر في وجود باهت كظل شبحي بلا إحساس.

هذا وتقدِّم شروح اللاهوتيين الزردشتيين مزيداً من التفاصيل حول هذه القيامة الفردية. فبعد أن يوارى الميتُ مثواه الأخير تمكث روحه عند رأسه ثلاث ليال تتأمل في حسناتها وسيئاتها. وخلال ذلك يزورها ملائكة الرحمة إن كانت من الصالحين، أوشياطين العذاب إن كانت من الكافرين، فيسومونها سوء العذاب. وفي اليوم الرابع تُساق الروح إلى جلسة الحساب؛ وبعد اجتياز امتحان الميزان الذي يقرر مكانها تتجه إلى الصراط، وهوعبارة عن جسر يشبه السيف: فإذا كان العابر روحاً خبيثة فإن السيف يستدير بطرفه الحاد نحوالأعلى، فتخطوالروح عليه ثلاث خطوات، هي الفكر السيئ والقول السيئ والعمل السيئ، وعندما تحاول الخطوة الرابعة تنزلق إلى

مهاوي جهنم؛ أما إذا كان العابر روحاً طيبة فإن السيف يستدير بطرفه العريض لتعبره الروح إلى الطرف الآخر بسلام. وفي رواية أخرى، نجد أن الصالح، بعد خطوته الأولى على الصراط، تهب عليه ريح عطرة آتية من الجنة، وعند منتصف الصراط تظهر له فتاة في ريعان الصبا لم تقع العين في الحياة الدنيا على أجمل منها، فيسألها: "من أنتِ؟" فتقول: "أنا عملك الطيب." ثم تأخذ بيده إلى الجنة. وأما الإنسان الطالح، فبعد خطوته الأولى على الصراط تهب عليه ريح نتنة من أعماق الجحيم، وعند منتصف الصراط تظهر له عجوز شمطاء نتنة لم تقع العين على أقبح منها، فيسألها: "من أنتِ؟" فتقول: "أنا عملك السيئ." ثم تقبل عليه وتعانقه، فيهويان معاً إلى الجحيم.

يتألف الجحيم من عدة دركات، يقع أسفلها في مركز الأرض، حيث يتكاثف الظلام حتى يمكن إمساكه باليد، وحيث يتصاعد نتنٌ لا تطيقه نفس بشرية أوشيطانية. فيستقبل كل درك أهلها حسب فداحة ذنوبهم، وتُقدَّم لهم من صنوف العذاب ما يوازيها. أما السماء فتتصاعد على ثلاث درجات تقابل الفكر الحسن والقول الحسن والعمل الحسن. فالدرجة الأولى عند خط النجوم، والثانية عند خط القمر، والثالثة عند خط الشمس. فتصعد الروح هذه الدرجات تباعاً وصولاً إلى السماء العليا غارو–ديمانا، أومسكن الغناء، وهناك تقيم في بركة وسلام إلى يوم الحساب الأخير.

وبظهور المخلص شاوشنياط تحل الأيام الأخيرة وتقترب الساعة: يوم تلفظ الأرض ما أُتخِمَت به من عظام الموتى خلال مراحل التاريخ الثلاثة، ويُفرَغ الجحيم والفردوس من سكانهما ليعودوا إلى الحشر العظيم. هناك يلتقي من مات منذ آلاف السنين بمن بقي حياً إلى يوم الدينونة، ليأتي الجميع إلى الحساب الأخير. وفي ذلك اليوم، يسلِّط الملائكة ناراً على الأرض تذيب معادن الجبال وتشكل نهراً من السائل الناري ما من أحد إلا وارده. فأما الأخيار فيعبرونه كمن يخوض في نهر لبن دافئ؛ وأما الأشرار فينجرفون في التيار الذي يفنيهم ويمحوعن الأرض أثرهم بعد عذاب أليم. ويكون جند الظلام قد اندحروا في المعركة الفاصلة مع جند النور واستؤصلت شأفتهم، فيغوص في نهر النار إلى أعماق الجحيم حيث لجأ أنغرا مانيوومن بقي معه، فيلتهمهم جميعاً ويتم التخلص من آخر بقايا الشر. ويتطهر الجحيم نفسه مثلما تطهرت بقية أجزاء الكون، ويغدوإقليماً من أقاليم الأرض الزاهرة. عند ذلك يعيش الذين عبروا نهر النار سالمين في أرض جديدة وتحت سماء، هي نفس الأرض ونفس السماء وقد تطهَّرتا وصارتا نقيتين إلى الأبد. ثم يقوم أهورا مزدا بسقي هؤلاء الأخيار شراب الخلود الذي يجعل أرواحهم وأجسادهم في اتحاد أبدي، ويغدون خالدين في جنة وسِعُها السماوات والأرض، كل بقعة فيها ربيع أخضر دائم، وتحتوي على كل شجر وثمر وزهر.

## فلسفة زردشت

لقد تأمل زردشت في منشأ الشر وسبب الألم، فوجد نفسه أمام ثنائية الألوهة المشطورة. فمن ناحية يقف الإله الخير "أهور مزدا" وفي ناحية يقف الإله الشر "دروج"، ولكل من هذين الإلهين قدرة على الخلق، فكلاهما قد خلق ما شاءت له

الطبيعة من خلق تتسم بسببه هذه الطبيعة بطابع التضاد وتنقسم إلى مظهري الخير والشر.

هذه الفلسفة الزردشتية في تثنيتها ليست كالتثنية الأولى للدين المزدي، وإنما هي تثنية تنقسم إلى وحدة خيّرة تجعل المنشأ الخير وتهوي بالشر في النهاية إلى هوة العدم، ومن ثم ليست هي تثنية صحيحة بمعناها الصحيح، لأن الذي أوجد الوجود هو"الخير" وأما الشر فسيمحى وسيفنى، ولهذا تنفصل انفصالاً تاماً عن الثنائية المزدية.

إن الزردشتية هي عقيدة دينية تتمحور حول ألوهة إله واحد مطلق عالمي ومجرد، وقد جاء ذلك على صفحات الـ"أفت" حيث ينبعث صوت زردشت عبر سطور الـ"جاتها يآسنا" يناجي الإله " أهور مزدا".

إني لأدرك أنك أنت وحدك الإله وأنك الأوحد الأحد، وإني من صحة إدراكي هذا أوقن تمام اليقين من يقيني هذا الموقن أنك أنت الإله الأوحد.. اشتد يقيني غداة انعطف الفكر مني على نفسي يسألها: من أنتِ؟

ولفكري جاوبت نفسي، أنا؟ إني زردشت أنا، وأنا؟ كاره أنا الكراهية القصوى الرذيلة والكذب، وللعدل والعدالة أنا نصير! من هذه أتفكّر الطيبة التي تحوم في خاطري، ومن هذا الانعطاف الطبيعي في نفسي نحوالخير، ومن هذا الميل الفطري في داخلي إلى محق الظلم وإحقاق الحق أعرفك.

ومن هذه الانفعالات النفسية والميول الفكرية التي تؤلّف كينونتي وتكوّن كياني ينبجس في قلبي ينبوع الإيمان بأنك أنت وحدك أهورا مزدا، الإله وأنك الأوحد الأقدس الخيّر الحق!!!

تنزهت وحدانية "مزدا" عن الشرك تنزهاً إلى درجة محا معها وجود الأرباب وجعلها وهماً، هوإله لا يُسمع ولا يُرى ولا يكلّم، ولكنه يتجلى على صفحة المخيلة سيداً محاطاً بحاشية من الأرواح الطيبة أوالملائكة متفاوتة الرتب يصدر عن حفيف أجنحتها دويٌ يملأ الرحاب السماوي، وبه من كل جانب يحف، وتبرز الملائكة ككائنات مجنحة تكوينها نوري، كائنات نورية، لأنها من الإله نفسه، قد انبثقت وانتشرت في ملكوته السماوي كحاشية له وكجنود بأمره تأتمر بيده لينفرد من بينها ستة هم الرؤوس من الملائكة يحملون أسماء: العقل والحكمة والتقى والسلوك الطيب والخلود.

وهذه أسماء الصفات في الإله نفسه، منه انتشرت ككائنات نورية ولكن هذه الملائكة ليست أرباباً فلا يتجه إليها أحد بالعبادة، بل هي نفسها عابدة تتجه إلى من عليه قد قصرت العبادة.

## بعض المقولات

ومن مقولات الزردشتية: أن أول ما خلق من الملائكة (بهمن) ثم (اردیبهشت) ثم (شهريور) ثم (خرداد) ثم (مرداد) وخلق بعضهم من بعض، ويؤخذ السراج من السراج من غير أن ينتقص من الأول شيء. ومن مقالاتهم أن للعالم قوة إلهية هي المدبرة لجميع ما في العالم المنتهية مبادئها إلى كمالاتها. وهذه القوة تسمى (ماسبند) وهي على لسان الصابئة: (المدبر الأقرب) وعلى لسان الفلاسفة (العقل الفعال) ومنه الفيض الإلهي، والعناية

الربانية، وعلى لسان المانوية (الأرواح الطيبة).

## المعتقد الزردشتي

يتميز المعتقد الزردشتي بابتكاره لمفهوم الوحدانية الثنوية. وصفة الثنوية هنا لا تلغي صفة الوحدانية، لأن مفهوم الثنوية الزردشتي يقف في تعارض مع مفهوم التعددية، ولكنه لا يتعارض مع الوحدانية، بل يتلازم معها؛ ذلك أنه يقدم أكثر التفسيرات منطقية لوجود الشر في العالم. فأهورا مزدا واحد لا ثاني له في الألوهة، خالق كل ما هوخيِّر وحسن، ولكنه ليس مسؤولاً عن وجود الشر في العالم، ولم يكن ليرتضي وجوده منذ البداية؛ بل لقد سعى إلى مكافحته بكل السبل والوسائل؛ ولسوف ينتصر عليه في معركة تمتد على مدى تاريخ الكون والإنسان. وستشهد نهاية هذا التاريخ غلبة جند الحق على جند البهتان واختفاء الشيطان وأعماله إلى الأبد.

## خلق العالم الروحاني

في البدء لم يكن سوى الله — أهورا مزدا: ووجود كامل وتام وألوهة قائمة بذاتها مكتفية بنفسها. ولكن هذه الألوهة اختارت أن تخرج من كمونها وتُظهِر سواها إلى الوجود؛ فكان أول خلقها روحان توأمان هما سبنتا مانيووأنغرا مانيو. ولكي يكون لهذين الروحين وجود حقيقي مستقل عن خالقهما فقد خصَّهما الله بالحرية التي استخدماها منذ صدورهما عنه، فاختار سبنتا مانيوالخير ودعي بالروح القدس، واختار أنغرا مانيوالشر ودعي بالروح الخبيث، ثم راح يتحفز للانقضاض على خلق الله القادم ويقاوم كل عمل حسن له.

هذا الخيار البدئي كان بمثابة النموذج الأسبق لكل خيار أخلاقي لاحق يقوم به الإنسان، دونما جبرية أوقدرية من أي نوع؛ إذ إن الإنسان سوف يُخلَق حراً أيضاً، والحرية سوف تقوده إلى الاختيار؛ والاختيار هوجوهر الأخلاق. وبذلك يقوم المعتقد الزردشتي على ثلاثة عناصر رئيسية هي: الحرية والاختيار والمسؤولية الأخلاقية. إن صيرورة الوجود بكامله سوف تعتمد على كيفية استخدام الذوات الواعية من أهل السماء والأرض ولهذه المعطيات. يقول زردشت في أحد أناشيد الغاثا:

الحق أقول لكم، إن هناك توأمين يتنافسان منذ البداية. اثنان مختلفان في الفكر وفي العمل. فروح خبيث اختار البهتان وثابر على فعل الشر، وروح طيب اختار الحق وثابر على فعل الخير ومرضاة أهورا مزدا. وعندما تَجابَه الاثنان لأول مرة أبدعا الحياة ونقيضها. ولكن عندما تحين النهاية فإن من اتبع البهتان سوف يُرَدُّ إلى أسوأ مقام، ومن اتبع الحق فسوف يُرَدُّ إلى أسمى مقام.

وبعد الخيار الأخلاقي للتوأمين كان لابدَّ من تعارضهما وتصادمهما ودخولهما في صراع مفتوح. ومع أن الله كان قادراً منذ البداية على سحق أنغرا مانيوومحق الشر في مهده، إلا أنه قرر عدم التناقض مع نفسه بالقضاء على مبدأ الحرية الذي أقرَّه وأقام عليه خليقته، وآثر السير بخطته التي تقوم على مقاومة الشر استناداً إلى ذات المبدأ الذي أنتج الشر وهوالحرية. وهنا عمد، بمعونة الروح القدس سبنتا مانيو، إلى إظهار ستة كائنات نورانية قدسية إلى الوجود؛ فشكلت بطانته الخاصة التي

تحيط به على الدوام، ويُدعَوْن بالأميشا سبنتا، أي "الخالدون القدُّوسون". وقد أوجدهم الله من روحه كمن يشعل الشموع من مشعل متقد، على حدِّ تعبير أحد مقاطع الأفستا. وتدل أسماؤهم على أنهم ليسوا إلا خصائص مجسِّدة للإله؛ فهم: فوهوماناه (الفكر المستقيم)، وآشا فاهشتا (الحقيقة الناصعة)، خشاترا فاريا (الملكوت القادم)، وسبنتا أرميتي (الإخلاص)، وهورفتات (الكمال)، وأمريتات (الخلود). وقد شارك هؤلاء الخالق في ما تلا من أعمال الخلق والتكوين، وصاروا حافظين لخلق الله ووسطاء بينه وبين الناس وجميع مظاهر الوجود. ثم إن الأميشا سبنتا خلقوا عدداً من الكائنات القدسية الطيبة تدعى بالأهورا؛ فعهد إليهم أهورا مزدا بمهامهم وأوكلهم مكافحة الشر، كلاً في مجال. وبالمقابل فإن أنغرا مانيواستنهض عدداً من الكائنات المتفوقة تدعى بالدايفا، وعمد إلى تضليلهم، فانحازوا إلى جانبه وراحوا يتهيأون للانقضاض على كل عمل طيب يصدر عن الله. وبذلك تم تكوين عالم الملائكة وعالم الشياطين قبل أن يظهر العالم المادي.

فوق الروحين المتنافسين وفوق فريق الدايفا والأهورا،يسموأهورا مزدا في عليائه متجاوزاً ثنائيات الخلق؛ ولكنه يعمل، في الوقت نفسه، على دعم قوى الخير لتدخل في منافسة عادلة مع قوى الشر. ونقرأ في نشيد آخر من أناشيد زردشت المدعوة بالغاثا:

هذا ما أسألك عنه فصدقني بالخبر يا أهورا مزدا.

من هوأبوالحقيقة منذ أقدم الأزمان؟

من رسم للشمس مسارها وللنجوم؟

من جعل القمر يتناقص ويتزايد – مَن إن لم يكن أنت؟

هذا ما أسألك عنه فصدقني بالخبر.

من يمسك الأرض ويرفع السماء من فوقها فلا تقع؟

من فرش الزرع وأجرى الماء؟

من قَرَن جياداً مطهَّمة إلى عربة الريح وعربة السحاب تجرها؟

من خلق الأفكار الخيِّرة – من إن لم يكن أنت؟

هذا ما أسألك عنه فصدقني بالخبر، أيها الإله الحكيم:

أيَّةُ صَنعة مبدعة خلقتْ الصحووالنوم؟

من سخَّر الليل والصباح والظهيرة تذكرة للناس بمهامهم؟

من سخَّر البقر والأنعام لرخاء الناس؟

من يزرع في القلب احترام الوالدين؟

إني أسألك، أيها الإله الحكيم، لأنشر معرفتك بين الأنام.

فأنت العقل الطيب وخالق كل شيء.

بعد أن تأسَّس الشر على المستوى الروحاني عرف أهورا مزدا أن القضاء على الشيطان وأتباعه لن يتيسر قبل خلق العالم المادي، لأن عالم المادة سيكون بمثابة المسرح المناسب للصراع بين جند الحق وجند البهتان. ولسوف يعمد أنغرا مانيوإلى مهاجمة خلق الله بكل ما أوتي من قوة لأنه خلق طيب وحسن. ولكن هذا الهجوم سوف يفتُّ في عضده تدريجياً، حتى يفقد قوته وسلطانه في آخر الأمر، ويُحسَم الصراع لصالح الخير في نهاية

التاريخ. عندئذ يتم تخليص الكون إلى الأبد من شوائب الشر ليعود كوناً حسناً وطيباً إلى الأبد.

## النفس البشرية

تنقسم النفس البشرية إلى قسمين ما دام الإنسان دون الكمال فهوأيضاً دون النقاء *:

١. سبتامينو( القوة المقدسة " الطاقة المدركة" "أنا العليا" بمفهوم فرويد.تدعم هذه القوة سبع فضائل عليا " هي الحكمة والشجاعة والعفة والعمل والإخلاص والأمانة والكرم. هذه الفضائل بمثابة الملائكة. تدفع هذه الفضائل القوة المقدسة النفس البشرية إلى الخير والنور والحياة والحق.

٢. أنكرة مينوا : "القوة الخبيثة " " الطاقة غير المدركة" الخافية بمفهوم يونغ. وتساند هذه القوة سبع رذائل هي النفاق والخديعة والخيانة والجبن والبخل والظلم وإزهاق الروح وهي بمثابة شياطين. وتدفع هذه القوة الخبيثة المتكونة من النقص في النفس البشرية إلى الشر والظلام والموت والخداع، ويبقى هذا الصراع قائماً بين هاتين القوتين داخل النفس البشرية إلى أن يصل الإنسان إلى النقاء، يقول زردشت في الأفستا، ترنيمة ٣\٣٠ " منذ البدء أعلن الروحان التوأمان عن طبيعتهما —الطيب والشرير -بالفكر والكلمة والفعل- بينها يختار الرجل الحكيم جيداً ولا يفعل هكذا الأحمق ". وحثت الزردشتية الإنسان على معرفة نفسه ليصل إلى ذاته ودعته أن يوحد فكره وقوله وفعله : مينش، كونش، كونيش، فالفكر الصادق والقول الطيب والعمل الصالح أمهات الفضائل التي تخرج الإنسان عن انفصامه وتوصله لذاته.

## مميزات الزردشتية وخصائصها

قدمت الزردشتية عدداً من الأفكار الجديدة على تاريخ الدين، بعضها ما زال فاعلاً ومؤثراً في الحياة الروحية لمليارات البشر في شتى أنحاء المعمورة، وأهمها:

١. التاريخ الدينامي: حيث يسعى الزمن بين بداية محددة، هي زمن الخلق والتكوين، ونهاية محددة، يعقبها تحويل كامل للوجود بأسره إلى مستوى ماجد وجليل يليق بخلق الله. ففي مقابل مفهوم التاريخ المفتوح للديانات الشرقأوسطية، والتاريخ الدائري المغلق للديانات الهندية والشرقأقصوية، قدم زردشت مفهوماً عن تاريخ ذي معنى، يسعى أبداً نحوغاية مثلى يحققها الكون والطبيعة والمجتمع الإنساني من خلال عملية تطوير وتطهير دائبة ومتصاعدة.

٢. الطبيعة الأخلاقية للوجود: فالإله الأعلى إله أخلاقي، والعلاقة بين الله والإنسان علاقة أخلاقية بالدرجة الأولى. أما الطقوس والعبادات فليست وسيلة لإظهار الخضوع للخالق، بل هي تنقية للنفس من شوائب الشر وتقويتها على مقاومته. ثم إن الأخلاق تتجاوز علاقة الله بالإنسان وعلاقة الإنسان بأخيه، لتغدومبدأ مزروعاً في صميم الخليقة بأكملها. فالكون ذومعنى أخلاقي، وصيرورة الوجود قد اكتسبت طابعاً أخلاقياً منذ البداية.

٣. تعاون الله والإنسانية: الإنسان شريك الله في المشروع الكوني الرامي إلى مكافحة الشيطان واستعادة كمال البدايات. إن أقصى ما يصبوإليه

الإنسان في ديانات الشرق القديم هواكتناه مشيئة الآلهة والتطابق معها خلال حياة لا معنى لها ولا غاية وزمن مفتوح على اللانهاية. وأن أقصى ما يصبوإليه الإنسان في ديانات الشرق الأقصى هوفهم العالم وليس إصلاحه. فالعالم غير قابل للإصلاح، وهويسير وفق قوانين أزلية ثابتة في دورة تكرارية أزلية–أبدية. أما الزردشتية فترى أن العالم قابل للإصلاح والتغيير بشكل جذري؛ ومسؤولية هذا الإصلاح تقع على عاتق الإنسان بالدرجة الأولى.

٤. وحدانية الإلـه: على الرغم من وجود اتجاهات توحيدية واضحة في الديانات السابقة على الزردشتية، سواء في مصر أم سورية وبلاد الرافدين، فان زردشت كان أول من قدم مفهوماً صافياً عن التوحيد وصاغه في عقيدة متماسكة ومتكاملة.

٥. أصل الشر وفكرة الشيطان: مع وجود الكائنات الماورائية الشريرة في جميع المعتقدات الدينية عبر التاريخ، بأن زردشت كان أول من تصور وجود مبدأ كوني للشر، هوعلة الفساد والنموذج البدئي لكل الشرور المتبدِّية في العالم، وجسَّد هذا المبدأ في شخصية ماورائية كبرى. وبذلك قدمت الزردشتية أول تفسير مقبول لوجود الشر في العالم. وعلى رغم من قوة الشيطان ومنازعته الرحمن في السلطةَ على العالم، إلا فهو ليس إلهاً أزلياً ولا خالداً، ولسوف يؤول إلى الخسران أخيراً. وبذلك يكون المعتقد الزردشتي ثنوياً في نظرته إلى العالم في حالته الراهنة التي تمتزج فيها عناصر الخير بعناصر الشر، وتوحيدياً صافياً في نظرته إلى جوهر الكون وحقيقته ومآله.

٦. حرية الإنسان: عندما خلق الله الكائنات السماوية والكائنات البشرية وَهَبَها الخاصية الأساسية التي تميز الوعي عن المادة الجامدة، وهي الحرية، لأن الوعي بدون الحرية ليس إلا شكلاً آخر من أشكال وجود الجمادات. فالإنسان مخيَّر في حياته ولا يخضع لأية جبرية. وحريته هذه تستدعي مسؤوليته، وتستدعي في النهاية محاسبته، لأن كل مسؤول محاسَبٌ؛ ولا حساب حيث لا مسؤولية.

٧. مفهوم الإنسانية: لأول مرة في تاريخ الفكر الإنساني يظهر في الزردشتية مفهوم واضح عن «الإنسانية». فالإنسانية ليست تجمعاً لأفراد يُعنى كلٌّ منهم بمصيره ويسعى لخلاص خاص به، بل هي مجتمع موحَّد بجميع فئاته وقومياته وأقاليمه، يؤدي دوراً واحداً في حركة التاريخ ومآله.

٨. المسيائية: يتوَّج كفاح الإنسانية ضد الشر بظهور المخلِّص. وهذا المخلِّص، مع تفوقه وكماله، هو إنسان حقيقي، ومن أبوين بشريين، على رغـم من ميلاده الإعـجازي من بذور زردشت المحفوظة في البحيرة. إنه، بشكل ما، نموذج الإنسان الأسمى الذي أنتجته الإنسانية عبر مخاضها الطويل لكي يتوِّج مهمتها. هذه التصورات الدينية المتعلقة بالمخلِّص المنتظر دُعِيَت لاحقاً بـ»المسيائية»، نسبة إلى كلمة مسيَّا، وهي كلمة آرامية–عبرانية تعني المسيح المنتظر في آخر الدهر.

٩. مصير الروح: تشبه التصورات الزردشتية حول مصير الروح التصورات الأوزيرية في الديانة المصرية إلى حد بعيد. فـأرواح المـوتـى تغادر

أجسامها بعد الموت لتتجه إلى مكان الحساب حيث توزَن حسناتُها وسيئاتُها: فإما إلى نعيم وإما إلى جحيم. ولكن الأوزيرية لم تربط مسألة الثواب والعقاب بتصور واضح عن حركة التاريخ لأنها رأت في الزمن سيالة مفتوحة على اللانهاية، شأنها في ذلك شأن بقية المعتقدات الشرقأوسطية. أما الزردشتية فقد وضعت فكرة الثواب والعقاب في سياقٍ مفهوم ومتَّسق عن تاريخ دينامي ذي معنى وغاية، وربطتْها بمفهوم الحرية والمسؤولية؛ وربطت مسألة الخلود بالتصورات الآخروية عن نهاية الزمن وتجديد العالم.

١٠. نهاية الزمن وتجديد العالم: ليست فكرة فناء العالم وتجديده بالفكرة الغريبة تماماً في تاريخ الدين. ففي العديد من ميثولوجيات العالم القديم نجد أن العالم يفنى إما بطوفان شامل أوبنار سماوية، ثم يعود سيرته الأولى. وفي الهندوسية يتم تدمير العالم وإعادة خلقه عقب كل دورة كونية كبرى. ولكن جديد الزردشتية هوتقديمها، لأول مرة، مفهوماً عن نهاية العالم مرتبطاً بنهاية الزمن ونهاية التاريخ. فالعالم لا يفنى لكي يعود سيرته الأولى ضمن نفس الزمن الخطي أوالزمن الدوري التناوبي، لأن نهاية العالم تعني في الزردشتية تغييره جذرياً والخروج به من الزمن ومن التاريخ إلى السرمدية. يضاف إلى ذلك أن تجديد العالم يترافق مع البعث العام للأجساد وعودة الأرواح للقاء أجسادها والاتحاد بها اتحاداً أبدياً لا ينفصم – وهي فكرة جديدة كلياً على تاريخ الدين.

## القيامة حسب الديانة الزردشتية

في المعتقد الرزادشتي سيظهر ثلاثة منقذين (مخلصين) احدهما ظهر قبل ظهور زردشت بـ(١٠٠٠) عام ، أما الثاني فيظهر بعد زردشت بـ(٢٠٠) عام والثالث بعد (٣٠٠٠) عام وأسماؤهم على الشكل الآتي:

اولا: (هوشيدر) ظهر قبل زردشت بالف عام.

ثانيا: (هوشيدرماه) يظهر بعد زردشت بالفي عام.

ثالثا: (سوشيانس) سيظهر بعد زردشت بثلاثة الاف عام وهوالذي سيثبت العدل في الدنيا بعد ظلم يطول امده، وفي روايات يقال أنه هوالمسيح الذي سيظهر مجددا بعد صعوده الى الرب بعد أن ينال العذاب.

الديانة الزردشتية تعتقد بالروح ووجودها، ويعتقدون أن الفاني هوالجسد وليس الروح، وأن الروح سيبقى في منطقة وسطى بين النار والجنة في منطقة يدعى البرزخ، وأن أعتقادهم راسخ بالجنة والنار والصراط وميزان الاعمال أما بالنسبة للجحيم في الديانة الزردشتية فهي تختلف في وصفها عن الاديان الاخرى ، حيث يعتقد معتنقوا الديانة الزردشتية أن الجحيم عبارة عن منطقة باردة وفيها أنواع من الحيوانات المتوحشة التي سوف تعاقب المذنبين بما اقترفت يداهم من إثم في الدنيا.

## الخاتمة

فيما مضى تناولنا بشيء من الاسهاب النشاة التاريخية والاجتماعية لزردشت والزردشتية وتطرقنا الى الموضوعات التي تتمحور حولها الزردشتية من طقوس وعبادات ونشاة الكون وخلق البشرية والعالم الروحاني والجسدي واتلاسس التي تقوم عليها الزردشتية فضلا عن ازالة عدة شبهات وشوائب اثيرت حول الزردشتية والصقت بها باطلا.

وقد اعتمدنا على بحوث ومصادر علمية موثوقة وتوصلنا الى انه وإن لم يكن زردشت نبيا فانه بلا شك حكيم ومصلح وهب حياته ووقته وراحته لجعل العلام افضل مما هوعليه وحاول ان يغرس السعادة في نفوس الناس وان يعلمهم كيفية العيش في بينهم بلا نزاعات وخصومات وان يرصوا صفوفهم كي يكونوامتحدين ومتاخين في مواجهة المصائب وتحديات الحياة القاسية.

فضلا عن هذا اذا ما تاملنا في نصوص الديانات الموجودة في وقتنا الحاضر نرى أنها تاثرت بصورة مباشرة ام غير مباشر بالزردشتية.

وتوضح وتبين لنا ان زردشت كان كرديا وان الديانة اوالفلسفة الزردشتية هي جزء لا يتجزا من تاريخ الكوردولا تمت الى الفارسية بأي صلة سوى انهم يدعون انها تعود اليهم ودعواهم هذه تفندها الحقائق التاريخية الموجودة والموثوقة والتي عرضناها انفا.

وعسى ان اكون قد اضفت جديدا وملأت فراغا واسهمت بمعرفة تحسب لنا ولا تحسب علينا..

## المصادر:

### باللغة الكردية

١- (پیرشالیاری زەردەشتی) نووسینی محەممەد بەهائودین مەلا صاحیب (دانای هەورامی).

٢- (مێژووی ئەدەبی کوردی) چاپی دووەم، نووسینی (عەلائوددینی سەجادی).

٣ - (خولاصەیەکی تاریخی کورد وکوردستان)، نووسینی محەممەد ئەمین زەکی بەگ.

٤- (کوردو باکوری کوردستان لەسەرەتای مێژووەوە هەتا شەری دووەمی جیهانی نووسینی محەممەد رەسوول هاوار.

٥- بروانە کتێبی (ایران فی عهد الساسانیین) نووسینی (کریستنسن، وەرگێرانی یحیی الخشاب.

٦- (خولاصەیەکی تاریخی کوردو کوردستان نووسینی (محەممەد ئەمین زەکی بەگ).

٧- (مێژووی وێژەی کوردی، نووسینی د.صدیقی بۆرەکەیی.

٨ -ئاوێستا، توێژینەوە ولێکۆلینەوەی (د.جلیل دوستخواه).

٩- (پەیامی هەورامان نوسینی (هادی بەهمەنی).

١٠- مێژووی ژیانی زەردەشت، نووسینی عەبدولا موبلغی ئابادانی- وەرگێرانی وریا قانیع.

**باللغة العربية**

١- (مروج الذهب ومعادن الجواهر) (ابوالحسن علي بن حسين المسعودي).

٢-موسوعة، تاريخ الحضارات العام، منشورات عويدات، بيروت، م١، إشراف موريس كروزيه، نقله إلى العربية فريد م. داغر، وفؤاد ج أبوريحان.

٣- البستاني، بطرس، دائرة المعارف، بيروت، دار المعرفة.

٤- مظهر، سليمان، نيبال، مجلة العربي، الكويت، العدد ٣٢٦، السنة ٢٩، كانون الثاني ١٩٨٦م.

٥- ديورانت، ول، قصة الحضارة، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود، بيروت، دار الجيل، ١٩٨٠.

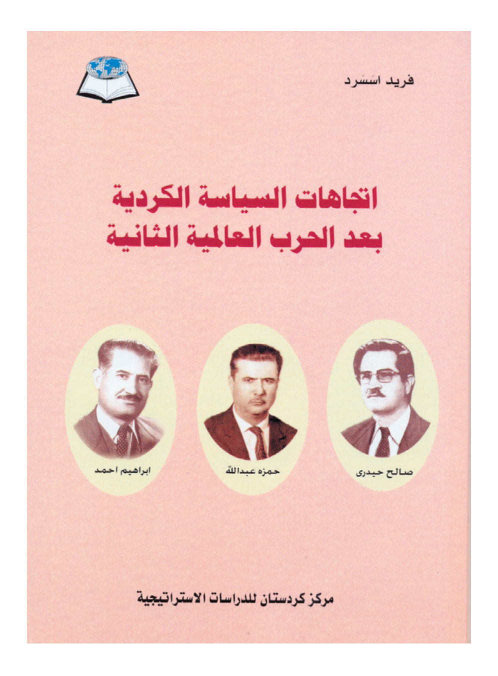
٦- شلبي، الدكتور أحمد، أديان الهند الكبرى، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط٨، سنة ١٩٨٦،

٧- شلبي، الدكتور عبد الرؤوف، الأديان القديمة في الشرق، بيروت، القاهرة، دار الشروق، ط٢، سنة ١٩٨٣م.

٨- حميد، فوزي محمَّد، عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، ليبيا، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، سنة ١٩٩١.

٩- لسحمراني، د أسعد، من قاموس الأديان، بحث البوذية، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

٩- هكذا تكلم زردشت، فردريك نيتشه، دار الجيل، بيروت لبنان ١٩٩٠.








# الحركة الكوردية
## بين خداع صدام حسين وخذلان شاه إيران
## (أضواء على اتفاقية الجزائر في عام ١٩٧٥ خلفياتها وأبعادها)

**بقلم: عبدالرزاق محمود القيسي**

نتناول هنا الانقلاب الجذري الذي اصاب الاوضاع الكردية في العراق، وقد جاءت نتيجة افرازات الاتفاقية التي ابرمها صدام حسين مع شاه ايران (محمد رضا) باعتباره نائبا للرئيس العراقي احمد حسن البكر، إذ كان صدام هو الرجل القوي والمحرك الرئيس لسياسة العراق منذ ذلك الوقت وقبله. وقد وقع الاثنان الاتفاقية اثناء انعقاد قمة منظمة الدول المصدرة للنفط (اوبك) في الجزائر عام ١٩٧٥ وبمسعى الرئيس الجزائري في حينه هواري بومدين.

لقد كان صدام حسين وراء سياسة المخادعة التي سارت عليها الحكومة البعثية منذ استلامها السلطة على اثر الانقلاب الذي قام به البعثيون في السابع عشر من تموز عام ١٩٦٨، وكان من بين من شاركوا في انجاح ماحصل في السابع عشر من تموز عام ١٩٦٨، بالاضافة الى البعثيين وبعض الفئات الثانوية الأخرى، اثنان من المعروفين بميولهم اليمينية وهما كل من عبدالرزاق النايف وابراهيم الداوود يؤازرهما عدد من الضباط الشباب ذوي التوجهات اليمينية. أما الرئاسة فقد آلت الى أحد قدامى اليساريين المعتدلين وهو أحمد حسن البكر وأصبح عبدالرزاق النايف رئيسا للوزراء، وقد أعلن عن نيته ايجاد حل للقضية الكوردية وطلب ترشيح اثنين من الشخصيات الكوردية لتولي

مناصب وزارية في وزارته، ولكن قبل ان يتمكن الملا مصطفى البارزاني من تعيين مرشحيه، قام صدام حسين وبإسم احمد حسن البكر بتنحية عبدالرزاق النايف وبطانته من الضباط اليمينيين الشباب والقى القبض عليه ثم ابعد بعد ذلك الى المغرب سفيرا للعراق هناك. أما ابراهيم الداوود، الذي اشغل منصب وزير الدفاع لمدة وجيزة، فقد ألقي القبض عليه كذلك ليرسل بعد ذلك سفيرا الى روما. لقد حصل ذلك في الثلاثين من شهر تموز ذاته، اي بعد اسبوعين فقط من الانقلاب الذي حصل ضد عبدالرحمن عارف. وتشكلت حكومة جديدة كانت تمثل تيارا يميل، بعض الشيء، نحو يسار الوسط (كما قرأته بعض الجهات المتابعة لشؤون الشرق الاوسط) وسوف يتضح لاحقا. أن توظيفا غير محدد الملامح مثل هذا، لايمكن ان يرسم صورة واضحة للقوى التي تمكنت في النهاية من الامساك بزمام الامور في العراق.

كان عراق الستينات في حالة يرثى لها مقارنة بباقي شعوب الشرق الاوسط، فقد كان يمتلك امكانيات كبيرة، ولكنها غير مستغلة، ضمن مناطقه الشمالية، ليس حقول النفط المحيطة بكركوك فحسب وانما كذلك مصادر مياه هائلة يمكن استغلالها في توليد الطاقة الكهربائية بالاضافة الى مايمكن ان تنتجه من القمح (في منطقة الجزيرة والسهول الممتدة من شمال بغداد حتى جبال كوردستان العراق) والامكانيات الضخمة المتاحة له في التوسع في انتاج افخر انواع الرز في مناطق اهوار جنوب العراق. مع العلم ان عدد نفوس العراق آنذاك كان في حدود اثني عشر مليون نسمة وهو عدد غير كبير مقابل مالديه من خيرات، ومع كل هذا فإنه كان مختلفا عن جارته ايران في مجالات التطور ولم ينجح في توظيف الامكانات البشرية المتاحة له.

بعد أشهر من استيلاء أحمد حسن البكر وجناح يسار الوسط من حزب البعث على الحكم في العراق في تموز من عام ١٩٦٨، قاموا باثارة عاصفة من الجدل وذلك عندما اعلنوا في التاسع عشر من كانون الثاني عام (١٩٦٩) عن القاء القبض على تسعة عشر فردا من المتآمرين اليمينيين وتم اعدام ستة عشر منهم بعد مدة. كان جوهر المؤامرة تلك، وحسب زعم البعثيين، يرتكز على محاولات يقوم بها اعداء خارجيين (وبالاخص ايران واسرائيل) لتعطيل دور العراق في الحرب ضد الصهيونية وذلك عن طريق ارهاق قواته المسلحة في حملات متعاقبة ضد الكورد. وطالت تلك الادعاءات البعثية شاه ايران متهمة إياه بالعمل على إثارة الشيعة في جنوب العراق (اخوانهم في المذهب) ضد الحكومة المركزية في بغداد. لقد اثارت، تفاصيل تلك المؤامرة المزعومة، وتشعباتها حفيظة جميع الفئات تقريبا. ولم يقم البعثيون بتوجيه الاتهامات الى الافراد والفئات الصغيرة غير المؤثرة، الذين جرت ملاحقتهم على نطاق واسع، فقط، وانما طالت الاتهامات شخصيات سياسية عراقية تحظى بأعلى مراتب التقدير والاحترام في جميع الاوساط العراقية وحتى في الدوائر الاقليمية والعالمية ومنهم عبدالرحمن البزاز، رئيس الوزراء (المدني) في زمن عبدالسلام عارف، الذي بعد اتهامه اختفى ومن

المرجح انه قد اصبح قيد الاعتقال حتى قبل الاعلان عن تآمره (المزعوم) على الملأ. وكذلك الحال بالنسبة الى عبدالعزيز العقيلي وزير الدفاع السابق في حكومة عبدالرحمن البزاز، الذي كان مرشحا لرئاسة الجمهورية بعد مقتل عبدالسلام عارف في حادث سقوط مروحية كانت تقله. كانت هاتان الشخصيتان، وبعد حادث الطائرة المروحية التي أودت بحياة عبدالسلام عارف، في نظر العديد من كبار المراقبين الغربيين تعدان من اكثر الشخصيات العراقية اتزانا على ساحة الاحداث. وطالت الاتهامات حتى الرئيس المخلوع عبدالرحمن عارف مدعية ارتباطه بوكالة المخابرات المركزية الامريكية (C I.A). وتوسعت الاتهامات لتشمل شرائح واسعة من المجتمع العراقي مدعية بانها كانت تتقاضى مبالغ مالية من وكالة المخابرات المركزية (C I.A). ان الامر في غاية الغرابة، فليس من الطبيعي او المعتاد ان تقوم اية حكومة بتوجيه مثل هذه الاتهامات وبمثل هذه الأبعاد الكبيرة لتعلن تغشيا كاسحا للفساد الاداري الرسمي، الا اذا كانت ماترمي اليه هو ابعد من ذلك. إن من الاسباب الكامنة وراء هذا الحشد الكبير من الاتهامات الموجهة نحو فئات واسعة من افراد الشعب وبالأخص من منتسبي دوائر الدولة، هو ايجاد الذريعة كي تقوم حكومة البعث الجديدة باجراء غربلة تقصي بموجبها العناصر التي لا تريد ان تبقى في مناصبها الحكومية لتحل محلها عناصر من كوادر الحزب دون النظر الى الكفاءة او الاهلية، وهذه حقيقة ماحصل فعلا. أما فيما يتعلق بالبعثيين فإن المؤامرة كانت حقيقية. لأن هذا مايقوله قادتهم، وان هدف المتآمرين هو القاء العراق ثانية في احضان الحلف المركزي (السينتو-Cinto). وكان من الممكن ان تمر جميع هذه الاحداث دون ان تثير انتباه احد، ولكن ماكشف عنه تقرير استخباراتي صادر عن لجنة مجلس الشيوخ الامريكي والمعروف بـ»تقرير بايك- Pike Report" وذلك في عام ١٩٧٦، وورد فيه مايشير الى ان وكالة المخابرات المركزية (C I.A) قد دعمت التمرد المسلح الكوردي في شمال العراق أعاد الى الاضواء الاتهامات العراقية السابقة حول نفس الموضوع. وفي الاساس كانت الحكومة العراقية تدعي ان وكالة المخابرات المركزية واسرائيل وايران قد تآمرت في سبيل اضعاف الحكومة العراقية واستنزاف قدرات القوات المسلحة العراقية وذلك بإثارة تمرد في كردستان العراق، ويكون الكورد، في هذا التآمر بمثابة (ماشة النار التي تثار بها الحجرات وتؤجج النيران) ومعولا للهدم تمهيدا لتمكين العناصر اليمينية في العراق من استعادة السلطة، وعندئذ سوف يكون في مقدور قوى اليمين أن تعيد العراق الى حضيرة الحلف المركزي (السينتو) ثانية.

لم يكن من المتوقع ان يقوم نظام البعث بمحاولة جادة لايجاد حل سلمي للقضية الكوردية، وما جرى فعلا هو ان البعثيين، وبعدما استلم الجيش العراقي شحنة كبيرة من الاسلحة من الاتحاد السوفيتي، قاموا في كانون الثاني من عام ١٩٦٩ بشن هجوم واسع في كوردستان العراق بقوات قوامها ستين الف رجل. كانت تلك الحركات العسكرية تشكل الحشد الاكبر للقوات

التي ارسلت من قبل الحكومة ضد الكورد لقد كان الملا مصطفى وقوات البيشمركة على علم مسبق بهذا الهجوم وكانوا متهيئين لملاقاته –ولكن ليس بإمكان عشرة آلاف مقاتل كوردي بأسلحة خفيفة وفي أحسن الظروف مع بعض الاسلحة المتوسطة او المضادة للدروع من الوقوف في وجه ستين ألف جندي مدرب يمتلك مختلف انواع الاسلحة الثقيلة من مدفعية ودروع تسانده قوة جوية لايستهان بها. قام الجيش العراقي عند بداية الحركات بضرب كل من راونـدوز وبنجوين في محاولة لشطر القوات الكوردية الى قسمين وذلك بالتقدم مباشرة من بغداد مخترقا المناطق الكوردية صوب راونـدوز، وعلى امل ان تقوم قطعات الجيش، بعد وصولها راوندوز، بالتقدم بمحورين، شمالي وجنوبي بمحاذاة الحدود مع ايران لكي تتمكن تلك القطعات، وحسب ما كان مؤملا، من الاحاطة بالمقاتلين الكورد. ان محض الكثرة العددية وحجم القوة النارية اللذين يمتلكهما الجيش العراقي كادا ان تؤديا الى الحاق الهزيمة بالكورد، وكما يقول المثل: ان الكثرة تغلب الشجاعة. لقد تساقطت بايدي قوات الحكومة، وبشكل متواتر بلدات مثل بنجوين وقلعة دزه والتي لم يسبق ان سيطرت عليها قوات الحكومة من قبل. في حين جرى دفع قوات البيشمركة بعنف صوب الحدود الايرانية فإن قوات الجيش لم تتمكن من القضاء عليهم بشكل تام، حيث انهم قاموا بالانسحاب وهم يقاتلون، وقد كان هذا التقهقر القتالي كافيا لتوجيه ضربة قاتلة الى هجوم قوات البعثيين. وبحلول الشهر التالي، توقف الهجوم قبل ان يحقق اهدافه، وجاء ذلك بسبب كثرة الثلوج والبرد القارس في حين كان الملا مصطفى البارزاني ومقاتلوه لايزال بمقدورهم الاستمرار في المقاومة ولم يكن البعثيون يأملون بعمل المزيد من الانجازات العسكرية.

وبفقدان زخم هجوم قوات الحكومة فقد اصبح الكورد على استعداد لحصد مايمكن ان ينالوه من جراء وقف القتال –لقد كان مجرى الامور يسير دوما بهذا المنحى وهو ما يقول عليه الكورد. ان اول بشائر هذا الحصاد قد جاء، على مايبدو، من أن البعثيين قد تعلموا درسا، كانت الانظمة الحاكمة في السابق لا تقبله. ففي عام ١٩٧٠ قدمت الحكومة العراقية، التي كان يرأسها احمد حسن البكر، مقترحا من خمسة عشر نقطة من اجل التوصل الى تسوية للقضية الكوردية، ويعد هذا المقترح هو اقصى ماعرض لحد الآن. اما أهم هذه البنود او التنازلات التي كانت الحكومة المركزية على استعداد لتقديمها للكورد، فهي كما يأتي:

١-تعيين نائب كوردي لرئيس الجمهورية.

٢-الاقرار بأن اللغة الكوردية هي إحدى اللغتين الرسميتين في المناطق الكوردية –اي الى جانب اللغة العربية.

٣-يتم تمثيل الكورد في الحكومة (مجلس الـوزراء) والجيش والشرطة ودوائـر القضاء وفي الجامعات بنسبة تتفق وعدد الكورد ضمن نفوس العراق.

كان مثل هذا العرض، لو طبق حقيقة ودون تسويف وتحريف وخديعة، لايبتعد كثيرا عن منحهم حكما ذاتيا كاملا وهو في الواقع كان مطلب

الكورد، وقد جاءت هذه النقاط فعلا تحت مايسمى بمنطقة الحكم الذاتي. ان توجه البعثيين صوب خيار السلام والمفاوضات بدلا من العنف والقتال في حل القضية الكوردية كان ارتدادا غير اعتيادي وغير متوقع، وقد اصبحوا الآن ميالين نحو قبول اغلب ماكان يريده الكورد. ان احد التفسيرات حول هذا التبدل في السياسة، حيث يسترعي الانتباه، هو أن الحكومة العراقية كانت في عام ١٩٧٠ بحاجة ماسة الى المزيد من الاصدقاء بعد ان اصبح لديها عدد هائل من الخصوم والاعداء من كل حدب وصوب. واذا ما اخذنا في حساباتنا ان العراق هو الوحيد من بين الدول العربية، التي شاركت في الحرب ضد اسرائيل في عام ١٩٦٧، ولم يوقع على الهدنة وايقاف اطلاق النار، لذا فانه من الناحية الشكلية، على الاقل يعد مستمرا في حالة حرب مع الكيان الصهيوني. وبالاضافة الى ذلك فإن العراق كان في نزاع مع جارته سوريا، التي هي الاخرى في قبضة البعثيين (الآخرين) حيث ان من المحتمل جدا ان تكون لسوريا يد في تخريب خط انابيب النفط من حقول نفط كركوك الى ميناء بانياس السوري على ساحل البحر الابيض المتوسط، وهو ميناء التصدير الوحيد، في حينه، لنفط العراق. ولم يجر اصلاح خط الانابيب هذا، الامر الذي دفع العراقيين، في نهاية الامر، الى المباشرة بمد خط انابيب جديد عبر تركيا الى ميناء جيهان التركي، ولايزال هذا الخط عاملا لحد الآن. اما في الجنوب فإن العراقيين كانوا يتنازعون مع الكويت حول السيادة على جزيرتين صغيرتين عند مدخل ميناء ام قصر، الذي هو الميناء العراقي المهم على الخليج. وكان سلطان عمان غير راض عن دعم العراقيين للثوار الذين يقاتلون ضده في المناطق الجبلية لتلك السلطنة. اما المملكة العربية السعودية فكانت لا تثق كثيرا بنوايا البعثيين الذين يحكمون العراق وتزايد تقاربهم التجاري وتعاونهم الفني والعسكري مع الاتحاد السوفيتي ولكن كان اخطر اعداء حكام العراق هو شاه ايران.

وعندما ظهر ان الحكومة العراقية قد اصبحت، في عام ١٩٧٠ على استعداد لاجراء مباحثات رامية الى الانهاء السلمي للمسالة الكوردية فإن شاه ايران حذر الولايات المتحدة من مغبة مثل هذا الانهاء وان عملا كهذا سوف يصب في صالح الاتحاد السوفيتي. ومن الطروحات، التي قيل ان الشاه قدمها، هو أن العراق قد يمثل حصان طروادة والنفق الذي عن طريقه سوف يتمكن السوفيت من التسلل والنفوذ الى المنطقة وتأمين موطيء قدم لهم على سواحل الخليج، وكان يرمز لمثل هذا الأمر بالوصول الى المياه الدافئة. كان نظام البعث في العراق، كما يراه شاه ايران عميلا للاتحاد السوفيتي، وذلك بناء على حقيقة كون حكومة العراق، آنذاك، كانت تميل كثيرا باتجاه المعسكر الشرقي، اي الاتحاد السوفيتي وكتلة الدول الاشتراكية. وفي ذلك الوقت تمت ادانة العرب للولايات المتحدة على انها كانت وراء الاذلال الذي طال الامة العربية إبان هزيمة (نكبة) عام ١٩٦٧ وبسبب تلك الحرب كان العراق قد قطع علاقاته الدبلوماسية مع الولايات المتحدة. لقد استفاد الاتحاد السوفيتي من التعاطف الغربي مع اسرائيل وجنى ثمار ذلك الوضع بالحصول

على بعض الامتيازات والميل نحو من قبل بعض الانظمة العربية ومنها بالطبع وعلى رأس القائمة، العراق. لقد ابرم العراق مع الاتحاد السوفيتي ودول اخرى من المعسكر الاشتراكي صفقات وعقود كثيرة وخاصة في مجال الصناعات النفطية المختلفة وفي مشاريع صناعية وتنموية عديدة، وقام بتسليح قواته المسلحة بمختلف انواع الاسلحة الروسية الصنع واشترى احد الانواع المتيسرة من دبابات (T-٣٤) و (T-٥٥) و مدرعات ومدفعية وراجمات وطائرات قاصفة من طراز (Tu-٢٢) وطائرات هجوم ارضي نوع (Sukoi-٢٠) والطائرات الاعتراضية (Mig-٢٣). لقد صحب هذه الصفقات استقدام حوالي الف خبير وفني روسي للعمل في حقول النفط وتم توظيف خبرات ثمانية آلاف مستشار عسكري في مختلف المجالات وتوزعوا على كافة وحدات الجيش والقوة الجوية بمن فيهم طيارون لتدريب الطيارين العراقيين. إن مثل هذه الاجراءات قد مكنت السوفيت من احكام قبضتهم على البلد، وفي عام ١٩٧٢ كان العراق قد اصبح، من وجهة نظر الكثير من المراقبين، احد توابع الاتحاد السوفيتي، من الناحية العملية، وهذا دفع الى تأكيد التحذيرات المتكررة التي كان يطلقها شاه ايران من ان العراق هو «حصان طروادة» ومنبها الغرب الى خطورة ذلك الوضع، وان النفوذ السوفيتي في العراق يشكل تهديدا للمصالح الغربية. اما من الناحية الاخرى فان الظروف والضغوط التي كان يعاني منها العراق قد دفعته الى اللجوء نحو المعسكر الشرقي، وهذا سوف يقودنا الى تفحص التنافس «الايراني- العراقي» خلال السنوات التي سبقت عام ١٩٧٦، وهي المرحلة التي اشارت اليها المعلومات التي وردت ضمن «تقرير بايك» بان وكالة المخابرات المركزية (C I.A) كانت تلعب خلالها دورا ناشطا في تقديم العون الى الكورد.

في عام ١٩٧٢ وتقريبا في ذات الحقبة التي قام فيها «ألكسي كوسجين» بزيارة بغداد لتوقيع معاهدة الصداقة بين الاتحاد السوفيتي والعراق، فان الرئيس «نيكسون» ذهب الى طهران حيث اقنعه شاه ايران بتقديم الدعم الى الكورد في تمردهم ضد الحكومة العراقية. وكان التمرد، في ذلك العام، يعد، من الناحية النظرية، بحكم المنتهي، حيث وافق الملا مصطفى البارزاني على النقاط الخمس عشرة التي عرضها البعثيون لقاء انهاء التمرد، ولكن المسألة بقيت متوقدة، وذلك لان الحكومة، وعلى عادتها في مثل هذه الحالات، تماطل وتحاول التنصل عن وعودها والتزاماتها في المسائل الحاسمة. وكان الملا مصطفى قد رفض ترشيح شخص كوردي لمنصب نائب رئيس الجمهورية الى حين قيام النظام البعثي بتسمية المحافظين في محافظات الشمال، والتي من المفترض ان تكون ضمن المناطق الكوردية. قام البعثيون، من جانبهم، بالتعنت وامتنعوا عن تسمية محافظة في كركوك، والسبب في ذلك هو ان منطقة كركوك تنتج ٦٥٪ من مجموع انتاج العراق من النفط، وبناء عليه كانت الحكومة تفضل وتعمل على ترك منطقة كركوك خارج اي تسوية في منطقة كوردستان. لقد كان من المفترض، وبموجب النقاط الخمس عشر، التي على اساسها بني حل القضية الكوردية في عام ١٩٧٠، ان يجري استفتاء شعبي حول وضع

منطقة كركوك، ولكن البعثيين اقترحوا بدلا عن ذلك الاعتماد على الاحصاء السكاني لعام ١٩٥٧ من اجل تقرير ذلك الوضع. اما شاه ايران فقد اقترح، وبالحاح على الرئيس نيكسون ان من الممكن، مع القليل من الحث، ان يتم تحريض الكورد ضدما يتعلق بين حكومة العراق والاتحاد السوفيتي ونية البعثيين الاعتراف الرسمي بالحزب الشيوعي العراقي وضمه في ائتلاف حكومي، وان هناك مؤشرات مؤكدة على ان في نية العراقيين منح الاتحاد السوفيتي تسهيلات واسعة في ميناء البصرة. بناء على جميع تلك الامور قام الرئيس نيكسون باهمال اعتراضات وكالة المخابرات المركزية (C I.A) والتف على ماتراه وزارة الخارجية الامريكية وامر بالشروع بعمليات ترمي الى مساندة الكورد. وتم الكشف، لاحقا، عن انه يتوجب ان يكون هناك التزام من جانب الولايات المتحدة بشأن هذا الامر وان هذا الالتزام ضروري يستند اليه الكورد قبل اقدامهم على استئناف الفعاليات القتالية ضد الحكومة العراقية. ولم تكن لدى الملا مصطفى البارزاني ثقة كبيرة بوعود وتعهدات شاه ايران لوحده، وقد اثبت «تقرير بايك» ان هناك وثائق تثبت ان الولايات المتحدة عملت، في الواقع، بصفة ضامن، تجاه الكورد، من ان شاه ايران سوف لن يقوم مستقبلا بالتخلي عنهم بسرعة. إن العون المادي الذي قدمته الولايات المتحدة لم يكن كبيرا، فما ساهمت به هو ستة عشر مليون دولار، جاء اغلبها على هيئة بضعة ملايين من اطلاقات الاسلحة الخفيفة وبعض الاسلحة الخفيفة الروسية والصينية الصنع، جرى الحصول عليها من خزين كان لدى الجيش الاسرائيلي نجم عن ما استولت عليه خلال حرب ١٩٦٧. اما شاه ايران فقد تعهد من جانبه بتجهيز الجزء الاكبر من احتياجات الكورد. ان ما شكلته مساهمة الولايات المتحدة هو دفعة رمزية ومجرد عربون يعبر عن اهتمام حكومة الولايات المتحدة بآمال الكورد في نيل حكم ذاتي. كان البعض يعد ان ماقام به الملا مصطفى البارزاني، من اجراء صفقات تسليحية مع شاه ايـران والولايات المتحدة، هو عمل غير مسؤول وغير اعتيادي، في الوقت الذي كان فيه على وشك ان يتوصل الى اتفاق حول نزاعه مع الحكومة العراقية الذي مضى عليه اكثر من عشر سنوات، ولكن قيام النظام البعثي بارتكاب بعض الافعال خلال تلك الحقبة، قاد الملا مصطفى الى عقد صفقات مع الغرب عن طريق شاه ايران في خلال المدة الواقعة مابين عام ١٩٧٠، عندما قدم البعثيون، لأول مرة، مقترحهم بخصوص منح الكورد حكما ذاتيا وبين عام ١٩٧٥، عندما اقدم البعثيون على اعلان قيام الحكم الذاتي، ومن طرف واحد، حصلت محاولتان لاغتيال الملا مصطفى البارزاني، كادتا تنجحان، وقد توجهت اصابع الاتهام في كلتا المحاولتين صوب النظام البعثي الحاكم. بالاضافة الى ذلك فإن الحكومة العراقية قد باشرت، ومنذ عام ١٩٧٠، الى تبني سياسة ترمي الى اعادة ترتيب التشكيلة السكانية في المناطق ذات الغالبية الكوردية، وبالاخص تم تركيز الجهود على منطقة كركوك. واشارت بعض التقارير الى انه لم يكن بمقدور الحزب الديمقراطي الكوردستاني ان يتجاهل حقيقة مفادها ان سياسة التعريب كانت

قائمة وبهمة كبيرة طيلة الفترة الانتقالية التي كانت قد تحددت مابين عامي ١٩٧٠ و ١٩٧٤، ليس في منطقة كركوك فحسب، وانما في خانقين ايضا، بالاضافة الى المناطق الكوردية في محافظة نينوى (الموصل) ومناطق اخرى اقل اهمية، وقامت السلطات الحكومية بازاحة الكورد من مناطق كانت تعد عربية ولكن يقطنها الكورد. اما من وجهة نظر الكورد فإن ما اقترحه النظام البعثي من حكم ذاتي هو وضع هزيل وغير متماسك ولا مستقر. لقد كان الاتفاق المبدئي مابين الحكومة العراقية وبين الحزب الديمقراطي الكوردستاني يتضمن تخصيص اعداد من مقاعد البرلمان العراقي (المجلس الوطني) تتناسب مع النسبة المئوية لمختلف شرائح الشعب العراقي من عرب وكورد وغيرهم، ولكن لما لم يكن هناك برلمان عراقي و لغاية عام ١٩٧٤ وان الحكم في العراق كان بيد مجلس قيادة الثورة المكون في غالبيته من اشخاص عسكريين من ضمن الكادر المتقدم في حزب البعث الحاكم، ولم يكن للعراق دستور دائم. مع هذا فإن النظام البعثي الحاكم قرر تشكيل جمعية وطنية للمنطقة الكوردية، وضمت هذه الجمعية ثمانين عضوا، كان جميعهم قد جرى تعيينهم من قبل الحكومة. عقدت هذه الجمعية الوطنية لمنطقة كوردستان اول اجتماعاتها في اربيل خلال شهر تشرين الاول من عام ١٩٧٤، ولكنها كانت كيانا شكليا ولا تتمتع بأية صلاحيات سوى اعلان موافقتها على كل ما تقرره الحكومة المركزية في بغداد، ولم تقم بأية واجبات او ممارسات يمكن ان توصف بأنها من ضمن اعمال جمعية وطنية لمنطقة تتمتع بحكم ذاتي حقيقي.

ومنذ الايام الاولى لتجدد القتال كانت تصريحات كل من الملا مصطفى البارزاني والحزب الديمقراطي الكوردستاني تؤكد ان مايقاتل الكورد من اجله هو ليس نيل الحكم الذاتي للكورد فحسب، وانما هو من اجل تحقيق الديمقراطية في جميع ارجاء العراق. ولم تكن تلك التأكيدات محض كلام، فمن دون تطبيق شكل ما من الديمقراطية لن يكون بالامكان ضمان بقاء المكاسب التي يحصل عليها الكورد. وبعد نشوب وانتهاء الحرب ضد اسرائيل في عام ١٩٧٣ قامت الحكومة العراقية البعثية بتوجيه انذار الى الملا مصطفى بوجوب اعلان قبوله بالنقاط الخمس عشرة المتعلقة بخطة اقامة منطقة الحكم الذاتي في المناطق الشمالية والشمالية الشرقية من العراق. وردا على ذلك اثار الملا مصطفى قضية كركوك مجددا، لذا شنت الحكومة هجوما شاملا ضد المقاتلين الكورد من اتباع الملا مصطفى البارزاني والحزب الديمقراطي الكوردستاني، وذلك في شهر نيسان من عام ١٩٧٤. كان ذلك الهجوم هو الاضخم الذي قامت به الحكومة العراقية حتى ذلك الوقت. اشرك النظام البعثي في تلك العمليات اكبر حشد عسكري واكثر المعدات الحربية تطورا، ولم يسبق لها مثيل من ناحية حجم القوات او ضخامة المعدات العسكرية المستخدمة، الامر الذي جعل كل ما مضى من حركات عسكرية تعد تافهة قياسا بهذه العمليات الحربية الهائلة والواسعة النطاق.

تكلل هذا الهجوم الشامل باحراز نجاحات كبيرة وبحلول شهر ايلول اصبح في قبضة الجيش

العراقي مناطق لم تكن في حوزته في اي وقت مضى، وقد تم الاستيلاء على بلدتي راونـدوز وبنجوين. قاتل الكورد بعنف ولكن ماحصل هذه المرة جاء مغايرا لما كان يحصل في الاوقات السابقة، حيث قامت اعداد كبيرة من المدنيين بالفرار من مناطق القتال وعبروا الحدود الى ايران. وفي كانون الثاني من عام ١٩٧٥ كان هناك مائتي الف من المدنيين الكورد قد نزحوا الى ايران، وقد جرى ايوائهم في اثني عشر مخيما، وكانت التوقعات تشير الى ان عدد النازحين المتصاعد سوف يصل الى نصف مليون شخص. لقد ورد في تقرير اصدره «منظمة اطباء بلا حدود» الفرنسية الى ان هناك العديد من العوائل الكاملة كانت تنتظر الحصول على مأوى، ولم يكن لديها سوى القليل من الامتعة الشخصية وبعض البطانيات، مع العلم ان عددا كبيرا منهم كانوا غير متحمسين لمغادرة الاراضي العراقية وحاولوا جاهدين ايجاد مأوى لهم في القرى الحدودية، ولقد انتشرت بينهم الامراض المعدية كالتايفوئيد والسل والتهاب السحايا الدماغية والتايفوس الذي سببه انتشار القمل وذلك لعدم توفر وسائل النظافة الملائمة.

وكان رئيس محطة وكالة المخابرات المركزية (C I.A) في طهران قد قدم تقريرا في عام ١٩٧٢، وقد ادرج ضمن «تقرير بايك»، جاء فيه: «كان لدى وكالة المخابرات المركزية علم مسبق يشير الى ان حليفنا (شـاه ايـران) سـوف يتخلى عن الكوردفي اللحظة التي يتوصل فيها الى اتفاق مع عدوه (الحكومة العراقية) حول المسائل الخلافية المتعلقة بالحدود بين البلدين». كان هناك نزاعان رئيسان حول الحدود بين ايران والعراق، اولهما يتعلق بالحقوق الملاحية في شط العرب والثاني حول ترسيم الحدود في مناطق في القطاع الاوسط من الحدود المشتركة بين البلدين. وجاءت المفاجئة في اثناء انعقاد مؤتمر قمة الدول المصدرة للنفط (اوبك Opec)، وبالتحديد في السادس من آذار عام ١٩٧٥، حيث عقد في الجزائر العاصمة برئاسة الرئيس الجزائري هواري بومدين، فوافق الوفدان العراقي والايـرانـي على خطة لانهاء الخلافات القائمة بين البلدين وجرت مصالحة بين شاه ايران وصدام حسين، الذي كان قد اصبح في ذلك الوقت الحاكم الحقيقي للعراق بعد ان عمل على السلب التدريجي لجميع سلطات احمد حسن البكر بحجة اعتلال صحة الاخير. وحصلت هذه المصالحة بمسعى الرئيس الجزائري وباركته، وكانت مفاجئة في سياسات الشرق الاوسط لم يتوقعها احد من المراقبين منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، ولـم يكن المـلا مصطفى والحزب الديمقرلطي الكوردستاني مستعدين لمثل هذا الحدث، ولم يكن هناك متسع من الوقت لكي تبدو أية معارضة او يقدم احتجاج. وقامت ايران، على الفور، وبشكل غير متوقع وهمة مثيرة للاستغراب باغلاق المعابر الحدودية، وقام ممثلوا شاه ايران باعلام القيادة الكوردية بقرار غلق الحدود باسلوب فظ وخال تماما عن اية مجاملة او كياسة ومعلنين للكورد بأن الحدود قد اغلقت بوجه الجميع، وأكدوا على تلك النقطة. اما البديل المتاح للملا مصطفى والقيادة الكوردية فكان السعي الى ايجاد حل للقضية الكوردية بالتفاهم مع الحكومة العراقية،

وبما يستطيع ان يحصل عليه من تنازلات او تساهلات من جانب الحكومة المركزية. وعلى الكورد عدم توقع اية مساعدة او دعم من جانب الايرانيين، اللهم فيما عدا السماح للبعض باللجوء الى ايران وعلى شكل مجاميع صغيرة، شريطة ان يقوموا بتسليم اسلحتهم الى السلطات الايرانية. وكانت ردة فعل الكورد متوقعة ومليئة بالألم والمعاناة والشعور بالمرارة، وقد ارسل الملا مصطفى عدة برقيات الى وزير الخارجية الامريكي، آنذاك، هنري كيسنجر جاء فيها: «ان حركتنا وشعبنا يتعرضان الى التدمير»، «نحن نشعر يا صاحب السعادة بأن على الولايات المتحدة تقع مسؤولية ادبية وسياسية تجاه شعبنا». وعندما قام مدير محطة وكالة المخابرات المركزية في طهران باشعار واشنطن بذلك وحث على وجوب حصول الملا مصطفى، اللحوح، جوابا من كيسنجر، جاءه الرد من أعلى المستويات الرسمية بأن عليه ومن واجبه رفض اي مطلب يتضمن تدخلات لاحقة من قبل الولايات المتحدة فيما يخص الكورد، وان عليه ان يعلم ان عمل المخابرات هو ليس من الاعمال التبشيرية او انها من المؤسسات الخيرية. وبحلول نهاية شهر آذار اعلن الملا مصطفى انه سوف يلقي السلاح ويترك القتال مستسلما، ولذا وفي يوم الثلاثين من آذار ١٩٧٥ قام بعبور الحدود الى ايران يصحبه ولده ادريس. وهكذا انتهت الحرب بين الكورد والحكومة العراقية باندحار كوردي ليس له نظير سابق.

واذا ما اردنا ان نجري تقييما للاندحار الكوردي في عام ١٩٧٥ فيجب ان نضع نصب اعيننا ان انهيار انتفاضة الكورد في ذلك الوقت قد حير العديد من المراقبين ومن نواح متعددة، وان ماقامت به الولايات المتحدة خلال تلك الاحداث لايمكن ان يوضع له تفسير منطقي او ان يجرى له ايضاح شاف، والظاهر ان التصرفات الامريكية قد القت جانبا مرا كان من الممكن ان يعول عليه بشكل كامل ومن المؤكد ان السوفيت قد استفادوا من الحركة الكوردية خلال السنوات السابقة، وعلى الرغم من ان الولايات المتحدة قد ساندت النظام البعثي، في سابق عهده، ضد الكورد ولكن منذ عام ١٩٦٩ فصاعدا، وبعد ان جرت محاكمات الجواسيس واعدامهم، حسب ادعاء البعثيين، وسجن اعدادامنهم ومع استمرار اتهامهم للولايات المتحدة متمثلة بوكالة المخابرات المركزية (C I.A)، بأنها ضالعة في مؤامرات ضد الشعب العراقي وقيادته، فان العلاقات «الامريكية- العراقية» قد تدهورت بشكل خطير ولم تستقبل الولايات المتحدة قرار تأميم شركة نفط العراق بأي شيء من الارتياح ولم ترغب ان ترى البواخر وناقلات النفط السوفيتية وهي راسية في اعالي الخليج. اما من الناحية السياسية فان النظام البعثي في العراق، كان يبدو اقل استقرارا من اي نظام حاكم آخر في المنطقة، وقد لجأ هذا النظام الى اسلوب الاغتيالات الفردية للتخلص من خصومه ومعارضيه فوضعه هذا الامر خارج نطاق المجتمعات المتحضرة. ان المستقبل وحده هو الذي سوف يكشف خبايا العلاقات «الامريكية-الكوردية» وذلك لان سجل الاحداث غير متكامل الى حد الآن. ان اية محاولة لاجراء تقييم يتسم بالموضوعية والتجرد سوف

تلاقي صعوبات جمة وبالاخص عندما يكون هناك ايصال للمعلومات من قبل جهات لها مصالحها الخاصة التي تسعى لتحقيقها، ومع هذا فانه تجدد الاشارة الى كون كل ماجرى في تلك الآونة لم يبتعد كثيرا عن التصرفات السابقة للقوى الاخرى في ظروف مشابهة. ولذى ما المدى الذي وصلت اليه الخسائر الفعلية للولايات المتحدة من خلال تلك المجريات؟ فيما لو كانت هناك خسائر فعلا. لقد اشار بعض المراقبين الى ان صدام حسين، وبعد ان تمكن من انهاء تمرد الكورد وحل، موقتا، مشكلة كوردستان، اصبح على استعداد للتعاون مع الولايات المتحدة، وقد لاحت في الافق بوادر دراسة عدد من العقود الفنية الممكن ابرامها مع الولايات المتحدة. وحصلت في العراق ثورة تنموية وتفجرت المشاريع في كل مكان ومن كل نوع واتجاه تغذيها ستة مليارات دولار من عائدات النفط، التي كانت في حينها تؤمن اكبر ثورة تنموية انفجارية وتفيض، بحيث اصبح العراق لايدري كيف يمكنه انفاق كل هذه الثروة وزادت المواد المستوردة من كل صنف ومن مختلف المناشيء، هذا وقد اتبع العراقيون سياسة اقتصادية جديدة مبنية على مبدأ عدم الخلط مابين المباديء الفكرية وبين الصفقات التجارية، وهذا في واقع الامر، منحى عملي جيد. وقد اشار بعض المحللين الى ان التوجه العقلاني والعملي لنظام البعث بعد عام ١٩٧٥ كان يتألف من خليط من الحماس الاشتراكي والكبرياء القومي الواقعي. وبعد تخلصه من مشكلة الكورد في شمال البلاد، فإن النظام، الذي اصبح يقوده بشكل فعلي صدام حسين، قد بدأ يحرر نفسه من بعض الروابط الوثيقة مع الاتحاد السوفيتي، وبحلول عام ١٩٧٨ قامت الحكومة العراقية، وبشكل علني، باثارة حفيظة الاتحاد السوفيتي عندما اقدمت على اعدام واحد وعشرين عضوا من الحزب الشيوعي العراقي. واما فيما يخص النفط، الذي يحتل مكان الصدارة في اولويات اهتمامات الولايات المتحدة، فإن الحكومة العراقية قد اعلنت، بعيد اتفاقية الجزائر عام ١٩٧٥، انها تنظر بإهتمام الى توسيع العلاقات الاقتصادية مع الولايات المتحدة. مع كل هذه المؤشرات الدالة على تعاون محتمل بين العراق والولايات المتحدة، فإن ما اقدمت عليه الولايات المتحدة تجاه الكورد هو مشابه لما قامت به بريطانيا تجاه الآشوريين (الآثوريين) بعد مجزرة سيميل في عام ١٩٣٢، او التصرف البريطاني تجاه شيخ المحمرة عندما واجه ضغوطا من يد رضا شاه. حيث قام البريطانيون في كل من العراق وايران بخيانة مصالح حلفائهم الصغار في مقابل تحقيق الاستقرار في المنطقة، أو بالاحرى في سبيل الحفاظ على المصالح النفطية لبريطانيا في عموم المنطقة، وعلى الصعيد ذاته فإن الولايات المتحدة قد فضلت التعامل المباشر مع الحكومة العراقية لتحقيق غاياتها في استقرار المنطقة وسيطرتها على مقدرات الثروة النفطية في العراق بدلا من خوض مغامرة غير محسوبة النتائج في المناطق الكوردية. ولم تظهر اية ادلة جازمة من ان اي من القوتين العظيمتين قد قامت بمساندة الكورد بشكل مباشر، اما ما حصل من تدخل وكالة المخابرات المركزية (C I.A) فإنها كانت مجرد ضربة حظ، جاءت بعد الحاح شاه ايران على وجوب قيام الولايات المتحدة

بعمل ما في هذا الخصوص، وقد ورد مايؤشر ذلك في «تقرير بايك» المنوه عنه اعلاه، وما ان ابتدأت هذه العملية حتى تم ايقافها. ان سياسات كل من الاتحاد السوفيتي وبريطانيا ومن ثم الولايات المتحدة لم تكن لتختلف كثيرا في مضمونها عن سياسة الدولة العثمانية وشاهات ايران القدامى، حيث عمد كل من الطرفين الى استغلال الكورد في سبيل التحرش بالطرف الآخر. وكان الكورد طوال الوقت عبارة عن مخلب لاثارة المشاكل تستغله القوى الكبرى لتنفيذ مآربها وتحقيق طموحاتها وتطلعاتها. ولكن عندما اتضح ان ما يواجهه الكورد يهدد مصالح القوى الكبرى المساندة فإن هذه القوى الكبرى اخذت تفكر باعادة النظر في توجهاتها والقيام باتخاذ خيارات اخرى تتلائم مع متغيرات الأمور ومقدمة مصالحها على مصلحة الكورد.

ان الوعود التي اعطاها شاه ايـران الى الملا مصطفى بالدعم الكامل لـه في حالة قيامه بمحاربة الحكومة العراقية قد ذهبت ادراج الرياح على الرغم عما قامت به الولايات المتحدة من ضمان تلك الوعود بالاضافة الى تعهدها بالمساندة المادية والسياسية له في حربه ضد النظام البعثي في بغداد. وكانت تلك الوعود والضمانات قد دفعت الملا مصطفى الى ترك الحيطة وحسابات المستقبل ولم يترك لنفسه خط رجعة او مجال للمناورة.

لقد كانت النقاط الخمس عشرة التي تضمنها بيان الحادي عشر من آذار عام ١٩٧٠ و تعهدت الحكومة المركزية بتطبيق الحكم الذاتي في شمال العراق في غضون اربع سنوات وعلى ان يجري استفتاء شعبي بعد عام من ذلك التأريخ أي في الربع الاول من عام ١٩٧١ من أجل تحديد المناطق التي فيها غالبية سكانية من الكورد، لكي تكون ضمن منطقة الحكم الـذاتـي، ولكن الحكومة العراقية، وبايعاز وتخطيط من صدام حسين، لم تقف بوعدها ولم تجرى اي استفتاء بحجة عدم التوصل الى اتفاق مع الملا مصطفى حول كيف يجري مثل هذا الاستفتاء ومتى وأين، وخصوصا الخلاف حـول قضية منطقة كـركـوك الغنية بالنفط. وفي الحقيقة لم يتم تنفيذ اي من النقاط الحيوية ضمن النقاط الخمس عشرة، المذكورة آنفا، وبشكل حقيقي، اللهم سوى قضية استعمال اللغة الكوردية كلغة ثانية في كوردستان العراق. لقد قامت الحكومة العراقية بتشكيل جمعية وطنية (غير منتخبة) في اقليم كوردستان العراق وجرى تعيين جميع اعضائها الثمانين من قبل حكومة بغداد، وعينت الحكومة امناء كورد (موالين لها) لادارة مختلف الشؤون في الاقليم وعلى هيئة وزارات مصغرة، عدا وزارتي الخارجية والدفاع. وكانت واجبات تلك الوزارات المصغرة تنحصر في تمرير وتطبيق ما يصدر عن الوزارات المعنية في الحكومة المركزية ولا تتمتع بأي صلاحيات اوحق في الاعـتـراض على ماتراه الحكومة المركزية او ابداء اي رأي بشأن أي امر يخص الاقليم وله تأثير على الوضع العام فيه. وعمدت الحكومة الى منح مناصب وزارية شكلية الى عدد من الكورد ضمن مجلس وزراء حكومة بغداد، وكذلك الحال بالنسبة الى نائب رئيس الجمهورية. في آذار من عام ١٩٧٤ اي بعد اربع سنوات من اصدار بيان الحادي عشر

من آذار عام ١٩٧٠، وكما كان قد حصل الاتفاق عليه، قامت الحكومة البعثية باعلان تطبيق الحكم الذاتي في شمال العراق وبموجب مواصفات وتطبيقات وضعتها هي بما يتلائم مع اغراضها، وفي ذات الوقت رمت الكرة في ملعب الكورد وعلى الملا مصطفى اما ان يقبل بذلك النمط من الحكم الذاتي المزعوم او رفضه، وفي هذه الحالة سوف تلقي الحكومة العراقية اللوم على الملا مصطفى. وكان بإمكان الملا مصطفى ان يقابل خداع حكومة البعث بمخادعة من جانبه وذلك باللجود الى المماطلة واطالة المحادثات والمباحثات والاخذ والرد الى حين ان يصبح من القوة بمكان يستطيع معه الوقوف في وجه القوات الحكومية، ولكنه بدلا عن ذلك فضل خيار الحرب وباشر بالقتال الفوري اعتمادا على وعود شاه ايران باعانته منه ومن ورائه الولايات المتحدة والغرب، خدمة لمصالحهم، وكان الملا مصطفى، في ذلك الوقت، يحظى بتعاطف «مصر» و بعض الدوائر العربية الاخرى، ولكن في نيسان من عام ١٩٧٤ نشر صحفي غربي مقابلة يقول انه اجراها مع الملا مصطفى جاء فيها، وعلى لسان الملا مصطفى، قوله انه على استعداد لتقبل السلاح من اسرائيل لو ان الغرب نصحه بذلك، وانه مستعد لان يسمح للشركات الغربية بالقيام باعمال الاستكشافات النفطية واستخراج النفط في شمال العراق. لقد نجم عن نشر هذه المقابلة ان الملا مصطفى قد خسر اي تعاطف او مساندة عربية.

ان تدفق الاموال والمساعدات المادية على الثورة الكوردية واعلان العراق عن تطبيق الحكم الذاتي في الحادي عشر من آذار عام ١٩٧٤، ادى كل ذلك الى حصول هجرة كبيرة للكورد من مختلف مناطق العراق نحو منطقة كوردستان ضمت المهنيين والمختصين وبعض ميسوري الحال وكذلك المثقفون من ابناء المدن العراقية الاخرى. لقد اصبح هؤلاء يشكلون مسؤولية كبيرة وعبئا ثقيلا على الثورة الكوردية، وهي في خضم صراعها مع الحكومة المركزية. لقد كان المهنيون والاختصاصيون بمختلف صنوفهم ودرجاتهم يأمنون المورد المالي الذي يبقي عجلة الثورة تسير وتستمر وذلك بدفعهم اشتراكات مالية يقدمونها من مدخولاتهم عندما كانوا في المدن كاصحاب مهن حرة او موظفين لدى الدولة، في حين عندما اصبحوا يعيشون من موارد الثورة فقد اصبح ذلك يشكل استنزافا لمواردها. وفي باديء الامر، اي في عام ١٩٧٤، رحبت الثورة بمقدم هؤلاء حيث إنهم شكلوا الفئة الادارية التي تفتقر لها الثورة، ولم تهتم الثورة، آنذاك، لما فقد من موارد مالية كانت تأتيها منهم عندما كانوا في المدن، لان لديها الكثير من المال الذي كانت تحصل عليه من ايران والولايات المتحدة. لقد اصبح الكثير من اولئك النازحين دون عمل، فعددهم كان يفوق حاجة الثورة الى اعمالهم او خدماتهم ولا توجد اعمال ووظائف تتلائم مع امكانات او تخصصات الكثير منهم. وعلى الرغم من التوسع في التشكيلات الادارية والدوائر المختلفة الا انه لم يكن بالامكان استيعاب كل تلك الاعداد. نعم كانت الثورة بحاجة الى من يتولى المسائل الادارية المختلفة ولكن كثرة القادمين الى المناطق الشمالية وتنوع اختصاصاتهم وامكاناتهم اضطرت، في الكثير

من الاحيان، الى ان يتم وضع الاشخاص في مناصب واعمال لاتتناسب وتخصصاتهم. وان هذا التدفق البشري، بعد اندلاع القتال في آذار من عام ١٩٧٤، قد ادى الى حرمان الثورة من قاعدتها الجماهيرية في داخل المدن.

اصبح المقاتلون الكورد بعد تجدد القتال في عام ١٩٧٤ مسلحين باسلحة احدث واكثر فاعلية من السابق، حيث قامت ايران بتزويدهم بها، فمكنتهم من الوقوف في وجه القوات الحكومية ومجابهتها بقوة وعنف واندفاع ادت الى حصول قتالات مريرة اضطر معها الآلاف من الفلاحين الكورد الى ترك حقولهم والهرب نحو مناطق اكثر امنا. وادى ذلك الى حرمان الثورة من نتاج الارض الذي كانت تحصل عليه في اثناء قتالها لقوات الحكومة المركزية في عام ١٩٧٤، حيث إن الفلاحين آنذاك بقوا في مزارعهم يعملون ويزودون الثورة بما تحتاجه من المنتجات الزراعية والحقلية. وعندما قام شاه ايران، بعد توقيعه اتفاقية الجزائر مع صدام حسين في عام ١٩٧٥، بالقطع الفوري والمفاجيء لجميع اشكال الدعم عن الثورة، اصبحت الثورة الكوردية بحاجة الى ما تعتاش عليه، فالاراضي غير مزورعة والحقول قد هجرت وتركت دون عناية. وكانت الثورة الكوردية تعتمد على مواردها الذاتية ولغاية عام ١٩٧٠ من اجل ديمومة بقائها، ولكن تدفق الاموال عليها بعد ذلك ادى الى ارباك مميت لقيادتها، ولو افترضنا ان القيادة لم تخطيء في تصرفها ووحدت من التوسع الاداري الاستنزافي وادامت علاقات وروابط جيدة ومتينة مع الشعب في كل مكان وبالاخص في داخل المدن، فان كل ذلك لم يغير من النهاية المحتومة.

وكان لدى العراق رابع اكبر خزين نفطي في العالم وايران لديها ثاني اكبر خزين، وما نجم عن ارتفاع اسعار النفط، في السوق العالمية، من تدفق مالي هائل على كلا البلدين، دفعهما الى هجر اي تصارع عقائدي (ايديولوجي) بينهما حول السيطرة على الخليج. وكان العراق ينوي ان يقوم بتعميق ميناء ام قصر ليتمكن من استيعاب ناقلات النفط العملاقة وقام لاحقا ببناء الميناء العميق وميناء البكر الخاصين بتصدير النفط العراقي. وتركزت غالبية حقول النفط الايرانية حول عبادان على الضفة الشرقية لشط العرب. فحصل امر في شهر كانون الاول من عام ١٩٧٤ تسبب في ورطة لكل من العراق وايران، إذ ان طائرتي «ميك» من طائرات القوة الجوية العراقية قد جرى اسقاطهما فوق منطقة كوردستان العراق بواسطة صواريخ ارض- جو من نوع «هوك» امريكية الصنع، وقد القي اللوم، في حينه، على الجيش الايراني. إن حادثا مثل هذا قد ادى الى احتمال توسع دائرة الحرب ودخول اطراف اخرى فيها، وحتى تدخل القوى العظمى، وان اتساع رقعة الحرب قد هدد حقول النفط ووقف عائقا امام عمليات تصديره. ولما كانت الثروات الضخمة تعتمد على حقول نفط آمنة وتصدير غير مهدد فإن، الثورة الكوردية تصبح شيئا يمكن الاستغناء عنه بسهولة والتضحية به من اجل مصلحة اقتصاد الدول المعنية، مصدرة كانت او مستوردة، والفائدة من الثورة الكوردية تكاد تكون معدومة من وجهة نظر الدول ذات

العلاقة. لذا فإن «التحالف غير المقدس» كما وضعه الناشط التركي، الكوردي الاصل، عصمت شريف وانلي، بين العراق وايـران في عام ١٩٧٥، او بمعنى آخر التعاون الاقليمي بينهما ادى الى اجهاض الثورة وموتها. ان ماكان يكمن وراء هذا التحالف هو المصالح النفطية، وهو امر كان الكورد يتخوفون منه طوال الوقت. وبعد قيام ايران بغلق الحدود، الذي تسبب في خنق الثورة ومحاصرتها، استغل المقاتلون الكورد فترة الهدنة التي كان امدها اسبوعين، فقام نحو عشرين الف من المقاتلين الكورد بالعبور الى ايران، وهناك جرى تجريدهم من اسلحتهم ووضعوا في مخيمات تحت رقابة ايرانية مشددة، وهذا الاجراء هو العون الوحيد الذي قدمه شاه ايران الى الكورد حلفائه بالأمس. واستسلمت اعداد اخرى من الكورد الى السلطات العراقية وكان من بينهم صالح اليوسفي الذي كان دائم الشك في نوايا شاه ايران وغير موافق على ماكان يطرحه. اما بعض الجماعات الصغيرة فقد استمرت تقاتل القوات العراقية منسحبة نحو الوديان السحيقة في اقاصي الشمال وصولا الى الحدود التركية. ان المكسب الكبير الذي ناله الشعب الكوردي، إذا لم نقل نالته الثورة الكوردية، يتأتى من تمكن اعداد غفيرة من المدنيين الكورد من الفرار الى ايران قبل انهيار الثورة الكوردية اسكانهم في مخيمات خاصة اقامتها لهم جمعية الاسد والشمس الحمراء الايرانية (اي المقابل الايراني لجمعية الصليب الاحمر او الهلال الاحمر في باقي الدول) وقد بلغ عدد هؤلاء النازحين قرابة النصف مليون شخص جميعهم تقريبا من الشيوخ والنساء والاطفال. اما من كانوا قادرين على حمل السلاح فقد بقوا في العراق لمقاتلة القوات الحكومية. وبحلول النهاية والانهيار التام للثورة الكوردية فإن الكثير من هؤلاء اللاجئين سارعوا بالعودة الى العراق لاستعادة بيوتهم واراضيهم وبقي قسم منهم في المخيمات لعدم وصولهم الى قرار معين حول ما الذي ينوون القيام به، وفي آخر المطاف كان على من بقي في المخيمات الاختيار مابين العودة الى العراق او القبول بعرض الحكومة الايرانية بنقلهم الى اماكن اخرى داخل ايران لكي يصبحوا مواطنين ايرانيين. اما بعض الشيوعيين المعروفين واشخاص آخرين مطلوبين من قبل السلطات العراقية فقد تم ترحيلهم قسرا الى العراق وتسليمهم الى السلطات العراقية. ان ماجرى على هؤلاء اللاجئين كان له الاثر الايجابي العميق فيما يخص الصراع الكوردي مع الحكومة المركزية ونال الكورد من جراء تعاطفا محليا واقليميا ودوليا.

بادرت الحكومة المركزية الى العمل على تقريب المناطق الكوردية بإسلوب ثنائي المنحى. اذ انها كانت تعمل على محورين، الأول هو نقل العوائل الكوردية بطريقة او بأخرى الى مناطق خارج اقليم كوردستان او على الاقل بعيدا عن اماكن اقامتهم التي ولدوا وعاشوا فيها، اما المحور الثاني فكان تشجيع العرب وغيرهم على الانتقال للعيش في المناطق الكوردية، من اجل تغيير التركيبة السكانية لبعض المناطق، مع استمرارهم بالادعاء بأن الحكم الذاتي هو حالة قائمة ومستمرة وليس هناك من تبديل او الغاء لما نصت عليه بنود

الحادي عشر من آذار عام ١٩٧٠ وجرى تطبيقه الفعلي في آذار من عام ١٩٧٤، هذا في الظاهر فقط طبعا، اما التطبيق الفعلي والصحيح فمسألة أخرى. وقد بقي مايسمى بمنطقة الحكم الذاتي في شمال العراق، حيث تضم محافظات السليمانية واربيل ودهوك، قائما الى ما بعد حرب الكويت وما تلاها من احداث اذ اصبحت المنطقة ضمن المنطقة الآمنة الواقعة تحت حماية المجتمع الدولي، في حين استمرت الحكومة المركزية على عدها تابعة لها الى ان جرى اسقاط نظام صدام حسين وكلمه في ربيع عام ٢٠٠٣. ومن هذا المنطلق يمكننا القول ان الكفاح الكوردي في العراق من اجل نيل حقوقه لم يذهب سدى وانما كانت له مكاسب لايستهان بها ولم يكن كما حصل في تركيا، حيث قامت الحكومة التركية، وبعد قضائها على الانتفاضات الكوردية هناك جميعها، الواحدة تلو الأخرى، باتخاذ اجراءات صارمة ضد كل من يقول بانه كوردي، وإذا كانت الحكومة التركية لا تعترف بوجود شريحة سكانية على اراضيها باسم «الكورد» وكل ماهناك هو انه توجد جماعات جبلية ممن تسميهم الحكومة التركية باسم «اتـراك الجبل» ويقوم بعضهم احيانا باعمال تخريبية او ارهابية تستوجب الـردع من قبل السلطات، وهذه السلطات تطارد الآن اعضاء حزب العمل الكوردي (التركي) داخل الأراضي العراقية بحجة انهم مخربون وخارجون على القانون مستندة في ذلك الى اتفاق سابق كان قد ابرم مع نظام صدام حسين تتمكن بموجبه قوات الدولتين من مطاردة وضرب الخارجين عليها داخل اراضي الدولة الاخرى، اما في ايران، فقد قامت الحكومة الايرانية، منذ زمن الشاه السابق وحتى الآن، بقمع جميع الحركات والانتفاضات التي قام بها الكورد هناك وقتلت او اعدمت قادتها، وعملت على إذابة الكورد الايرانيين في بوتقة العنصر الفارسي المتغلب وتفريسهم لغويا وثقافيا واجتماعيا حتى كادت الشخصية الكوردية الخاصة تنمحي ويختفي تفردهم ويندمج تراثهم بالتراث الفارسي.

وخلاصة القول، ان صدام حسين، وبعد ان باشر تحركه نحو الانفراد بالسلطة في العراق وذلك عن طريق اتخاذه لاسلوب يتسم بالذكاء والدهاء ان كان من بنات افكاره او بالتخطيط الجيد والمدروس بعناية ان كان من جهات خارجية ترسم الخطط وصدام ينفذ، اقول باشر بالاستحواذ على سلطات وصلاحيات احمد حسن البكر بشكل تدريجي. بحجة او بأخرى، وبعد هندسته لمشروع منطقة الحكم الذاتي لكوردستان العراق واعلان ذلك في الحادي عشر من آذار عام ١٩٧٠ واعدا بالتطبيق الفعلي والتام لذلك المشروع في غضون اربع سنوات من ذلك التأريخ، فإنه سحب البساط من تحت اقدام القيادة الكوردية ووضعها في موقف دقيق جدا، فإما القبول بما أعلنه صدام من حكم ذاتي شكلي وجمعية وطنية تشريعية، غير منتخبة تم تعيين كافة اعضائها الثمانين من قبل حكومة البعث، وامناء لكيانات تشبه الـوزارات المصغرة (جرى تعيينهم من قبل الحكومة ايضا) ونائبا لرئيس الجمهورية لم يتم اختياره من قبل الشعب الكوردي ولا يمتلك من مقومات منصب نائب رئيس الجمهورية سوى الاسم وبعض الفعاليات

التشريفية والبروتوكولية التي لا تأثير يذكر لها وطبعا حتى ذلك لم يكن ليتم الا بموجب ما يرتضيه ويوافق عليه صدام، اي ان ماقدمه صدام حسين الى الكورد لم يكن سوى هيكل خاو لما يسمى بحكم ذاتي وقد كساه برداء من الظاهر الجميل المبهرج بتسميات ومسميات رنانة وهي في واقعها طبل اجوف لايمتلك من القوة والثبات والتماسك سوى صوت مدوي دون فعل. ان هذا الامر لم يكن مقصورا على منطقة الحكم الذاتي فقط، وانما كان هو حال العراق، كل العراق، والى حين سقوط صدام في (٢٠٠٣)، لم يكن للشعب حرية اختيار الاشخاص الذين يديرون دفة الحكم في البلاد، واوضح مثال على ذلك هو ما كان يسمى (مجازا) انتخابات المجلس الوطني، حيث لم يكن يقبل ترشيح اي شخص لخوض الانتخابات من اجل التنافس على احد مقاعد المجلس الوطني، الا إذا وافق على ترشيحه حزب البعث الحاكم، او بكلام آخر ان يكون بعثيا مخلصا لصدام واتباعه. هذا بالاضافة الى ثلاثين مقعدا في ذلك المجلس يقوم صدام حسين بتعيين شاغليه من قبله مباشرة (اي بالتزكية دون انتخابات). فأين حرية الاختيار المتاحة لافراد الشعب في انتقاء ممثليهم في المجلس الوطني؟ وهذه تذكرنا بقصة طريفة، وهي تنطبق تمام الانطباق على حال الشعب العراقي جميعه (بمن فيهم منتسبي حزب البعث الحاكم من غير المتنفذين)، ومفاد الحكاية ان شخصين خرجا يوما الى الصيد سوية، وكان احدهما شخصا عاديا في حين كان الآخر جبارا عاتيا، وعند انتهاء يوم صيدهما كانت حصيلة الصيد غزالا وارنبا. قال الشخص الجبار للشخص العادي: سوف ادعك ان تختار اخذ اي من الصيدين، لكي لاتقول اني غصبتك حقا او فرضت عليك امرا، فهاهما الصيدان امامك، فإن كنت تريد ارنبا فخذ ارنبا وان كنت تريد غزالا فخذ ارنبا فالخيار لك ولن اتدخل في اختيارك. لنعود الآن، بعد هذه الاستراحة الذهنية القصيرة، الى موضوعنا ونستأنف كلامنا لنقول ان مجلس الوزراء العراقي كان لايقدم على اي عمل دون موافقة مسبقة من صدام حسين واذا احتاج الامر الى الأخذ (الصوري) لموافقة المجلس الوطني فإن ذلك المجلس (المنتخب حسب الافتراض) لايبدي اي شيء سوى اعلان الموافقة على كل مايرفع اليه، لكي تكون لذلك الأمر صفة تشريعية ويصبح قانونا او مايشبه القانون. فكيف بك بجمعية تشريعية في منطقة الحكم الذاتي وامناء وجميعهم معينون من قبل حكومة البعث؟ وأي صوت قد يسمع، ولو همسا، من اي منهم بما يخالف مايراه حزب البعث وحكومته، يعني الاقصاء الفوري (ان لم يكن اسوء) لذلك الذي تجاسر وابدى مخالفة لما تريده حكومة البعث. ان خداع صدام حسين للكورد باعلان ذلك الحكم الذاتي (الشكلي) قد وضع القيادة الكوردية امام خيارين، فإما القبول بما قدمه لهم وهكذا تبدأ عملية تمييع للقضية الكوردية وذهاب سنوات من النضال الشاق والتضحيات الجسام، التي تحملها الشعب الكوردي بصبر وجلد، ادراج الرياح، او ان ترفض القيادة الكوردية ذلك الواقع الذي فرضه عليهم صدام حسين عبر نقاط براقة، في بيان الحادي عشر من آذار عام ١٩٧٠، ولم يتم

التطبيق الفعلي لأي منها، على ارض الواقع، سوى تحديد الشكل العام لمنطقة الحكم الذاتي وبعض المظاهر الثانوية التي لاتأثير فاعل لها في تغيير الوضع القائم ومن بينها الاقرار بأن اللغة الكوردية هي اللغة الرسمية الثانية (في منطقة الحكم الذاتي). وعندما حصل هذا الرفض، فانه ادى الى خسران القيادة الكوردية للكثير من الدعم والمساندة المادية والمعنوية على صعيد الرأي العام في الشارع المحلي وبين الجماهير التي تؤثر فيها المظاهر اكثر من الحقائق المستترة. وحتى ان هذا الموقف قد انسحب على بعض الحكومات الاقليمية والدولية، وهي خسارة لايستهان بها. وبعد توقيع اتفاقية الجزائر في عام ١٩٧٥ فإن شاه ايران ومن وراءه الولايات المتحدة والغرب بشكل عام، خذلوا الحركة الكوردية وتركوها تواجه مصيرا لا تحسد عليه، بعد ان سدوا في وجهها جميع اشكال العون، وفرضت ايران حصارا فعليا على الحركة الكوردية وذلك بغلق الحدود امامها مما اجبرها على القاء السلاح والاستكانة لها حيث اصبحت لا تمتلك حولا ولا قوة تمكنها من الاستمرار في الكفاح المسلح من اجل نيل حكم ذاتي حقيقي، علما ان هذا النهج الذي سار عليه شاه ايران جاء مبنيا على مقولة كانت قد جاءت على لسان «ونستون تشيرشل» الزعيم البريطاني ورئيس وزرائهم الاسبق، حيث قال: ان من الممكن جدا ان يصبح صديق الامس عدو اليوم وعدو الامس صديق اليوم أو الغد. إذن فالغاية هي المصالح، اما المثاليات والالتزام بالعهود فهي رفاهية لايطبقها اولئك القائمون على شؤون السياسة في العالم، وكما يقول المبدأ الصهيوني: الغاية تبرر الوسيلة. ولو ان ذلك يعني خذلان الاصدقاء والتخلي عنهم ونكث الوعود والتنصل عن العهود.



# الدولة الوطنية العراقية فنطازيا الوجود، فنطازيا المفهوم

علي حسن الفواز

ان صيرورة الدولة العراقية لم تؤسس وجودها المعاصر وشرعيتها على اساس الموروث التاريخي للدولة كمفهوم وكتطابق بين الحاجات والضرورات، بقدر ما وجدت حالة نشوؤها امام مجموعة ضاغطة من العوامل الخارجية والتاريخية، لعبت دورها في ايجاد توصيف سياسي وجيو غرافي للدولة الجديدة. اذ تشكلت هذه الدولة في ظل تداعيات كونية انشئت في سياقها مجموعة من الدول السياسية ذات الاشكال الادارية والتنظيمية التي تشبه الدول التي تستعمرها، حافظت على مظاهر عمومية في اعادة انتاج هذه الدول بدءا من نمط الحاكمية وفروضها القهرية (الملك العربي المسلم ذو الاصول المعروفة) وانتهاء باعطاء القبائل والمؤسسة الدينية التقليدية دورا مهما في صناعة هذه الدولة، أي ان الشكل الصياغي لبنية ما قبل الدولة شكل الحاكمية، نظامها التشريعي) وظل جوهرا عميقا في البيئة الاجتماعية والسياسية لها.

وازاء معطيات هذه المهيمنات ظل الحديث عن مفهوم الديمقراطية واعادة انتاج الدولة في سياق الاطار الديمقراطي حديثا محمولا على الكثير من التجريدات، مثلما هو اجراء فيه الكثير من العمومية والعشوائية وغياب البرامج الواضحة، وآليات التمكين التي تسهم في اعداد وتنمية الخبرات والمهارات والامكانات التي تدخل في جوهر صناعة

الدولة، وفي فتح افاق واسعة للشراكة المجتمعية، فضلا عن غياب اسس وبرامجها الديمقراطية ذاتها كنظام اجتماعي وقانوني وضعف استثمار قواها الفاعلة في انتاج الدولة العادلة والعاقلة التي تقوم على اساس وجود نظام سياسي يكفل للجميع حقوق المواطنة، مع ايجاد المجتمع السياسي القائم على اسس التعددية الفاعلة مع وجود السلطات التشريعية والقضائية المستقلة، والحرص الشديد على تكريس القيم المدنية في ادارة الدولة وتمكين المجتمع، فضلا عن وجود وسائل الاعلام الفاعلة والحية التي تراقب اداء الدولة، اذ ان السلطة التنفيذية هي تلك التي بدأت تقوى وتتسع بسبب طبيعة التحولات الحادثة في العراق، واعتمادها الدستور الوطني الذي يكرس حقيقة التعددية والنظام الاتحادي الذي يحترم حقوق مكونات المجتمع العراقي، وهذا بطبيعة الحال يعطي دافعا استثنائيا لفكرة الدولة الجديدة التي تتجاوز ازمة الدولة الشوفينية والدولة الايديولوجية والدولة العرقية التي صنعت لنا تاريخا مأزوما ومليئا بالمحن والحروب والجوع والفقر والجهل.

ان القوى التي تؤمن بالدولة الجديدة وقيم التحول الديمقراطي والتعددية ودور المجتمع المدني تمثل جوهر صناعة هذه الدولة، اذ هي تسهم في حماية نشاط القوى السياسية التي تؤمن بايديولوجيات متعددة لمفاهيم الثورة الاجتماعية والخيارات وبناء الدولة الحامية للحريات والنظام الاجتماعي وللطبقات الفقيرة، مثلما هي الساعية الى تشريع القوانين التي تحمي مصالح الدولة وهويتها اولا، وحماية مواطنيها من القوميات والاديان والطوائف المختلفة ثانيا، في اطار اسس المواطنة والحقوق. هذه القوى المنخرطة في بناء الدولة يمكن ان تتحول الى قوى معادية للسلطة التنفيذية في حال الاصطدام مع مصالحها وحساباتها. وهذا ما يجعل مقدمات صناعة الدولة تفترض وجود الاطر والاسس التي تكفل شراكات سياسية تقوم على فاعلية الحوار والثقة ووجود البرامج والمشاريع الواضحة. خاصة اذا عرفنا ان مظاهر القمع السياسي واعدام الكثير من رموز القوى الوطنية القومية والدينية خلال الخمس والثلاثين سنة من عمر الدولة الاستبدادية هو الدليل الفاضح على تشوه ظاهرة صناعة الدولة واتساع الظاهرة الامنية القمعية في تاريخها وثم نهاياتها.

ان حديث الدولة العراقية يظل باعثا على الاسئلة ومثيرا للجدل دائما ، فهذه الدولة كمفهوم واجهت الكثير من الاشكالات المعقدة ،وخضعت لكثير من القراءات في اطارها السياسي والوطني ،وتلمست عديدا من التداعيات التي حملتها الصراعات السرية والمعلنة بين مكونات هذه الدولة عبر تاريخ تشكلها منذ عام ١٩٢١ والى اليوم ، ولعل ظروف وتعقيدات الدخول العسكري الامريكي للعراق في ٢٠٠٣/٤/٩ وانهيار نموذ ج الدولة الجمهورية التقليدية، فجرّت في حقيقة الامر الكثير من الاسئلة التي ارتبطت بصيرورة هذه الدولة ونشأتها وتحولاتها وصراعاتها....

فهل ثمة وجود للدولة الوطنية وتشكلاتها المؤسسية على ارض الواقع؟ وهل ثمة مفهوم فكري واجرائي يمنح هذه الدولة فكرتها الوجودية

وقوتها الاجرائية في سياقات التاريخ والمجتمع والهوية؟ وهل ثمة وجود اطار دستوري يشرع هذه الدولة في سياق حمايتها لفكرة المجتمع من التحلل وفي ضوء صياغتها وشكلها وادارتها؟ وماهي علاقة هذه الدولة بالتنظيمات الاجتماعية والمكونات الاثنية المتعددة ، مثلما هو علاقتها بمفهوم (الوطن) هذا المكون الاطاري والنفسي للجماعات او ربما للشعب كما يقول اصحاب الادب السياسي وعلاقتها بالمواطن(الفرد) الغائب وسط صراع الجماعات؟

هذه الاسئلة وغيرها تظل مثارا لجدالات واسعة وضعت مشكلة الدولة في صلب اهتماماتها، اذ انها تفترض اساسا صياغة موضوعية لافق ثقافي وسياسي يمكن ان يستوعب كل تشابكات وتعقيدات ازمة الدولة وتاريخ محنتها وانهيار نماذجها القديمة والمعاصرة. اذ انهيار الدولة الاستبدادية ليس هو انهيار لنظام سياسي فقط وانما هو انهيار لمنظومة كاملة من التفكير السياسي وانهيار عمودي لنموذج المؤسسة العسكرية المؤدلجة، فضلا عن انهيار نموذج الثقافة الشوفينية التي تؤمن بهينمة العصاب القومي واشكال وعيه وشروط هويته.

هذا التجوهرالمفهومي لاشكالية انهيار الدولة تمخض هو الاخر عن انهيار العوامل التقليدية/ الرسمية بكل مرجعياتها التاريخية والثقافية والصراعية التي انتجت هذه الدولة، انعكست بتداعياتها على البنية الافقية للمجتمع والظواهر السياسية، فضلا عن تحلل الكثير من مكونات وحدة المجتمع المكرسة بفعل هيمنة نموذج السلطة طوال عقود طويلة.

ان انهيار هذه الدولة مع كل خصائصها القمعية والشمولية والتوتاليتارية وما تركته من آثار كارثية على النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، كشف عن حقيقة معطى الدولة كوجود ومؤسسات وبرامج وقيم اخلاقية للمواطنة والشراكة باعتبارها المجال الحيوي الحاضن والمعبّر عن صيرورة المجتمع كهوية مركزية حاضنة لهويات ثانوية معبّرة عن مجموع الخصائص التي تربط مجموعات من الناس في اطار المصالح المشتركة التي تتكامل عبر مجموعة من العلاقات والوظائف باعتبار ان فكرة الدولة تقوم على اساس انها (ظاهرة اجتماعية لايمكن ان تنتج الاّ على اساس الهوية،من هنا فالهوية جوهر التفاعلات التي ينتجها تماهي مكونات الدولة في بوتقة مدنية كلية صاهرة لكافة تكويناتها الداخلية)١ ،او ربما هي (الوعاء السياسي القادر على اشباع التشوّف الانساني)٢ باعتبار ان الدولة كمنظومة سياسية وادارية ومعنوية هي الحاضنة لعدد من القوميات التي تشكل كيان الدولة ،اذ لاتوجد دولة مستقلة بقومية محددة أو عرق معين في عالمنا المعاصر...

ومن هنا نجد ان مشكلة هذه الدولة ظلت عالقة بمجموعة من المعطيات التي ارتبطت بطبيعةالمجتمع العراقي المتنوع الذي لم يشهد تكوّن دولة وطنية بالمعنى البنائي والمفهومي للدولة ،اذ ارتبط هذا المجتمع بمفاهيم غائمة للدولة ذات المرجعيات القبائلية السلالية بدءا من (دولة) المناذرة التي كانت خاضعة لامبراطورية

فارس، ووصولا الى البنية المؤسسية للدولة التي وضع اسسها الامام علي بن ابي طالب عند اختياره الكوفة عاصمة للخلافة الراشدية، وانتهاء بالشكل السياسي والصراعي للدولة العربية التي صاغها الامويون والعباسيون على اساس الاحتفاظ بالسمات العامة للشريعة الاسلامية،مع وجود الهامش السري لدولة الرفاهية والاباحة الجنسية ونظام القهر الاجتماعي والسياسي القمعي مع وجود مظاهر النظام الاجتماعي (القبل اسلامي) المحتفظ لمظاهرالعبودية وتجارة الرقيق، كل هذا كان يحدث في اطار الدولة الشمولية العصابية التي كانت تؤمن بالمركز والنظام الابوي..

ان هوية هذه الدولة ظلت ترتبط بهوية السلطة السياسية التي لاتؤمن بوجود المجتمع المدني او الحقوقي الذي يسمح بالتعدد والرعوية خارج توصيف السلطة وهيمنتها وشروطها !! اذ افرز هذا النمط السلطوي اشكالا متعددة ومعقدة من المهيمنات السرية لقمع الهويات والاثنيات وفرض شروطا على آليات الحراك الاجتماعي والسياسي، فضلا عن ان هذه الدولة في مفهومها الشمولي لم تكن تسمح باي شكل من اشكال النقد ازاء معادلات القوة التي تمنح شرعية وجود الدولة/ السلطة..

هذا السياق اعطى الكثير من الامتيازات للسلطة السياسية واضفى عليها طابعا عزز خطاب الحاكمية ووظائفها واساليبها في توصيف الحقوق والواجبات والحريات وتحديدها، وربط المجتمع السياسي عنوة بنوع معين من التشريع والثقافة الفقهوية على اساس ان ممارسة الحكم هي جزء من ممارسة نظام محدد للرعوية في اطار نظرية هذا التشريع بعيدا عن ايجاد اية صيغة لعلاقة المواطنة داخل الدولة، اذ ان المواطنة تشرع فكرة الفرد، في حين تقسر الرعوية وجود الفرد ضمن سلطة الجماعة...

ان الشكل التنظيمي الاجرائي لمفهوم الحاكمية سلطة الجماعة او سلطة الديكتاتور الممثل لسلطة الجماعة) انعكس على وجود فرضية ألدولة الشمولية التي استمرت الى بداية القرن الواحد و العشرين، على الرغم من ان الكثير من المؤثرات قد دخلت في واقع الحكم والادارة واسهمت في تفكك الكثير من الوحدات الادارية والسياسية للدولة القديمة ونشوء اطر تنظيمية شبه مستقلة ارتبطت بنظام الولاية عند العثمانيين وفيما بعد عند تشكّل الدولة الوطنية الاولى بمعونة البريطانيين. ولم يخضع العراق القديم الذي قسّمه العثمانيون آنذاك الى ولايات لنظام مركزي واحد، بل خضع الى مجموعة من الولايات التي يديرها ولاة عثمانيون وهي ولاية الموصل وولاية بغداد وولاية البصرة، اذ إن المفهوم السياسي للدولة الوطنية العراقية ظهر مع بداية الحكم الذي جاء بالملك فيصل الاول بن الشريف حسين امير الحجاز وامير الشام سابقا حاكما للعراق في ضوء التداعيات السياسية والطبوغرافية التي افرزتها صراع الاجندات السياسية في المنطقة وتوزيع الاستحقاقات بين القوى التي استأثرت بالبيت العثماني، فضلا عن النتائج المباشرة لمخاضات الحرب العالمية الاولى ومعاهدة سايكس بيكو..

إن نشوء الدولة العراقية التقليدية اقترن بصياغة نموذجها وفق (السستم) الانكليزي الذي

وضع سياقات اجرائية لشكل الدولة ولممارسة السلطة وتشكيل مراكزها الادارية والتشريعية بدءا من دعوة الملك الى تشكيل الحكومة بمرجعياتها النخبوية !! والدعوة الى بناء جيش نظامي مع الفوج الاول لهذا الجيش عام ١٩٢١ وصياغة الدستور العراقي الاول عام ١٩٢٥ وكذلك تشكيل البرلمان ومجلس الأعيان عدّا التركيبة الاساسية لصياغة نموذج الدولة التي تسعى الى شكل من اشكال السيادة عبر سنّ القوانين والتشريعات وتحديد الحقوق العامة للمواطنين وواجباتهم وصولا الى صياغة اطر الاحزاب السياسية النخبوية ،اذ عمد بعض القادة الى تمثل نموذج الحزب الانكليزي في وضع هيكلة الحزب المرتبط بهيكلة الدولة، وهذا مافعله كامل الجادرجي مثلا حين وضع الاطار البنائي والتنظيمي لحزب العمال البريطاني نموذجا لصياغة الحزب الوطني الديمقراطي العراقي..

ولكن غياب ثقافة الدولة وعدم رسوخ شكلها في الواقع والتجربة والافتقار الى رؤية واضحة لادارتها كنظام ومؤسسات تحفظ حقوق الامة ،اسهم في وضع مصدات امام صياغة موضوعية للدولة العراقية بسبب عزوف العديد من رجال الدين الذين يملكون تأثيرا واسعا على قطاعات واسعة من الجماهير الفقيرة، عن المشاركة في مأسسة هذه الدولة، إذ عمد الانكليز الى صياغة لوازم الدولة الوليدة من خلال مجموعة من النخب السياسة والقبلية والتجارية دون الالتزام بالشروط الموضوعية التي تفترض مشاركة جميع مكونات الشعب العراقي وبناء صيغ واطر لشكل من اشكال المواطنة الصالحة التي تكفل الحقوق والواجبات وتؤمن بمبادىء العدل والمساواة والحرية وتكافؤ الفرص، حيث تم التغاضي عن دور الكثير من القوى الرافضة للمشاركة في (اكمية) هذه الدولة الجديدة وعدم القناعة بمشروطيتها الدستورية وذلك عبر تهميشها كنوع من العقاب السياسي والاداري لدورها في احداث ثورة ١٩٢٠ ومواجهاتها مع القوات الانكليزية ،فضلا عن عدم قناعة هذه المكونات بان الانكليز هم البديل المناسب عن الحكم العثماني الذي كان اسلاميا رغم طبيعته القهرية والطائفية....

ان تاريخ هذه الدولة مع طبيعته المشوهة، وخضوعه الى مجموعة من المعاهدات السياسية والامنية ،لم يكن تاريخا عنفيا بالمعنى الشامل للعنف السياسي والاجتماعي، إذ لم تشهد اية منطقة او مدينة في العراق اية نزعة للعنف او الحرب الاهلية بين مكونات الشعب العراقي ،وان كل الازمات والصراعات والمواجهات كانت ذات طابع وطني واحيانا ذات طابع ايديولوجي خاصة بعد نشوء الاحزاب السياسية في الثلاثينيات والاربعينات وطبيعة ما طرحته من شعارات وخطابات، فضلا عن طبيعة المجتمع العراقي العشائرية والدينية التي وضعت الكثير من الضوابط والضواغط على الحراك الاجتماعي للكثير من القطاعات، وكانت المدينة العراقية محكومة بمجموعة من العلاقات الاجتماعية التي اخفقت ازاءها (طبقات الملاك والتجار التقليدية في العراق خلال العهد الملكي من حيث الاساس في تكوين وعي طبقي بسبب الانقسامات الطائفية والاثنية وغيرها

من الانقسامات الاخـرى في صفوفها هي نفسها بالدرجة الرئيسية، ولكن ايضا بسبب عدم اندماجها بالدولة العراقية اندماجا كافيا لادراك اهمية التحولات الاجتماعية والاقتصادية)٣..

وفي ضوء نشوء الدولة الثانية بعد احداث ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ التي افرزت نوعا من الحكم ذات المزاج الشعبي ،لكنه المتجوهر في اطار الظاهرة العسكرية التي جاءت بنخب جديدة غير مألوفة ومتداولة في الحياة العراقية، اسقطت شكل الدولة الليبرالي القديم (الملك والبرلمان،والدستور،والتعدد ية الحزبية والصحفية) وازاحت الكثير من مظاهر نظامها الاجتماعي والطبقي والسياسي، ومهدت الطريق فيما بعد لنشوء الدولة الامنية القمعية الانقلابية .. ولاشك ان هذا الشكل الجديد للدولة العراقية لم يحمل معه مقومات استمراريته وحيويته وبرامجه السياسية، اذ سرعان ماتحول الى نظام مواجهات مع ذات القوى العسكرية التي اسهمت في انتاجه، بدءا من احداث الموصل عام ١٩٥٩ والقضاء على انقلاب عبد الوهاب الشواف بطريقة دموية ومارافقها وتبعها من احداث دموية في الموصل وكركوك وبغداد ،وكذلك القضاء على حركة الضباط الانقلابية بقيادة رفعت الحاج سري وناظم الطبقجلي وغيرهم، وانتهاء الودّ بين قائدي حركة الضباط الاحرار عبد الكريم قاسم وعبد السلام محمد عـارف التي قادت ثورة ١٤ تموز، فضلاً عن الموقف الاشكالي الذي اتخذه الزعيم قاسم ضد رموز الحركة الشيوعية العراقية ومنهم قائد الحزب (سلام عادل) هذا الوقت الـذي تسبب فيما بعد الى تصفية سلام عادل من قبل سلطة البعث الانقلابية عام ١٩٦٣ بطريقة مريعة. وهذا المظهر ذاته الذي تكرر مع اعدام قادة الحزب الشيوعي العراقي عام ١٩٤٩، أي ان الجوهر الامني للدولة العراقية ظل هو الشفرة السرية او الجينوم الذي حمل جسد الدولة غير المكتملة الشرعية،وغير المكتملة المؤسسات، وهذا بطبيعة الحال اسهم بطبيعة الحال في تفكيك دولة الجمهورية الاولى وتفريغ محتواها الوطني والتنظيمي ومهد الطريق للقوى الانقلابية ذات المزاج القومي لكي تشرع خطابها السياسي والايديولوجي وحتى الطائفي !! تحت ايهامات ثقافية وشعاراتية سوقتها قوى سرية عملت على (صناعة) تهم واشاعات تتهم الثورة ورجالاتها ونمط ثقافاتها بالشعوبية المعادية للعروبة والمدّ القومي الذي كان حاضرا بقوة في الخيال الشعبي العربي وحتى في اجندة بعض القوى السياسية، وهو ماساهم في تخليق فضاء معاد اربك توجهات الثورة الضعيفة وقيادتها المحدودة الخبرات وسوء ادارتها لمعطيات الواقع السياسي الاقليمي والدولي ومعطياته وتداعياته.

ان العراقيين في سياق التعاطي مع تشكلاتهم الجديدة ضمن صيرورة الدولة المعاصرة، كانوا يبحثون عن حلول سحرية لوجودهم ولمشكلاتهم وازماتهم التي تركتها الدولة التوتاليتارية القديمة، التي وضعت وعي الكثير من نخبهم السياسية والثقافية خاصة تلك النخب التي تشكل منظومها المؤسسي في المنفى، امام مجموعة من التداعيات والتوليدات القهرية القائمة على فكرة هيمنة المركز، ازمة الهوية، التي وردت كثيرا

في طروحاتهم حول صناعة الدولة ومستقبلها خاصة خلال مؤتمراتهم التي رسمت شكل هذه الدولة واطارها القائمين على اساس تفكيك المركز او تجريده من صلاحيته القديمة، واعادة قراءة الهوية على اساس تفكيك الهوية القديمة الى هويات ومكونات واثنيات متعددة، هذه الازمات تركها السياسيون القدامى والمعاصرون للاسف!!! دون حلول ناجعة واكتفوا بالجلوس الاضطراري عند اسرار صناديق الدولة الشمولية بمواصفاتها الرعوية العسكرية والامنية والديكتاتورية واخيرا بمواصفات الدولة المحتلة!!

ويبدو ان هذه الحلول السحرية لم تكن قرينة بادراك خطورة التحولات التاريخية والبنيوية في مفاهيم كان العقل العراقي يضعها في سياق اشكالوي دائم، بقدر ما تمثل محاولة للاحتفاظ بالشكل الاخلاقي للدولة في معاملاتها وسياقاتها وعلاقاتها ونظمها في العمل والحفاظ على المال العام،خاصة وان العالم المعاصر له قياسات شكلية في تعاطي هوية المواطن على اساس التجنيس السياسي الخارجي، إذ ان اغلب دول هذا العالم ومنها الدول العربية محكومة باطر سياسية تقوم على شكل من ادراة الحكم المركزي.. ازاء هذا نجد ان مفاهيم مثل السلطة والدولة والحرية والتعددية والاحزاب والهوية الوطنية والمرّكب الاثنوغرافي للمجتمع العراقي ،كانت خاضعة لمعايير ثقافية واعتبارية اكثر منها اجرائية وتشريعية وقانونية ،فالمجتمع العراقي مثلا كان خاضعا طوال عقود طويلة الى نوع من العلاقات المحكومة بفكرة المهيمن السلطوي بمرجعياته السياسية والدينية وطبائعه الاستبدادية التي تؤمن بوحدة الوجود ووحدة الهوية، ان علاقة الفرد بالدولة/ السلطة هي علاقة خضوع تام ومرتبطة بمعان اقرب الى مفهوم الانتماء العرقي والقومي والديني وربما التجاري، إذ تشكل النخب الدينية (الملك ورجال الدين والفقهاء) سلطة مهمة اعتبارية واجتماعية وسياسية، مثلما تشكل النخب التجارية (التجار وابناء العوائل الثرية من ابناء المدن وابناء شيوخ القبائل في الريف واصحاب رؤوس الاموال) سلطة اكثر ضغطا على الطبيعة السكونية للمجتمعات الفقيرة التي تتغلغل فيها مهيمنات الخيال الشعبي وثقافة القوة المقدسة !! وقد كان لهذه العوائل الدور الفاعل في خلق قوى اجتماعية وثقافية وعسكرية شكلّت فيما بعد الاطار المهني للنخب الادارية التي تقود المجتمع ،اذ اسهمت هذه النخب في تشكيل ملامح الادارات الوظيفية في المجتمع ،فاغلب ألاطباء والمهندسين والمحامين والعلماء واصحاب رأس المال التجاري والقادة العسكريين كانوا من ابنائها ..وهذا بطبيعة الحال خلق اطارا لشكل الادارة في الدولة ،فضلا عن عملية عزل طبقي واجتماعي واعتباري تعززه انماط الثقافة الشعبية وخيالاتها واوهامها ومخاوفها التي تؤله فكرة الاب ورجل الدين والشيخ وصاحب الثروة وفيما بعد الضابط الذي تحول الى رمز اجتماعي تعويضي ،خاصة مع بروز شخصيات وضعت فكرة البطولة/ كرة الانقلاب في خدمتها وتعزيزا لكارزميتها ،بدءا من جعفر العسكري وطه الهاشمي ونوري السعيد، وصولا الى عمر علي وعبد الكريم قاسم...

لم يشهد العراق احكاما واعرافا تؤسس فكرتها على اساس فلسفة المواطنة بمعناها الشامل الذي تشرعه آليات الحكم في الدولة الحديثة على اساس ان هذه المواطنة علاقة سامية بين الفرد والدولة تتضمن الحقوق والواجبات والسمات الاجتماعية والسياسية باتجاه تحقيق المصالح المشتركة وضمانها للافراد والجماعات ،والمحافظة على التنوع الاجتماعي والاثني، إذ كانت الى ،بقدر ما انطلقت من ازمة غياب الشكل الاطاري للدولة ،و محنة النكوص في شكل تلك الدولة التي تغلغلت في ادق تفاصيل المواطن والمجتمع وبنياتهما السرية، واستعارت هذه الحلول الكثير من افكارها وسياقاتها وحتى اوهامها من نمطية الخطاب الثقافي العراقي القديم الذي ارتبط بالخطابات الايديولوجية والحزبية للاحزاب العراقية وبداهات طروحاتها حول شكل الدولة وعلاقاتها وطبيعة هويتها السياسية والتنظيمية، التي كرستها فيما بعد قوى المعارضة العراقية التي بدأت سلسلة طويلة من الاجتماعات والبنيات التنظيمية بدعم غربي اعلامي ولوجستي واضح ،فضلا عن دعم دول الجوار التي كانت ترى في الدولة القومية العراقية بصياغتها العسكرية خطرا عليها ،وعلى امنها السياسي وعلى طبيعة المعادلات العسكرية والامنية والسياسية في المنطقة ،وهذا طبعا هو احد الاسباب البارزة التي دعت الكثير من الدول العربية المجاورة للعراق والبعيدة عنها تدخل في الحلف العسكري والسياسي الذي تشكل بعد دخول العراق الى الكويت ،واخرا ج جيوشه منها عام ١٩٩١ في حرب عاصفة الصحراء التي كانت قيادتها الميدانية تضم قادة عسكريين من النخب العربية!!!

ان المعارضة العراقية على مشروعية توجهاتها، لم تكن تملك خطابا واضحا ازاء الطبيعة المعقدة للنظام العراقي الذي كان يكرس نظامه السياسي على اسس امنية صارمة،اكثر من الاسس الايديولوجية ،وكان يعمد الى بناء شكل من اشكال (الدولة السرية) داخل بنية الدولة الرسمية.. ولاشك ان هذه الدولة السرية او الدولة الامنية كانت تؤسس على اسس منهجية وتنظيمية معقدة وفي غاية من السرية خاصة بعد ان ادرك النظام السياسي العراقي هشاشة المحيط العربي، وعدم قدرته على صناعة ما يسمى بالامن العربي السياسي والعسكري، والسوق الاقتصادي العربي، فضلا عن سعى النظام السياسي العراقي للبحث عن دور اقليمي أمني يقوم على اساس صناعة القوة الغاشمة بما فيها صناعة اسلحة الدمار الشامل وفرض مفهوم استحواذي نظرية الامن العربي المشترك من خلال غزو الكويت وتهديد دول اخرى بذات المصير، فضلا عن الدولة العسكرية التي خرجت من الحرب العراقية الايرانية باوهام القوة واوهام التسليح والتصنيع العسكري الذي حوّل عشرات المعامل المدنية الى معامل لانتاج الاسلحة التي اثبتت فشلها فيما بعد!!! ولعل هذه الدولة (المتعسكرة) ارادت ايضا ان تقطع الطريق على نشوء اية قوة منافسة في المنطقة تقابل اسرائيل الدولة والترسانة..

ان خروج الدولة العراقية العسكرية عن سياق التقاليد والاعراف الدولية جاء على الرغم من

نمطية الخطاب السياسي العروبي وفرضية الاطار القومي التي تم الاتفاق فيه على عشرات الاتفاقيات التي منها اتفاقيات الدفاع العربي المشترك وعدم الاعتداء وقواعد العمل في الجامعة العربية، الاّ ان هذا الخطاب وطبيعة الدول العربية كانت كثيرا ما تتواطأ في اطار حساب مصالحها الامنية والسياسية والاقتصادية مع الغرب الامريكي والاوربي في سياقه السياسي والاقتصادي وحتى الامني اكثر من ارتباطها بمحيطها القومي، ولعل وجود الاتفاقيات الامنية مع دول الخليج العربي مع وجود القواعد العسكرية الكبيرة على اراضيها ،فضلا عن المعونات المادية الكبيرة التي تقدم لبعض الدول العربية خاصة الاردن ومصر وتونس تؤكد هذه الحقائق.. لذا فان الدولة العراقية التقليدية تجد نفسها امام محيط مقفل ومرتاب خاصة بعد مخضات الحرب العراقية الايرانية التي اسهمت في خلق جيش عراقي كبير وواسع ذات خبرات كبيرة لاتتناسب مع طبيعة المعادلات السياسية والامنية في المنطقة!! وهذا ما قاله احد الرؤساء العرب للرئيس ياسر عرفات القريب من النظام العراقي (ماذا سيفعل صدام حسين بجيشه بعد ان انتهت الحرب) وهذا ما حدث بالفعل ،فالحرب العراقية الايرانية العراقية التي كلفت العراق اكثر من ٧٠٠ مليار دولار مع مديونية ضخمة انهكت الاقتصاد العراقي ودمرت مخزونه من العملات الصعبة ،مع وضع تنموي هش لايستوعب الاعداد الكبيرة من الجنود الذين لم يعد الجيش بحاجة اليهم بعد انتهاء الحرب ،فضلا عن وجود عمالة عربية كبيرة هيمنت على اغلب القطاعات التجارية والخدماتية خاصة من المصريين والمغاربة في القطاع الزراعي، وربما كانت هذه الاسباب مؤثرة في مغامرة النظام السياسي للدخول الى الكويت ،ليس تبنيا لنظرية المغامرة العسكرية التي بدأت تقلق اغلب الانظمة العربية ،وتثير حفيظة الغرب السياسي والعسكري خاصة مع فشل الحرب العراقية الايرانية في تغيير هوية النظام السياسي الايديولوجي والديني في ايران ،فضلا عن صعود نجم الافكار المتطرفة في مناطق باكستان وافغانستان والطوق الاسلامي للدول التي كانت منضوية في الاتحاد السوفيتي السابق، نما لخلق امتدادات معقدة لشكل من الادارة السياسية التي تفترض صناعة قوة اقليمية جديدة ذات نزعات اسبارطية في مفهوم القوة وذات طموحات قوية تماثل دولة بسمارك التي مهدت لصنع دولة المانيا القومية.. وربما تجد بعض الدوائر المخابراتية ان دخول العراق في الكويت مع ظاهره السياسي والعسكري، يعد في جوهره فخا!!! ان اسقاط فكرة هذه الدولة الافتراضية وكبح النزوع العسكري للنظام التوتاليتاري واسقاط هيبته امام الرأي العام الشعبي الذي وجد في صورة هذا النظام شكلا استعاريا للدولة العربية القديمة التي صنعت لنا مثيولوجيا النصر في الذاكرة الشعبية... قابل ادخال المنطقة في فلك حروب وازمات ثانوية تجعلها قريبا من الى مراكز القوى الامريكية الغربية عبر علاقات ومعاهدات سرية ومعلنة!! وان تعد صفقات هائلة من الاسلحة التي قدرت قيمتها بمئات المليارات من الدولارات تحسبا لحروب مفترضة، وان تخلق طوقا امنيا ضد

الطموحات الايرانية في المنطقة...... نحى استعارة بعض شفراتها وتصورتها من اجندة المثقفين الحالمين وسياسيي الحداثة!! الذين يتعاطون مع شكل استعاري لمفهوم الدولة القوية التي انتجتها النخب البرجوازية في اوربا القرن التاسع عشر، مثلما استعاروا شكل الدولة الرومانسية المفترضة التي طرحتها الاحـزاب الماركسية ما بعد الحرب العالمية الثانية بنموذجها الشمولي التعويضي المهيمن على السوق والسلطة والثقافة والايديولوجيا، تلك الشفرات التي يمكن ان تفك بعض طلاسم ملفاتها واسرارها، ليس لان المثقفين العراقيين اصبحوا الان جزء المشكلة!! بعد تاريخ طويل من الطرد المنهج والعزلات الطويلة، بقدر ما هو رغبة في استنفار كل القوى بقطع النظر عن تاريخ مرجعيتها في الطرد والاقصاء...

ان ماحدث في العراق هو انهيار تاريخي كبير لنسق الدولة القديم على ايدي اعتى امبراطورية عسكرية وامنية، وهذا ما يعكس بالضرورة حجم المشكلة السياسية والبنيوية التي تفرض وعيا ثقافيا عاليا ازاء صيرورة الدولة الجديدة وقدرة نخبها السياسية على ان تتبنى مسؤوليات تدرك الاسباب والنتائج ،فضلا عن الحاجة الى برنامج وطني واضح وعميق يتجاوز اشكالات الواقع السياسي وعدم التوافر على معطيات فاعلة في التعاطي مع أجندات ادارته ،باتجاه اصطناع الانساق الحيوية للفاعلية السياسية والاقتصادية وحتى الامنية!!! التي يمكن ان تضع تصورات عميقة ،تقارب عمق الازمة، إذ اننا نجد أيضا ان جاهزية، السياسي التقليدي والسياسي الجاهز!! تحتاج الى الكثير من الضرورات الملزمة لكي تؤسس لنفسها نظاما اجرائيا وبرامجيا يمكن ان يجترح لنفسه فضاء في الادارة السياسية والمهنية المكشوفة والقائمة على اساس استحقاقات صناعة الدولة الوطنية التي تؤّمن لمواطنيها العيش والرفاه والسلام الاجتماعي..

يكن جوهر المشكلة الوطنية في مشكلة هذه الدولة!! اذ يحاول الكثير من القوى السياسية الجديدة ان تتعاطى مع مشكلة وجودها والقناعة الكاملة بها وفق تصورات غير مأمونة التطبيق!! لاوجود لها في المزاج الوطني العراقي، ولا ثقة كاملة للقيمين عليها بمستقبلها في مواجهة تحديات مرحلة الاحتلال وما بعدها واستحقاقاتها في تشكيل البنية الاطارية للدولة المستقبلية التي يتفق عليها الجميع مع ان الكثيرين منهم لم يبادروا لفتح افق حقيقي لحوار جدي يناقش ادق الخفايا واعقد المشكلات التي برزت كظواهر واستحقاقات واصطفافات في ضوء (تضخم) ظاهرة الخطاب التاريخي وظاهرة الارهاب السياسي كأزمات خلفية لصراعات العقائد والايديولوجيات التي تتمترس خلف اغطية من الايهامات السياسية والدينية على الرغم من ان جوهرها يقوم على اساس انهيار الدولة الشمولية القديمة، لما ان الخطاب السياسي المعلن داخل اجندة القوى التي شاركت في مؤتمرات المعارضة العراقية في لندن وصلاح الدين قد وضع برنامجا لم تتوافر له الاسباب الموجبة للنجاح واستسهالها بناء الاطر الامنية القوية خاصة بعد دخولها التراجيدي في العملية السياسية المعقدة والمفخخة بكل (بارود)

المرحلة السياسية الجديدة!! التي لم تضع في حساباتها الكثير من عقد تراكم السياسات المحلية وماصنعته من (ارخبيلات) غير متجانسة داخل الجسد الاثني والطبوغرافي للمجتمع العراقي فضلا عن ضرورات القراءة الوافية والدقيقة لتحولات نمط الدولة والادارة السياسية في اطرها العسكرية والايديولوجية والديموغرافية و استحقاقات وجودها في اطار انتماءاتها المعقدة والغرائبية في اطار محيطيها العربي والاسلامي، حيث كشفت الوقائع والمعطيات عن غياب اية مسؤولية حقيقية لهذين المحيطين في التعاطي مع تحولات وشروط صيرورة الدولة العراقية ،فهذه الدولة خضعت لشروط اسنادية من المحيطين في اطار صراعها العسكري مع ايران خلال الحرب العراقية الايرانية، وخضعت لشروط عقابية في اطار احتلالها لدولة الكويت وصراعها المفتوح مع نظريات الامركة في اعادة صياغة العلاقات الدولية بعيد عن شروط الحروب الباردة في التساهل مع ما يسمى بنظرية توازن الرعب وامتلاك الاسلحة المهددة للستراتيجيات الامنية.... وهذا المحيطان يمارسان الان ذات الدور العقابي مع زوال الاسباب الموجبة في نظرية توازن الرعب، لان طبيعة هذه الدولة الجديدة اقترحت لنفسها هويات وجودية انتهكت في ضوئها النسق التقليدي لمرجعيات ألسسيولوجيا السياسية التقليدية والثابتة في اطار تاريخ السلطة العربية القديمة وعقلها التدويني والفقهوي.

ولاشك ان حديث الدولة الجديدة في سياق ازمة وجودها، ازمة صناعتها للنظام القابل للاندماج مع محيطه الاشكالي ،لايمكن ان يكون خاضعا للتداول الا في اطار فك الاشتباك ما بين مفهوم الدولة المتخيلة ومفهوم الدولة الواقعية ذات العلائق الواضحة وغير الخاضعة لشروط التابو التاريخي...

ان مفهوم الدولة العراقية في ضوء هذه المعطيات يظل مفهوما منتجا للازمات!! أزمات في الانتماء وازمات في الوجود وازمات تواجه تكوين الدولة ذات التنوع العرقي والقومي!! ولاشك ان صيرورة هذه الدولة ستواجه ايضا الكثير من المواجهات والصدامات ،لانها ستكون دولة (الوعي الشعبي) وهذه الدولة هي مضادة لفكرة الدولة التاريخية القائمة على اساس (الوعي المؤسسي) في اطار التاريخ وفي اطار المكان فإن الثقافة الشعبية ومرجعياتها السسيولوجية والطوبوغرافية لاتعرف شيئا عن الكثير من معطيات ما طرحه الخطاب السياسي الجديد وطبيعة التغيرات التي وقعت امام لعبة تفكيك هائلة لمنظومة معقدة من الاشكالات السياسية والاجتماعية والثقافية، اذ وجدت هذه الثقافة نفسها فجأة امام مجموعة من الاجندات الصراعية والمفاهيم الغائمة والمكرسة في المؤسسة الدينية الرسمية ومناهج التدريس والخطاب الاعلامي ،فضلا عن تداول الخبرات التقليدية التي لاتعدو ان تكون نشاطات وممارسات ذات ابعاد وتوجهات تعزز الفاعلية الثقافية والايديولجية للمؤسسة الرسمية المحكومة باطر ثقافية وانفعالية تنتمي الى مفهوم فلسفة البنية القديمة للدولة والادارة السياسية القائمة على مرجعيات كرستها مجموعة من الاستحقاقات الصراعية في

المجتمع العراقي المغلق!!! وليس الى وقائع اجرائية تتعاطى مع وقائع التحولات والانزياحات الحادثة في البنية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والديموغرافية في بنية المدينة العراقية خاصة مدينة مركزية مثل بغداد، اذ خضعت هذه المدينة الى تحولات عميقة وتغايرات دخلت في عمق البيئة السكانية المتضخمة ومنظوماتها الاجتماعية وتركيبها وعلائقها التي بدأت تفرض شروطها وتأثيراتها على الجسد الاجتماعي الذي بدأ الكثير من انظمته يتفكك امام عوامل التعرية الاجتماعية الحادة التي تتلمس وجود وسط واقع اشكالي سقط فيه نسق الدولة القديم بكل تراكماته ومؤسساته وانظمته..

ولاشك ان هذا ترك الكثير من الاثار والتداعيات على النظام الاجتماعي والعلائقي للدولة الاجتماعية!! فضلا عن تأثيرها على منظومة الدولة السياسية التقليدية التي انتجتها العلاقات المدينية منذ اكثر من ثمانية اعوام!!! وانعكست طبعا على تفكيك المتن السياسي/ والاجتماعي/ والطبقي!! وصعود هوامش طبقية واجتماعية اجترحت لها هويات ثانوية انعكست فيما بعد على صياغة تشكيل الظاهرة السياسية والحزب السياسي ومكونات الطبقة الاجتماعية التي تحول هامشها الى (متن) ضاغط ومتسع لادوار فاعلة لقوى اخرى جديدة بات تدخل المشهد الصراعي..

وازاء هذه التحولات الفاعلة في المشهد الاجتماعي الصراعي، أخذ الكثير من الظواهر الجديدة تشكل امتدادا اجتماعيا ووجوديا لصراع القوى الاجتماعية والسياسية بين الاحزاب السياسية وبين النخب الثقافية وحتى داخل الكليات والاحزاب والمقاهي، وهذا انعكس بالضرورة على سوء الاعداد للادارة السياسية الجديدة بقطع النظر عن النوايا ،واغواءات البرامج السياسي واطرها التي توحي بصيرورة دولة ليبرالية حداثوية تملك تشريع وجودها عبر الدستور والديمقراطية والانتخابات وتعددية القوى السياسية، مع انها في الجوهر تمثل امتدادا لمجموعة من الموجهات والمهيمنات التي تحركها القوى الدولية المهيمنة عبر المعاهدات والمواثيق التي تعطي لهذه القوى الحق في التأثير على الخيارات السياسية والاقتصادية......

ان ازمة الدولة الجديدة هو وعيها بازمة المهيمن !!وتاريخية شروطه التي عاشتها الدولة العراقية الانقلابية التي تشكلت ملامحها بعد ثورة ١٤/ تموز/ ١٩٥٨، التي افترضت ان العودة الى الدولة المدينية هو الشروع بالتفكيك السياسي الممنهج لكل برامج الدولة الانقلابية ،وتيسير المجالات القانونية والتشريعية والمادية لانشاء ما يسمى بالحراك المدني لانشاء المؤسسات التي تكون بديلة للمؤسسات القمعية القديمة والمترهلة ومنها مؤسسات الجيش والامن الداخلي والقضاء!!! ولكن ما حدث هو ان تمظهرات البنية السياسية للدولة الجديدة انكشفت عن وقائع وعقد وترسبات عملت الدولة القديمة عبر نظامها القمعي ومؤسستها الامنية الصارمة على كبتها ومنع تسربها الى اجندة الادارة السياسية ،وهذا بطبيعة الحال اسهم في انتاج اشكالات تفوق قدرة الدولة الجديدة وتتجاوز احلامها كثيرا، فضلا عن وقوعها في

اشكالات اخرى اسهمت ايضا في تعطيل نشوء ما يسمى بالدولة المهنية ودولة الخدمات من خلال التعاطي القاصر مع الكثير من الظواهر وتراكم السياسات القديمة وتداعيات مرحلة ما بعد الاحتلال التي تركت (جيوشا) وظواهر متضخمة من المؤسسات المدنية والحزبية والعسكرية عاطلة وفاقدة لسياقها الاداري والمادي يمكن ان تتحول خارج الموجهات الى قوى قهرية ضد الدولة الجديدة!!! وتتحول ايضا الى قوى للبطالة المقنعة التي تثقل الكاهل الاقتصادي للدولة الجديدة وتؤثر على الكثير من برامجها ومنها برامج التنمية الاجتماعية والمهنية والثقافية... اذ ان الدولة القديمة كانت دولة (معسكر) تؤمن بنظام التطور الافقي الذي شرع لنفسه نظرية التطور اللارأسمالي المشوهة، مثلما شرع لنفسه نظام العسكرة التقليدي الذي يقوم على اساس تجييش الطاقات البشرية في سياقات غير فاعلة!! وتحريف التنميات الاجتماعية عن هدفها البنائي الى اهداف غائمة لاشأن لها سوى تأجيل حلول الازمات وربط الاقتصاد الوطني بدائرة معقدة من العلاقات الدولية المأزومة ونظام غير منته من المديونيات التي تحول الى عبء كبير، وكان من ابرز المشاكل الذي عانت منه الدولة الجديدة!!!!

ان وعي المتغيرات يفترض وعيا بحجمها!! ويتطلب مسؤوليات عالية على مستوى تجاوز الازمات البنيوية العميقة للدولة القديمة!! ومنظوماتها في انتاج الايديولوجيا الشمولية والاقتصاد المشوه والصراعات الازموية مع دول المحيط!! وتضخيم البنية الاقتصادية بصناعات غير فاعلة وذات بعد عسكري وقيم غير استثمارية، وكذلك على مستوى الادارة والتنمية والبنية الاجتماعية والسياسية فضلا عن البنيات السرية التي كانت تمثل جوهر النظام القديم!! وحولت البلاد الى دولة عائمة ذات مرجعيات مشوهة، وذات نظام مركزي صارم لاشأن له مع اسئلة الدولة المعاصرة او نظم وتطبيقات الفدرالية ولا خبرة لها مع المجتمع المدني ونمط الاقتصاد الاستثماري المبرمج، وان كل ما يعرفه المواطن الطيب والسياسي التقليدي ان بلاده خاضعة الى جغرافيا موحدة وذات ايقاع رومانسي اسمها العراق بكل ماتعنيه من عمران ثقافي وسكاني وقانوني، وهي مرجعه الرسمي الذي يعود اليه كلما حضرته الازمات وداهمته سخونة الحروب والمحن، بقطع النظر عما تفعله هذه الدولة في ظل هذه المهيمنات من فرض انماط معقدة للعلاقات السياسية والاقتصادية والقانونية التي اسهمت الى حدّ ما في تفكيك الكثير من المنظومات الاجتماعية والاقتصادية والعلمية بسبب زخم الحروب المعقدة والطويلة وطبيعة الازمات البنيوية المؤثرة في البنيان الاجتماعي حيث مهدت الطريق طبعا لكل التداعيات الاجتماعية الخطيرة في مرحلة ما بعد سقوط الدولة الشمولية...

ولاشك ان مرحلة الاحتلال قد فرضت هي الاخرى انماطا معقدة من السياسة وفروضا جديدة من الادارة السياسية التي اقترنت طبعا مع كل التداعيات الحادثة في نسق الدولة القديمة مثلما فرضت واقعا امنيا واجتماعيا اكثر تعقيدا!! فضلا عن ما رافقها من صياغات اشكالية لشكل

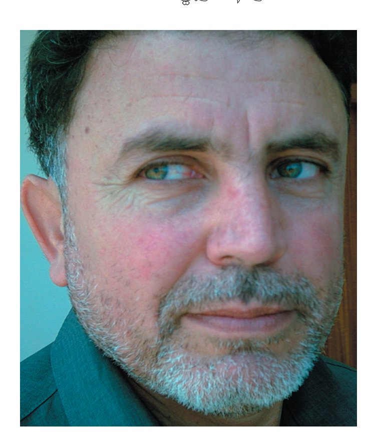
الدولة المحتمل والخاضع لقياسات قسرية لم يطمأن السياسي والمثقف لطروحاتها اطلاقا، اذ هي سياسة توافقات ومحاصصات وتحتاج الكثير من التمرين على (الكاتلوك)! فضلا عن ازمتها العميقة بسبب الطبيعة المعقدة لـ(صناعية) الخطاب الامريكي الجديد في مرحلته المحافظة!! حيث يقوم على تفكيك المراكز القوية باعتبارها مراكز معادية ومناهضة لفكرة السيطرة وثقافة السوق البضائعي والسوق الثقافي!!! وهذا بطبيعة الحال ينعكس على اعادة انتاج مكونات الامة والوطن والجغرافيا واللغة والدين على اساس تمثلها لجوهر المكان الوطني الواحد الحامل للتعدد والتنوع...

ان التعاطي مع مشكلة الدولة العراقية!! يعكس ازمة ادارة الفعل السياسي وازمة انتاجه في اطار وعي وعي مشكلة الدولة اساسا و في اطار التبشير بالدولة الجديدة، كما يعكس ايضا ازمة التعاطي مع خطورة المشكلات المعقدة جدا التي حدثت بعد زلزال ٢٠٠٣/٤/٩، اذ قسرت تداعيات الاحداث مفهوم الدولة في حدود البحث عن الدولة الامنية، التي يمكن ان توفر غطاء يحمي التشظيات التي حدثت في المركز الامني والسياسي القمعي، ويعيد انتاج مفاهيم ثقافية واجرائية تستوعب تشظيات المكان السياسي والمكان الاثني والطائفي وتشظيات الهوية الثقافية، وطبعا اسهم البحث عن الدولة الامنية هشاشة في البحث عن الدولة السياسية التي يمكن تضع الدستور والانتخابات في سياق موضوعي يفعّل موضوعة الدولة ويمنحها المزيد من القوة السياسية والادارية التي تستوعب التشظيات المتعددة على اساس توظيف مفهوم الدولة العادلة والعاقلة، الدولة التي تنتج الحماية بقدر انتاجها للقوة، أي اننا ازاء الكثير من الاسئلة نجد انفسنا اما حقيقة نبحث عن وجود المهنية ودولة الخدمات التي ترسم الافق لمشروع الدولة الجديدة بعيدا عن فنطازيا الدولة التي يركض خلفها الجميع..

١-حسين درويش العادلي/ العراق وثلاثية الهوية والدولة والمصالحة/ مجلة المواطنة والتعايش/ العدد١/ السنة الاولى/ شباط ٢٠٠٧.

٢-فالح عبد الجبار/ هشام محمد/ الثنية والدولة/ ترجمة عبد الاله النعيمي/ بيروت ٢٠٠٥ معهد الدراسات الستراتيجية. ص٥.

٣-ذات المصدر ص٢٤.



# مقترحات الاثوريين على مشروع الحكم الذاتي لكوردستان

د.فرست مرعي

في سنة ١٩٧٤ تقدم لفيف من الناطقين بالسريانية (الاشوريون) بتقديم مقترح الى الرئيس العراقي الاسبق احمد حسن البكر، ثمنوا فيها دعوة القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي لهم لحظور مناقشة المشروع الذي اعدته الحكومة العراقية حول الحكم الذاتي لمنطقة كوردستان. وقد استغل المثلون الناطقون بالسريانية (الاشوريون) هذه الفرصة لتقديم اقتراح لمنحهم الحكم الذاتي للمنطقة التي يزعمون انهم يشكلون اكثرية سكانها، وهي دهوك وانحائها، بعد ان تمنوا للشعب الكوردي بالتوفيق في تمتعه بالحكم الذاتي.

وجاء في مقترحات هؤلاء انهم سبق وأن قدموا مقترحاً بهذا الصدد يرجع الى سنة١٩٣٢ وتحديداً في ١٦ حزيران، حين طالبوا بايجاد وطن قومي لهم في العراق يتكون من مناطق: زاخو ودهوك وعقرة والعمادية، اي محافظة دهوك، وان تكون هذه المنطقة سياسياً وادارياً منطقة آثورية (آشورية).

لذا من المنطقي عرض المطالب التي قدمها البطريرك مار شمعون زعيم الطائفة النسطورية (الاثورية)وبقية زعماء الاثوريين في مؤتمر سرعمادية() في ١٥-١٦ حزيران ١٩٣٢، وهذه المطالب هي:

١- الاعتراف بالاثوريين شعباً مقيماً() في العراق

وليس اقلية دينية او عنصرية.

٢- يجب اعادة مواطنهم في هكاري.

٣- في حالة عدم تنفيذ ما جاء في الفقرة الثانية، ليجب ايجاد وطن لهم في العراق تكون ابوابه مفتوحة لجميع الاثوريين في العراق وخارجه على ان يرتب ذلك الموطن كما يأتي:

أ) ان يكون من مناطق زاخو، ودهوك، وعقرة، العمادية، حيث تكون هذه المنطقة سياسياً وادارياً منطقة اثورية، وتكون شبه لواء ملحق بلواء الموصل، مركزه دهوك وتحت ادارة متصرف عربي ومستشار بريطاني.

ب) يجب تشكيل هيئة لايجاد اراض مناسبة وكافية مع ايجاد المبالغ اللازمة من المال، على ان تسجل الاراضي بأسماء الافراد الاثوريين.

ت) ترجيح الاثوريين على غيرهم في الوظائف الادارية، وتكون السريانية اللغة الرسمية لهذه المنطقة.

٤- على العراق الاعتراف بالسلطتين الزمنية (السياسية) والدينية للمار شمعون، وان تمنحه الحكومة وسام الشرف للخدمات المهمة التي قدمها شعبه للعراق، وتقديم منحة سنوية له.

٥- ان يكون للاثوريين ممثل في مجلس النواب.

٦- انشاء مدارس تدرس فيها اللغتان السريانية والعربية معاً.

٧- تأسيس اوقاف لرجال الدين الاثوريين.

٨- تأسيس مراكز صحية في المنطقة الاثورية.

٩- عدم مصادرة اسلحة الاثوريين.

١٠- اذا وافقت الحكومة البريطانية والعراقية على مطالبنا لغاية ٢٨حزيران ١٩٣٢، فأن الليفي (الليوي) الاثوري سيستمر في الخدمة وينبغي أن تتم هذه الموافقة بقرار من مجلس عصبة الامم، وتعلن كضمانات وتعهدات من قبل الحكومة العراقية ويوافق عليها ملك العراق وتبقى جزءاً من الدستور العراقي، وبخصوص خدمات الاثوريين يجب ان يقدم الشرطين الآتيين: أ) استعدادنا لتهيئة افراد لكافة -قوة دفاع طيران- علماً بأن مناخ البصرة الشعيبة لا يليق بالاثوريين().

ب) تحضير فوج او اكثر باشراف ضباط اثوريين تحت امرة ضابط عراقي وضباط بريطانيين، وتعيين داود مار شمعون ضابط ارتباط يكون مقره وزارة الدفاع ببغداد.

وبين الاثوريين انه في حالة تنفيذ مطالبهم فان استقالة الليفي لن تسحب، وأن حركة الاثوريين ستزداد.

وقد وقع هذه الوثيقة كل من:

- المار شمعون ايشا
- المطران يوسف حنا ئيشو
- الاسقف زيا سركيس
- الاسقف يؤلاها
- ملك خوشابا ملك يوسف
- ملك زيا شمزدين
- ياقو ملك اسماعيل
- ملك خناتو التخمي
- صادق المار شمعوني

نص الوثيقة

تحية الى السيد ممثل رئيس الجمهورية المحترم

حضرات السادة المؤتمرين

اننا نثمن دعوة القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي لنا للحضور الى هذا المحل المقدس لمناقشة المشروع الذي طرح من قبل السلطة الوطنية حول منح الحكم الذاتي لمنطقة كردستان، اننا بهذه العجالة نحيي جيشنا العراقي الباسل الذي يخوض الان معركة المصير مع جيوش الامة العربية لتحرير الاراضي المغتصبة من قبل ما يسمى بدولة اسرائيل ركيزة الصهيونية العالمية والامبريالية ونحيي خطوات السلطة الوطنية بالضرب على مصالح الامبريالية وذلك بالقرار المتخذ بتأميم حصة الشركتين الاميركيتين الامبرياليتين، حيث ان تحرير الارض المغتصبة يكون كما فعلت حكومة ثورتنا الوطنية على الصعيدين الحربي والاقتصادي، واننا لعلى ثقة تامة بأنتصار جيشنا العراقي الباسل وجيوش الامة العربية في معركة المصير.

فنحن الناطقين بالسريانية الاشوريين نذكر بهذه العجالة انه منذ القدم وفي عهد اجدادنا سنحاريب ونبوخذنصر قد قارعنا دولتي يهوذا واسرائيل واننا الان احفاد اولئك الابطال الاشوريين، ان ابنائنا المتواجدين في صفوف الجيش العراقي والجيوش العربية الاخرى يمتزج دمهم مع دماء ابناء الشعوب العربية الاخرى لتحرير الارض المقدسة والمغتصبة من قبل الصهيونية واننا مستعدون جميعاً للتفاني في سبيل قضية وطننا الكبرى.

اما بخصوص مشروع الحكم الذاتي لمنطقة كردستان الذي دعينا لمناقشته فنتمنى مخلصين لاشقائنا الاكراد التوفيق في تمتعهم بالحكم الذاتي ضمن اطار الجمهورية العراقية.

ونحن بدورنا كممثلين للناطقين بالسريانية من الاشوريين لنا تطلعاتنا القومية ولاسيما بعد ان اخذ حزب البعث العربي الاشتراكي على عاتقه حل المشكلة القومية في العراق حلاً سلمياً ووفاءاً منه بهذا الالتزام ومن التزام السلطة الوطنية نقترح ما يأتي:

## اقتراحاتنا على مشروع الحكم الذاتي لمنطقة كردستان

١- نقترح على تسمية المشروع بـ(مشروع الحكم الذاتي لمنطقة كردستان والمنطقة الاشورية من الناطقين بالسريانية).

٢- جاء في مقدمة المشروع في نهاية الصفحة الاولى ما يأتي: (يطلب اجراء تعديل دستوري بأضافة فقرة جديدة للمادة الثامنة من دستور ١٦ تموز ١٩٧٠ على ان: تتمتع المنطقة التي غالبية سكانها من الاكراد بالحكم الذاتي وفقاً لما يحدده القانون.

الفقرة الجديدة الثانية – تتمتع المنطقة التي غالبية سكانها من الناطقين بالسريانية الاشوريين بالحكم الذاتي وفقاً لما يحدده القانون).

٣- فيما يخص الباب الاول الذي نظم اسس الحكم الذاتي نقترح ما يأتي:

أ) بخصوص المادة الاولى فقرة (أ) يضاف اليها ما يأتي: استناداً الى ما جاء في بيان مجلس قيادة الثورة المؤرخ في ١٩٧٢/٩/١٣ بخصوص الحدود الادارية للاقليات القومية وتجمعها في وحدات ادارية تظهر فيها شخصيتها القومية. ونظراً لما

جاء في قرار مجلس قيادة الثورة المؤرخ في ١٢/٢٥/ ١٩٧٢ حول اعفاء الاثوريين من حوادث سنة ١٩٣٣ واعادة الجنسية العراقية لهم، وحيث ان الناطقين بالسريانية الاشوريين المثلين بـ(الاثوريين والكلدان والسريان) هم قومية واحدة، فعليه نقترح ان تكون لنا منطقة خاصة بنا.

بخصوص الفقرة (ج) من نفس المادة يضاف اليها ما يأتي:

- تعتبر قيود احصاء عام ١٩٢٧ هي الاساس لتحديد المنطقة القومية للناطقين بالسريانية الاشوريين للاسباب الآتية:

اولاً: بالنسبة للتعداد السكاني

أ- ان احصاء سنة ١٩٢٧ كان قبل حوادث سنة ١٩٣٣ وكان هذا الاحصاء اقرب احصاء الى تكوين الشعب العراقي كدولة حيث عد قانون الجنسية الاقامة الدائمية من ١٩٢١/٨/٢٣ الى ١٩٢٤/٨/٦، ويعد كل من كان مقيماً في حدود العراق عراقي الجنسية بالولادة.

ب- اما سبب عدم اخذنا بأحصاء سنة ١٩٣٤ فلقد كان بعد احداث سنة ١٩٣٣ التي بسببها غادر الوطن كثير من الناطقين بالسريانية الاشوريين الى خارج العراق، ومثال ذلك خلو ٦٢ قرية في منطقة ناحية القوش وقضاء تلكيف وقضاء دهوك بسبب تلك الحوادث، حيث إن الجنسية العراقية قد اعيدت لهم في عهد الثورة المباركة بقرار مجلس قيادة الثورة المؤرخ في ١٩٧٢/١٢/٢٥.

ت- اما سبب عدم اخذنا بأحصاء سنة ١٩٤٧ فلقد جاء بعد الحرب العالمية الثانية وحيث انه كان هنالك ازمات اقتصادية، وبنتيجة الضغط فقط اضطر قسم كبير من الناطقين بالسريانية الاشوريين الى النزوح الى المدن، وكذلك سبب عدم أخذنا بأحصاء سنة ١٩٥٧ وهو نتيجة نزوح قسم كبير من الناطقين بالسريانية الاشوريين الى المدن وبالاخص الى بغداد والمنطقة الجنوبية، فسكن الاكراد المتسللون من تركيا وايران على الاخص وحلوا محلهم، والمثال على ذلك فأن قبل حوادث الشمال كان يسكن بغداد ٧٥٠ عائلة من الناطقين بالسريانية الاشوريين اما الان فيربو عددهم على نصف مليون نسمة.

ثانياً: بالنسبة للمنطقة اقليمياً:

أ- ان جميع القرى الاميرية اعطيت للناطقين بالسريانية الاشوريين للسكن فيها وكذلك اكثر القرى العائدة للتاركين والخالية من السكان، بدلاً من منطقة حكاري التي كانوا يسكنونها قبل الحرب العالمية الاولى.

ب- في عام ١٩٢٦ اتخذت عصبة الامم في جنيف قرار بمنح منطقة الموصل للعراق على اساس منح حقوق الاقليات وجاء هذا القرار تأكيدا على قرارها المتخذ سنة ١٩٢٥ لمنح حقوق الاثوريين في الموصل طبقاً لما جاء في تقرير لجنة تخطيط الحدود العراقية التركية.

ج- اتخذت عصبة الامم في جنيف قرارها المرقم ٦٩ وبتأريخ ١٩٣٢/١٢/١٥، وبحضور معظم اعضائها قرارا باسكان الاثوريين في مجموعة متجالسة في الموصل.

د- يقول الدكتور وولفكانك فون وايزل في وصفه وبتعبير صادق في مؤلفه (ورثة الاجيال) القضية كما يأتي: (ان الملك فيصل — ويقصد

فيصل الاول- والحكومة البريطانية وعصبة الامم كانوا قد قطعوا الوعود بشكل معاهدة مع تركيا في عام ١٩٢٥ بمنح الاثوريين المسيحيين الحكم الذاتي الاقليمي الخالي من الضرائب واي نوع من الغرامات هذه.. الوعود لم يلتزم بها اخذت تغوص في البؤس والشقاء اكثر فأكثر.

وهذه كانت مهمة كبيرة حتى بالنسبة لعصبة الامم التي الزمت تركيا بتسليم مقاطعة مهمة في شمال الموصل وتسليمها الى العراق مشترطة ان تكون موطناً قومياً للآثوريين المسيحيين.

وبخصوص الفقرة (٥) من المادة الاولى ينبغي ان يضاف اليها ما يأتي: تكون قصبة دهوك مركزاً لادارة الحكم الذاتي للناطقين بالسريانية الاشوريين علماً بأننا سبق وان طلبنا هذا الطلب منذ عام ١٩٣٢.

اما بخوصو الفقرة (ب) والفقرة (د) فحيثما وردت كلمة المنطقة يقصد بها كل من المنطقتين – المنطقة الكوردية ومنطقة الناطقين بالسريانية الاشوريين- من حيث احكامهما.

اما بخصوص الفقرة (و) فتبقى كما هو.

ب- بخصوص المادة الثانية.

اولا- تضاف فقرة-أ- وتكون على الوجه الآتي: (تكون اللغة السريانية لغة رسمية الى جانب اللغة العربية في المنطقة)

ثانياً: تضاف فقرة ثانية للفقرة (ب) وتكون على الوجه الآتي: (تكون اللغة السريانية لغة التعليم في المنطقة وتدرس اللغة العربية الزامياً في جميع مراحل التعليم استناداً الى قرار مجلس قيادة الثورة المرقم ٢٥١ والمؤرخ ١٩٧٢/٤/١٦).

ثالثاً: تضاف فقرة ثانية للفقرة (ج) وتكون على الوجه الآتي: (يجوز انشاء مرافق تعليمية في المنطقة عند تواجد العدد الكافي من القوميات الاخرى غير الناطقين بالسريانية الاشوريين وتكون اللغة العربية الزامية وتدرس اللغة السريانية فيها).

ج- اما بخصوص المادة الثالثة والمادة الرابعة فتبقى كما هو.

٤- اما البابالثاني والباب الثالث فنقترح ان ينطبقا على المنطقتين – المنطقة الكوردية ومنطقة الناطقين بالسريانية الاشوريين.

هذه هي اقتراحاتنا المتواضعة التي نرفعها لسيادتكم المعبرة عن تضامننا مع القوميتين الشقيقتين العربية والكوردية وسائر افراد شعبنا العراقي لبناء وطن مزدهر متقدم والى الامام.



# المثقف الكردي ومفهوم المجتمع المدني:

## أزمة الصحافة وأزمة المثقف

فاروق حجي مصطفى

في الأجزاء الثلاثة من دراستنا تحدثنا عن علاقة الحركة الكردية بالمجتمع المدني ،ووقفنا مطولا عن حال المجردين من الجنسية، وكيف ان هذه القوى (الحركة والمجتمع المدني والسلطات) تعاملت مع هذه الحالة الاستثنائية التي لا تتحمل التأجيل والتروي ؟، وأكدنا على أن الحركة ما كانت بعيدة عن تأدية وظيفة المجتمع المدني، وكان من المفيد القول : بان هناك ثمة التباس يحصل على مستوى البرنامج السياسي للحركة الكردية فيما يخص الوطني والقومي ،ففي بعض الأحيان تخطأ (بعض) فصائل الحركة وتخلط الوطني بالقومي كما وتبقي نفسها في دوامة التكتيكي والاستراتيجي و بين المرحلي والبعيد لكننا تفاءلنا بخير خصوصيتنا عندما يحدث النقاش بين فصائل الحركة حول التعامل والتعاطي والتحاور مع الفصائل العربية السورية، ولعل الخيمة التي تجتمع فيها هذه المكونات السياسية السورية وتكون نهاية المطاف للخلاف الكردي هي :» إعلان دمشق» ، ومن المنطقي أن تكون هناك المراهنة على المثقفين والإعلاميين لتقريب وجهات النظر بين القوى السياسية ،فإذا كان «المثقفون السوريون(العرب طبعاً) يرون أنفسهم صانعو السياسة ومنشئو مجالها عبر تأسيسهم للأحزاب» حسب رضوان جودت زيادة(1) فإن

المثقفين الكرد خرجوا من الأحزاب و الأحزاب خرجّتهم وأسستهم ، لذلك من الصعب أن نميّز المثقف عن السياسي ، وهناك التباس وتناقض واضح يتحكم بمثقفي الكرد فهم وان كانوا أحيانا نراهم ينتقدون الأحزاب ويظهرون أنفسهم على أنهم صورة مغايرة للحزبيين وفي الأحيان نراهم يزايدون عليهم أي على (الحزبيين) إلا أن الواقع يشي بشيء مختلف،فهناك خلط بين ما هو سياسي وبين ما هو ثقافي. فالحركة الثقافية في أحيان كثيرة تمثل شكلا من أشكال الحركة السياسية. والمثقف الكردي لا يعيش في وضعه ومكانه الطبيعي.. فالحيرة والقلق وعدم التوازن سيد الموقف لديهم مع أن دورهم ووظيفتهم الأساسية فرملة الشطحات السياسية وتقديم آراء ناضجة للمشهد السياسي الكردي، وبمعنى آخر على المثقف الكردي أن يطرح الأفكار وعلى الإعلام انعكاس هذه الافكار والرؤى وبث ثقافة التحاور وهنا مربط الفرس!

المثقف الكردي: في الحقيقة إن سؤال المثقف الكردي يطرح منذ مرة طويلة فأكبر مثقفي الكرد في كثير من الأحيان يخجل أن يقدم نفسه على انه مثقف ودائما يعجز عن طرحه لصفة المثقف فلدى الكرد مفردة واضحة يطرحونها بديلا عن المثقف فهو مهتم أو حزبي. والحق نادرا أن تجد أكاديميا كرديا مختصا في مجالات الفكر والسياسة والقانون فمن وجد يكون في أوربة وقد يكون من أصول كردية سورية،تماما مثل العرب الذي يقولون ان العرب يفتقرون الى فيلسوف ولا فلسفة في المرحلة الحالية لدى العرب،وكلما يكتب في هذا الإطار لا يخرج عن كونه أيديولوجيا في حين ينفي يوسف سلامة وهو مفكر سوري هذه المزاعم ويقول ان الجدل قائم بين الآراء والأفكار وهذا بحد ذاته يمثل صورة من الصور الفلسفية- راجع يوسف سلامة في حوار معه في موقع ميدل ايست اونلاين.

وفي حاضرنا (نحن الكرد) نفتقر إلى المثقف مع ان ماضيَنا وعلى الرغم من وضع الأكراد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كان يضم عددا من المثقفين(٢).على كل.. يمكن النظر الى المثقفين وأي كان مستواهم الفكري وحجم الوعي لديهم إلا إنهم يشكلون اليوم جزءا لا يتجزأ من المشهد السياسي الكردي السوري ولعل الوضع السوري الاستثنائي وظروف الاضطهادية التي يعيشها الكرد أصبح عقبة أمام بناء شخصية المثقف المستقلة، ومثلما أراد المثقفون السوريون ان يعيدوا دورهم بعد ان همّشوا طيلة العقود عبر بناء منتديات ونوادٍ وإحياء المجتمع المدني وعبّروا عن رؤاهم من خلال الإعلام او عبر الحراك السياسي الفاعل(اعتصامات وندوات وتظاهرات) ودخلوا الى السجن وربما مازالوا يضحون.والحال ان وضع المثقف الكردي لا يختلف كثيرا عن المثقف العربي فهما سلسان يكملان بعضهما البعض، وبما ان مجتمعاتنا لصيقا البع فان المثقف الكردي متلاصقة للمثقف العربي حيث لعبوا أدى الكردي دورا متوازنا جنبا الى جنب مع العربي، فهم أيضا وعلى الرغم من أنهم كانوا من السياسيين أسسوا لأنفسهم المنتديات في مدن القامشلي والحسكة والمناطق الكردية الأخرى

وهناك من أراد ان يبرهن على فاعليته من خلال الصحف اللبنانية او الخليجية لكن أغلبهم كتبوا عن الشؤون الكردية لا عن الشأن السوري العام وطرحوا مسألة الديمقراطية وحقوق الإنسان، فنادرا ما تجد مقالا كتب عن المجتمع المدني في سوريا وأهميته في حياة الشعوب السورية .بيد أن والحق يقال إن الكل بدأوا يرددون مفردة المجتمع المدني ولا يمر مقالا او جريدة كردية الا ومفهوم المجتمع المدني ومسائل الحريات حاضرة فيها. وهناك أمر آخر يجب التركيز عليه هنا وهو ان بعضا من السياسيين أرادوا ان يحرروا أنفسهم من السياسة والحزبية الكردية وانخرطوا في دائرة لجان إحياء المجتمع المدني إلا أنهم سرعان ما ملوا هذا الحراك وتركوه وذلك لسببين،الأول: ان المثقف الكردي عاش زمنا طويلا في حالة الانطواء والانعزال عن الواقع السوري العام .والثاني: البنية الفكرية والاجتماعية التي لم تترك المثقف أن يستطيع أن يخوض سبيلا آخر غير متعود عليه. هذا السببان كانا كافين أن يترك هذا المثقف اللجان و»عادت حليمة الى عادتها القديمة» ،وللأسف هناك من أسس حزبا كرديا جديدا وزاد من عدد الأحزاب وزادت الأزمة التعددية المفرطة لأحزابنا، وهناك من رجع الى حزبه الذي نشأ فيه ، وهذا دليل على ان المثقف الكردي عاجز عن ان يقدم نفسه على أساس انه مثقف.وربما المشهد الثقافي عاجز ان ينتج مثقفا من النوع الذي يهتم بوضع الشعب ويقدم رؤى التغيير ويزف المجتمع بكل ما هو جديد ومفيد. فالمثقف والسياسة (الحزبية) صنوان لا ينفصمان لدى الاكراد وهو أمر نعاني منه لأننا لا نستطيع ان نقدم شيئا مخالفا عن الأحزاب وإذا قدمنا او طرحنا فكرة ومفهوما مغايرا عن المناخ السياسي الكردي فالصفة الجاهزة وغير المكلفة هي التصاق صفة «العميل» ولعل عددا من المقالات النقدية الجارحة كتب بحق كاتب هذه السطور والسبب ان كاتب هذه السطور كان من المتحمسين لإعلان دمشق وهو يرى أن إعلان دمشق بداية النهاية لبقاء الكرد في دائرة مناطقهم وهم أي الاكراد توقيعهم على الإعلان وخطوا خطوات جديرة بالاهتمام وإعلان دمشق هو الوحيد الذي يمكن التعويل عليه بان يبلور مفهوما وطنيا عاما ويفرز السلوك الوطني الحريص بين جميع المنتمين له.

دور الإعلام : في الحقيقة لا يمكن ان نتحدث عن الإعلام وحده ولا عن مثقف وحده فمن خلال الإعلام الكردي نكتشف قوة المثقف الكردي وفاعليته وتأثيره على المشهد السياسي والإعلامي والاجتماعي .بيد ان المثقف الكردي لم يخرج من رحم الإعلام الكردي بل هم أتوا ليدخلوا في عالمه ويستغلونه تارة استخدمو كوسيلة حرب قبلية وتارة منبرا أراد البعض ان يستغله ليفرغ فيه هواجسه ومخاوفه وهناك من وجد ليحوّل هذا الإعلام الى بوق دعاية لجهات لا تخدم المصلحة الكردية وهذه الجهات لعبت بالإعلام وأفرغته من وظيفته الحقيقية، ودون أدنى شك فان اللعبة خطيرة اقلها اسهام بعض وسائل الإعلام في تشويش ذهنية المتلقي وأيداعه في حالة الضياع وعدم التوازن الامر الذي عجز (هذا) الإعلام عن تأسيس رأي عام مؤثر في الشارع الكردي .

هذه الجهات يمكن معرفتها وتمييزها عن الجهات الايجابية من خلال شكل شعاراتها وخطاباتها ونسيت ان وظيفة الإعلام: تأسيس رأي عام وهذا الرأي يفعل فعله في البيئة الديمقراطية .واختصارا فان هذه الفئة أسهمت بشكل من الأشكال في خلق نوع من الضمور المعرفي وأصبحت عالّة على طبقة المثقفين والسياسيين الكرد. والحق ان الصحافة الكردية والإعلام الكردي تشكوان من مرض مزمن فالمجالان ولحقب طويلة كانا مجالين وحزبين لمهاترات حزبية وشخصية وفي حقب طويلة لم بتميز الاعلام بين النقد والنقد البناء حتى انها وعلى الرغم من حاله عجز عن إصلاح ذاته، وفي المرحلة الاخيرة لم يخل هذا الإعلام (الانترنيتي والورقي والمرئي) من هذه الصفات .وللأسف دخل هذا الإعلام الى عالم سياسة المحاور وكثيرا ما رأينا مقالات افتتاحية هجومية القصد منها إضعاف الآخر (المحور الآخر)على حساب دورها ووظيفتها كمؤسسة من مؤسسات المجتمع المدني وتتطلب هذه الوظيفة إصلاح البين وتحديد مكامن الخلل ونشر وعي الصالح .وهنا يجب ان لا نقفز الى حقيقة وهي نقطة مضيئة في تاريخها وهي انه في حقبة من الحقب وحتى هذه اللحظة تذكر القراء والمتلقين بأهمية «تغليب التناقض الرئيسي على الثانوي» وكذلك عرض مأساة ضحايا الإحصاء الاستثنائي واموالها ومسألة تعريب المناطق الكردية وفي الحقبة الاخيرة نرى مقالات افتتاحية خصوصا في صحف أحزاب التحالف الديمقراطي والجبهة أهمية «إعلان دمشق» وأهمية وحدة المواقف في الحركة الكردية وضرورة تأسيس المرجعية الكردية.

فالصحافة الكردية ليست كيانا موحدا ومتسقا ولا يمكن أن ننظر إليها على أنها تعبر عن وجهة نظر الأكراد عموما فقد بدأت وعند ميلادها تنقل رؤى الأحزاب وسياسات الأشخاص الضليعين في السياسة ، فقديم الصحافة الكردية ليس كجديد ها ولو تمعّنا في الصحافة الكردية القديمة نجد انها متقدمة عن الحالية فهي كانت قريبة جداً من هموم الناس وشجونهم كانت انعكاسا لرؤاهم وطبيعتهم واهتمت الصحافة القديمة في شكل مقبول بثقافة الأنوار وأسهمت في النهضة الكردية السياسية والثقافية لكن علة هذه الصحافة وعلى الرغم من أهميتها انها كانت تعبر عن كل الاكراد وكانت موجهة لأكراد كردستان الكبرى وحتى مؤسسوها لم يكونوا أكرادا سوريين بل كانوا أكرادا مهجرين من تركيا لذا اهتمت بوضع أكراد تركيا حينئذ بشكل أدق وشيء ايجابي سواء أكانت «هاوار» او «كردستان»(٣).

والحق ان جديد الصحافة الكردية يضعنا في حيرة قاتلة ونعجز تمييزها ولا نعرف ان نقيسها اكاديميا فاغلبها لا تتصف بصفات الصحافة ولا تنطبق عليها شروط الصحافة القوية الناضجة ،وعدد الصحافة التي كثرت في الأعوام الاخيرة خصوصا الانترنيتية والشبابية والمرأة لم ترتق الى مستوى الصحف العربية والاجنبية.

على كل حال ان الموجود منها تقسم الى فئات:

★ الصحافة الحزبية(٤) وهي كثيرة حيث كل حزب بالإضافة الى انه يصدر جريدة تعبر عن وجهة نظرها إلا انه يسهم في إصدار صحف أخرى

سواء أكانت باللغة الكردية أو العربية. وتقتصر موضوعات هذه الصحف (او النشرات) على الشؤون الحزبية أو الشؤون الكردية السياسية وتعبر عن مواقف الأحزاب السياسية و بعض القضايا الكردية العالقة والمزمنة في البلاد. ولا نستغرب في ان الصحافة الكردية لا تلتزم بقانون المطبوعات السورية لكونها بالأصل تعمل في السر الا انها تلتزم بالرقيب الداخلي الذي بدا مضبوطة كثيرا.

وفي الحقيقة يجب ان نسأل أولا ،هل هناك صحافة في وسط أكراد سورية؟ واذا كانت هناك صحافة، فهل هذه الصحافة أدت (وتؤدي) وظيفتها؟ في الحقيقة ان الصحافة الكردية (اليوم) ليست في مستوى مقبول وهي (باعتقادي) تعيش في الأزمة. ولم تقم بدورها كما يجب، وفي كثير من الأحيان تخلفت عن المواكبة ،ولعل مرد ذلك يعود الى عدد من الأسباب ،بعضها يخص بمموليين للصحافة وهم غالباً قيادات أحزاب يفتقر الى معرفة الصحافة وأهميتها ولا علاقة لها بمعرفة عالم الصحافة ،وماذا تترتب على الصحافة ان تفعلها؟ لذلك نرى المشهد الإعلامي يسوده الضبابية، ويعاني من الأزمة ،أزمة الخطاب، وأزمة الدور وسأقف عند الصحافة الحزبية لأن تجربة الصحف الأهلية والمستقلة هي في بدايتها، ولأن الصحف الحزبية هي الوحيدة الطاغية على الوسط الكردي (وهذا ليس عيباً) إنما العيب هو عندما لا نعرف لماذا تصدر الصحف الحزبية ؟اعتقد ان الصحف الكردية في تخبط فظيع. وإذا نظرنا من منظور العلوم السياسية فان الصحافة الحزبية تعد مصدرا أساسيا للتعرف على الأحزاب المختلفة وأقصد هنا طبعاً الصحافة الحزبية الموجهة الى الرأي العام وليست النشرات الداخلية (أي تلك الموجهة الى أعضاء الحزب) مع ان من الضروري الاستعانة بالاثنين معاً. واعتقد ان هذه الصحافة بدرجة أساسية وظيفتها تعكس أهداف الأحزاب ونشاطاتها، ودورها في الحياة السياسية، وسلوك المتحزبين. ففي الصحافة كل شيئ له دلالاته فمثلاً من قال ان الصحافة المتخصصة بموضوعات لا تمت نظرياً بالسياسة ،كالصحف والمجلات التي تهتم بالرياضة أو الأزياء أو السينما أو المرأة، الخ لاتتناول السياسة، هذا فكلامه هراء، وكل الصحف والمجلات وحتى صفحة المنوعات موجهة توجيها سياسياً بشكل أو بآخر وتتوخى إيصال بعض الأفكار السياسية الى القراء الذين لا يهتمون بقراء الصحافة السياسية.فوراء الموضوعات التي لا علاقة لها ،ظاهرياً، بالسياسة تكمن آراء ومواقف سياسية يراد نشرها. ووظيفة الصحافة (كما هو معروف) هي انعكاس لحقبة تاريخية، فالصحافة هي المرجع الأساسي التوثيقي للحقبة التاريخية لذلك مطلوب من الصحافة ان تكون حيادية وموثوقة عند نقل معلومة وعندما تكون شاهدة على المرحلة. ويجب ان يكون في البال دائماً ان الصحافة تشكل مصدراً توثيقياً اساسياً يحتوي على الكثير من المعلومات عن الأحداث السياسية والرأي العام، والقوى الضاغطة وغيرها. وتعد الصحافة، عملياً، المرجع الوحيد الممكن اعتماده للتزود بالمعلومات عن عدد كبير من الأحداث لذلك لا نريد ان نقرأ الشتائم ونقل الأحقاد لأننا في ذلك نسهم في تشويه الأذهان ومن ثم نشوه

التاريخ.ففي مجتمعنا الكردي نفتقر الى بديهيات علم الصحافة ولا نعرف ان الصحافة تعطي فكرة عن تسلسل الأحداث وتفاصيلها وأن الصحافة هي إحدى وسائل القوى الضاغطة ومرجعها، وهي مؤسسة للرأي العام وتعكس اتجاهاته ولكنها في الوقت ذاته تسعى للتأثير فيه. ولو أسقطنا كل هذه المفاهيم وهي بديهية لمن يتعاطى في هذا الشأن نخرج باستنتاج هو ان صحافتنا الكردية وفي أي مكان اختلط الحابل بالنابل تتجاوز أحيانا وظيفتها وتقصر وأحيانا في تأدية الوظيفة المترتبة على عاتقها لذلك لا نرى قراء الصحف والمتابعين لها إلا في إطار ضيق جداً حيث احتلت الفضائيات ذهن المتلقي وأصبحت مصدر المعلومات للمتلقي مع ان الفضائيات مهما يكن مستواها لا تقوم بها بالوظيفة التي تقوم الصحف فلكل نوع مجاله ووظيفته. ونحن قرأنا عن صحيفة كردستان وعلمنا كيف كانت تنقل الأخبار وتنشر الأفكار التي كان أغلبها متطورة وليبرالية .أين تكمن المفارقة؟ صحيفة «كردستان» على الرغم من افتقار المواصلات وتخلف التكنولوجيا في تلك المرحلة استقطبت القراء و المشتركين في كل بقاع كردستان من «كوباني» الى «كراداغ» الى القامشلي ومروراً بحماة وحمص ودمشق وكردستان تركيا و كردستان إيران و كردستان العراق عدا أكراد المهجر. وكان هناك من رأى نفسه بأنه أمام مسؤولية وطنية فمن ابسط الواجبات احتضان الصحيفة ودعمها من نواح شتى، والاسهام فيها، شريطة ان لا تصبح بوقاً لفئة تفرغ من خلالها أحقادها بل ان تشرح أسباب احتقانن (الكرد). الصحف الكردية (الانترنيتية والورقية ) شوهت في كثير من الأحيان صورة الاكراد فبدلاً ان تلعب دور الرسالة لعبت دور التشويه. نحن الاكراد دائما كنا نعاني من أزمة الخطاب وكنا نعاني من الوسيلة التي تنقل أهدافنا النبيلة وتطلعاتنا المشروعة والمحقة الى الآخر. نسأل الآن بماذا اسهمت صحفنا الكردية في تقريب البين بين العرب والأكراد او بين الترك والأكراد والفرس. اعتقد ان إصلاح البين بدأت مع ظهور زعمائنا الكرد الذين شرحوا وجها من معاناتنا على الفضائيات العربية او الأجنبية وفي الصحف العربية والأجنبية. نعم نحن نشعر بالأزمة لأننا نفتقر الى بديهيات الأشياء ونفتقر الى الثقل الإعلامي (النوعي) مع ان هناك كم هائل من الصحف والمنابر الإعلامية إلا انه ليس على المستوى المطلوب. من يقرأ من العرب او من الترك او من الفرس او الأمريكي زوايا صحفنا ليعرف نمط تفكيرنا و مبتغانا .وكان يجب ان نسأل أولا هل لدينا كتاب زوايا مثل الأتراك او العرب او الأجانب. نحن الاكراد لدينا إمكانيات مادية، فعندما نقوم باحتفال او بأحياء مهرجان لمرور (١١٠) على صدور الصحيفة الأولى «كردستان» ونخصص مبالغ كبيرة فهذا يعني أن لدينا إمكانيات ولدينا المال إلا أننا لا نعرف كيف نوظف هذه الامكانيات وفي أي مكان . نستغرب حقاً عندما نرى أن هناك مهرجاناً للصحافة وغالبية مدعوبه من التجار او من التشكيليين او من أصحاب اختصاصات أخرى لا علاقة لهم بالصحافة وأهمية الصحافة، ولعل تجربة الأعوام الماضية في كردستان على سبيل المثال لا الحصر ما

زالت في اذهاننا، كيف لا نشعر بالأزمة ترى؟!!

الصحافة الكردية والمجتمع المدني: صحيح ان الإعلام هو مؤسسة من مؤسسات المجتمع المدني، وهو الذي يعكس الوعي المجتمعي ويؤسس الرأي العام إضافة الى انه يحث الحكومات على ان لا تنزلق نحو الديكتاتورية والشمولية وتغتصب حقوق الناس وحرياته وتهميش مطاليبه وتفرض عليهم الواجبات وتستهتر بحقوقهم .بيد ان الإعلام الكردي بقي أسيراً لنزعات قائمة عليه الأمر الذي يستحيل ان يؤدي وظيفته على أنه مؤسسة من مؤسسات المجتمع المدني، فهو اهتم بشأن الأحزاب على حساب اهتمامه بالشأن العام الوطني وبشأن المجتمع ومكانه ووضعه، ولا نستغرب من ان الاعلام الكردي إعلام سياسي بحت ولا نلاحظ ان هناك صحيفة من الصحف مخصصة بالرياضة والمنوعات إلا انها والحق يقال هناك مجال لوضع الطفل والأسرة والتلفاز وأهميته لكن برؤى وبنظر سياسي لا علمي. وأهم شيئ هو ان الإعلام الكردي في دوره في توعية الناس وحثهم على الدفاع عن مصالحهم وكان غاب عليه ان يلعب دور النافذة الى العالم العربي الخارجي وهنا يجب الوقوف عند نقطة مهمة هي أن نشطاء المجتمع المدني السوري أيضا قصروا بحق إعلام الكرد فهم لم يعدوا ان هذا الإعلام جزءا من منابرهم ونادرا ما تجد مقالا لكاتب عربي متنور (تقدمي) وحتى ان وجد فهو منقول من المواقع الانترنيتية الأخرى غير الكردية. إن تجربة الإعلام الكردي مع مفهوم المجتمع المدني قليلة حيث تجربة العالم العربي أطول عمرا من الكرد ولذلك كان من المفترض الاهتمام بهذا الإعلام ودفعه للعب دوره الوطني العام واهتمامه بالناس وبمستوى وعيهم وإعانتهم وعرض مأساتهم وآمالهم ومواالهم.

١- راجع د . رضوان جودت زيادة في كتابه»المثقف ضد السلطة:حوارات المجتمع المدني في سورية» الصادر من مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان ضمن سلسلة المبادرات الفكرية(٢٧)

٢-أمثال نورا لدين زازا وغيره

٣-»هاوار» كانت تصدر في بيروت وكان عدد من النخبة الكردية (الاجتماعية-وجهاء العشائر، الثقافية،الاقتصادية) تمولها وتزودها بالآراء والأخبار،أما «كردستان» فهي جريدة الاكراد الأولى تأسست في القاهرة عام ١٨٩٨ في ٢٢نيسان مؤسسها مقداد مدحت بدرخان.

٤- وهي صحف كثيرة إضافة إلى الصحف الحزبية تعبر عن مواقف اللجنة المركزية للأحزاب هناك صحف ناطقة بالكردية وصحف تهتم بشؤون المرأة والشباب مثل: سبأ وهي نشرة تهتم بواقع شباب الكرد في سورية خصوصا الطلبة منهم.



## قراءة في كتاب..

## جمال الغيطاني في..(حراس البوابة الشرقية)

# هل دوّن ما رأى أم سرد ما أملي عليه..!!

تحسين گەرمياني

من البديهيات النظرية والعلمية بخصوص فن الكتابة، أن الدافع الأساس من وراء أي لون كتابي خارج حدود موهبة الكاتب غالباً ما يثير جملة ملابسات تشكل غمامة تدفع الكاتب نحو بؤرة الحساب عند العارفين بأصول ذلك اللون الكتابي، وتحديداً تلك الكتب التي تحوم حول تسليط الضوء على شخصيات غامضة أثرت سلباً في حقبة معينة على مسيرة التأريخ البشري، ويمكننا أن نستعرض متن كتاب (حراس البوابة الشرقية)* للقاص والروائي (جمال الغيطاني) كي نهتدي لسر تأليف صدور هذا الكتاب وتوقيته في وقت أنشغل العالم بتسليط الضوء على ما يجري في رقعة أرض شكلت ديموغرافيتها عصياناً سياسياً على (ميثاق)الأمم التي تتحد على الإثم والعدوان، وهو مشكلة مصير شعب تعذر حلها لأسباب عاطفية أكثر مما هي عقلانية أعني(كردستان)، ولا نبغي استعمال لغة التجريح أو الاتهام مهما كانت الدوافع والمترتبات التي دفعت الكاتب كي يجرب قدراته الثقافية ورؤاه السياسية ويوظفهما لصالح جهة لا يمت لها بصلة سوى نغمة عتيقة ما تزال تشد وثاق الناس،نغمة(الروابط المشتركة) التي تفككت على أيد جاهرت بلحن القول والفعل على أنها (هبة الزمان لسعادة الإنسان)،هذه الجهة كانت لحظة تأليف الكتاب لمّا تزل غامضة الملامح، لم

تستقر سياستها ولم تستوضح أهدافها بعد، على رغم من مجيئها العنفواني واستلامها زمام الأمور بـ(الخيانة الوطنية) إن جاز وصف الانقلابات البيضاء،من غير إراقة دماء،إذ ليس من الحكمة أن توظف أقلام ذات صدى للإحاطة بظاهرة في طور النمو أو لمّا تزل غير ناضجة،وأعتقد أن الكاتب أدرى بهذا الفاصل من فصول التأليف، لكون الأفكار تحتاج إلى بلورة واختمار قبل احتوائها ومزيداً من الموثوقية والدقة،وهو يعرف أيضاً كيف يقرأ أو يتوقع إن لم نقل يتنبأ بما سيؤول إليه أمر كل سياسة تنتهج الخطابة الفارغة والحماسة الهوجاء وتجعلها منهجاً حاسماً لا جدال أو نقاش حوله في أساسيات دستورها أو مبدئيتها أو مركزيتها كما يشاع، لكون (الغيطاني) عاصر وعاش أهم المراحل العربية غلياناً وتقلباً في التأريخ الحديث لأمة لم تنم مذ أن كانت إلاّ على نيران الحروب والخصومات الشكلية والشخصية بين الساسة على حساب رعية لا تملك سوى ألسنة لا تمل من الدعاء..!!

⋆ ⋆ ⋆

[من حرب تشرين أوّل ـ أكتوبر ـ إلى حرب الشمال]

عبارة استهلالية توحي بخلط الأوراق السياسية وجعل المعسكرين المتناقضين حالة واحدة،محاولة تأطير وتسويق الحدث كي يأتي تأثيره جمعياً عند الناس من (تطوان لبغدان) كما تذهب الأنشودة،والكل يدرك أن (إسرائيل) ند أمّة كاملة، وليس (الكورد) سوى شريحة من دولة تريد أن تعيش كما ينص (ميثاق الأمم المتحدة) اختيار حرية العيش وفق ما يناسب كل شعب له كيان مستقل وثقافة إنسانية نبيلة، وربما كانت غاية الكاتب تحسيس العرب وجرهم إلى مزلق آخر ليس إلاّ تنصيراً لسياسة فيما بعد وربما الآن يدرك الكاتب كم هو سار في طريق مظلم،شائك وملغوم،وربما هو ـ إن كان يبغي التكفير على ما كتب ـ نادم على ما أقترف قلمه الروائي الرصين من (زلة) ستبقى ناضجة على مسرح الحساب والحقيقة،طالما تداوي الشعوب دائماً جروحها وإن كانت تليدة الأثر..!!

⋆ ⋆ ⋆

ربما من البلادة بمكان أن يتم تخليط الأوراق السياسية بأوراق أدبية، لكون السياسة تلعب على المكشوف كما هو مقروء في راهن حياتنا، وعلى الرغم من التسويف والدوران فكل شيء يمكن تأويله وفق ما يجري على أرض الواقع لكون النتائج السياسية غالباً ما تظهر سلباً أو أيجاباً وفي كلتا الحالتين ثمة قوالب تأويلية مقنعة معدة سلفاً، أما الأوراق الأدبية فهي فلتان الخيال في أمكنة مصطنعة وإن كانت التسميات واقعية،تبقى أغاريد تتناقلها الأيام من ناقدٍ لناقد ومن جيلٍ لجيل دون الوصول إلى قلب المعنى الذي أراده الكاتب، وهنا يراودني سؤال: لم حاول (الغيطاني) دمج موهبته الأدبية بخيوط اللعبة السياسية..؟؟هل أراد التحليق صوب التفرد والشمولية في الكتابة أم أراد تحقيق غاية هي بطبيعة الحال ليست غايته،فهو خرج من فلك أهدافه الروائية التي كانت تخترق المتاهات التراثية وزيف الواقع المصري تحديداً (أرياف) ظلت خارج التحديث الحاصل في مناحي الحياة،عبر(خطط)كانت أسفارا ممتعة

أحدثت وأيقظت فينا الرغبة في المغامرة لممارسة أساليب كتابية أكثر تلاصقاً وتلاحماً بما يجري من حولنا،يقول في ص (٧) وبدأت أتجه إلى الإنسان موضوع بحثي المستمر،ثم الوثائق ثم الكتب/ ما الذي يراه الكاتب الآن طبعاً بعدما مر زمن ليس بالقليل على ما أراد التنبؤ به،من توقعات تحمس لها وألهم أو نفخ أوداج (المعني)، الجهة التي أرادتها يؤسفني أن أقول (بوقاً) عالي الصوت لتبسيط صورتها او توضيحها بعدما خطت لنفسها أهدافاً هي غاية في البدائية ورسالة تدميرية تغيرية وشمولية لتوحيد أمة (اتفقت على أن لا تتفق) كما صرح به (بو رقيبة) رحمه الله،أي إنسان نشده الكاتب كي يستند على أقواله، أليس من المستحيل بقاء همسة صادقة تحت سطوة الطغاة،أو نسمة هواء صحيحة غير ملوثة بالفساد،أي ملفات بقت تحمل بصمة الحقائق،ألم تزح كل فئة آثار الفئة المزاحة،أي الكتب كانت تزهو فوق رفوف المكتبات وهي تحكي ما يجري على أرض الواقع من سلبيات وانحرافات في سير العيش،إذ لم يكن هناك من دوافع إلاّ تلوين ـ طالما لديه قرّاء ومتابعين ـ أراده الكاتب كي يسحر به عقول المغدورين من أبناء أمة (وسط) معطلة من غير فعالية تذكر،وما أكثر الرعناء الذين يعلقون كتبا تجميلية كأمجاد تعيش من بعدهم أو بتعبيرٍ آخر قلائد ذهبية على رقابهم المقطوعة كي لا يندموا على ما فعلوا،أو على أقل تقدير كي تقر عيونهم في قبورهم، وقد يجد الكاتب اليوم تحديداً أكداس ملفات وألسنة بشر بعد زوال الغمة وهي بصريح العبارة تزيل القناع لتكشف عن الوجه الآخر،الوجه الحقيقي الذي لا يسر بطبيعة الحال، وعلى أقل تقدير إحداث موازنة في طرح الأمور بحيادية وموثوقية ليكن التأريخ هو الشاهد والمفسر والحاكم على الملفات المؤسسة لكيان المسيرة الإنسانية، لقد سطع سيف لا يرحم تحمله يد امتدت أظفارها إلى كل بيت،وعلى كل لسان أن يكف اللهج بما يرغب وليقبع ويسكت ويردد ما يروّج تحت شعار (نفذ ثم ناقش) وإلاّ فالهاوية مثواه،كان المفروض من باب الأمانة التاريخية وشرف المهنة وقدسيتها أن يوازن الكاتب ما بين الجلاد والضحية،طالما ليس هو من أهل الدار كي تمتد المشانق لتلتف حول رقبته على رغم من أننا لا نؤمن بموت الإنسان كرهاً كما حملته أمه (وهناً على وهن) مهما كانت درجة (شريريته) وسلبياته،كان يجب أن يعطي (الآخر) حق قول ما لديه، (حتى تكتمل الصورة) إن جاز التعبير،ويأتي الكتاب بشكلٍ أكثر مقبولية لدى جميع الأطراف،المتضادة والمحايدة،وربما يكون هو (فاعل خير) إن حصل من خلال إيصاله صوت (الآخر) المراد قمعه للآخرين، وبطريقة مقنعة توضح نواياه وما يرغب أو يريد من أساليب بغية التعايش السلمي دون اللجوء إلى منطق الغاب ونزف المقدرات البشرية والموارد هباء،أليس الوثائق كتبا موضوعة تضعها أيد غالباً ما تدور العربة لصالحها،ألم يبدل التأريخ ويكتب وفق رؤية كل عصر ونهج كل مصر،ألم تطلق تلك (الظاهرة العراقية)حملة كبرى دعي إليها من دعي لكتابة التأريخ،ألم تزحف مكنسة الحق لتكنس كل ظلاّم للعبيد،هذا لسان حال الواقع،وما يجري اليوم بالّتحديد على رغم من القنوات الكثيرة

التي لا ترحم بل تروّج لثقافة العنف، لكونها بدأت تتحسس بلهيب حرية غير مزيفة هذه المرة ما فتئ يأكل عروشهم الورقية،وهي تعي مسبقاً ما ستؤول إليها قوادم السنين بعدما تتهرأ أوراقها وتستفلس أفكارها،يذهب الكاتب/ كانوا يخوضون قتالاً من نوعٍ آخر،من أجل وحدة العراق الوطنية أو تطبيق الحكم الذاتي،قتال ضد قوى التخلف والرجعية وهكذا تمضي الخطوط متوازية/ (ص٧)، أين هم الآن تلك (الفئة) التي أذكت روح الحماسة لدى متورطين بالتلميع من غير رؤية أو سابق معرفة،بطبيعة الحال يمكن الوصول إليهم بيسر، لكونهم صاروا الآن عراة تتقاذفهم ألسنة الحق إلى الدرك الأسفل من التأريخ، قد وصفهم الكاتب بـ/ قوى التخلف والرجعية/ عادوا من رحلة جهادهم،بهم تستقيم الحياة،يواصلون رأب التصدعات التي خلفها (الظاهرة) في مجتمع راقٍ أرادوا تفكيكه، لكنه صبر حتى ظفر، وأن/ وحدة العراق الوطنية/ عملت السلطة المنحلة على نهشها وتمزيق أواصرها المتشابكة كي تتمكن من الهيمنة عليها وعدم نزف جهود كثيرا لترويض أجيالها الناهضة،ولم يكن/ الحكم الذاتي/ إلاّ تمويهاً شيطانياً لنرفزة الجيران (سوريا وتركيا وإيران) لكونها دولا تقمع أو تصهر أشلاء حيوية من الأمة (الكوردية) الممزقة قسراً، أراد عـرّاب السياسة المنقرضة أن (يحرّك الجو) كما يحلو لدعاية تلفازية أن تصف مشروباً غازياً أسمه (كاديه)..!!

* * *

السياسيون على علم أن من ذهب إلى (الجزائر) ليوقع تلك الوثيقة المشؤومة،تلك الصفقة العلنية التي باعت ميراث شعب وهيأت أرضية خصبة لحرب تدميرية أشعلت الضوء الأخضر لبداية النهايةٍ لعصرٍ مظلم،تلك هي أجندة أصحاب النزعات المريضة، التضحية بالغالي والنفيس من أجل السلامة والصحة والعافية الشخصية، لقد أهدى نصف (شط العرب) ومواقع أرضية حيوية (زين القوس وخضر وهيلة) مقابل وقف الإمدادات وفرض أسلاك الحصار حول فرسان (الكورد) وهم يناضلون من أجل حقوق إنسانية لا تهدد أو تبدد كيان المجتمع بل تقويه وتنشر السلام، يسمي الكاتب التمرد الكردي بـ/ الجيب العميل/ كما كان يحلو لصحافة النظام وأدبيات الحزب أن تصف،ولا نبغي سوى تسليط ضوء قليل على الواقع،لنرى من اتخذ السياسة هواه،ومن أتخذها منارة لنزع حقوقه،ألم يقف مُوَقِع تلك (الوثيقة الخيانية) إن جاز التعبير وأمام أنظار العالم عبر جهاز التلفاز ليمزق ما أبصم عليه ويعلن الحرب على دولة جارة ربما كان هو مختلف من حيث وجهات النظر مع سياستها فدفع الشعب الثمن باهظاً جراء تهوره،في حربٍ شرسة دامت لسنواتٍ ثمان أغرقت البلاد تحت وزر الديون والفوضى والفساد إلى أجيالٍ ربما تمتد وتمتد،وهيأت أرضية خصبة لاحتلالٍ كامل لكيان البلاد شعباً وأرضاً ومقدرات،ألم يطعن بالبلد الذي سانده من أجل تحقيق هدفه،كيف يا ترى تمكن الكاتب من تفسير مجريات الأمور وقولبتها تحت يافطة (دفاع مشروع) لاستئصال/ الجيب العميل/ ألم يكن في بال(الغيطاني) أن نضال الشعب (الكوردي) كان أقدم من السلطة، يقول الكاتب/ ليس من خلال الوقائع المدونة،

إنما من خلال البشر الذين خاضوها/ تأكيد من الكاتب على لجوئه لأنفار مهيئين مسبقاً ومعدين أيديولوجياً لمناسبات إعلامية تلميعية في كل المجتمعات التي راهنت على الفردانية في الحكم تحت شعارات مسوّقة قسراً، إن التأريخ بات وثيقة متحركة في أيد تحاول تلويث براءة الحياة وأسرارها المقرورة خدمة ليس للصالح العام بل لأغراض شخصية تريد الهيمنة والطغيان في الأرض، وكل يعرف أن كل سلطة غالبة لا تتورع من نزف الغالي والنفيس من أجل إزاحة صورة من سبقها من أذهان الرعية والعالم والتأريخ،كيف إذاً تقول الصدق إذا ما أرادت أن تنقل صورتها إلى العالم،لابد أنها لعبة إعادة كتابة التأريخ وإلاّ كيف نفسر القضية،يورد الكاتب/ انتهاء التمرد إلى الأبد/ لم يوفق في رؤيته وحساباته التبصيرية لمجريات الأمور، لكون الأجوبة تأتيه ولا ينقب عنها هو،أو هي محاولة استبدادية للتنفيس عمّا يحتشد في النفس من هموم وسموم،نقول أن كتّاب الشعوب الذين يراهنون على شعبية كتاباتهم يدركون أن الشعوب تتناسل ذاتياً، مهما تأخرت مستحقاتها الفطرية فلابد من يوم (القيد أن ينكسر) وتترجل من صهوة الجياد لتحصد ثمار المعاناة، فـ(التمرد) الذي أورده نما وكبر وأثمر وصار علامة مضيئة يقف العالم (الآن..الآن.. وليس غداً) ساهراً لتطبيب جراحاته وبسط العرفان والعون أمامها، ها هو الشعب الكردي يسهر لمداواة بلاد فككها الذي وظف الكاتب قلمه وخياله من أجل نفخه وقيادته إلى حتفه،ما هكذا تقرأ أوراق السياسيين العائمين على بحور الدم والرماد أيها الكاتب الذي أحببناه من خلال رواياته دون أن نراه،وما زلنا نسامح من جرحنا وقتلنا لأننا ندرك أن التسامح ركن العافية الأساس لأرض الله الواسعة،لقد كفّر(غونتر غراس)عن خطيئته عندما أزال همّاً ثقيلاً جثم على صدره حين أعلن بلسانٍ فصيح أنه كان أحد فتيان (هتلر)، أليس (الاعتراف بالذنب فضيلة) أم أننا ما زلنا نتجنب كتابة السيرة الذاتية لكوننا أمّة تستحي من الآخرين، وفي ص(٨) يكتب/ تلك الحقيقة التي أرجو أن أكون قد سجلتها كما رأيت وسمعت،وكما عشتها/ لا نجد أنه خاض تجربة مريرة كي يحصد باقات الحقائق لتحرير كتابه،لقد كان ضيفاً معززاً مكرماً وهذا ديدن كل عراقي مهما كانت هويته أو طائفته ـ والمصريون بذلك خبير ـ إكرام الضيف،تنقله مروحية عسكرية تطوف به أماكن يجهلها،لابد أن بوصلة الطيار كانت معبأة بما هو قوالب معدة سلفاً كما تسر عيون السلطة، وذلك (الملقن المرافق) لا يتكلم إلاّ بما هو نافع ومفيد ومرض وخادم لسيده، يحدونا السؤال: ماذا رأى.. وماذا سمع..؟؟ لابد أنها منتخبات تكفي إلباس السلطة ثوب الحق طالما صوت الآخر مقموع وصورته ممرغلة بأكاذيب رصينة تلهجها ألسنة معروفة لا تتعاطى الشكوك،السياسي الشيطان يعرف من ينتخب لصيانة تواجده ومن هو مؤهل وقادر من غير تردد أو خوف من القيام بكل ما يومض في ذاكرته من إجراءات احترازية تدفع مركبته ضد تيار الحياة،قلنا إن الكاتب كان الأجدر به أن يتسلل إلى الجانب الآخر من تلك القضية كي يوازن الأمور ولكي يتجنب

السقوط في حبائل الشيطان ويكون تأريخه عرضة للنهش،فهو يقول/ واجب الكاتب أن ينقب عمّا أدّاه أبناء وطنه وأمّته/ هل نقب (الغيطاني) قبل أن يطرح مشروعه،الكتاب يقول: كلا..!! لكونه جلس في طائرة مروحية وراح يقتنص ما يسمع ويرى من خيال متحرك..!!

* * *

ليكن في علم الذين ضللتهم السياسة المنحلة أن (البارزاني) لم يرفض (بيان آذار )إذ ليس من العقلانية والحكمة أن يرفض ذلك الطبق الشهي المقدم وهو يناضل من أجل حق العيش البسيط بأمان، إن السلطة هي التي افتعلت واختلقت اللعبة لانها كانت تدرك أن (البارزاني) كان الرحم المغذي للقضية وهو راية (الكورد) الخفاقة،سياسي معروف على كافة الأصعدة السياسية وفي كل بقعة من بقاع العالم،كانت السلطة تخشاه وتخشى أن يكون الرجل الذي حقق دولة، لكون أبسط الحقوق الممنوحة له يعني جذب العالم وتسليط الضوء عليه،وهذا يؤدي إلى تكوين كيان متعاف ومتين كما يحصل في يومنا هذا، وبعدئذ تكون صحوة قيام دولة ممكنة واردة طالما الثوابت دقت إسفين السلام وتحررت من براثن الطوباوية المفتعلة من لدن سدنة الظلم،أليست تلك الحادثة الشهيرة التي أمر بها قائد عمليات الشمال وقت ذاك كما يذكر الكاتب،إرسال رجال ومعهم أردية (دين) بحجة التفاوض مع (البارزاني) وكانت تلك الأردية ملغومة دون علم المتفاوضين،انفجرت ونجا (البارزاني) من كيد (السيد الرئيس) الذي كان (نائباً) يومذاك ،تلك هي حقيقة من سيل الحيّل التي كانت تدبرها السلطة لقتل الخصوم اللامعين وهذا ديدن كل طاغية للخلاص من كل من يتخيله ند خصيم،ومن أساسيات تثبيت السلطة هو أشغال الشعب بالحروب الطويلة وبث الروع في الرعية من خلال القتل والتجويع وفرض إعلام ذي اتجاه واحد،وجعل كل إنسان لسان حال السلطة من خلال الوشاية،ألم يتم تدمير (الجبهة الوطنية) وقتل الرموز السياسية والدينية وتشريد بعض منهم وملاحقتهم من قبل أزلام مخابراتية وكتم أنفاسهم أينما كانوا،ثمة غزل يورده الكاتب،غزل بطعم العسل/ در بندي خان ـ الجولان/ تفضيل المحلية على القومية،قد تكون شرارة تلهمنا لإدانة قلم الكاتب ووصمه بالمأجورية،كونه تغاضى علناً عن هم شاغل وأنقاد لرغبة ذاتية، حين رسم (خارطةً طريق) غير موفقة،فهو كما يسرد يجلس داخل (هليكوبتر) برفقة طيّار وقائد عسكري/ طويل القامة،أسمر،ملامحه عربية أصيلة/ ص (١١)، ويذهب في نفس الصفحة/ لاحظت أن القائد العراقي يوجه الطيّار،يده تحدد الاتجاه/زلة قلم تدين الكاتب بأنه مقاد وفق خطة مسبقة،هكذا وضعوا الكاتب في حبائل وشرنقة تمويهية لا فكاك منها،رسموا له الدرب وهيئوا له كل ما أرادوا بثه عبر قلمه، وهو الذي يقول/ واجب الكاتب أن ينقب/ كيف تمكن من فرز الحقائق،وإعطاء صفة الرجحان لتلك الفئة التي تؤويه وتطعمه، وهو في علوٍ شاهق ومتحرك فوق مكان مجهول بالنسبة له، حتى أنه يصف رحلته/ إنما اتجهت إليهم فوق قمم الجبال وفي المناطق الوعرة بشمال العراق/ ص (٧)، ليس ثمة تفسير سوى انفلات

خيال روائي، لكونه يضفي أبعادا أسطورية على وقائع تسجيلية يومية ربما هي مفتعلة خدمة أو سلّماً للارتقاء من قبل أصحاب الأحلام المريضة، كيف يمر الليل عليهم، أي أصوات يسمعون، كيف يصعدون هذا المنحدر القاسي، كيف تمضي أيامهم..الخ/ ص (١٢)، لم تكن محاسبة ضمير،أو تحريكه، لكون الجانب الآخر أيضاً يهيم في أرض الله التي بلا قيود للحالمين والمجاهدين من أجل حقوقهم أو محاربة الظلم والظلام، يا ترى لو عرف كيف كان (الكورد) في تلك الحقبة، كيف واجهوا حرباً لا هوادة فيها ولا هوان، أسلحة دولة ضد أقلية ليس في حساباتها الذهنية سوى عشق الحياة والرقص والتغني بالجمال الذي وهبها الخالق لهم رغم أنف الرافضين أو غير المعترفين بهويتها،شعب كان أصل حضارة كما يذهب المؤرخ اليوناني الشهير (هيرودتس) ،أو ما ترويه الكهوف ومخلفات القاطنين فيها في العصور السحيقة،هل عرف الكاتب ما الذي جرى بعد هطول أطنان القذائف وإزالة غابات طبيعية كانت تثمر وتدر واردات معيشية للناس، إزالة أرياف وقرى ووقف الزراعة أو موتها، كلها خلّفت آلاما وفسادا في تضاعيف المجتمع العراقي وأدت بعدئذ إلى سياق السلطة نحو الهاوية التي هي مثواها،لأن القوة هي أغراء تام للشهوات الدنيوية وانجراف أعمى نحو الهلاك،يصل الكاتب عبر الطائرة إلى (زين القوس) وهي من المناطق التي تبرعت بها السلطة مقابل المساندة لخنق (الكورد)، وكانت لعبة ماكرة،لأن (رأس البلاء) أعلن صراحة استنزاف قدرات البلد ولم يبق في جعبة القيادة الجوية سوى(١٦) قذيفة صاروخية، تمكن بتنازله الأثيم عن شرائح دسمة من أرض العراق أن يقنع العدو المساند لعدوه ولو إلى حين،هكذا قال التأريخ يوم بدأت حرب السنوات الثمان تحت ذرائع واهية لإقناع الرعية وسوقهم إلى محارقها،القارئ يتساءل كيف يكتب (الغيطاني)/ ألمح ابتسامة على وجه جندي عراقي/ ص (١٣) ،وهو يجلس في طائرة مروحية، المرء يبدو نقطة واهية(طالما الأرض تدور)..!!

* * *

هاهم (حراس البوابة الشرقية) تركوا البلاد مضغة مهانة،أليست هذه النتائج كلها سلبيات السلطة المتراكمة،ألم يئن الأوان لمراجعة الكاتب ما كتب والاعتراف جميل كي يكون كائناً خطّاءً مغفور الزلل، وعلى أقل تقدير محو ما أعلن حوله بخصوص (زبيبة والملك) أو ظاهرة الكوبونات التي أتلفت مواردنا البترولية، (هذه التهم ما تزال تروّج لها ما لم يخرج الكاتب من صمته كما خرج ـ غونتر غراس ـ ويعلن الصراحة التامة حول القضية، لقد حوّلت السلطة آنذاك وفيما بعد الجيش إلى أداة قمع لا ردع،فعلت ما فعلت في وضح النهار،كان من الممكن أن يتفرغ الكاتب لـ(الجولان) وأن لا يخلط بين قضيتين متباينتين متناقضتين، قضية محلية داخلية وقضية لها علاقة بوطن جريح،كان يمكن أن يسرد ما يشاء وان يلمع ما يرغب، لا على حساب القومية (الكوردية)، لينجو من الحسابات المؤجلة لشعب كان يتقدم بخطوات واثقة نحو حلمه الكبير، وكان يجب أن يتجنب مثلبة تحويل موهبته إلى كراريس حزبية توزع مجاناً وتدار حولها نقاشات حزبية لا تخرج من

فلك مدح السلطة وقدح كل قوى الخير المجابهة،يورد الكاتب/فأنهم يعرفون أيضاً القرى الكوردية التي يقاتل رجالها دفاعاً عن الحكم الذاتي ضد الملا مصطفى البرزاني والمتمردين معه/ص١٤،والكل كان يعرف آنذاك أن ـ البرزاني ـ ليس حالة طارئة،فهو كما كان ـ جيفارا ـ وكما كان ـ سيمون بوليفار ـ رجل حمل آلام شعبه وأراد أن يجلب من أنياب الزمن بعض موجبات حقوقه،فهو إنسان ضرورة في مرحلته،سكن الصميم المرحلي لتلك الحقبة المؤلمة،الحقبة الثورية التي تحررت فيها الشعوب المناضلة من براثن و الحكومات الأوتوقراطية وعنجهياتها، إلاّ الشعب (الكوردي) الذي وضعوه بين فكوك ضارية لا ترحم،فكوك تنهش كلما بان ضوء ساطعاً من ربوعه، فالكورد وحده هو الشعب الذي أطماعه لا تتعدى تركه العيش بسلام،لنتخذ جانب الحياد ونسمح للكاتب أن يجري على شبكات الانترنت استفتاءا عالمياً حول شخصية ـ البرزاني ـ أنا واثق أن النتائج ستأتي مدوية،ليس هناك ضد،ليس هناك جهة محايدة،ستصب النتائج كلها حول مكانته بين الشخصيات الثورية،فكيف يكتب القرى تقاتل (المتمردين) وهو يجلس في عرش متحرك،داخل طائرة مروحية،يتحكم الطيّار بالقيادة والسير وفق خطط الطيران ومناطق الأمان،فالكتابة من الهواء عن ثوابت تاريخية،أشبه بالمثل الشعبي (من الماء للماء) صحيح أن السلطة أتت بمغررين ضعفاء النفوس أغرتهم بالمال والمناصب الورقية ودفعتهم لمواجهة أخوتهم،بعدما وضعتهم بين المطرقة والسندان،بين مطرقة السلطة وسندان التهجير والترحيل إلى صحاري الموت، وأكثر هؤلاء كانوا من سكنة المناطق غير الخاضعة لسلطة (الحكم الذاتي) وحتى هؤلاء كانوا ينسلون من المجابهة كلما سنحت لهم الفرصة ليلتحقوا بأخوتهم في الجبال، ينفلت الكاتب من سكة الواقع ليهول الجانب المقاتل، يقول/ أسلحة متقدمة لمقاومة الطائرات، بعضها أمريكي، وبعضها انجليزي وإسرائيلي/ ص١٤، من يقرأ هذا المقطع لابد أنه يقع في فخ الكتابات الأيديولوجية لتجيير النفوس البريئة، وضخ الحماسة الهوجاء في تضاعيف قلوبها،يريد الكاتب أن يوهم أن (الجيب العميل) كما وصفه تنغيماً لمقولة الحزب آنذاك (مرتزقة) يريد ربطه بالعمالة وتسليخه من ثوب ثوريته، ضارباً عرض الحائط المسيرة التي بدأت بإعلان الدولة الكوردية (مهاباد) على يد القاضي الشهيد (محمد)، وناسفاً كل البطولات التي سطرها (هيرودتس) في مدونته التاريخية، والتحديات المصيرية ضد العثمانيين والإنكليز، ولا يجب التعامل مع شعب دخل الإسلام من غير ترهيب وحرب،ولو كان الشعب (الكوردي) صاحب أطماع مثل الشعوب الأخرى لكان صاحب إمبراطورية كبيرة،وقف في محله غير راغب بالغزو والسطو على جاراتها،كما فعلت كل الأقوام الأخرى،لو كان ما أورده الكاتب بخصوص مصادر الأسلحة صحيحاً لانتصر الكورد في معركتهم ونالوا كامل حقوقهم، طالما تقف وراءهم ثلاث قوى عالمية تمتلك صولجان تحريك التاريخ كيفما تشاء،لا ينأى (الغيطاني) من التنميق الروائي في كتابه،فالرومانسية حاضرة وبقوة،كما أن التجزأ المتبع يصب في صالح عدم إملال القارئ، يسحبه

بمهل إلى منطقة القناعة المزيفة، تارة يسحب قارئه إلى حرب (الشمال) وطوراً يأخذه إلى حرب (تشرين) كأن القارئ يبحث عن لغز بوليسي وهو يعب في جوفه مشاهد لا تخرج من فلك التحديات التي تواجهه، لكونه معبأ سلفاً بترنيمة الثورة الفلسطينية عبر كتب المراحل الدراسية،وهو يعيش في أفق غائم كما صورت حكومات المستقبل الذين استشرفوه بعقول خاملة وإرادات واهنة،أمّا بخصوص زحف الجيش العراقي إلى نصرة الأخوة السوريين. ليس لنا رغبة في الخوض فيه، لانه جانب عسكري، وربما هناك قادة شاركوا فيها ويمكنهم بيان صحة ما ورد في كتاب (حراس البوابة الشرقية)، يصف جبل (به مو)/ هذا شهد. خلال عام ١٩٦٥ وفي منطقة مضيق ـ سه رتك ـ معارك قاسية/ص٣٣، أليس هذا اعـترِاف نبيل طرحه الكاتب من غير وعي وعبر مقصلة الرقابة التفتيشية، إنه يقر بأن الحركة الكوردية عريقة، أقدم من السلطة التي أرادت طمسها عبر حرب إبادة شاملة،أمّا(الجناح الرجعي في الحركة الكوردية لمشروع الحكم الـذاتـي) فمغالطة تاريخية في التوصيف،كان يجب أن يصفهم بـ(الجناح المسلح)، لقد أظهرت الحكومة رجعيتها السلفية لحظة بدئها بتطبيق مشروعها الشوفيني لصهر الأقليات الأخرى ضمن أطرها الراديكالية،وكان خير شاهد على ما نقول التعداد السكاني لعام ١٩٧٧،كـان الإنسان أمام خيارين لا ثالث لهما، إمّا أن تكتب قوميتك (عربي) أو (كوردي) وليس هناك مجال للأقليات الأخرى،فكان حقاً على أصحاب الأحلام التحررية أن يحملوا السلاح ويعرقلوا المشاريع التدميرية للبشر مهما كانت التضحيات ومهما أمتد بهم الزمن،فالثائر يـدرك أن النزعات الدوغمائية للحكومات الشمولية مجرد هذيانات مرحلية شيئاً فشيئاً تتحطم على صخرة الواقع، وعلى رغـم من قـوة الأعـلام وتحريك الأقـلام المأجـورة لتشويه الحركة (الـكورديـة) وتلميع السياسة الدموية بقت الطموحات قائمة للحركة المسلحة وراحــت تتحدى مـع تضييق الخناق واستخدام الوسائل التدميرية الشاملة بحقهم،يواصل الكاتب دس أشياء منافية ومخالفة للواقع، يبدو أنه يمشي في مكان مظلم،أو كأعمى ترك في عراء، يكتب/ وفي نفس الوقت يضربون جسم السد نفسه،بغرض تـدمـيره/ ص٣٤ـ٣٥، يقصد سد (دوكان) هذه مغالطة لا تغتفر للكاتب،لأن الشرفاء والثوريين لا يحاربون الجماد،كيف يريد المقاتل (الكوردي) تشويه سمعته النضالية،وكيف يريد تدمير حواجز تخدمه في نضاله وزوالـه يدمر الكثير من شعبه أرواحاً وممتلكات، تزحزحه نحو خـانـة (الإرهـــــاب)، لـنـرى مـن قـام بتدمير الطبيعة،أليست الحكومة هي التي قامت بإزاحة الغابات المثمرة، ودمرت الحقول المنتجة للمحاصيل المهمة لقوت الناس، وأبادت الزرع والضرع، من هو أيها الكاتب الـذي ما زال يشغلنا بأدبه صاحب النزعات التخريبية في (بـلاد ما بين النهرين) يقيناً لو جئت إلى ربـوع الشمال، ضيفاً عزيزاً مكرماً، ستجد أنك كنت في حالة سرابية لانصهار إيديولوجي أتى في زمن ركود العقل العربي، هنا ستجد الحقائق التي كنت أو جئت يوماً للبحث عنها،ستجد الفئات التي قلت عنها (المرتزقة)

تحمي الحرية وتدافع عن السلام والتآخي،سيمطرونك بالبسمات والمصافحات وربما ستقرأ في عيونهم تلك الفطرة الكونية التي أمتاز بها الشعب (الكوردي)، فطرة مسامحة أعدائه مهما أذنبوا بحقه، يقول الكاتب/ ماذا لو تحرك الظهر،الذي نركبه نحن وهوت الطائرة وأفضل ـ لو حدث لنا الحادث ـ أن نسقط فوق حشائش الوادي/ ص٣٥، رغبة عجيبة للكاتب، رومانسية الجرس، تدخل باب الأسطورة، ربما هي ممارسات ترطيبية لجو السرد،أو رغبة (صبيانية) لتقريب النفس قربانا للسلطة الطاغية،/ الجنود القدماء يستطيعون التسلق المتواصل لمدة أربع ساعات بدون تعب، ويتنافس الجنود في قلة عدد الوقفات/ ص٣٦، هذا الشطر منقول من قبل الملقن الذي يرافقه داخل المروحية العسكرية، فالقادة غير ميدانيين، أنهم يلمعون تواجدهم بحكايات خرافية لإرضاء القيادة العسكرية والحاكم، فالأوامر قاسية في الجيش، وكانت البنادق مهيأة لإعدام من يتلكأ،وكم من تابوت عاد كتب عليه (جبان)، لقد كان الجندي تحت مطرقتين تطرقان بلغة الموت، وكانوا يفضلون الموت كشجاع كي تستحق عائلته راتب الشهيد، ومن المفارقات القصصية التي يزجها الكاتب من عندياته في متن الكتاب،سقوط قذيفة تقذف بجنديين إلى وادي سحيق،يبقى أحدهما(١٢) يوماً،قبل أن يراه جندي ويمد حباله لسحبه مع الجندي القتيل،/ كان أحدهما قتيلاً والآخر في حالة سيئة،لقد عاش الجندي الأول سبعة أيام، كان جريحاً، وكان الجنديان يتبادلان الحديث،يسليان بعضهما،حتى أستشهد الأول على مرأى من زميله، فبقي الثاني وحيداً مع الجثة لمدة خمسة أيام في وحدة وصمت وعزلة وسبات الموت،كانا يقتاتان على الحشائش المزروعة حولهما/ ص٣٧، لا أعرف كيف تمكن الجندي الناجي الجائع المتهالك فاقد الطاقة من التسلق بالحبل، وفي نفس الصفحة يورد/ يبللان لسانهما بقطرات الندى والمطر المتساقط من السماء/ يمكننا أن نحيل هذه القضية لطبيب متخصص كي يبين صحة المعلومة ومدى قدرة الإنسان على التحمل في ظرف مشابه،ربما كتب الكاتب الكثير من السطور بنفسه الروائي، لكون الخيال يتواجد بشكل غير لائق وغير معقول في كتاب تسجيلي يحكي الواقع بكل تجلياته، والبحث كما هو سائد ليس ميدان الخيال، والبحث يحتاج إلى إقناع علمي، لكونه تعامل صريح مع المحسوسات والثوابت، أمّا الأدب فميدان حر بلا حدود أو حواجز يمكن للأديب الخروج من الواقع وترتيب الكثير من الفصول الغرائبية والرمزية حتى لو جاءت فنطازية لا تصالح الذائقة البشرية،يذكر جملة (طلع الجبل) فهو يريد وسم الذين التحقوا بالثورة المسلحة بعد بيان الحادي عشر من آذار من عام ١٩٧٤،واصفاً إياهم بـ(القوى الرجعية) و (معاداة الثورة والإنجازات التقدمية) ص٣٨، لا أعرف أي إنجازات عناه الكاتب،أليست كانت ثورة (خيانية) داخل بيت الحزب،شلّة تكنس شلّة،ذلك هو المفهوم الثوري عبر التاريخ لكل حكومة أتت بمكنسة الثورة التي لا تستحي،أعني التآمر داخل البيت الرئاسي تحت مسميات يتم توظيف المال بغية حشره في أذهان الناس،لا تعدو المنجزات سوى

(تأميم النفط) غباء معلم لكونه تجاهل الحسابات التي ستترتب على الفعلة فيما بعد، والتي جاءت ردة فعل مؤجلة كلّفت المنطقة شرفها ومالها وأرواح أناسها وتراثها ومستقبلها الغامض،محاربة الأقليات وتصهير إرثها داخل بوتقة العرقية السلفية،كما فعل النازي (هتلر)، (مجانية التعليم) التي تحولت بمرور السنوات إلى (مجانية التسليب) وتدهور المستوى العلمي والثقافي، وثمت العودة إلى (النظام الإقطاعي) وتحويل أراضي الدولة إلى ممالك زراعية للمسئولين، لا أيها الكاتب، ليس من منجزات مشرفة للسلطة إبّان فترة غطرستها، لقد تم تصفية الجبهة الوطنية وقتل الرموز الحزبية بلا أسباب كي تنفرد السلطة بالواحدية المستبدة،فالقضية (الكوردية) قضية حقوق خادمة لكيان الدولة لا حقوق انسلاخ،وليس وراء كل بوق ناعق نافخ حقيقي،لذلك تأتي الصيحات الإعلامية مزيفة قالبة الحقائق بأباطيل مفتعلة وأكاذيب يتم حشرها قسراً في أذهان الرعية، لقد وجد (الأكراد) أنفسهم بين خيارين قاتلين، خيار الرضوخ والانصهار القسري في مجتمع يدفعهم إلى مرتبة أدنى،وخيار التهجير والتغريب والتدمير النفسي عبر وسائل تعليمية غاصبة،يحاول الكاتب أن يقسم هؤلاء إلى نوعين من الاختيار المصيري لأتباع قائد الكفاح المسلح، قسم يربطه بحكم العلاقة بـ(البارزاني) يسميه (الارتباط العشائري المتخلف) والقسم الثاني يقول عنه (لأنه قدر الموقف لصالح المتمردين)، ليس هذا ولا ذاك، فالمهمة كانت مصيرية، لكون العشائر كانت على حدٍ فاصل، في كل جانب يتربص الموت، فبقاؤهم يعني أن السلطة ستجعلهم أكباش فداء، لأنها ستقوم بدفعهم أمام زحف الجنود كي يضرب (الأخ أخاه) فتكون المحصلة النهائية قتلى الطرفين هم أكراد، لذلك وجدت العشائر أنها تعيش مرحلة اختبار وتقرير مصير، ولم يكن المثقف الكوردي (انتهازياً) كما يصف وليسوا أصحاب قلوب هشة كي يحلموا بحيوات رومانسية،كانوا حملة مشاعل تنويرية،بحثوا عن ملاذات آمنة كي يسطروا أحلامهم بحرية تامة،رافضين أن يتحولوا إلى غربان ناعقة أو أبواق كاذبة تنعق من أجل تجميل سحنة السلطان، لقد مرت سنوات الهدنة من ١٩٧٠ ـ ١٩٧٤ بترقب وتربص من قبل السلطة،كانت تهيأ المستلزمات التدميرية لصهر القومية (الكوردية) وتبديل جغرافية المكان، بعد تجريد ناسها وتبديلهم بأناس لا تنسجم طبائعهم مع المكان، ولا المناخ، يراود الكاتب سؤال يقف أمامه بخجل مفتعل، (موقف بعض المثقفين الواعين محل تساؤل) ص٣٨، مأزق آخر يقع الكاتب فيه من غير وعي، تلك هي صفة الكتابات التي تعالج موضوعات خارجة عن أرادة كتّابها، أليس من حقنا أن نرد السؤال له،/ ما هو موقفه من القضية الكوردية/ لم أختار الكتابة عن سلطة لا يمت لها بصلة، أليست الطبقة المثقفة مستهدفة عبر كل العصور من الساسة والحكام والملوك، أليس من حق المثقفين (الكورد) أن يدافعوا عن قضيتهم وتراثهم ضد سياسة ديالكتيكية لا تبقي ولا تذر، استخدمت العنف لتحقيق منجزاتها الشوفينية..!!

* * *

[قرر مجلس قيادة الثورة أن تكون العمليات

العسكرية ذات طابع إنساني تماماً... أن الجيش لم يحرق قرية ولم يعدم امرأة ولم يمس طفلاً]ص٣٩

وفي نفس الصفحة (والتي رأسها صدام حسين،كان يتابع بنفسه أدق الحوادث وأصغرها شأناً)، لنبدأ أولاً بقائد عمليات الإبادة الجماعية، كان آنذاك في (خريفه) الـ(٣٩) أليس هذا دليل قاطع على التهور وعدم العقلانية لشاب بعمره يمتلك سلطة قيادة شعب صاحب تراث وتاريخ عريق،خصوصاً أنه يتعامل مع قضية كبرى وحساسة، تتعلق بمصير شعبين ومستقبل المنطقة، وهو يقود حشود ضباط متمرسين، ثم أليس هذا يعني أن العلاقة التي تمت بين الكاتب و ـ صدام حسين ـ آنذاك تقدمت مع السنوات كي تنهال السهام على الكاتب بخصوص (كوبونات النفط) ورواية (زبيبة والملك)، لنعد لذلك القرار الذي أورده الكاتب في متن كتابه، ليقم بزيارة ميدانية إلى ربوع الشمال، ليرى بنفسه كم قرية أبيدت وكم شجرة اقتلعت وكم طفل دس في التراب وهو حي، وكم امرأة اغتصبت ودفنت في مقابر منسية، كشفتها الأيام بعد انقراض السلطة، كم شيخ قتل، كم حقل دمر وكم غابة حلقت قبل حرقها، مرة أخرى يزل قلم الكاتب الذي راح خبط عشواء،يلصق الحدث بالحدث كي يجعل من كتابه مدونة نادرة وخادمة، حين يورد ملحمة (مم وزين) الشهيرة،هو يريد تبيان النهاية المأساوية على أنها نهايات مقرورة لدى القومية (الكوردية)، متناسياً أنه أقر بشرعية الأمة (الكوردية)، لأن الملاحم هي هويات الشعوب الكبيرة ونتاج ثقافة متنورة ومؤثرة في الذاكرة البشرية،زبدة حضارة لا يمكن المساس بها، ويغالط الكاتب التاريخ حين يعرج نحو الشيخ (محمود الحفيد) يقول/ وذلك منذ العشرينات عندما قامت بريطانيا بمساندة ـ الشيخ محمود ـ وتنصيبه ملكاً على الأكراد في ـ السليمانية ـ وذلك بهدف إرهاب العناصر الوطنية التي برزت خلال ثورة العشرين/،أليس هذا يجافي الحقيقة،لقد كان الشيخ (محمود) من أعداء الانكليز،وهو من قام بإرسال القوات لمحاربتهم في الجنوب هكذا يقول التاريخ، كان الانكليز يمارسون لعبة (جر الحبل) معه، تارة يشدون عليه وتارة يرخون الحبل له، وفق أهوائهم السياسية، والكل يعرف أنه كان يتمرد دائماً عليهم فكيف يقوم بمعاداة عدو عدوه، ولدينا الفلسفة الكاملة حول هذه القضية (عدو عدوك صديقك)، ويذكر في ص ٥٨، مما يبرز البعد الإنساني للقومية العربية أثناء تعاملها مع قومية مختلفة/أي بعد إنساني يريده صاحب كتاب (حراس البوابة الشرقية)، في أي بلد عربي يتمكن نفر من القوميات المختلفة أن يرفع رأسه أو ينادي بلغته،في أي رقعة،أين هم (الأمازيغ)، أين هم (جنوب السودان)، أين هم (أكراد) العراق ـ لحظة كتابة الكتاب ـ (أكراد) سوريا، (أقباط) مصر،لا يبدو أن القومية العربية اليوم تشبه القومية العربية في السابق،شتان ما بين زمان الوصل وزمان الفصل،ثم أين هي الحرية كي تتمكن الأقوام المختلفة أن تعلن عن نفسها،ألم تقم معظم الحكومات العربية بطرد (اليهود) من أراضيها فساعدوا مساعدة تاريخية لتكوين (إسرائيل)، كان يجب أن يتركوهم أشلاء ممزقة متناثرة في أماكن منسية،كي لا يسقطوا في

فخ الخيانة الكبيرة،ألم تهجر السلطة الناس التي لم تمتلك الجنسية العراقية لأسباب كانت تتعلق بالـ(سفر برلك) ،حصلوا على الجنسية التبعية كي يتخلصوا من براثن ـ العثمانيين ـ يوم كانوا يسفرون الشباب للحروب التي لا تنتهي،لقد كان بيان (الحادي عشر من آذار) مصيدة سياسية لتحويط الشعب (الـكـوردي) وتقويضه قبل صهره في فرن النسيان، جملة أهداف كانت تحاك خيوطها سراً، منها التخلص من الرموز (الكوردية) القيادية،وتنصيب (أذنـاب) تعمل بعصا السلطة السياسية لتحقيق (الآمال الكبيرة) لـ(المهندس) الذي راح يصوغ القرارات ويسيّر القافلة العراقية نحو أحلامه، في ص٨٠ يكتب الكاتب/ وثمة أوراق فوقها كلمات بالكوردية أو العربية لقد أحرقوا القرية وأجبروا جميع سكانها على الرحيل معهم إلى ـ إيران ـ حيث معسكرات الإيواء/ لقد وضحنا أن أصحاب القضايا المصيرية يتعاملون مع أعدائهم أو هاضموا حقوقهم بروح نضالية نزيهة،لأنهم يفكرون بالمنجزات التاريخية ووسائل الأعلام الخارجية وهم يواصلون درء الأخطار عنهم،فليس من المعقول أن يلوثوا سمعتهم بطرق (تترية)، فالأشراف لا يحاربون الجماد،والتاريخ كشف ولو بعد حين من كان عدو الجماد والبشر والطبيعة، يقول أيضاً/ بعد ١١ آذار بدأ الملا مصطفى البرزاني في تنفيذ مخططه الرامي إلى الانفصال وفي المعارك المهمة كان يقدم السورانيين في المعارك ويجعل البهدانيين في المؤخرة وهذا هو أسوأ شكل للقيادة يمكن أن يصاحب الزعامة العشائرية/لنطرح سؤالنا على الكاتب،لم قامت السلطة بتقديم حشود من (أكـراد) خـارج نطاق الحكم الذاتي أمام الجيش وهم غير عارفين بالشؤون الحربية وأسلحتهم يدوية، أليس الهدف ضرب (الأخ أخاه) والتخلص منهم معاً،والتقسيم الذي أشار إليه ليس تقسيماً عشائرياً،بل هو تقسيم (جيبولوتيكي) للمنطقة (بهدينان ـ سوران ـ كه رميان)، وبعد انتهاء المعارك مباشرة كشرت السلطة عن أنيابها العرقية وراحـت تزيح القرى والغابات في أسوأ عملية تهجير جماعية عبر كل العصور، وما تزال آثار التدمير واضحة حتى يومنا هذا مع مرور أكثر من ثلاثين عاماً فضلا عن تسكين أو توطين آلاف العرب الململمين من شتى البلاد وكانوا في فقر مدقع أو بلا معيشة جلبتهم السلطة لتغيير وجه الشمال ولغته (الآرية)، فالدلائل لاتزال تبرز وتعلن أن (خمسة آلاف) قرية كوردية كانت بعيدة عن خط المواجهة دمرت كلها بعد ترحيل سكانها إلى الجنوب،الجنوب القاسي على ناس خلقها الخالق كي تتحمل الثلوج وبرد الشتاءات الصارمة وتعشق الحرية والسلام..!!

* * *

[سيدي نحن نتدفأ بالثلوج]ص٨٦

على ما يبدو أن (الغيطاني) أعد صاروخاً من العيار الثقيل كي يتبرع للمجهود الحربي أو يجحفله مع جيش السلطة،لتدمير شعب لا يريد سوى التكلم بلغته والاحتفال بتراثه ضمن المحيط الشامل للحاضنة التي تؤويه،حاضنة بلد تشكلت من أعـراق متناصرة عبر التاريخ، أمّـا رؤيته بخصوص (بيان آذار) فلم تكن موفقة،

لأنه لم يكن خدمة لوجه الله، بل كان اتفاقا

خلا من كل نزاهة (الأرض مقابل التأييد)، وكانت تلك الوسيلة الشيطانية لخنق القضية (الكوردية) بعدما لاح في الأفق الضوء الأحمر لبداية النهاية للسلطة التي جاءت من أبواب خلفية من غير إرادة الشعب، كان من الممكن أن يجنب (الغيطاني) نفسه من مصيدة وفخاخ التاريخ،لو أنشغل بتأليف كتاب رحلات، لان الشمال مكان يجذب ويعطي الشهرة ولأنه غير مرسوم بدقة في أذهان الناس،وهو ربما يدرك أن اللعب بالسياسة ديدن العاطلين وأنصاف الموهوبين والعاجزين من الكتّاب،حين تتعطل ملكة الكتابة، غالباً ما يستدير الكاتب الفاشل نحو منصة السياسة كي يدفن فشله بمقالات واجبها صبغ الصحف،ليغطس في عالم متنافر مع جمال الأدب وتأثيره في حياة البشر،في ص(١٠٣) يحاول الكاتب أن يلصق صفة الخيانة والغدر بـ(الأكراد) فيورد/ طلب العصاة من جندي أن يصيح منادياً رجال الوحدات الخاصة، ليقول لهم أن الرابية محررة وعند اقترابهم يفتحون النار، لكن الجندي رفض فألقوه حياً إلى المضيق/ من يقرأ هذه العبارة سيدرك أن الكاتب ضعيف الرؤية وفقير الثقافة،كيف تلقي فئة مسلحة تبحث عن حقوق بأسير إلى الهلاك،لم لا تحتفظ به من باب تبديل الأسرى أو تحقيق مطلب آخر،فالأسير كنز كبير في الحروب يا صاحب السعادة،والنقطة الأخرى،هل من المعقول أن يفعل أسير تلك البطولة الشخصية،فالأسير ذليل ضعيف بوسعه أن يبيع الدنيا من أجل حريته،هكذا فعلوا (حراس البوابة الشرقية) أيام أسرهم في حرب السنوات الثمان،لأنهم يدركون أن السلطة التي قذفتهم في اتون المحارق سلطة باطلة، وأن الفئة التي تقاتلهم ليسوا قوات غازية كي يبدوا بطولاتهم الشخصية، بل هم أخوة تربطهم روابط لا تنتهي،وهناك فاصل حيوي في لغة الحرب،هو فاصل الخدعة، إن لم تخدع عدوك ليس بوسعك أن تفلح في حربك،تلك هي فلسفة الحروب في كل العصور من أيام المنجنيق والسيف والرمح وحتى أيام الصواريخ القارية،والسنوات التالية كشفت الأوراق الكاملة للسلطة،فعرف العالم من هم أولئك الذين أعلنوا وطنيتهم وأسرفوا في تبذير أموال شعوبهم من أجل الذات وليس من أجل المصلحة الكبيرة للشعب، ويمضي المؤلف في رص استفزازاته التشويقية/ وفي مواقع أخرى قاموا بتلغيم بعض جثث الجنود لتنفجر عند شدها أو أمساسها وهو أسلوب لم تتبعه إلاّ القوات الإسرائيلية/ ص (١٠٣) أليس هذا تصريح سافر بدمج القضيتين،وأن الغاية منها هو ربط المقاتلين (الأكراد) بالدولة العبرية،تلك هي المقبلات الإغوائية لدس كل ما هو خادم في أذهان الناس، كجزء من متطلبات التلميع الشكلي والأخلاقي للدكتاتوريات التي تعج بها المنطقة عبر كل العصور،بطبيعة الحال أنه طلاء مؤقت لتمرير المرحلة،سرعان ما تتكشف الأوراق وتستوضح الأمور،عند ذاك يغدو كل من كتب ووصف مجرد بوق وآلة تلميع ليس إلاّ، كان يجب أن ينتبه الكاتب لمستقبله قبل أن يغامر ويخاطر في أرض ليس هو منها،ألم يكن الشعب (الكوردي) محاصراً بالدبابات والطائرات وكل أنواع المسوغات الخادمة لخنق المنطقة، وأن الذي حصل مجرد تطبيق فقرات وبنود قرار(آذار)

بعدما قامت السلطة استغلال مدة الهدنة من١٩٧٠ إلى ١٩٧٤وتلغيم المنطقة الشمالية بالجيش وأزلام الحزب وكل أنواع السلطات الأمنية والمخابراتية للإجهاز على الشعب (الكوردي) ورموزه في لحظة التطبيق، لقد وعت القيادة (الكوردية) ما يجري بين أعينها لذلك احترست من كيد الكائدين،هذا الفاصل تكرر لدى السلطة يوم قامت بزج مئات الرجال من صنف المخابرات في السفارة (الكويتية) لاحتلال البلد الشقيق كما حصل،قبل أن تجر السلطة المنطقة كلها إلى وحل تاريخي لا ينضب، نتساءل هل حقاً يفعل (الإسرائيليون) مثل هذه الأعمال،الجواب يأتي من مخلفات السلطة، فالبلاد اليوم فيها هذه الأشكال الدنيئة التي تفخخ الحيوانات والأجداث البشرية لقتل سكان البلد تحت ذرائع انتقامية ليست ذرائع التحرير كما يتوهم كل من لم يكتو بنيرانها، ويواصل الكاتب/ ويعلو الجنود على الموقف،لا يمثلون بجثث العصاة كما فعلوا هم، ولا يلقون بها من الجبل بل تم نقل الجرحى من العصاة إلى المنطقة الطبية التابعة للقوة، عولجوا وبعد السيطرة تماماً على الموقف قام الجيش بإعادتهم إلى قراهم/ ص (١٠٤) يا سلام (يا حضرة الناظر) أنك تكتب ما يملون عليك، تلك هي حقيقة كتابك، تعال و (شوف) ما الذي ظهر من حقائق،آلاف الأجداث بملابسهم بهوياتهم مدفونين، تعال وأسمع من هم الذين نجوا أو هربوا من الضباط خارج البلاد والذين تحت رحمة القضاة وهم يخرجون أوراقهم البغيضة، كيف تم قتل العزل من النساء والاطفال والشيوخ لا ناقة لهم ولا جمل سوى أن أبنائهم يريدون تحقيق أحلام شعبهم، سأسرد لك واقعة مشهودة وبلسان من حضر تلك المحاكمات الصورية الفورية التي أجازت لكل جندي أن يفعل ما يشاء على هواه،قال لي أحد الجنود (دخلنا قرية وأمرنا الضابط: نسائهم حلال عليك، الذكور يجب أن تقتلوهم،تم قتلهم وإلقاء جثثهم إلى الوديان،فجأة رأينا شاب يتقدم من الضابط، أوقفوه وسأله الضابط:كم عمرك..!! أجاب بلكنته المتعثرة: ١٧ سنة..!!: في أي مرحلة دراسية أنت..!!: في الصف السادس..!!: ما تريد أن تصير..!!: أريد أن أدخل الكلية..!! صاح الضابط خذوه وأرسلوه إلى الكلية..!! قام جنديان بسحله وأوقفوه على تلة ورشقوه بصلية قذفت به في اتون الوادي وكان الجند يواصلون تحطيم الفتيات داخل الغرف وفي الهواء الطلق/ هذه حالة واحدة بإمكانك أيها الكاتب أن تزور الشمال واجلب الجندي ليسرد لك وقائع تلك الجرائم التي ارتكبت بحق الشعب (الكوردي) زمان السلطة الهمجية،وكيف يجرأ (الغيطاني) أن يقول أن السلطة تقوم بعلاج الجرحى وأعادتهم إلى قراهم، فالقرى أزيلت يا عالم،وأن الذين تم إعلان العفو العام عنهم وعادوا إلى منازلهم تم سوقهم إلى معسكرت بحجة ترتيبات تتعلق بأمورهم الخاصة وتسريحهم من الخدمة،اكتشفوا أنهم في سجن كبير،فيما بعد عرفوا أسمه (أبو غريب)..!!

* * *

يريد الكاتب أن يربط القضية (الكوردية) بدولة (إيران) متناسياً أو غير عالم بأن (إيران) هي من قبرت الحلم (الكوردي) ومن يومها راحت دول المنطقة تراقب وتحاصر وتميت كل بادرة

حلم، يكتب/ يوضح هذا درجة الارتباط بين قيادة الملا وإيران، أن الذي يطلب وقف إطلاق النار هو شاه إيران ثم يلتزم به الملا/ ص (١٢٠) لو كان الأمر صحيحاً لما أجبر - الشاه - (الأكراد) التخلي عن مطاليبهم،خصوصاً أن - الشاه - أستغل الموقف لصالحه، كورقة ضغط على حكومة مستجدة قوامها (عسكريتاريا)، لقد قدمت السلطة أجزاء من البلد كي تتخلص من (أبن) يريد الحرية والسلام، لقد وجد (الملا) أن المؤامرة الخيانية ستفتك بالقضية كلها،كان يجب أن يتخذ الحل الصواب ويوافق على وقف أطلاق النار للعمل من مكان آمن وبطرق أخرى لنيل حقوق شعبه،وفي ذات الصفحة يقول/ وفي نفس اليوم أصدرت أوامر محددة إلى الطيارين العراقيين وبطارية المدفعية الثقيلة بعدم تدمير الجسور التي تقع في المناطق الخلفية المتاخمة للحدود الإيرانية/ يا ترى لم تركت السلطة تلك الجسور والسدود طيلة فترة الحرب، إذا كانت تمد المقاتلين الأكراد بكل أنواع الإمدادات (اللوجستية)، لابد أن الكاتب كتب ما يمليه عليه شخص غير متمرس بالثقافة النقدية، مجرد يحكي لصحافي كي يأخذ ما هو مفيد، لكن الكاتب مرت عليه مثل هذه الهفوات، لكونه دوّن ما يسمع وتسارع لطبع كتابه من غير أن يقرأه خبير لكون الأسماء المعروفة تطبع كتبها بلا مراجعة،يقول أيضاً/ لإتاحة الفرصة أمام القوات الإيرانية للانسحاب/ لو كانت القوات الإيرانية في داخل الفرن لقامت المباغتة من الجنوب والوسط،تلك مثلبة أخرى يسقط فيها الكاتب..!!

* * *

ص (١٣٥) يقول (الغيطاني)/ وهو فردي في قيادته،إرهابي،أنه خبير في تحطيم نفوس من يحيطون به/ ربما وصف من غير أن يدرك سيرة حياة صاحبه (قائد عمليات الشمال آنذاك) الذي جلبه للكتابة عنه،فالأيام كشفت من يستحق هذا الوصف،وهذه التوصيفات تثبت أن الكاتب غير ضليع بقراءة الأوراق المستقبلية، وهو مستقطب للسباحة في نهر يجهله،ولكي ننهي قراءة الكتاب بعجالة بعدما تهرأت حكاياته، وظهرت الغاية منه،في ص (١٧٠) يشهد الكاتب بقول (مصري) يريد من خلاله ايهام السلطة ونفخها كي تطير/ إن الثورة التي عالجت تلك المشكلة المعقدة بهذه البراعة،سوف تعالج المشكلة التي ستنشأ منذ الآن بنفس القدرة،وأنها تدور حول البناء والاستقرار بعد أن انتفى منها عنصر الحرب/ لقد قلنا بما فيه الكفاية أن الكاتب كان تائهاً في صحراء من غير دليل، كان دليله أعمى، أو مخادعا من طراز نادر،ساقه ليسقط تاريخه الأدبي في مستنقع السلطات الدكتاتورية، وبهذا يكشف لنا التاريخ،أن الدكتاتور غالباً ما يستقطب الأسماء اللامعة من الأدباء كي يتدثر بكتاباته ويحقق لنفسه مواطئ أقدام في النفوس، كي يستر جرائره،أين هي حكمة القيادة، أين منجزاتها، ماذا فعلت بخيرات بلد تكفي لسد حاجات ربع العالم، لا أيها الكاتب، ان السلطة لم تحتمل السلام والهدوء، جاءت من الشوارع الدامية للحياة،وراحت تبحث عن الحروب، مثل الكلاب المسعورة،لا تقر لها قرار ما لم (تعض)، أو الأفاعي المجروحة، لا تهدأ ما لم تلدغ، كل ما تركوه، بلاد مدمرة، محتلة، جائعة،تحت ديون

قاسية، فالحسنات الوحيدة التي تركوها، هي أنهم دفنوا الضحايا مع هوياتهم الشخصية، وفي قبور جماعية،ربما كان غباءاء منهم أم أن الله تدخل وأعماهم كي يكشف جرائمهم فيما بعد، لكونه يمهل ولا يهمل، وإنهم تركوا قصور شخصية تفوق القصور التي تحفل بها (ألف ليلة وليلة)، وتركوا بساتين إستمدوها من حكايات (شهرزاد) وأضافوا عليها الخدمات التكنولوجية..!!

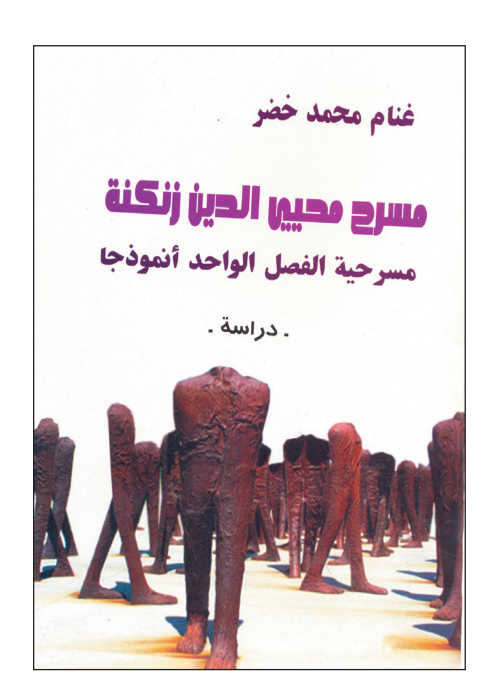
★ ★ ★

قد يسقط الكاتب جراء ظروف قاهرة،وقد تقوده شهواته العمياء إلى مطبات،لكن من يعي نفسه بعدما تتكشف له الأمور ويعلن براءته أو سهوه لابد أنه يرتقي الذاكرة ويجد من حوله مناشير التأييد تنهال عليه من لدن أصحاب القلوب التي تنشد الإعمار والجمال والحرية والعدالة وإسقاط أوراق التهميش والإقصاء، ليجد من تعثر أنه تعافى من أدران الكوابيس التي باغتته في لحظة فقدان الوعي،وأن الجليد لا يذيبه إلاّ (الصفح) كما جاء في رواية (أندريه مورو)..!!

★ ★ ★

★★(حراس البوابة الشرقية)جمال الغيطاني ـ دار الطليعة ـ بيروت ـ غير مثبت التاريخ..

ملحوظة مهمة: توجد عبارة(printed in italy)..







من مطبوعات دار سردم للطباعة والنشر

# التشويه المدنّس للشعب الكردي

أرشاك سافراستيان

ترجمة: د. أحمد الخليل

## الكرد رحلة الى البدايات

لاتوجد، في النصف القديم من الكرة الارضية، سلالة بشرية كانت عرضة للظلم باستمرار، وأسيء فهمها كالشعب الكردي، ومنذ فجر التاريخ ربما لايوجد شعب في العالم يسكن منطقة جغرافية محددة، كان ضحية النوايا السيئة على الدوام مثل الشعب الكردي. إن هذه الحقيقة يجب أن تؤكد في البداية، كي لايتم تحريف المشكلة التاريخية، ولا تناقش القضية الكردية على نحو سطحي كما هو الامر في أيامنا هذه.

إن بعض اقدم الملوك القدامى للمدن السومرية، ملوك أكاد وبابل، وامراء المرتزقة الإغريق عشرة الآلاف، وصفوا تعاملهم مع رجال الجبال هؤلاء بأنه تصعب السيطرة عليهم. ولعل المواجهة التي لقيها حكام تلك الممالك القديمة، ومن بعدهم المرتزقة الإغريق المنسحبون[1]، على أيدي الكرد كانت مجابهة أقسى مما اعتادوا عليه في ظروف مشابهة، ومع ذلك فإن تلك السجلات القديمة التي تحدثنا عن سلوك الكرد، لا تدعم ابدا الصورة المختلفة التي الصقت زورا بالكرد في العصر الحديث.

ومنذ ملوك آشور الاقوياء، ومرورا بالمغول، وانتهاء بالترك والفرس، الصقت بالكرد صفات لزمتهم الى الوقت الحاضر. وباستثناء ما كتبه بعض الزوار الاجانب لكردستان خلال القرون الثلاثة الاخيرة، وبعض المذكرات التي تدور حول

تجارب غير سعيدة لهم خلال رحلاتهم، يمكن القول باطمئنان: إن الشعب الكردي يتمتع بسمعة طيبة في الماضي والحاضر، شأنه في ذلك شأن كل الشعوب الاخرى. ولعل الخطأ الاساسي يكمن في طريقة حياة الشعب الكردي، فهي حياة لا تعرف الخضوع، وأنهم في عداء دائم مع المتسلطين، سواء اكان المتسلط فاتحا ام جارا امبراطوريا.

لقد اعتادت العشائر الكردية بشكل وراثي، ولقرون طويلة، ان تحكم نفسها ذاتيا، وتستقل بأراضيها، ولا تعد من الخطأ ان تقاوم الحكام الاجانب بكل الوسائل المتاحة، وقد حارب الكرد الإمبراطوريات الجبارة والغزاة العتاة بالأسلحة القديمة، مثل القوس والحربة والمقلاع، وعندما اخترعت البنادق ذات الطلقات السريعة، في العصر الحديث، لم يستطيعوا الإفادة منها كما استفادت منها الإمبراطوريات المجاورة، ولا سيما تركيا وبلاد فارس.

وقبل الخوض في المعالم الاساسية لجغرافية كردستان من المناسب ان نلقي نظرة على البدايات التاريخية للشعب الكردي، أين ظهر اسمهم للمرة الاولى في تاريخ الحضارات الشرقية القديمة ومتى؟ ومن المناسب ايضا الوقوف عند مصطلح (كرد) ترى ماهو؟

تفيد الوثائق الادبية ظهور اسم (كرد) للمرة الاولى في الكتابات التي دونت باللغة البهلوية على شكل كرد Kurd أو كردان Kurdan ويذكر ارتخشير[٢] بابكان، مؤسس الدولة الساسانية الفارسية عام (٢٢٦م)، اسم ماديج Madig ملك الكردان او الكرد من بين بعض خصومه.

ويبدو ان الملك الساساني ارتخشير، مدمر العرش البارثي[٣]، حول الاسم القديم كوتي (جوتي) Guti الى كرد Kurd، وقد اقتبس المؤرخون المسلمون الكبار، امثال الطبري والمسعودي، هذا الاسم من العهد الساساني، ووصل إلى العصور الحديثة على هذا النحو (كرد- Kurd).

وقد اشتق اسم كرد Kurd من ارض ومملكة طوتيوم (جوتيوم) Gutium[٤] ومن شعب طوتني Guti، وذلك بحذف حرف الراء R بعد حرف العلة u (Guti=Gurt))، وهذه قاعدة لغوية تطبق بشكل عام على كل اللغات الهندو-اوربية، وخاصة الشرقية منها، مثل الكردية والأرمنية والسنسكريتية والإغريقية. وقد اظهرت الكتابات المسمارية المدونة باللغة السومرية ان ارض طوتيوم Gutum كانت واحدة من اقدم الممالك المستقلة في الشرق القديم المتمدن، وكانت معاصرة لسومر وأكاد وعيلام وأرمينيا.

وظهرت الكتابات المسمارية التي نشرت وفسرت اسم ارض طوتيوم للمرة الاولى في لوحة قديمة مدونة من قبل الملك لوغال- اني موندو -Lugal Ann- Mund ملك المدينة السومرية (أدب) Adab، التي تحمل اليوم اسم بسمايا Bismaya في حوض الفرات بجنوبي العراق، وفي تلك اللوحة يذكر ذلك الملك السومري الأراضي الممتدة إلى طوتيوم مع أرضي سوبارتو Subartu وعيلام Elam.

والحقيقة أن معنى اللوحة ليس واضحا تماما، لكن بمقارنة محتوياتها مع معلومات اكادية لاحقة خرج العلماء بأن الملك السومري ادعى نصرا على الممالك المذكورة، وسمح عندئذ ان يدعو نفسه (سيد الاركان الاربعة للعالم).

والحق انه لايمكن التأكد من تاريخ هذه المرحلة بشكل دقيق، إذ لاتتوافر مصادر متعاقبة للمعلومات التي تؤرخ لحكم ملك (أدب) السومري)، وثمة اعتقاد ان هذا الملك ينتمي إلى المملكة الثامنة بعد الطوفان، وأنه حكم تسعين عاما، وحسب التاريخ القصير الذي وضعه لاحقا السيد سدني سميث Sidney Smith فإن تاريخ هذا الملك السومري ربما وضع حوالي (٢٣٥٠ ق.م).

وتؤكد النصوص القليلة ان مملكة طوتيوم كانت توجد في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد تقريبا، ويتطابق موقع تلك المملكة مع كردستان اليوم، وكانت لها أهمية كافية لتصنف من قبل الملك السومري كمملكة مستقلة مع الممالك الكبرى والاشهر (سوبارتو وعيلام).

وتظهر أرض گوتيوم بعد ذلك في مجموعات من النصوص المتكهنة بالشؤم، وفي التواريخ السنوية والنصوص الفلكية، على انها معادية دائما للمدن السومرية الصغيرة المبعثرة في السهول الغرينية بجنوبي العراق.

وكان ملوك طوتيوم الذين احتلوا بابل، وحكموا البابليين وأراضي الآشوريين Assyria فيما بعد، مستعدين دائما لمهاجمة المجتمعات المستقرة في غربي جبال زاغروس، مكتفين احيانا بقوتهم فقط، ومتحالفين غالبا مع العيلاميين وبلاد توروكو Turukku وسوبارتو، أو بلدان مجاورة اخرى، والنصوص التي تعد، بسبب سمتها الدينية، من الوثائق المدونة الاكثر دقة في تاريخ الممالك الشرقية القديمة، غالبا ما تشير إلى غارات شعب طوتيوم على المدن الاكادية والسومرية، وتظهر المعلومات الواردة في تلك النصوص أن مملكة طوتيوم كانت تحتفظ دائما باستقلالها في الجبال.

والتاريخ الذي يظهر الحقيقة بوضوح هو حوالي عام (١٩٩٠ ق.م)، فإن شارل غاليشاري Shrlgalisharri ملك اكاد، وخليفة نارام سين Naram sin يذكر حروبا خاضها ضد طوتيوم، ويفتخر بأنه أسر شارلاك Sharlak ملك طوتيوم، وليس ثمة ما يحملنا على الشك في هذا التقرير.

وعلى الرغم من النجاحات الفردية، فإن الحقيقة القائمة هي أن السومريين والأكاديين والآشوريين الأقوياء في القرون اللاحقة، كانوا يشنون الحروب ضد طوتيوم، وسكان الجبال الآخرين، كوسيلة لمنع غاراتهم على السهل الأكثر خصوبة في بلاد ما بين النهرين.

وقد نوقش موقع طوتيوم من قبل كل باحث في هذا الموضوع، وجرت تلك المناقشة على ضوء المعلومات غير المترابطة التي يمكن جمعها من الوثائق، وملخص مايورده كامبل تومسون Kampbell Thomson يحدد طوتيوم برباعي الاضلاع، محاط بالزاب الاسفل شمالا، وبنهر دجلة غربا، وبتلال قريبة منها، كانت تسمى (أرابخا Arrapkha في تلك الأيام، وهي على بعد حوالي ثمانين ميلا شمالي بغداد، وتعد مركزا مزدهرا لاستخراج النفط اليوم.

ان سقوط الامبراطورية الآشورية (٦١٢-٦٠٦ ق.م)، التي كانت حتى ذلك الحين تحكم طوتيوم في التلال الواقعة شرقي دجلة برخاوة، حرر شعب طوتي من كل القيود، وفتح له الطريق للتوسع في

كل الاتجاهات.

وعندما أسر الملك سيروس (قورش الثاني) Cyrus الفارسي (الأخميني) البابليين، كان فرسان الكرد الطوتيون يقاتلون في الصفوف الاولى للجيش الفارسي عام (٥٣٨ ق.م). وإن كسنوفان Xenopan، قائد عشرة الآلاف الإغريقي وجد العشائر الكردية (الكاردوخية) محصنين في ممرات جبال طوروس، من مدينة الموصل إلى نهر كنتريتس Kentrites (بوتان- صو) الواقع في شرقي دجلة، يشكل الحدود بين أرمينيا وكاردوخي[٥].

والبيانات التي يوردها شاهد عيان مثل اكسنوفان تظهر بجلاء انه بوجود الإمبراطورية الآشورية لم تحدث تغييرات كبيرة في التوزيع العرقي للشرق القديم، لقد رسخ الآشوريون المواقف السياسية، بالإضافة إلى حفظ الاعراف البشرية في الشرق القديم قرابة سبعة قرون (١٣٠٠-٦٠٠ ق.م)، وغالبا ما كان ملوك آشور ينقلون سكان مدن بأكملها من الغرب إلى الشرق، والعكس بالعكس، ولكن الاقوام المعتادة على الجبال المحيطة نادرا ما كانت تخضع للنقل الإجباري إلى السهول المنخفضة.

إن هجرة شعوب كاملة من قارة إلى قارة، تلك الهجرة التي يتخذها المؤرخون التقليديون عقيدة اساسية، يبدو ليس لها أساس واقعي، على الاقل فيما يتعلق بالوحدات العرقية الحقيقية للشرق القديم. إن الكرد والعرب والأرمن والآشوريين وغيرهم هم سلالات تعيش في مواطنها الأصلية كما كانت منذ عصور ما قبل التاريخ.

المملكة الكردية الطوتية الاولى في بابل (٢٣٠٠-٢١٧٥ ق.م):

أنجبت مملكة أكاد شخصيتين عظيمتين فقط خلال حكمها الذي دام قرابة ثلاثة قرون، احدهما كان شاروكين Sharukin الفاتح، وفيما عدا ذلك فإن الفوضى والحروب الأهلية، وخاصة في النصف الثاني من هذه الفترة، بدأت تعم تقريبا طوال عهد المملكة السامية التي انصب عليها الكثير من المديح.

وقد اكتشفت لوحة تصف الاحوال العامة، فتقول بأنه لا احد كان يعرف من هو الملك ومن ليس ملكا. ومن غير المعقول ان يراقب رجال طوتيوم الجبليون هذه الاحوال في الاراضي المنخفضة، ولا يزحفوا من معاقلهم الجبلية، بهدف السيطرة على السهول والمدن.

وهذا ماحدث تحديدا.

إن أحد ملوك طوتيوم الاقوياء- ربما يدعى أمبيا Ambia فرض سلطته على بابل بصورة غير شرعية، ودمر مملكة اكاد، وهذا ما حدث بعد قرابة الف عام، وعندما هبط سيروس (قورش الثاني) الاخميني من مرتفعات انزان (سوسا) بمساعدة فرسان الكرد الطوتيين، وسيطر على بابل عام (٥٣٨ ق.م) دون قتال.

إن السلالة الطوتية حكمت أكاد وبابل مئة وأربعا وعشرين سنة (٢٢٦٤-٢١٣٧ ق.م)، وتتابع واحد وعشرون ملكا طوتيا على الحكم خلال قرن وربع من الزمان.

وخلال تلك الحقبة أعلن أحد ملوم تلك السلالة الطوتية، وهو إيري دابيزير Erridapizir، نفسه ملكا للأركان الأربعة في العالم. وعلى الرغم

من هذا الإعلان سقطت مملكة طوتيوم على يد اوتوكهيجال مؤسس المملكة الخامسة في اوروك Urak (ورقا اليوم) وملكها، وهي مدينة سومرية ذات شهرة كبيرة.

وقد وصف المؤلفون السومريون آنذاك حكم تلك المملكة الكردية بصفات غير لائقة، ويبدو من النقوش انه حينما بسط الملوك الطوتيون نفوذهم على سهول بابل شرعوا يسلبون ويحرقون ويدمرون مدن سومر وأكاد المزدهرة، إنهم نهبوا كنوز المعابد، وحملوا تماثيل الآلهة والقديسين إلى عاصمتهم أرابخا، وتعالى النواح، واقيمت الصلوات في المعابد للتحرير من هؤلاء الحكام القساة.

لقد دمرت مدن بأكملها، وأخذت النساء من ازواجهن، فعم البكاء والأنين كل ارجاء الارض، تنين الجبل وعدو الآلهة دمر المدن، ونشر الرعب في كل انحاء الارض.. الخ. ويجمع كل المؤرخين الحديثين على ان حقبة الحكم الطوتي في سومر وأكاد كانت قاسية، وكان الطوتيون قساة ومدمرين.

هكذا قدمت صورة الطوتيين، ومن العدل، على اية حال، ان يتساءل المرء إذا كان إطلاق هذه الأحكام على مملكة طوتيوم غير متأثر بتجارب الرحالة في القرون الثلاثة الماضية. وبفرض أن الشعب الطوتي، أو على الأقل حكامهم وزعماؤهم، كانوا كذلك، فإنهم قد انسحبوا بعدئذ إلى الجبال من حيث أتوا، ليجمعوا قوتهم وينتظروا فرصا اخرى.

هذا ولا توجد مصادر تقدم لنا المعلومات المتتابعة، وتسجل تسلسل الأحداث التاريخية، وتخبرنا عن التاريخ اللاحق لـ طوتيوم، ومن السذاجة الزعم بأن الشعب الطوتي لم يشن الغارات على المدن والسهول في اثناء حكم السومريين والمملكة البابلية الأولى.

وتشير ألواح فلكية عديدة ونصوص دورية إلى الخطر الذي كان يهدد كلا من أكاد وبابل. وتقول نبوءة غيبية لم تؤرخ لسوء الحظ: «أسلحة طوتيوم سوف تدمر ارض بابل». في حين تنبأ نصوص فلكية اخرى بمصير طوتيوم كما يلي: «سقوط طوتيوم سيحدث بالسلاح، ارض اكاد سوف تلتهم أراضي طوتيوم وعيلام المعادية لثلاث سنوات».

إن هذه الفقرات المقتبسة من ألواح تعود إلى تلك الحقبة تظهر بوضوح العلاقات المتبادلة بين مملكة بابل في السهول وطوتيوم في الجبال. وقد استطاع حمورابي القانوني، خلال حكمه المزدهر الناجح الذي امتد اربعين عاما، ان يبقي شعب طوتيوم محاصرا في الجبال. وكان ملوك هذه المملكة الاولى لبابل بناة عظماء للقنوات والمعابد، ولكنهم قلما كانوا قادرين، كقوة عسكرية، على حماية انفسهم من الجبليين الأقوياء حولهم.

الكاشيون يحتلون بابل:

بعد موت حمورابي، وفي العام الثامن لحكم ابنه شامشو إيلونا، هاجم الكاشيون الجبليون بابل، ونهبوا المدن الفاخرة في السهول، وانسحبوا إلى مرتفعاتهم، وجدير بالذكر أن هؤلاء ليسوا شعب طوتيوم، بل هم شعب جديد يدعى كاسيت Kassites، لقد بدأوا غزو بابل، وكانوا قبيلة كبيرة أو اتحاد قبائل، وكانوا يقيمون في جبال زاغروس شرقي بابل، وربما كانت مواطنهم تقع شمالي أرض عيلام مباشرة.

وتختلف آراء الباحثين فيما يتعلق بهويتهم، ويبدو أنهم كانوا من الشعوب الجبلية ذاتها، كالقبائل الكردية في كوردستان بجنوب غربي بلاد فارس، في سلسلة زاغروس. أما اسمهم (كاشو) الوارد في الكتابة المسمارية فربما يكون باقيا في اسم اقليم خوزستان الفارسي، إنهم كانوا من الشعوب الهندو - اوربية جغرافيا، وهم مماثلون لشعب طوتيون اثنولوجيا.

ودام حكم ملوك الكاشيين في بابل قرابة اربعة قرون، وهذه الاسرة الاجنبية الحاكمة هي الاسرة الملكية الثالثة التي حكمت بابل. وإلى قرابة ثلاثين سنة مضت كانت المعلومات المتعلقة بهذه المملكة ضئيلة وغير مفيدة، وعد حكم الكاشيين في بابل بربريا وانتكاسيا كحكم طوتيوم في سومر وأكاد، لكن اكتشافات النقوش والمواد المعدنية الفنية، في السنوات الحديثة، عدلت النظرة الى حكم الكاشيين، وتبين الآن انه كانت لهم مدافن عظمائهم، وكانت لهم آلهتهم التي تحمل اسماء مميزة: Kashshu و harbe و Suriash و Shipak و Khud[٦] و Shimaliya كانت سيدة الجبال المشرفة، التي تسكن القمة، وثمة آلهة اخرى غير هذه.

وإن عددا كبيرا من المواد البرونزية الرائعة تمثل الشخصيات الأسطورية، والعفاريت والحيوانات والجياد، ووجدت زخارفها منقوشة في أجزاء مختلفة من لورستان، وهي تعود إلى العهد الكاشي. ولم يكن ملوك الكاشيين غافلين عن العواطف والعادات الدينية للشعب البابلي، إن غانداش Gandash ملك الكاشيين الأول، الذي حكم بابل نحو (١٦٠٠ ق.م)، سمى نفسه (ملك المقاطعات الاربع)، وإن إحدى منقوشاته باللغة البابلية تصور ذكرى احتفاله بذكرى استعادة معبد انليل Enlil إله بابل، واهتم بجمع ضرائب ومستحقات معابد بابل بشكل مناسب.

وان ملكا كاشيا آخر هو أغوم الثاني Agum، سمى نفسه (ملك ارض طوتي)، بالاضافة الى بلدان اخرى، وهذا يعني ان مملكة الكاشيين كانت قد اخضعت مملكة طوتيوم القديمة، وهذا ما كان يحدث مرارا خلال التاريخ الطويل للشعب الكردي، إن قبيلة عظيمة كانت تحكم القبائل الاخرى كلما سنحت الفرصة، وتفرض سيادتها على كل الشعب.

وخلال الحقبة التالية لحكم الدولة الكاشية في بابل، أو (كاردونياش) كما دعيت في الوثائق الدولية آنذاك، اقام ملوكها علاقات ودية مع القوى الإقليمية الكبرى حينذاك، ولا سيما مع المصريين والحثيين، وأيضا مع الأشوريين ذوي النفوذ الصاعد في القرنين الرابع عشر والخامس عشر قبل الميلاد، وكان هناك تزاوج بين الأسر الملكية في كاردونيا ومصر.

إن كاردونياش- إنليل، أحد ملوك الكاشيين، كان غالبا ما يطلب هدايا من الذهب من فرعون مصر في ذلك الحين. لكن تلك الحقبة من العهد الكاشي- البابلي قلما تحسب في حياة الشعب الكردي، لأن الكاشيين كانوا قد اصبحوا بابليين في نواياهم وأهدافهم.

بلاد آشور وكردستان نحو (١٣٦٠-٦٠٦ ق.م)

كان لكل من الطوتيين والكاشيين، حتى ذلك العهد، علاقات مع الدول والشعوب التي قلما كانت

اقوى منهم، فاستطاعوا ان يؤكدوا استقلالهم التام باستمرار، بل استطاعوا أن يسيطروا في الظروف المناسبة على السهول الواقعة غربي جبالهم.

لكن مع ظهور الآشوريين طرأ تغيير جذري على الوضع العام، ليس في الشرق القديم فقط، بل أيضا في حوضي دجلة والفرات، وما كانت تلك الظروف في صالح البلدان المجاورة، ولم يكن الآشوريون أقوياء بالرجال والاقتصاد والعزائم وما إلى ذلك فقط، بل برزوا في الساحة الدولية على انهم قوة عظمى جديدة، وبقوة مادية قلما تتكافأ مع ادعاءاتهم.

إن الجزء الذي يعد مركز بلاد آشور كان يقع في المثلث الصغير المكون من مدينة آشور القديمة، ونينوى Nineveh، وأربيل Erbil، على ضفاف دجلة الاوسط والسهل المفتوح، ولولا تمركز السلطة بقوة بين أيدي الرهبان ذوي العزيمة لما وصل آشور ابدا إلى هذه الكفاءة العسكرية، التي امتدت سبعة قرون تقريبا، تخللتها فواصل زمنية قصيرة وطويلة.

إن آشور اوباليت الاول Uballit- Ashur (١٣٦٢-١٣٢٧ ق.م) هو المؤسس الحقيقي للقوة الآشورية، ويبدو أنه خلد صرخته الحربية في منحوتات اكتشفت حديثا من قبل البعثة الانجليزية للمتاحف. وبعد ثلاثة وثلاثين قرنا اطلق الشعب الكردي صرخة الحرب نفسها ضد الاتراك.

وفي حملته ضد المملكة الكردية – الكاشية يخاطب آشور اوباليت الاول جنوده قائلا:

«الآن اضغطوا بقوة على ملك الكاشيين.

ضعوا حدا لسطوته قبل أن يلقى موته المحتوم.

دمروا قوتهم التي منحتهم اسم الابطال.

يا الهي! اسحق عدونا الذي يسعى لأذانا باستمرار.

ويستمر في الشر، ويخطط يوميا لتدمير أرض طوتيوم.

إنه يشير بإصبعه: لاتبقي!

وخلف الآلهة ومساعديه،

بدأ ملك الجبهة الامامية للجيش القتال صارخا:

أنا آشور أوباليت، العملاق المدمر، ممزق الفيالق!

محاربوا آشور متحمسون للقتال.

يواجهون الموت صارخين: يا عشتار!

كم من الوقت يحتاجون،

ليلتقوا بالسيدة العذراء في خشوع»؟

وخلال أكثر من قرن (١٣٦٢-١٢٤٢ ق.م)، كان على خمسة من ملوك آشور أن يشنوا حروبا، بين الفينة والأخرى، ضد الكاشيين الذين كانوا يشكلون تهديدا دائما لسلطتهم على دجلة، إلى أن جاء الملك توكولتي نينورتا الأول Ninurta- Tukulti.

وفي السنة التي اعتلى فيها توكولتي نينورتا العرش استطاع اخضاع كل طوتيوم وبابل حتى الخليج الفارسي، وفي معركة ضارية تمكن هذا الملك الاشوري من هزيمة جيوش الكاشيين تماما، واسر ملكهم كاشتيليا شو الثاني. ويذكر توكولتي نينورتا الأولى في بعض منحوتاته بعض أسماء الأماكن في أرض طوتيوم وكاشو، وتلك الأسماء تمكننا من تحديد الموقع الاصلي للشعب الكردي بفرعيه:

**گوتيوم وكاشو**

يذكر ملك الآشوريين أنه تقدم على رأس جيشه إلى الجبال المتمردة تول سينا Sina-Tul، بين مدن ساسيلا Sasila وماشخاتشاري وراء نهر الزاب الأسفل، ومن أراضي زوكوشكي Zukushki ولارلار إلى حدود طوتيوم ذات الامتداد الواسع. وعلى االرغم من الهزيمة الساحقة التي عاناها كاشيتيليا شو الثاني فقد استمرت مملكة كاشو في وجودها المستقل لمدة قرن آخر من الزمان أو أكثر.

إن بابل التي كانت خاضعة حتى ذلك الحين للدولة الكاشية تمردت عليها، واستعادت حريتها، وفي الوقت نفسه تقريبا انفتحت مملكة عيلام ايضا على الحياة الجديدة. وبما أن كردستان (طوتيوم وكاشو) كانت محاصرة من كل الجهات بآشور وبابل وعيلام، فإنها فقدت أهميتها، واصبحت بالتدريج في طي النسيان.

وفي السنة الثالثة من حكم آشور ناتسيرابلي الثاني Ashurnat Sirapi (٨٨١ ق.م)، ولعله أشرس ملوك الآشوريين. قام بهجوم وحشي على كردستان، متحالفا مع معظم قبائل أراضي زاموا Zamwa في طوتيوم، وقد مال نور أداد Nur – Adad أمير داغارا Dagara إلى دفع الجزية، وحينما كانت الجزية لاتدفع فإن ملوك آشور كانوا يزأرون كالأسود، ويهاجمون كالخنازير البرية.

لقد زحف آشور ناتسيرابلي الثاني باتجاه الممرات الجبلية، فبنت القبائل التي كانت بقيادة نور أداد جدارا على مدخل الطريق، لتمنع تقدم الملك الآشوري، ولما عجز الملك الآشوري عن السيطرة على العقبة التي وضعت في طريقه، توجه إلى الشمال الغربي، وهاجم القبائل التي تقطن جبل جودي، فسلب ونهب، وأحرق ثمانين حصنا، ثم هاجم حصن لاربوشا العظيم، حيث دافع كيرتيارا Kirtiara آمر الحصن ببسالة على الرغم من يأسه من النصر. وأخيرا خضعت زاموا ولولوك (Lulume) للآشوريين، واضطرت إلى دفع الجزية.

وشنت غزوات مماثلة على جبال زاغروس، وتحققت انتصارات من قبل الملوك الآشوريين شالما نصر الثالث (٨٥٨-٨٢٨ ق.م)، وشامشي أداد الخامس (٨٢١-٨١٠ ق.م)، وتيغلات بيليسر الثالث (٧٤٧-٧٢٨ ق.م)، وسرجون الثالث (٧٢٢-٧٠٥ ق.م)، وأسر حدودن (٦٨٩-٦٦٨ ق.م)، وآخرون، ومع ذلك ظل الشعب الكردي قويا في مواقعه الحصينة، وإن طوتيوم التي باتت تذكر باسم ميديا اسهمت إسهاما كبيرا في اسقاط وتدمير الإمبراطورية الآشورية عام (٦١٢ ق.م).

**نهوض فارس وطوتيوم- كردستان (٥٣٨ ق.م-٦٤٠م)**

في اسطوانة فخارية منقوشة سجلت باللغة البابلية، يفتخر سيروس Cyrus (قورش الثاني) مؤسس المملكة الأخمينية (٥٣٨-٥٢٩ ق.م)، بأن مردوخ إله مدينة بابل أجبر قبائل أراشي كوتو Kutu (طوتيوم Gutiume) على الخضوع تحت أقدامه.

إن هذا البيان الصادر من جانب الملك الأخميني لم يكن صحيحا، لسبب بسيط هو أن بلاد فارس —وقد ارتقت حديثا إلى قوة سياسية من المناطق الرملية المتاخمة للخليج الفارسي- نادرا ما امتلكت

القوة الكافية لقهر مملكة طوتيوم الحصينة.

وعلى النقيض من ذلك فإن اوغبارو Ugbaru ملك طوتيوم الذي كان على رأس الفرسان الكرد، هو أول من دخل مدينة بابل، وبعد ذلك بعدة ايام فتح سيروس (قورش الثاني) المدينة دون قتال. ولم تكن هذه المرة الأولى التي تحتل طوتيوم فيها بابل، وبسبب خدماته العسكرية كوفئ أوغبارو، فتم تعيينه حاكما على المدينة، ثم نائبا للملك عبر نهر الفرات، وملكا لسوريا وفلسطين.

والحق انه لا يوجد سجل حقيقي لأي ملك من ملوك طوتيوم، وإنما تذكر إنجازاتهم عرضا من قبل الآخرين الذين بذلوا جهدهم في تقليل اهميتهم، ولو ترك اوغبارو ملك طوتيوم منحوتا لأكد عكس ما زعم سيروس (قورش الثاني). وهناك ذكر لملك آخر باسم أوغبارو، لعله هذا الملك نفسه أو ابنه، الذي لعب دورا كبيرا في نجاح داريوس العظيم(٧).

ومع ذلك فإن أوغبارو ملك طوتيوم ادرك في حينه مدى الضرر الذي كان يسببه للشرق المتمدن بوقوفه إلى جانب سيروس (قورش الثاني) في القضاء على بابل. وكانت نهاية مملكة بابل الحديثة (٥٥٨ ق.م) نقطة تحول كبير في تاريخ العالم على صعيدين أساسيين:

أ-بما أن الملوك المتوارثين للشرق القديم (آشور- أورارتو- أرمينيا- بابل- طوتيوم) في سدة الحكم كانوا متيقظين دائما ضد كل تدخل من آسيا الصغرى والبحر المتوسط، فقد حافظوا على صفاتهم، وعلى وجهة نظرهم للشرق الحقيقي القائم على القداسة. ولكن عندما ظهر الفرس على الساحة السياسية، ونظرا لانعدام الخبرة، والافتقار الى العظماء الوطنيين، والثقافة الوطنية (الارستقراطية)، فقد سمحوا للإغريق، ولكل أشكال المغامرين الوطنية (الارستقراطية)، فقد سمحوا للإغريق، ولكل أشكال المغامرين الغربيين بالدخول إلى البلاد، للعمل كمرشدين ومستشارين في أمور سياسة الإمبراطورية، التي كانت شأنا شرقيا محضا.

إن الإمبراطورية الأخمينية كانت طوال ذلك الوقت ضعيفة ومتراخية، حتى إنها عجزت عن تنظيم مقاومة فعالة لتطرد الآلاف من المغامرين تحت قيادة الاسكندر الأكبر، ولو كان ملك الملوك خلال السنوات (٣٣٥-٣٢٥ ق.م) آشوريا أو أرمينيا أو طوتيا لما تمكن الاسكندر أبدا عن عبور الفرات، ولما نجح في اكتساح البلاد، ولتراجع إلى آيجين Aegea(٨).

ب-إن إدخال حب الحرية، والفكر الإغريقي، وعناصر أخرى، إلى العقول البسيطة للمجتمعات الشرقية الهادئة الآمنة، أفسد في النهاية التطور التاريخي للمنطقة، وشوهت رموز الإغريق وأساطيرهم الصورة الحقيقية للحضارة الشرقية القديمة. وصحيح أن الأعراق الأصلية، مثل العرب والآشوريين والطوتيين والأرمن، لم تتأثر، ولكن تاريخهم شوه بصورة كلية، وثمة حكايات خيالية جدا تتضمن أحداثا إباحية سردت من قبل هيرودوت عن السكيث Scythians والميد وشعوب أخرى غير معروفة، لكنه لم يذكر شيئا ذا قيمة يتعلق بالأجناس العريقة، ولا شيء يشير إلى گوتيوم.

إن هيوردوت يشير في تاريخه مرارا إلى ارض سيسيا Cissia التي تتطابق طبوغرافيا مع كاشو القديمة أرض الكاسيت Kassites، ولكنه يضع بختيين Pactyice آخرين على حدود الهندوس في الهند، ويوضح أنه كان يوجد محاربون قبليون من البختي Bokhti في جيش اكزيركيس (قوش الثاني)[٩] الذي يقال بأنه غزا الإغريق «وكان يود بختيون Pactyice ذوي عباءات مصنوعة من جلد الماعز، وهم مسلحون بأقواسهم وخناجرهم الوطنية». وهذا البيان يوضح أن تبعثر القبائل الكردية لابد أن يكون قد بدأ مع الملك الأخميني داريوس الأكبر.

ويقدم المؤرخون الإغريق معلومات أكثر فيما يتعلق بقبيلة شكاك، وذكروا أنه توجد قبيلة متنقلة تدعى ساغارتيان Sagartian يتحدث افرادها الفارسية، ولكن زيهم هو بين الفارسي والبختي Pactyican، وقد قدموا ثمانية آلاف فارس، غير أنهم لايعتادون حمل الأسلحة الفولاذية أو البرونزية ماعدا الخناجر، وكانوا يحملون الوهق المطوي المصنوع من سير جلدي[١٠].

كان هؤلاء الفرسان يذهبون إلى الحرب معتمدين على تلك الآلات الحربية، وكان أسلوب القتال لدى هؤلاء الفرسان كما يأتي: عند اقترابهم من العدو كانوا يقذفون الوهق المزود بالشرك في نهايته، ثم كانوا يجرون إليهم من يقع في الشرك، رجالا كانوا أم خيولا، ويقضون عليهم، وكانوا يزحفون في مؤخرة الجيش الفارسي.

وبعد حوالي قرن ونصف ظهرت القبائل الكردية على الساحة العالمية، لكن بمجرد صدفة، وذلك خلال تقهقر اكسنوفان مع عشرة ألاف من المقاتلين الإغريق عبر كردستان إلى البحر الأسود عام (٤٠١-٤٠٠ ق.م). وذكر اكسنوفان أنه، فيما بين بابل وكاردوخيا (كردستان)[١١]، وكان الميديون قد أقاموا فيما مضى مدنا كبيرة، ثم هجرونا، وذكر أن هؤلاء الميديين لايزالون غرباء اكثر من الميديين المقيمين في كردستان[١٢].

ولا شك أنه لم يكن ثمة ميديون او سكيث في تلك المنطقة، على الأقل في ذلك الوقت، وأن هذه الجماعات العرقية وجدت فقط كأمم يمكن تصورها سلفا، ومن ثم تداولها في الأدب الإغريقي. وفي اللحظة التي بدأ فيها الجنود عشرة الآلاف تراجعهم بمحاذاة المنحدرات السفلى لجبل حمرين، كانوا في تماس مع قبائل الطوتيين الذين كانوا يعدون هنا ميديين او سكيث.

وعلى الرغم من هذه الاعتقادات الخاطئة، فقد كان وصف اكسنوفان لعادات وتقاليد الشعب الكردوخي، وأساليب قتالهم، وعلاقاتهم مع الأجانب، وصفا حقيقيا، شأنه في ذلك شأن أي وصف وجد حوالي النصف الثاني من القرن الماضي. ومن تلك الأوصاف:

**ملاحظة:** هذا الفصل الثاني من كتاب (الكرد وكردستان) للباحث الارمني ارشاك سافراستيان ترجمه عن الانكليزية الدكتور احمد الخليل، والصادر في دار هيرو للنشر والطبع في بيروت سنة ٢٠٠٧، نظرا لأهمية الكتاب ولعدم توفره، ارتأينا نشر هذا الفصل منه.

**الهوامش:**

١-يقصد الكاتب عودة المرتزقة الإغريق عشرة الآلاف بقيادة إكسنوفان سنة (٤٠١ ق. م)، إنهم عادوا من جنوبي كردستان الى اليونان عبر شمالي كردستان فالبحر الاسود، وكان احد امراء الاسرة الاخمينية قد استعان بهم للفوز بالعرش الملكي، واخفق في مسعاه - المترجم.

٢-البرث هم الاشطان، ويسمون الارشاك ايضا، وكانوا يحكمون الشعوب الآرياني في غربي آسيا بعد السلوقيين اليونان - المترجم.

٣-كذا جاء الاسم، والمشهور (اردشير) - المترجم.

٤-سنكتفي من الآن فصاعدا باستخدام الاسم طوتي وطوتيوم بدلا من جوتي وجوتيوم - المترجم.

٥-الملاحظ ان الكاتب يعد اجزاء كبيرة من شمالي كردستان جزءا من ارمينيا، منطلقا تارة من اعتبار الخالدين (اورارتو) اجدادا للأرمن، ومستدلا تارة اخرى بحدود إمبراطورية ارمينيا في عهد الملك الارمني ديكران الثاني المعروف بديكران الكبير. على ان المحققين من المؤرخين يؤكدون أن الخالدين هم من اجداد الكرد. اما مسألة ان ارمينيا كانت في عهدها الامبراطوري تحكم اجزاء من كردستان فلا يعني ان تلك المناطق كانت ارمنية، ولو صح ذلك فينبغي ان نعد ارمينيا نفسها جزءا من بلاد فارس، لأنها كانت تابعة للحكم الفارسي في عهود سابقة. أو ان نعد بلاد الشام ومصر وشمالي افريقيا جزءا من ايطاليا، لان الرومان حكموها اكثر من ستة قرون قبل الاسلام - المترجم.

٦-هذا الاسم (Khuda) هو نفسه الذي يطلقه الكرد على (الله)، ويعني بالكردية: الموجد نفسه (لم يلد) حسب النص القرآني - المترجم.

٧-هو الملك الأخميني دارا الأول - المترجم.

٨-المقصود هو بحر إيجا - المترجم.

٩-يسميه الكاتب تارة سيروس، وتارة اكسركيس، حسبما ورد في المصادر اليونانية - المترجم.

١٠-الوهق حبل في طرفه انشوطة، ويستعمل لاقتناص الخيل والأبقار - المترجم.

١١-إن كلمة كاردوخيا Kardukhia تتطابق مع الكلمة الارمنية الكلاسيكية Kurdukh الإقليم لأرمينيا- ماغنا Armenia Magna وقد ورد في المصادر الإغريقية والرومانية مرارا ان إقليم كوردوخ كأن يشمل عشرة اقاليم، من بينها كوردوخ الاعلى والأوسط والأسفل، تضم مقاطعة بوتان وبابخي - المؤلف.

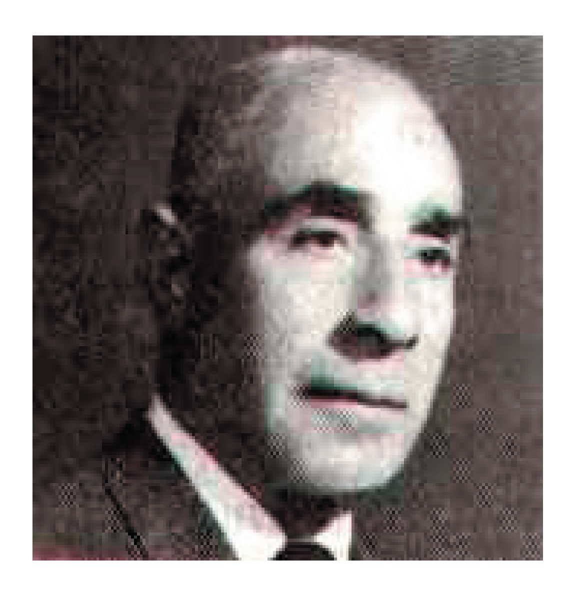
١٢-ثمة غموض في هذه الفقرة، حيث لم استطع فهم ما يقصده الكاتب، ولعله يريد أن هؤلاء الميديين اختلطوا بغيرهم، واكتسبوا ثقافات غير ميدية، وكأنهم غير ميديين - المترجم.

# المؤرخ والأديب والأستاذ الكبير
# علي سيدو الكردي

**(١٣٢٦-١٤١٢هـ =١٩٠٨ -١٩٩٢م)**

**د. محمد علي الصويركي**

**بمناسبة احتفال وزارة الثقافة في إقليم كردستان بسيرته العطرة**



بقلم الدكتور: محمد علي الصويركي

الأستاذ علي سيدو علي الكوراني الكردي: كاتب، دبلوماسي، مترجم، لغوي. ولد بمدينة عمّان عاصمة الأردن في أول سنة ١٩٠٨م، وهو ينتمي إلى قبيلة دودكان Dodkan الكردية من الفرع الذي يقطن في السهل المعروف بـ (دَشْتا كَوَراْن) الواقع بين مدينتي ديار بكر وأرغني في كردستان تركيا، واسم قريته (لغري Lexeri).

جـاء جده علـي الكوراني مع القـوات التركية سـنة ١٨٨٠ إلى بلدة السـلط في الأردن، وهي البلدة التـي افتتحت فيها السـلطات العثمانية أول مركز حكومي، وجعلت فيها قائم مقاما وشـرطة ودركاً، إضافة إلى الدوائـر الحكومية الأخرى، وكان جميع رجال الأمن فيها مـن الأكراد، توفي جده في مدينة (السـلط)، ودفن بالقرب من قلعتها، وأسـرته منذ ذلك التاريخ تقيم في الأردن وتعرف باسم الكردي.

بـدأ دراسـته الابتدائية سـنة ١٩١٦ في عمان بمدرسـة افتتحها العثمانيون أول مرة سنة ١٩١٥م وجعلـوا التدريس فيها باللغة التركية، وفي سـنة ١٩٢٠ التحق بمدرسـة إنجليزية في مدينة القدس تدعى مدرسة المطران (جوبت)، وتشتهر بمدرسة صهيـون، لوقوعهـا على جبل صهيـون. وفي هذه المدرسـة أكمل الصف الثاني الإعدادي، ثم التحق بمدرسـة روضة المعارف الوطنية في القدس أيضا، وأتم فيها تحصيله الثانوي.

وفي هـذه الحقبـة حـدث أن قال له أسـتاذه الأرناووطـي: «أنت كردي ولسـت عربي؟ وعليك الاهتمـام بهويتـك؟!!». ثم طاف بـه في مدينة القدس القديمة، وقال له: «إن ما شـاهده من آثار ما هـو إلا من صنع أجدادك الأكـراد الأيوبيين»، ومنذ تلـك اللحظة نمـا عنده الشـعور القومي، ودفعه هذا الشـعور الى الاهتمام بدراسـة التاريخ والتراث الكردي وظهر ذلك جليا في كتاباته.

وفي نهايـة عام١٩٢٤ التحق بالجامعة الأمريكية في بيروت، وتخرج منها في ٢٢ حزيران/ يونيو ١٩٢٨ بدرجة بكالوريوس علوم في السياسية والاقتصاد، وكان بذلك (أول أردني جامعي).

وفي عـام ١٩٢٩م عين أسـتاذا للغـة الإنجليزية في ثانويـة عمـان الحكومية، وبعد خمسـة أعوام عين سـكرتيراً للمجلس التشـريعي الأردني. وفي عام ١٩٣٨ نقـل مديراً لثانوية الكرك، وفي عام ١٩٤٠ نقل مديرا لثانويـة عمان، ثم نقل الى ثانوية السـلط في سـنة ١٩٤٨، ثـم مديراً لثانوية اربـد، ولم يطل بقاؤه فيها غير شـهرين، إذ جرى تعيينه سـكرتيراً أولا في وزارة الخارجية، ونقل فورا إلى مدينة (جدة) بالسـعودية، وأصبح قائماً بالأعمال للمفوضية الأردنية فيها ، وكان ذلك سنة ١٩٤٩ عندما شرعت الحكومة -بعد أن نالت استقلالها سنة ١٩٤٨- بافتتاح قنصليات ومفوضيات لها سنة ١٩٤٨، وتنقّل في السفارات الأردنية في مدن أنقرة ودمشـق، وطالت خدمته في هذا السـلك نحو خمس عشرة سـنة، ثم تقاعد عن رتبة وزير مفوض سنة ١٩٦٣، خدمها في السعودية واليمن وتركيا وسورية.

وكتب خلال عمله بالوظيفة والسلك الدبلوماسي كتابا بعنـوان «من عمـان إلى العمادية أو جولة في كردسـتان الجنوبية» طبع في القاهرة سـنة ١٩٣٩م، ثم طبع كتيباً عن «التعليمات القنصلية الأردنية» كان لحقبـة طويلة المرجع الوحيد لموظفي السـلك القنصلـي في المفوضيات والسـفارات الأردنية، وبعد تقاعده تفرغ لمهنة التأليف والترجمة، وقدم للمكتبة الكردية مؤلفات غدت مرجعا أساسيا لكل من يبحث عن تاريخ الكرد ولغته الى حقبة مديدة.

كان الأستاذ علي سـيدو شعلة وضاءة في سماء الأدب والثقافـة الكردية، فألف وترجم الكثير من المقـالات والمؤلفـات في تاريخ الكـرد ولغته، ولكن غالبية كتبه المترجمة ظلت مخطوطة، وقام غيره -مع الأسـف- بترجمتها ونشرها لاحقا في بيروت

وبغـداد، وذهب جهده المضنـي في الترجمة هباءً منثورا، ومن هذه الكتب المترجمة:

١-»الأكراد» لحسن ارفع ـ مترجم عن الإنجليزية.

٢-»رحلة بين الشـجعان « للصحفي الأمريكي دانا شميت ـ مترجم عن الإنجليزية.

٣-»جمهورية مهاباد الكردية « للمسـتر أيجلتون (دبلوماسي أمريكي) ـ مترجم عن الإنجليزية.

٤-» الأكراد « لتوماس بوا ـ مترجم عن الإنجليزية، وقد علق عليه في كثير من الموضوعات.

٥-» مشكلة الإقليم الشرقي في تركيا» مترجم عن التركية. لمؤلفه محمد أمين بوز ارسلان.

وقد طبـع من مؤلفاتـه كتاب: «مـن عمّان إلى العماديـة، أو جولة في كردسـتان الجنوبية» - القاهـرة، مطبعة السـعادة، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م، وطبع ثانية في عمان من قبل دار البشير سنة ١٩٩٦م .

ووضـع معجما لغويا كرديـا -عربيا بعنوان» القاموس الكردي الحديث: كردي = عربي»، نشـر في عمّان: شركة الشرق الأوسط للطباعة ١٤٠٥ هــ/ ١٩٨٥م، ضمنه ٢٥ ألف كلمة كردية وما يقابلها من المعاني في اللغة العربية، وحسب من المعاجم الشهيرة التي نالت اهتمام الأكراد واعجابهم في الخارج.

وكتـب علي سـيدو الكردي مجموعـة مقالات تاريخية وأثرية لمجلة «الحكمة» التي كان يصدرها الشيخ نديم الملاح في عمان خلال عامي ١٩٣٢-١٩٣٣.

وأسـهم في إغنـاء الحركـة الفكريـة والأدبية الأردنيـة، فكان أول أردنـي يكتب في أدب الرحلات من خـلال كتابه المذكور السـابقا «مـن عمان إلى العمادية أو جولة في كردسـتان الجنوبية»، الصادر في القاهـرة عام ١٩٣٩، حيـث وصف فيه رحلته إلى كردسـتان العراق بأسـلوب أدبي رفيـع، وترك لنا مخطوطتـين في نفس المجال وهمـا «من عمان إلى ملاطيا»، و «رحلة في ربوع اليمن في أخريات عهد الإمام احمد». ونشـر بحثا مطـولا بعنوان «اللر و اللورسـتان» في العدد الثاني مـن المجلد الثاني من مجلة المجمع العلمي الكردي في بغداد سنة ١٩٧٤.

ومن مآثر علي سيدو الكردي على أكراد الأردن تبرعه السـخي بقطعة ارض لجمعية صلاح الدين الأيوبي في عمان، وأسـهامه في نشر الحس القومي بينهم، وقد توفي عام ١٩٩٢ ودفن في عمان، وأنجب من الأبناء المرحوم مازن، والطبيب اشرف الكردي الذي غدا من اشهر أطباء الأعصاب في العالم العربي والعالم، وتقلـد وزارة الصحة الأردنية بين أعوام، وأصبح عضوا في مجلس الأعيـان الأردني، واليوم يزاول عمله في عيادة خاصة في جبل عمان.

التقيـت بالمرحـوم علي سـيدو الكـردي في عمـان عـام ١٩٨٨، وحدثني عن جانـب مهم من تاريخ أسـرته، وقد حاولت السعي لدراسة أوراقه ومخطوطاته، وعمل كتاب خاص عن سيرته، لكن محاولاتي لم توفق.

رحم الله أبا مازن، واسـكنه فسيح جنانه، لقد أحسن الى وطنه ودينه وبني جنسه الكرد.

## نماذج من نثره

جاء في معجمه اللغوي الشهير «القاموس الكردي الحديث»:

**الإهداء:**

إلى روح جدتي لوالدي «مدينة» كريمة محمود آغا الـ «أومريكي» رئيس عشـيرة الــ «أومريكا»

القاطنــة في القــرى المجاورة لمدينة ديــار بكر، في الإقليم الكــردي بالجمهورية التركيــة، تلك المرأة الفاضلة التي غرســت في نفســي محبة لغة الآباء والأجداد، وإلى الأمة الكردية العريقة في القِدَم تلك الامــة التي حافظت على لغتهــا وأصالتها العرقية وقاومت الغزاة الفاتحين عبر أقدم العصور التاريخية كالأكديين والبابليين والآشوريين والحثيين والفرس والرومان والبيزنطيين وغيرهم، واســتمرت ثابتة إلى هذا اليــوم، في حين دالت تلك الدول وانصهرت شــعوبها في قوميات أخرى، ولم يبق منها إلا بضع آلاف موزعين بين شعوب دول الشرق الأوسط.

**المقدمة:**

لقــد حفزتني إلى تأليف هــذا المعجم الرغبة في تعلم الكردية لغة آبائي وأجدادي، وكنت حتى سنة ١٩٣١ لا أعــرف منهــا كلمة واحدة. وفي هذه الســنة بالذات ســافرت إلى بغداد ومنها إلى الألوية الكردية في شمالي العراق، وشعرت وأنا أتجوّل مع أصدقاء لي في مختلف مدن كردستان الجنوبية وقراها بالخزي لجهلي اللغة الكردية، فعزمت على تعلمها ودراستها دراسة علمية صحيحة. ولكني صدمتُ لعدم وجود مصادر مكتوبة قريبة مني آنذاك. فلجأتُ إلى جدتي أم والــدي وهي مــن أكراد ديار بكــر في الجمهورية التركية، وكانت تناهز مائة العام، وتحتفظ بذاكرة قوية، ومن هذا المنطلق أخذت أســجل كل يوم نحو عشرين كلمة عربية أضع مقابلها معانيها بالكردية، وأدوّن الجميع بحروف عربية. ودأبت على هذا النحو، حتى صدمتني كلمتا (شــير بمعنــى اللبن الحليب) و (شير بمعنى الأســد)، فاختلط عليّ اللفظ. ومنذ ذلك الوقت تخليتُ عن اســتعمال الحروف العربية، وكتبت بأحرف لاتينية، فاستقام معي اللفظ، ذلك لأن الكردية لغة آرية تســتجيب للحروف اللاتينية مثلها في ذلك مثل بقية اللغات الآرية.

وفي عــام ١٩٣٢ صدرت (هــاوار= Hawar ) كأول مجلة كردية باللهجة الكرمانجية في دمشق، وكانت لحسن الحظ بالحروف اللاتينية. أصدرها مؤسسها ومدير تحريرهــا الأمير جلادت عالــي بدرخان. ومنذ ذلك التاريخ أخذتْ معلوماتي اللغوية تتسع وأصبحت لدي كمية وافرة من المفردات. وبعد وفاة جدتــي ـ رحمها الله ـ في عام ١٩٣٥، لم أجد في عمّان من أستطيع الاعتماد عليه في السير قُدماً بمعلوماتي اللغوية، حتى قيض الله لي نفراً ممن كانوا يَفدون من كردستان الشــمالية في تركيا لزيارة ذويهم في عمّان فاستعنتُ بهم. وفي الستينات من هذا العصر قَدِم إلى عمّان شــاب كردي من الجزيرة الســورية يُدعى حســن عبد الله عليكــي- لازال حيا يرزق في مدينة عمان - اســتقر نهائياً في الأردن وتجنّس بالجنســية الأردنية، وكانت لغتــه الكردية قوية جــداً، ويتكلم بلهجة بوطــان التي يعتبرها الأكراد بمثابة لهجة قريش الأكراد. فلم أترك فرصة تمرّ بي إلا وانتهزتها لأســتزيد من معرفة اللغة، والحق يُقال إنه كانت لديه الرغبة القوية في إسداء المعونة لي، وكنتُ بدوري ألازمه كثيراً خشــية إن طال به المقام أن يتعرض لنسيان بعض الكلمات.

وأخذ المجال يتسع أمامي بعد أن ازداد انتشار الكتب والمجلات الكردية التي كانت تطبع في دمشق وبيروت وأريفــان بأرمينيا الســوفياتية وباريس وواشــنطن وبغداد ومدن كردستان الجنوبية في العراق.

ومن مصادري اللغوية (معجم مهاباد= فهرهنكي

مهاباد) وهو بالكردية والعربية، قام بتأليفه كَيّو موكريانـــي، وطبعـــه في الســتينات بمدينة أربيل التي يســميها الأكراد (هولير)، ومنها (معجم خال) المطبوع في السليمانية عام ١٩٦٤، ألفه الأستاذ محمد خـــال، وكِلا المعجمـــين باللهجة الكرديـــة الجنوبية (الســورانية) مع إضافات من اللهجــة الكرمانجية التي يرمز إليها الأســتاذ خــال بحرف (ز) ولهجات اللور والهورامانيين وغيرها. ومنها كتاب عن قواعد اللغة الكرديـــة باللهجة الكرمانجية، ألّفه الأســتاذ المرحــوم المحامي كمال بادللــي نائب مدينة أورف (الرها) في المجلس الوطني التركي، وأطلق عليه اسم Kurtce Grameri وقــد دفعه إلى كتابته بالتركية أن التأليف بغير اللغة التركية ممنوع في تركيا، ســيما لغات الشــعوب غير التركيــة القاطنة ضمن حدود الجمهورية التركية.

ومــن مصــادري الأجنبيــة كتــاب Kurdish Grammar بالإنجليزيـــة ألّفـــه E. B. Soone، وفيه جداول مطولة تحتوي على بضع مئات من المفردات الكردية باللهجتين الشمالية والجنوبية، وقد طبع الكتاب سنة ١٩١٣، ومنها كتاب آخر بالألمانية، يبحث في قواعــد اللغة الكرديــة مع جــداول بالمفردات اللغوية، ألّفه فردينانـد جوســتي، وطبعه في سانت بطرســبرج عاصمة روســيا القيصرية عام ١٨٨٠. واســتعنت كذلك بكتاب Behdinan Kurmanji وهو كتاب في قواعد اللهجــة البهدينانية، إحدى لهجات الكرمانجية الشــمالية. ألّفه المســاعد للمستشــار السياســي البريطاني في محافظة دهــوك Captain R/F. Jardine وطبعـــه في المطبعة الحكومية ببغداد سنة ١٩٢٢. وحاولت أن أحصل على معجمٍ بالكردية والروســية من تأليــف قناتي كــردو، المطبوع في موسكو ١٩٦٠، ولكنني لم أُوفق لنفاذ نسخه.

ومن مصادري العربية كتاب (الهدية الحميدية) في تعليم اللغة الكردية، من تأليف ضياء الدين باشا الخالدي المقدسي، ألفه عندما كان والياً على مدينة ديار بكر في الإقليم الكردي، إبّان العهد العثماني.

ونظــراً لبعد عمّان عن الوطــن الكردي، وندرة وجود مَنْ يعرف اللغة الكردية فيها معرفة صحيحة، وصعوبة الحصول على أشخاص ممن أستعين بهم في تدقيق هذا المعجم، فقد اقتصرت على الأستاذ حسن عبد الله عليكي، وبعض السريان ممن يعرفون اللغة الكردية. ولستُ أعتقد بعد ذلك أن يكون هذا المعجم خالٍ من الأخطاء، وخشــية أن يوافيني الأجل قبل القيام بطبعه، فقد عزمت أن أنجزه وأطبعه قبل أن يلقى بهذا المجهود في زوايا النسيان.

لقد سرت في تصنيف هذا المعجم على الطريقة الإفرنجيــة، وجعلت قاعدتــه اللهجة الكرمانجية الشمالية، وأضفتُ إليه مفردات من اللهجات الأخرى، ولم أتطرق إلى لهجات الأكراد في إيران، لعدم وجود مصادر بين يدي أعتمــد عليه. ووضعت للألفاظ الكردية ما يقابلها من المفردات الآرية......[1].

(١) عن ســيرته انظــر: علي ســيدو الكردي: القاموس الكردي الحديث، شــركة الشرق الأوسط للطباعــة، ١٩٨٥، ٩-١٠، الصويركــي: الأكــراد الأردنيــون: ١٣٩-١٤٠، الصويركــي: عمــان تاريخ وحضارة: ٣٧٨-٣٨١، كايد هاشــم: المجلة الثقافية/ الجامعــة الأردنيــة، ع (٢٥)، ١٩٩٢، ٣٢٦-٣٣٢، كايد هاشم: قاموس المؤلفين في شرقي الأردن: ٥١-٥٢.

# الملحمة والسارد الكردي
# (ممي آلان أنموذجا)

يوسف يوسف

في منتصف ثمانينيات القرن الماضي، وقد كانت الحرب بين العراق وإيران تزيدنا رعبا ومرارة بتلاحق ويلاتها وكثرة ضحاياها وغلبة احتمال تواصلها وعدم توقفها، ذهبت بي رغبة شديدة وقوية إلى إعادة قراءة الملاحم التي كنت قد قرأتها في سنوات سابقة وهي: الالياذة والأوديسة، والإنيادة، وجلجامش. صحيح أن تلك الرغبة حملت معها طابع التحايل على مرارة الواقع بهدف الهرب من طعمها او التقليل من حدتها، إلا أنني في موازاة ذلك، كنت اهدف إلى تعميق معرفتي بالشعوب من خلال سردياتها ومروياتها الشهيرة. ومما لا يفوتني ذكره، أن تلك القراءات التي امتازت بالعمق والتأمل، حملتني بجدية كبيرة إلى البحث عن ملاحم وأساطير أخرى، تحت ضغط الاعتقاد بالثراء الذي تمتاز به هذه الأجناس التي تفتح أبوابا واسعة للوقوف أمام ميثولوجيات الشعوب، وحضاراتها، فقرأت كل ما وقع بين يدي من ملاحم وأساطير الفراعنة وأوغاريت، فجذبتني الثانية إليها بقوة. وأيضا فقد قرأت الشاهنامة، التي توصف بأنها ملحمة الفرس الكبرى، وقرأت كتاب قبائل الكيتشي المقدس المعروف بـ (بوبول فوه)، هو الذي يحتوي على مجموعة من الملاحم والأساطير المختلفة الطوال، والمتنوعة المتون. وخلال مدة قراءة الرامايانا التي هي قصة حبّ

عاصفة يتوغل السارد من خلالها إلى أعماق حياة المجتمع الهندي الذي تنهشه الصراعات الداخلية، لا حظ الأديب الكردي المعروف (محيي الدين زنكنه) اهتمامي، فحدثته بحماس شديد حول مشروعي المعرفي، الذي رجوت الله أن يوفقني فيه فتظهر ثماره، وقد كان ما كنت أتمناه ومن ذلك هذه الدراسة وسواها/ كتاب التوراة وخوذة كنعان- دمشق/. وفي لقاء لاحق لا يبتعد عن الذكور سابقا، جاءني بملحمة(ممي آلان). وكانت الملحمة هدية ثمينة، ما أزال احتفظ بها في مكتبتي (+).

الآن، وبعد كل تلك السنوات، يلازمني الاعتقاد بأن (زنكنه) الذي هو صاحب انجاز إبداعي كبير ومتنوع (مسرح، رواية، قصة)، قد فعل ذلك لأمر في نفسه، خصوصا وانه أيضا احد المثقفين الذين يحملون على أكتافهم هموم شعبهم الكردي وتطلعاته. والأمر الذي نقصده هنا،يرتبط بمعرفته بأهمية الملاحم التي تنتجها الشعوب، والمعاني المرتبطة بها، من حيث الاشارات التي تحملها إلى تطور البنية الذهنية والحضارية للشعوب التي تنتجها. وما نود قوله: إن زنكنه ربما أراد اختصار الحديث على تطور هذه البنية عند الكرد، بتقديم تلك الهدية/ الملحمة. صحيح أنني اكتفيت آنذاك بقراءة واحدة ، وقد تكون سريعة ومنفعلة، إلا أن ملحمة (ممي آلان) بقيت عالقة في ذهني كعلامة مهمل تحمل في أحشائها ما يستدلّ به إلى منظومة الكرد الاجتماعية، وهذا الذي توصلت إليه في هذه المقالة، يجعلني أكثر إيمانا بصحة ما قلته حول القصد الذي أخفاه زنكنه عني طوال هذه السنوات.

في القراءة اللاحقة التي تمتاز غالبا بالتأني، وبتراجع حدة الدهشة أو انعدامها، يكشف النصّ عن نفسه، وتكتمل رؤية القارئ له. وسوى هذا فإن فارق العشرين سنة بين القراءتين، الاولى التي في الثمانينيات، والثانية الحالية، وما يترتب عليه من تطور في القدرات العقلية والمعرفية للانسان، لا بدّ إلا ان يقود إلى تحرير القراءة ومعها عمليةالتلقي عموما،من مختلف عناصر الجهل التي قد تصاحب القراءة الاولى السريعة والمندهشة.

ومن شأن ما سبق يدفعنا القول الى أن ملحمة (ممي آلان) تحتّم على المهتمين بالسرديات وشؤونها وأجناسها، وبالذات القديمة منها وفي مقدمتها الملاحم والأساطير، الانتباه إلى مسألتين متلازمتين ومتداخلتين لا تنفصل إحداهما عن الأخرى: الاولى ترتبط بضرورة الكشف عن قيمة سرديات الكرد ومروياتهم- ليس المقصود هنا تلك التي نشأت في العراق وحدها، وإنما جميعها ومنها التي نشأت في الأجزاء الأخرى من كردستان- ومكانتها بين سرديات الآخرين ومروياتهم، والثانية تذهب باتجاه تأكيد ضرورة البحث عن هذه السرديات والمرويات، التي نظن أنها تعرضت، شأنها في ذلك كمثل ما اصبحت عرضة إليه مرويات وسرديات أقوام أخرى كالهنود الحمر والفلسطينيين، للكثير من محاولات السحق والتغييب ونفي الوجود، أو السطو عليها.

ولأن الملاحم على هذا القدر من الأهمية، فإن النظرة الجادة إلى (ممي آلان) يجب أن تتصف بقدرة صاحبها على التشريح الدقيق، مرة بهدف الكشف عما بين سطورها لمعرفة ما تمكن معرفته

من واقع الكرد، وأخلاقهم وعاداتهم ومعتقداتهم وعقليتهم وبنيتهم الذهنية.. إلخ، من عناصر بنيتهم الاجتماعية التي نعتقد بأن تمتلك من الخصائص والصفات ما يجعل الكرد يختلفون عن غيرهم من الأقوام، واخرى بهدف الكشف عن القيم الجمالية في هذه الملحمة الفولكلورية، وهي قيمتها الكبرى التي نعتقد أنها بسببها بقيت على قيد الحياة، ولم تمت أو تحتجب على الرغم وما واجهته إليه عبر تاريخها الطويل، آخذين بنظر الاعتبار هنا، انها أقدم ملحمة كردية تصل إلينا، وهو ما يذهب إليه الدكتور عزالدين مصطفى رسول في المقدمة التي كتبها، حيث يشير إلى انها ظهرت قبل ميلاد المسيح.

تندرج (ممي آلان) في سياق الملاحم التي أنجزها العقل البشري، حتى وإن اتصفت على مستوى الاسلوب بطابعها الفولكلوري. ومن أجل أن نفهم أسلوبها في القصّ، ونتبين أسباب المقاربة بينها وبين الفولكلور، الذي هو جنس آخر من فنون التعبير، نرى وجوب التوقف أمام إطارها العام وتوضيح الأمر.

تروي ملحمة (ممي آلان) حكاية الملك الكردي الشاب: ممي آلان، والأميرة الكردية الشابة: زين. ففي حين يعيش (ممي آلان) في مدينة المغرب ويتقلد الملوكية فيها، فإن زين الزينات تعيش في جزيرة بوتان/ الامارة التي يحكمها أخوها (أزين). لذا وقبل أن يتحقق اللقاء بينهما وينتصر الحب، فإن الملحمة تضع المتلقي أمام حالة من الشدّ والترقّب ترتفع وتيرتها مع الأيام. وتصاحب عملية الشدّ هذه، مختلف أنواع الصعوبات التي يضعها السارد أمام البطل الشاب، خلال رحلته من مدينة المغرب إلى جزيرة بوتان، فوق حصانه الأشهب الذي يقطع المسافات بسرعة هائلة لا نرى عند بقية الخيول ما يماثله.

صحيح أن شكل الرحلة يبدو أقرب إلى المعالجة الفانطازية منه إلى المعالجة الواقعية، إلا أن هذا النمط من المعالجة هو الذي جعل المسافة بين النصّ والملحمة قصيرة إلى أبعد الحدود، وهو أيضا ما جعله قريبا من الفولكلور، الذي تغلب على معالجاته الصفة الفانطازية في حركة البطل.

في هذه الملحمة نرى البطل ممي آلان فوق حصانه الأشهب الذي يسابق الزمن بسرعته الفائقة التي نرى ما يماثلها في خيول الحكايات الشعبية وحدها، وإن لم تفارق السارد الرغبة في تصوير الواقع الذي يتحرك البطل فيه، وبدقة متناهية تماما. ربما يتصور القارئ أن مثل هذا التوضيح غايته الاكتفاء باختصار القيمة الأساسية، إلا أن الأمر ليس كذلك بتاتا، فما يلفت الانتباه، ويدعو للتمعن في الملحمة، تنوع مصادره، وليست رحلة ممي آلان غير أحد الوجوه التعبيرية، وليست كل شئ. والملحمة في الوقت الذي تحتفظ فيه بطابع التراجيديا الذي هو طابع الملاحم غالبا، لا تخفي انشعال السارد بالمكان، الذي يحاول تأثيثه بكل ما يظهر هويته. ولأن التراجيديا من حيث الاهتمام لا تبتعد عن دائرة الانسان وتضحيته، فإن الأحداث التي تمر من امام عيوننا، على الرغم من طابع المعالجة الفانطازي، تظل واقعية تماما، ولا تأثير لخيال السارد فيها، سوى القيام بترتيبها على وفق ما تمليه الضرورات الفنية التي ترتبط بالصراع

ونموه وتطوره. أي أن الملحمة بسبب صنعتها الراقية، استطاعت إيهامنا بواقعية أحداثها جميعها وبلا استثناء، حتى وإن كان بعضها غير ذلك. واستطاعت إقناعنا بحقيقة وجود (ممي آلان) وحبيبته (زين الزينات) وسواهما من الشخصيات فبدت وكأنها لصيقة بالتاريخ الكردي. ولو افترضنا بأنهما وغيرهما من الشخصيات من إنتاج عقل السارد، فإن هذا السارد بسبب قدرته على تحقيق الإيهام، استطاع أن يقدم لنا مرحلة من حياة الكرد، امتازوا فيها بالحيوية والنشاط وبالوجود القومي المؤثر، في مستويات الحياة المتعددة.

وربما لم تكن الملحمة بهذا الطول والامتداد عند بدء رحلتها مع الحياة وظهورها، إلا أننا نميل إلى الاعتقاد بأن العقل الكردي الذي أنجز معمارها في شكله الأول الذي لا نعرف شيئا عنه، بقي يضيف إليها ويحذف، ويجري التعديلات عليها والتحسينات، خصوصا عندما كان الرواة والمغنون يقومون بتقديمها في السهرات والمناسبات، بما في ذلك العمل على أسلمتها بعدما دخل الكرد في الاسلام. وإذا كان هذا الأمر يكشف في جانب منه عن تطور في البنية الذهينة الكردية، وعدم المراوحة في دائرة التعبير ذاتها، فإنه في الجانب الاخر منه باعتباره ضربا من السلوك البشري، يدل على أن الكردي لم يتنازل عن هويته، وقد بقي من خلال هذه الملحمة وسواها من كان يسردها، يتشبث بهذه الهوية عبر الأزمنة، اعتبارا من ذلك والتاريخ الذي سبق ميلاد المسيح. ونستدلّ على صحة هذا القول، من خلال محافظة الملحمة على روحها، ونكهتها، اللتين تشعّان من المكان والشخصيات معا. وإذا ما أخذنا بالرأي الذي يدعو إلى ضرورة التعامل مع المفردات باعتبارها مرجعيات تلقي بظلالها على أي نصّ تستخدم فيه، وأنّ مفردة (ممي) هي اختصار لمفردة (محمد) العربية، فإن الملحمة حتى بعد أن تمّت عملية أسلمتها لم تغادر البيئة التي نشأت وظهرت فيها، وهي البيئة الكردية، وبحسب ما توصلنا إليه مفردة (ممي) التي ربما لم تكن قد ظهرت إلى الوجود في اللغة الكردية آنذاك. ولعلّ الملحمة لهذا السبب أيضا، أصبحت المرجعية التي استفاد منها الشاعر الكردي المعروف أحمدي خاني (١٦٥٠ -١٧٠٧) في مطولته الشعرية الشهيرة (ممي وزين).

الملحمة كما هو مكتوب على غلاف الطبعة التي نتناولها في هذه المقالة: فولكلورية. وهذه مفردة تحمل أحد تفسيرين، أو كليهما معا. فهي إما أن تكون مرتبطة بحالة سرد الملحمة أمام جمهور غفير من الناس في ساحة عامة، أو هي قد تكون مرتبطة بالمعمار، الذي يتشابه مع ما نراه في الحكاية الشعبية أو مع غيرها من أجناس التعبير الشعبي. وسوف يدرك القارئ أنه ليس هناك أي تضاد بين التفسيرين،إذ أن أحدهما يرتبط بالآخر، والاثنان يشيران إلى طريقة القصّ أولا وقبل أي أمر آخر.

وتذكرنا هذه الطريقة بأسلوب الحكاية الشعبية، وإن كانت تختلف عنها اختلافا كبيرا لا يبيح لنا المقارنة بينهما. وقد يبدو البناء اللغوي على غرار ما نراه في الحكاية الشعبية، بسيطا وقريبا من الشائع على الألسنة، إلا أن هذا

لا يبرر الوقوع في مصيدة التفسير الخاطئ لمثل هذه البنية، وإلا فإن الكثير مما فيها يجعلها أقرب إلى تلك الأبنية اللغوية التي تمتاز بالفخامة في أشهر التراجيديات العالمية، أو في سواها من أمهات النصوص المسرحية والروائية، ومن ذلك:

(١) دخلت الفتيات الثلاث مدينة جزيرة بوتان ، وصرن في دائرة زين وعلى أفواه النوافذ، ونظرن فإذا بزين مستلقية في الفراش وعند رجليها وفوق رأسها تشتعل المشاعل والسرج.

(٢) وعندما وقعت عين مم على ذلك المنزل والدار، وكان

شبيها بمقام أمه وأبيه

تذكر الأم العجوز والأب الشيخ والعمّين الأجليّن

الذين ظلوا يائسين من عودته

فانحنى على سرج الأشهب العدّاء

وانهمرت الدموع من عينيه مدرارا مخضّبة الرخام

نادى التاجر الشيخ مم

وقال له: أيها الفتى الحبيب خيرا. ما البكاء إلا شيمةالنساء

يا فتاي

هام الرجال.. كقمم الجبال الشمّ .. دائم الضباب

والدخان

وهناك مسألتان يجب الانتباه إليهما عند أي حديث حول جماليات هذا النص: الاولى ترتبط بالتجنيس، والثانية بالموافقة على اعتباره نصا فولكلوريا. فأما من حيث وضعه في جنس الملحمة، فذلك لأنه يتصف بالطول والتاريخية والبطولة والأفعال الخارقة والمعارك الضخمة، وغير ذلك مما تنتظم فيه الملاحم عادة، ولعلّ المقطع التالي يوضح ما نذهب إليه:

انهال مم بالرماح والنبال والعصي علىجنود الأمير

وخرّب الصف الأول وسار إلى الميمنة ثم دخل المعمعة

وقذف الفرسان من على الخيول وداس المشاة تحت حوافر

الفيلة

أخذ احمال الضرائب من العدو وساقها أمامه

تقرّب من الشاه وأسر الرخّ والملك

ذلك أن السارد في مثل هذه الصياغة استعار من الحرب التي هي روح الملحمة أهم مفرداتها (الرماح، والنبال، والعصي، والجنود، والميمنة، والمعمعة، والفرسان، والخيول، والمشاة، وغيرها كثير) لوصف مجرى لعبة الشطرنج بين ممي آلان وأمير بوتان (أزين)

الذي هو شقيق (زين الزينات) التي أتى ملك المغرب من أجل الحصول عليها. وفي اعتقادنا فإن مثل هذا الوصف، حتى وإن كان بهدف الاشارة إلى مجريات لعبة الشطرنج بين ممي وأزين، فإنه يرتقي بمعارك ممي آلان التي يخوضها ويبلي فيها، خصوصا وأن موافقة الشقيق (أزين) على تزويج أخته من ممي آلان ترتبط بنتيجة اللعبة التي يسعى كل واحد منهما للفوز فيها والانتصار علىالاخر.

ذلك بخصوص أسباب التجنيس، وأما بالنسبة

لاعتبارها ملحمة فولكلورية، فذلك لأنها في طريقة القص المستخدمة فيها، وفي أغلب ثيماتها ، تحاكي وجدان الشعب، وهو مما دعا المغنين الكرد إلى أن يغنوها خلال الأعياد والاحتفالات، ويضاف إلى هذا بالطبع ما سبقت الاشارة إليه من اقترابها من روح الحكاية، بما في ذلك طريقة ترتيب الموتيفات، والصعوبات التي تعترض البطل قبل أن يستطيع التغلب عليها.

ما سبق ينير بعض جوانب الملحمة، الجمالية منها على وجه الخصوص. ولكن من واجب الناقد التوقف أمام المتن السردي، للكشف عن كل ما يصدر عنه، سواء تمّ ذلك بالتلميح، أي من وراء قناع، أو بدونه، أي بالتصريح وبدون استخدام أي نوع من الأقنعة التي في مقدور السارد استخدامها. صحيح أن مثل هذه المهمة تحتاج لمساحة كبيرة، ولكن في حدود ما هو متاح لنا، فإنه من المناسب أولا التذكير بالقصد الذي توخاه زنكنه من الاهداء، ذلك أنه في الجانب المباشر من الملحمة وبما يرتبط بمتنها السردي، فإننا نرى بأنها تقدم إجابات شافية على كثير من أسئلة التشكيك التي تحاول تصوير الكرد، كما لو انهم مجرد مجموعات رعوية أو قروية متناثرة، لا يربطها ناظم اجتماعي أكبر من التجوال بحثا عن الكلأ والماء، أو العيش بين المجتمعات كأقليات لا دور لها بتاتا.

والملحمة في إجاباتها غير المباشرة على الكثير من هذه الأسئلة، إنما تفعل ذلك من خلال محاورة عقل القارئ، لاذيةبه من خلال التمحيص في المتن، وسيكون في مقدوره اكتشاف الكثير، بدون وسيط، سوى الكلمات التي يتكون نسيج السرد منها. ولأننا على يقين بأن الانسان لا يقول إلا ما يفكر به، فإن سارد الملحمة في صورتها التي بين أيدينا، لا يمكن إلا أن يكون ساردا كرديا، بدلالات عديدة ليس من الصعب على القارئ اكتشافها. قد يتصور البعض أن عملية ترحيل من نوع ما قد حدثت، وأن الملحمة قد جاءت من منشأ آخر قبل استقرارها في وسط الكرد، إلا أن مثل هذا الافتراض يقابله افتراض يخالفه،تعدّ الملحمة فيه كردية الولادة والنشأة، بل وصافية بدون أية تأثيرات خارجية من أي من الأقوام القريبة من الكرد، أو التي يعيشون في وسطها كأقليات كما يزعم المناوئون لهم. إن مثل ذلك الافتراض الذي يقصي الملحمة عن بيئتها الأصلية لا قيمة له، وذلك لأن الملحمة في شكلها الحالي كردية تماما، ويدل على صحة هذا الاستنتاج، مناخها، وشخصياتها، والمكان الذي تدور فيه أحداثها، وكذلك المنظومة الاجتماعية التي تتحرك الشخصيات فيها، وبعدئذ فإنه فلا قيمة لأي افتراض يشكك في موطن الملحمة، الذي هو موطن الكرد، الذين نرجح ان الملحمة ولدت ونشأت وتطورت في أحضانهم، وعلى ألسنتهم التي يقطر منها ذهب الكلام كما يقال:

ذاع خبر رحيل مم في مدينة المغرب

كانوا يعقدون أكفهم خلفهم حسرة وألما

تجمهروا جميعا حول ممكربيطات الخراف

منهم من انهال على يديه ومنهم من ركع تحت ركابه وقدميه

وكنواحهم على ميت، تعالى نواح الفتيان: واأبتاه، واأبتاه

رأى مم أن الأمر سيطول وصعد البكاء ولانواح

للسماء

همز بالركاب الأشهب العداء مرة ومرّتين فهو رفيق يوم

الضيق

وأرخى له العنان

ومضى الحصان كانه صاعقة تنزل من السماء

ووراءه لم تكن تلمح الغبار والدخان

فلا أحد يعلم ما قوة هذه الدابة في الدروب

وعلى هذا المنوال ساروا،حتى بلغ الليل لحظة صلاة المغرب

فرأى مم نفسه في مدينة كبيرة عظيمة

سرجها تحاكي نجوم السماء

رأى مم مناحة عربية في منزل عظيم

سمع بين النائحين صوت أبيه الشيخ وصوت بنكين أخيه

بالروح

آنذاك ظن أنه قد ضلّ الطريق ، وعاد إلى مدينة المغرب

ورويدا رويدا ابتعد عن مضيف أبيه واجداده قصر ملك الكرد

عندما يصاحب السارد الملك مم في خروجه من مدينة المغرب إلى جزيرة بوتان ، فإنه في المساحة الكبرى من الملحمة يصور حياة الكرد المسلمين، وهذا مما يوجب علينا إذا توخينا الاحتكام إلى منطق النصّ وما ينطق به، صرف النظر عن أي حديث يشكك بنشأتها. وفي هذا الموقف العقلاني، نكون قد التزمنا بقواعد النقد، التي تطالب الناقد بضرورة النظر إلى النص من داخله، وليس على وفق أي أمر آخر، طارئ وخارجي. ومن اللافت للانتباه، أن الكرد وحيثما نراهم في أي من اجزاء الملحمة، ليسوا كما تحاول سرديات الخصوم تصويرهم، ذلك أنه منهم الملوك والأمراء والتجار الكبار وأصحاب رؤوس الأموال، بالاضافة إلى الفلاحين والرعاة والصيادين وغيرهم مما يوضح استقرارهم وما يرفلون به من الرقي الاجتماعي

(١) لقد بلغ عمر مم الخامس عشر

ونصّبوه ملكا على مدينة المغرب

وذات يوم كان مم جالسا علىعرشه ذي القوائم الأربع

(٢) هناك اثنان

أحدهما فتاة والثاني شاب

لن يبلغ جمالهما أحد، أحدهما ابن ملك لامغرب

إنه أمير الكرد وملكهم

والثانية أبوها سيّد جزيرة بوتان

ابنة الأمير زنكين، زين الزينات

(٣) سأفتح لك أبواب الدكاكين والمخازن

إن لم تفدك سأفتح الخزائن والكنوز ، فخذ ما تشاء من

النقود

عليك أن تدلّ عمك باصبعك حيث تشاء

آنذاك سأغرق ذلك المكان بالمال والذهب

سأزيل عنك هموم القلب، وحتى الآن هذا ما نعمله بمالنا

فنحن نجمعه ثم نبذله من أجل الأخيار

تتوزع أحداث الملحمة بين مكانين: أحدهما وهو الذي تقلّ فيه الأحداث، والثاني الذي تقع فيه غالبيتها، ويهتم به السارد أكثر من اهتمامه

بالمكان الأول. فأما المكان الأول فإنه في مدينة المغرب، التي ينحصر فيها وجود الكرد بالملك وحاشيته، فيما الثاني الذي في جزيرة بوتان، يمتلئ بالكرد، على اعتبار أنه مكان كردي. ومن هنا نستطيع ان نفهم الأسباب التي أوجبت على السارد الاهتمام بالمكان الثاني، في وقت مرّ فيه المكان الأول سريعا. إن الاهتمام الذي نقصده ، يتمثل بالسعي لتصوير منظومة الكرد الاجتماعية ، في جزيرة بوتان حيث يعيشون.

عندما يصور السارد المكان الأول/ مدينة المغرب، فإنه يكتفي بتصوير الحكام من الكرد، الذين منهم الملك (ممي آلان). في حين أنه عند تصوير المكان الثاني/جزيرة بوتان، فإنه يصور لنا منظومة متكاملة في المكان الكردي، لاذية بجميع سكانه وحكامه من الكرد. وربما يكون أراد إبراز دور الكرد في الحياة السياسية للمسلمين حتى عندما يكونون بعيدين عن أرضهم الأصلية، إلا أنه لا يخفي رغبته في تقديم فلسفة للحكم، تتماهى من وجهة نظره مع المفهوم الاسلامي، ونتبين هذا الأمر بوضوح في أكثر من موضع في داخل الملحمة. إذ في أعقاب الانتقاد الذي يوجهه لطبقة الحكم، فإنه يتوسل بشخصيةالخضر المعروفة عند المسلمين، ليقول من خلالها ما يراه ضروريا في الحاكم العادل

واليوم هو عيد الأضاحي، لكنكم قد هجرتم مضائفكم

وكان على رجال مثلكم، أن يفتحوا أبواب الخزائن والدفائن

العظيمة

كان عليكم أن تنثروا المال يا معشر الاخوة في الأزقة

والدرابين

من أجل الفقراء والمساكين

وكان عليكم أن تطعموا نفسا جائعة، وتكسوا جسدا عاريا

ولكنكم تهتم في الصحارى والبراري

وأنتم ترتدون زي الدراويش

في المكان الثاني/ الكردي، وحيث تدور أغلب الأحداث، يقوم السارد بوضع كل الأشياء فوق منضدة التشريح، وتحت عدسة مكبرة، فتظهر أمام العيون المنظومة الاجتماعية للكرد بكل عناصرها، ابتداء من بنية الحكم، وصولا إلى مختلف الأبنية في شرائح المجتمع وطبقاته. وهنا سوف يكون في مقدور القارئ معرفة العديد من الشخصيات وأفعالها، وأن معرفته بالبطل ممي آلان سوف تزداد عمقا، بعد أن يكون الاشعاع المنبعث منه قد ازداد قوة ووهجا في أعقاب انتصاراته على عشرات المصاعب التي واجهته. ومن مجموع هذه المعارف التي يضعها السارد أمامنا، يمكننا القول إننا أمام بنية واضحة المعالم لها قيمها الخاصة وعاداتها وتقاليدها، وفيها الأخيار الطيبون وغيرهم الأشرار السيئون على حد سواء. إنها البنية التي يحاول أعداء الكرد من سراق الأرض والتاريخ نفي وجودها، أو تشويهها، إن لم يتمكنوا من تحقيق الهدف الأول. وعموما فإن معرفتنا بالشخصية الكردية سوف تكتمل، مثلما ستكتمل حكاية

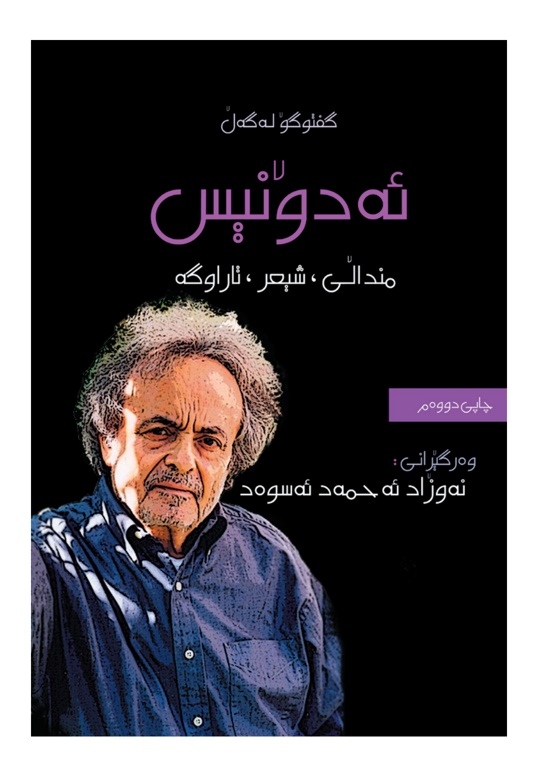
(ممي آلان) وحبيبته (زين الزينات)، بنهايتها

المأساوية مع انتحار الحبيبين معا، في الوقت الذي يكتشفان فيه أن خيوط الشر قد التفت حولهما. ومن هنا يبرز الطابع التراجيدي، في جلال مهيب، وهو ما يجعل الملحمة واحدة من نصوص الكرد الخالدة عبر التاريخ.

وتبقى نقطة أخيرة نظن انه من الضروري الاشارة إليها، لقيمتها الكبرى في توضيح بنية الكرد الذهنية، وتتمثل بميل السارد الكردي إلى تقديم العبرة والموعظة، للقارئ والمستمع، وهي تفيد أيضا بأن الكرد ومنذ وقت مبكر من تاريخهم الطويل، اكتشفوا أهمية الدور الذي يمكن أن تقوم السرديات به في حياة الناس.

*ممي آلان (ملحمة فولكلورية كردية) ترجمة د. عزالدين مصطفى رسول/ وزارة الثقافة والاعلام-دار الثقافة والنشر الكردية، بغداد، ١٩٨٤.

---




حوار مع ادونيس، الطفولة، الشعر والمنفى
اجراه: صقر ابو فخر، ترجمة: نوزاد احمد اسود
من مطبوعات سردم، الطبعة الثانية - ٢٠٠٨




الهوية غير المكتملة
ادونيس، ترجمة: نوزاد احمد اسود
من مطبوعات صحيفة چاودێر - ٢٠٠٨



# التبئير الفلسفي في الرواية: مغامرة نقدية جريئة

فاضل ثامر

تعد دراسة الناقد الكوردي الدكتور شاهو سعيد الموسومة (التبئير الفلسفي في الرواية مقاربة ظاهراتية في تجربة سليم بركات)، واحدة من اهم الدراسات التي صدرت مؤخرا في الثقافة الكردية والعربية على السواء فهي تقف في مصاف انضج الدراسات النقدية/الفلسفية الحديثة التي قرأتها مؤخرا .ولوكنت امتلك الاطلاع الكافي على المكتبة النقدية الكوردية لاعلنت دونما تردد ان هذه الدراسة ربما هي افضل دراسة نقدية ظهرت في النقد الاكاديمي الكوردي عبر تاريخه الحديث .

وتمثل هذه الدراسة من الجانب الاخر مغامرة نقدية وفلسفية وكتابية لايمكن ان يدخل في اشكالياتها الا ناقد عميق الثقافة ويمتلك ثقة عالية بالنفس وبصيرة ثاقبة في الخطابين النقدي والفلسفي في ان واحد .فالناقد قد اقدم على توظيف مفهوم نقدي مستمد من السردية Narratology الحديثة هو مفهوم التبئير Focalization

طوره الناقد البنيوي الفرنسي جيرار جنت في كتابه الخطاب السردي (Narrative Discourse)

لدراسة المتن الروائي للشاعر والروائي السوري الكردي الاصل سليم بركات.

ووجه المغامرة في هذه الدراسة لايكمن فقط في توظيف مظاهر التبئير السردي او تقصيها في رواية سليم بركات، بل في محاولة نقل مفهوم

التبئير السردي من فضائه السردي وترحيله الى فضاء اخر هو الفضاء الفلسفي من خلال اجتراح مفهوم جديد /قد يدخل معجم المصطلح النقدي هو مفهوم (التبئير الفلسفي)

وهو مفهوم جديد تماما لم يسبق توليده او اشتقاقه من قبل اي ناقد اخر.

ومفهوم التبئير في مجال السرد ينصرف اصلا الى اعادة الاشتغال على مصطلح شائع في النقد الادبي هو وجهة النظر Point of View والى حدما مصطلح المنظور Perspective حيث التركيز على استكناه وتحديد الصوت السردي الذي يقوم بسرد ورواية نص او روائي معين وقد سبق للروائي الامريكي هنري جيمز في بعض مقدماته ان بلور مصطلح وجهة النظر .الا ان الفضل الاكبر لترسيخ هذا المصطلح واشاعته يعود الى الناقد بيرسي لوبوك في كتابه النقدي (صنعة الرواية) The Craft of Fiction. وقد حاول جنت ضبط مصطلح التبئير وبشكل خاص من خلال تمييزه بين الصيغة ((Mode والصوت((Voice في العمل السردي.

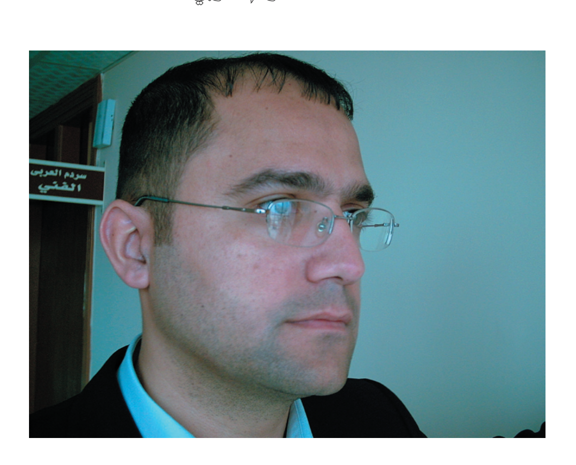
ويخيل لي ان الباحث الاكاديمي الدكتور شاهو سعيد في ترحيله مفهوم التبئير من حقله الاصلي في ميدان السردية الى ميدان الخطاب الفلسفي قد افاد من مفهوم المنظور الايدولوجي الذي سبق وان طرحه الناقد اوسبينسكي في كتابه (شعرية التأليف) (Poetic of Composition)، لكنه يحرر هذا المصطلح من حدوده الملبسة اللصيقة بمصطلح اشكالي كثير الحمولات والتاويلات هو مصطلح الايدلوجية ويعيده الى فضاء اكثر اتساعا




وتجذرا هو الفلسفة .وهكذا نجح الباحث في اعادة صياغة هذا المفهوم النقدي/الفلسفي ليكون اداة التحليل التي يعتمدها في قرائته للمنجز الروائي لسليم بركات .والاضافة الاهم التي يحققها الباحث تتمثل في اعتماده على منهج فلسفي معاصر هو المنهج الظاهراتي (Phenomenology) كما هو عند مؤسسه ادموند هوسريل مع افادة جزئية من الاضافات التي قدمها عدد من فلاسفة الظاهراتية اللاحقين امثال مارتن هايدكر وجان بول سارتر وغادامير وبول ريكور .وهذا المنهج قلما يعتمد حاليا في الدراسات النقدية خاصة بعد هيمنة المناهج اللسانية والبنيوية والشكلانية في النقد الادبي الحديث.وشخصيا كنت اتمنى ان لايتوقف

الباحث فقط عند المنظور الظاهراتي عند هوسريل بل يستفيد بشكل كبير من الاضافات التي حققها الفيلسوف مارتن هايدغر في كتابه(الزمن والوجود وان يستفيد بشكل اخص من تطبيقات الفيلسوف والناقد الفرنسي بول ريكور في مجال الظاهراتية التأويلية لدراسة النصوص السردية وبشكل اخص في كتابه الزمن والسرد Time and Narrative الذي صدر بين ١٩٨٤ -١٩٨٧ .ومعلوم جيدا ان بول ريكور قد نجح بشكل خاص في اجتراح مفهوم الهوية السردية Narrative Identity الذي يرتبط بمفهوم الهوية الشعرية عند هايدكر حيث إن مفهوم الهوية السردية يفيد بشكل خاص استقصاء مظاهر التشظي في الهوية في روايات سليم بركات حيث يسهم السرد حسب مفهوم ريكور في اعادة تشكل الفرد والجماعة في هويات سردية تقاوم الاندثار وسيل الزمن الجارف من خلال الاحتكام الى ثلاثة اقانيم هي الوجود والزمان والسرد، وفي تقديرنا فإن المنظور السردي عند بول ريكور كان هو الاجدى في قراءة روايات سليم بركات لانه تجاوز الكثير من اخفاقات المنهجيات الحديثة وبشكل خاص البنيوية من خلال رد الاعتبار الى علاقة النص السردي والكتابي بالحياة والاعتراف باهمية التجربة الانسانية وعودة الحياة الى مفهوم الشخصية السردية التي اختزلت في بعض الدراسات البنيوية والشكلانية والوظيفية الى مجرد فواعل او حوافز او وظائف او كائنات ورقية على حد تعبير رولان بارت.

وتثير الاعجاب بشكل خاص قراءة الباحث لعدد من روايات سليم بركات وبشكل خاص



رواية فقهاء الظلام التي تقصى فيها مظاهر وجود العالم والذاكرة المقصاة والانحلال المكاني وروايتي الريش وعبور البشروش حيث تناول فكرة المماهاة بالحيوان وسيلة لاختراق اطواق المكان وقضايا التناص بين قصص الخلق .وحاول الباحث استقصاء مستويات التبئير حيث ميز بين مستويات التبئير الذاتي والايدلوجي والميتافيزيقي والوجودي وغيرها.

لقد ظل الباحث يحذر من الانجرار الى الفضاء الفلسفي عندما شعرنا ان دراسته واستقصاءاته ،تكاد تعنى اساسا برصد الموقف الفلسفي في روايات سليم بركات دون ان يتمكن بعض الاحيان في التقيد بالتعامل مع النص من خلال ما اسماه بالتبئير الفلسفي، الذي ينطوي ضمنا ويفترض الاعتماد على آليات التحليل النصي الداخلي بعيدا عن الاقتصار على عملية الاستقصاء الفلسفي ثيماتياً.

تظل دراسة التبئير الفلسفي في الرواية من الدراسات الجادة والجريئة التي يجب علينا بنا ان نحتفي بهاوان نتروى او نتمعن في قراءتها...



# غواية القضية الكردية في إبداع الأديبة فينوس فائق

خالد حسن-القاهرة

ليست الشاعرة و الصحفية الكردية « فينوس فايق » وحدها هي التي تفتح المجال لدراسات متواصلة حول الأدب الكردي، بل إن هناك الكثيرين من مبدعي الكرد الذين أسهموا إسهامات جليلة – إضافةً إلى الإسهامات السياسية التي لا حصر لها - في مجال الأدب و الثقافة؛ الأمر الذي يقودنا - نحن العرب - إلى ضرورة النظر إلى تلك الإسهامات التي تضيف إلى تراثنا الحضاري إضافات عظيمة.

و قبل أن نبدأ في عرض هذه الأطروحة علينا أن نتعرف على تلك المبدعة التي ربما و قع الاختيار عليها لأنها تعرض للقضية الكردية في شكل أدبي من منطلق إسهاماتها السياسية و وظائفها المتعلقة بالموقف الكردي الراهن و المتمثل في العراق، من هنا كان اختياري للشاعرة فينوس، ولم يكن وقوفها إلى جانب الموقف الكردي السياسي عفوياً بل وظهر من خلال خطواتها السياسية و كذلك إسهاماتها الأدبية.

## التعريف بالمبدعة فينوس فايق

هي فينوس فايق نوري من مواليد مدينة السليمانية/ كوردستان الجنوبية (كوردستان العراق) صحفية وشاعرة كردية مقيمة في هولندا

الدراسة و العمل في العراق و كردستان:

- أتمت الشاعرة فينوس فايق دراستها الابتدائية باللغتين العربية و الفرنسية في الجزائر،

ثـم دراسـتها المتوسـطة بالكرديـة و الإعدادية بالعربية في كردستان.

- حصلت على شـهادة البكالوريوس من قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة بغداد عام ١٩٨٩.

- درسـت اللغة الإنجليزية في المعهد البريطاني التابع للسفارة البريطانية في بغداد.

- لها تجربة في العمل الإعلامي في التليفزيون و الإذاعة ..

- عملت لعدد مـن الجرائد التي تصدر باللغة العربيـة في كوردسـتان مثل جريـدة (المؤتمر) لسـان حال المعارضة العراقيـة ، وجريدة الاتحاد الناطقة باسـم الاتحـاد الوطني الكوردسـتاني.
- مولعـة بقراءة الشـعر العربـي و الكردي منذ الصغـر و تكتب الشـعر منذ الثالثة عشـرة من عمرها.

- تركـت كردسـتان منـذ عـام ١٩٩٦ و اسـتقرت في هولنـدا منـذ عـام ١٩٩٧.
- أصـدرت المجموعة الشـعرية الأولى لهـا باللغة الكرديـة عـام ٢٠٠٠ م تحـت عنـوان "الخطايـا الجميلة".

- حاصلـة علـى شـهادتين في التحريـر التليفزيوني مـن أكاديمية الإعـلام في هولندا و الإنتـاج الإذاعي من مركز الدورات التابع للإذاعة العالمية الهولندية عام ٢٠٠٤.

- تهتم بشؤون ضحايا عمليات الأنفال و ناشطة مستقلة في مجال حقوق المرأة.

و التساؤلات التي تطرح نفسها هنا هي:-
١- ما هي حقيقة موقف الشـاعرة من القضية الكردية على الصعيد السياسـي و ما هي إسهاماتها الأدبية لخدمة تلك القضية؟

٢- مـا مدى انعـكاس عملهـا كصحفية على إبداعها الأدبي و ما مدى انعكاس موقفها السياسي تجاه القضية الكردية على أدبها؟

٣- ما هو موقفها من احتلال الولايات المتحدة الأمريكية للعراق، و الأحداث التي وقعت في العراق في الآونة الأخيرة؟

إذا كان تاريخ الشـاعرة فينوس قد حفل بكل هـذه الإسـهامات العلمية و السياسـية إلا أن هذا التاريخ يحفل كذلك بكم هائل من العمل الصحفي الذي يجعلنا نؤكد على أنهـا قريبة من الصحافة قربها من الشـعر. و من ثم نسـتطيع من خلال هـذه الخبرة الأدبيـة أن نعرض لمـدى وقوفها إلى جانب قضية الأكراد من خلال أعمالها الأدبية.

و سـوف نحاول من خلال السـطور الآتية أن نعرض لموقفها تجاه الموقف السياسـي الراهن من خـلال أعمالها سـواء أكانت مقـالات صحفية أم قصائد شعرية.

أولاً: عرض القضية الكردية من خلال الأشعار

تعـد فينوس من شـواعر العرب المتحمسـات للقضايا السياسـية، و على الرغم من أن الكردية هي لغتهـا الأم، إلا أن الشـاعرة حاولت من خلال أشـعارها العربية المتزنة أن تحتل مكانة مرموقة بين شـواعر العرب المعاصرات، و القارئ لأشعارها لا يسـتطيع أن يرى شـخصيتها الكردية المخبوءة وراء لغتهـا الثانية إلا من خـلال علاقات وطيدة بـين اللغتين؛ و الشـعر عندها ينطلق من لسـان يلهج بالمعرفة و الوعي التام بأسـس الشعر العربي

المعاصر، و هي و إن كانت قد اتخذت لنفسها مكانة تنحاز من خلالها الى الجانب السياسي إلا أن ذلك لا يحول دون التعبير عن أنوثتها كامرأة تكتنه بداخلها عواطف جياشة تملأ بها فراغ الرجل أي رجلٍ لكي تشعره بالدفء، و لكن هذا يعد قناعاً وضعته الشاعرة لتخفي من خلاله قضيتها الكبرى، قضية الأكراد.

## قناع الأنوثة في شعر فينوس

استطاعت الشاعرة من خلال استخدامها قناع الأنوثة أن تبث المتلقي رسالة هي أقرب إلى الرمز الهادف، و نحن نلمح من خلال قصيدتها « قصيدة للعام الجديد» مواطن الأنوثة ككيان أنثوي انخرط في فضاء متسع، استطاعت المبدعة من خلاله أن تكون مجموعة من الوقفات الأنثوية اللامحدودة، و إن كانت لم تسلم من الوقوع في الفضاء الذكوري؛ إلا أنها استطاعت أن توظف هذا الفضاء لبناء قصيدة أنثوية جاءت فيها الفحولة كعوامل مساعدة تخدم ذلك الفضاء الأنثوي.

تقول فينوس:-

إجلس معي الليلة
مزق معي الحزن
إدفن معي الوجع
و لا تغمض عينيك
لئلا ينطفيء فنطاس عمري
لئلا تذوب شمعة أيامي

ليس هناك شك في أن فينوس منحت الرجل مساحة كبيرة عبر أشعارها السابقة، و لكنها تؤكد على أنوثتها فهي تستخدم الأمر و النهي معلنة عن تسيدها عليه حتى و إن كان هو الرجل، بيد أنها ترسم من خلال تلك الأوامر و النواهي صورة رائعة لليلة مسامرة بين رجل و امرأة، و تؤكد على أن تلك اللحظات هي من أساسيات الحياة و ذلك في قولها (لئلا ينطفيء فنطاس عمري) و (لئلا تذوب شمعة أيامي).

الشمعة = النور و الحياة و الأمل

الدفء

الاحتراق و الفناء و الوصل (عند المتصوفة)

و في جرأة أنثوية غير معهودة بين كثر من الشواعر راحت فينوس تصور ليلة من أجمل الليالي و أجمل لحظات الدنيا لدى الأحبة، و في ذلك قالت:-

إقترب مني الليلة
إقترب من عيني
من يدي
من شفتي
إقترب من أنفاسي
خذني إلى جنات الصمت
و ضعني على حافة الطمأنينة

تعال نشرب معاً من تلك الكؤوس الرشيقة
من تلك الكؤوس المليئة بالضحك

و لنتمشى بين أزقة العمر
و لنمسح الليلة من دفتر العمر

لقد ارادت الشاعرة بذلك أن ترمز إلى حنينها لمن يأخذها من ذلك المكان و يتمتع بكل أنوثتها، و الأمر عند الشاعرة ليس مجرد قناع و قفت من خلاله على قضيتها.

قناع المرأة الجميلة = كردستان
قناع الرجل المرغوب فيه =
المواطن الكردي أو القائد

و من روعة إبداع الشاعرة ما جاء في قولها (و لنمسح الليلة من دفتر العمر) بحيث جاءت الجملة بتراء غير كاملة، و ربما لأنها استخدمت عنصر الغياب absence فهي كما يقول فرويد: استخدام الوعي في تحاشي ما لا يستطيع الإنسان أن يواجهه؛ و من ثم ينتهي به الأمر إلى اللاوعي

حضور غياب

كل الآثام و الظلم
و القهر الذي عشناه سابقاً يي

ثم نراها في الأشعار الآتية تريد أن تنطلق مع ذلك الرجل الذي ارتضته حبيباً أو زوجاً لها، فتقول له:-

تعال نعود معاً
فأنا نادمة على المجيء
ها هنا توقف ... و أوقف العمر
فأنا نادمة من وجودي

و تؤكد الشاعرة على أن حياة هذه المرأة قبل لقائها بذلك الرجل الذي تحبه إنما كانت حياة خطيئة، و معصية و من ثم يجب عليها أن تتخلص من تلك الذكرى بالتوبة و التوسل إلى الله من أجل المغفرة و يجب عليها كذلك أن تصلي٢٧ ركعة أي بعدد عمرها فهي شابة حسناء، و في ذلك قالت:-

عد معي و لنقف معاً على سجادة الخطيئة
و لنردد معاً....
«إلهي ، نويت أن أصلي ٢٧ ركعة
صلاة العمر الذي مضى..»
أقول ربي...
«تقبل مني صلواتي و خطيئاتي
التي إرتكبتها و التي لم أرتكبها..»
أقول ربي...
«إستجب حقق لي أمنياتي و أحلامي التي
أنشدها و التي لم أنشدها...»

آه.. إلهي...
بخوفٍ
أفتح باباً عالياً ، علو عمري
و أفتح صرة أيامي
و فتت جليد إنتظاري
و ألق التحية على الطفولة
و ألق التحية على صباي
و ألق التحية على أزقة شبابي الخضراء

على أن الشاعرة ربما رمزت بالعدد ٢٧ إلي

تعداد الأكراد في العالم، و سوف تتضح هذه الرؤية من خلال قولها:-

لم أعد أتذكر...
متى كتبني الله في قصة العمر
كثيرة هي دفاتر العمر
التي تطايرت أوراقها
تحت جناح القسوة و البكاء

لم أعد أتذكر ...
متى تطايرت ضفائر أشعاري
أول مرة مع رياح الضياع

فلتأت ... و لا تغمض عينيك
إياك و النوم ، الليلة..
إلهي ،
أقدم مئة ليلة و ليلة من عمري الذي مضى
من أجل أن لا تشرق الشمس غداً

الليلة أعلق فوانيسي على جدار السكون
و أنشر رسائلي المبللة
على حبال مساءات الغربة العفنة

أقف الليلة
في حضور غيوم الوداع المقدسة
و يحتلني الحزن
و يعصر قلبي
كما يعصر الكفن قلب التراب

و يبحر قلبي مع الأسماك المنكوبة
و عيوني مثل حمام أبيض
أصابه سهم العمر
فارقه البريق و النعاس

إلهي ...
أخرجني من محفظة العمر
من على كتفك
و إجعلني نجمة في السماء
إلهي خلصني من مأزق العمر
و حولني إلى حجر على سفح
جبل في كوردستان
إلهي...
اشطب اسمي
من دفتر العمر
و حولني إلى حبة زمرد
و علقني على رقبتك

و تحاول الشاعرة أن تجعل من العام الجديد فرصة لمولد وطن مستقل يتسم بالحرية و المقدرة على العيش في أمان و استقرار؛ و هي في كل هذا تتمنى من الله و ترجوه أن يبارك العام الجديد بأيام سعيدة هانئة قبل أن تضيع الفرصة و ينقضي الزمان.

آه... فلتأت بهدوء
و تمسك بيدي
و تبارك لي عامي الجديد
فلتأت...

قبل أن تشرق الشمس
و يبدأ مشواري من جديد
تعال نكسر كل ساعات المدينة
لنخنق الزمن
و نقف على أنقاضه
و نوقف عجلة الزمان
و نضحك على انكساره

تعال قبل أن ينطفيء
قنديلي الليلة
تعال قبل أن تذوب
شمعة ليلتي
فأضيع مجدداً
بين دهاليز عام جديد

وعلى الرغم من أن نظرة الشاعرة في القصيدة السابقة كانت أكثر تفاؤلاً و أقرب إلى إيقاظ الأمل لــدى المتلقــي إلا أن قصيدة « نقــش على الماء « جاءت نموذجاً للتشــاؤم و ضياع الأمل، و إذا كانت قــد تحدثت من خلالها عن الوطن المفقود؛ إلا أنها عصفــت بــأي أمل في وجود وطــن للأكراد، و قد اســتطاعت الشــاعرة أن توظف التراث من خلال تلك القصيدة مســتدعية في ذلــك الكهف العراقي المسمى « هزار ميرد « و في ذلك تقول:-

أرسم محيا وطن متعب
و ألونه بألوان مائية
و أضعه في مزهرية التأريخ
أعلق على رقبته تعويذة
أكتب فيها
هذا وطن التوابيت المليئة بالصراخ
وطن الأكفان الملفوفة حول جسد الصوت
هذا وطن على محيا خارطة ممزقة
هذا وطن بلا وطن
وطن
طار أبنائه كالطائرات الورقية في السماء
و اختفت بناته و هن يلعبن لعبة الإختباء
هذا وطن كأنه نقش على الماء
يظهر في الحلم و يختفي في الحقيقة
من يمســه بســوء يتحــول إلى حجــر في كهف هزارميرد

لقــد تخلت فينــوس عن لبــس الأقنعة التي ارتدتهــا لعرض قضيتها في شــكل رمــزي و ذلك في القصيــدة الســابقة، ربمــا لأنها ملــت التخفي وراء الأقنعــة أو ربما لتحررها مــن ربقة الخوف و سطوة القارئ/الســلطة، و أطلقت لقلمها العنان كي تكشف عن نواياها الهادفة إلى خدمة قضيتها، غير أنهــا عصفت بتأملات المتلقي و أحلامه في أن يجد له وطناً حراً و جاء خطابها الشــعري خطاباً متشائماً.

أغسل يداي بماء الصباح
و أبدأ طقوس إستقبال صباح جديد
برسالة غير مرئية
رسالة تخطها أنفاسي
كنقش زمردي على وجنة الماء
رسالةً يحملها موظف بريدٍ من نسج الخيال

إمشي إليك
و أتحسس محياك
و أغدو فراشة من الجنة
فيداهمني الليل
و أغتسل بماء بلون المساء
و تتجمد أصابعي
في صقيع الفراق
فتنبت على راحة يدي
زهور الحزن
و على ظهر يدي أشم رائحة الوداع
و أغدو قصيدة بلون النسيان
أغدوا نقشاً من الفقاعات
على وجه الماء
وتنفجر الفقاعة بعد الأخرى
فيداهمني صباح جديد

الماء إيجابي = الحياة و النبض
الماء سلبي = السراب و الميوعة و الضياع
نماذج من التشاؤم
أرسم محيا وطن متعب
هذا وطن التوابيت المليئة بالصراخ
هذا وطن كأنه نقش على الماء
يظهر في الحلم و يختفي في الحقيقة
برسالة غير مرئية
رسالة يحملها موظف بريدٍ من نسج الخيال
فيداهمني الليل
و أغتسل بماء بلون المساء
و تتجمد أصابعي
في صقيع الفراق
و تنموا على راحة يدي زهور الحزن
و على ظهر يدي أشم رائحة الوداع

لكن الشاعرة و إن كانت متشائمة ففي تشاؤمها شاعرية مثيرة و لذة نصية متقدة، لو أننا تمعنا ما تقول نلمح أنها تستنهض حماس المتلقي و القارئ الكردي و لكن من خلال استفزازه فهي تستفز حميته و غيرته على وطنه المفقود، بحث تؤمله في ذلك الوطن ثم تعصف بآماله بأن تذكره بما حدث في وطنه من جراح و آلام و تقتيل، لتضعه بذلك أمام تناقض بناءٍ يستحث فيه روح الوطن و يقذف عن مخيلته شعور اللاوطن.

تقول فينوس
« ذات صباح زرعت وطنا
طرح جرحا
زرعت مدينة
طرحت ألما
زرعت زقاقا
طرح نحيبا
زرعت بيتا
طرح نعشا
زرعت وردة
طرحت وطنا جريحا

مرة أخرى تعود الشاعرة لتستدعي التاريخ من أجل خدمة قضيتها و في هذه المرة تستدعي أسطورة نرسيس، و تحاول من خلالها أن تتحدث عن حادثة الأنفال، و تفجر تلك القضية أمام المتلقي و في ذلك تقول:-

« ردد معي نرسيس
آية من صراخ عربة مليئة بالأطفال

آية من دموع الصبايا ذوات الشعر الغجري
وسورة من الموت الجماعي
وسورة من دماء تفوح منها رائحة الربيع
مدفونة تحت تراب بلون الجحيم
قف بجانبي على سجادة أمي و لنصلي
١٨٢ ألف ر□عة و ر□عة
ولنردد ١٨٢ ألف مرة و مرة آية الأنفال
وابحث معي بين حروفها
إن ان الله أجاز موت أمي وهي تصلي له «
لقد انزعجت من قول المبدعة:-

ردد معي نرسيس
آية من صراخ عربة مليئة بالأطفال
آية من دموع الصبايا ذوات الشعر الغجري
وسورة من الموت الجماعي
وسورة من دماء تفوح منها رائحة الربيع

و حســبت أنها نالت من المعتقد الديني جراء شــعورها بالقهر من شــدة المصائــب التي خلفتها حادثــة الأنفال، لكنهــا ما لبثــت أن أعادتني إلى طريق الصواب حين قالت:-

وابحث معي بين حروفها
إن ان الله أجاز موت أمي وهي تصلي له «

لتشير بذلك إلى أن من فعل هذه الفعلة النكراء إنما خيل له شيطانه و سوء فهمه للمعتقد الديني و الآيات القرآنيــة أن يفتك بأناس أبرياء لا حول لهم و لا قوة.

و بناءً على ما سبق نستطيع القول بأن الشاعرة استطاعت من خلال تلك الأشعار و غيرها أن تخدم قضيتها و تصل بها إلى القارئ.

و لعــل قضية الأنفال مــن القضايا التي أولتها الشــاعرة اهتمامــاً عظيماً بحيث اســتثارت هذه القضيــة حفيظتها الشــعرية و الصحفية كذلك، فراحت تكتب عنها كصحفيــة مثلما كتبت عنها كشاعرة.

ثانياً: عرض القضية من خلال الصحافة

اتخذت قضية الأنفال مســاحة واسعة في فكر فينــوس الصحفي حتى أفردت لها أكثر من مقال، و جــاءت كلماتها في مقالها المعنون ب « إذا المؤنفلة ســئلت بأي ذنب أنفلت « أكثر ضراوة و تحمســاً لتلــك القضية، و لكــن لا أدري لمــاذا ربطت بين هذه الجريمة و بــين ما يفعله الأمريكان بالعراق اليوم؟!

إن قولها « لم يعلم العالم الخارجي بتلك الجرائم إلا عندما مضى عليها عشرات السنوات، بخلاف ما يحــدث الآن، حيــث إذا عطس طفــل في مكان ما في العالم تنقله أجهــزة التكنولوجيا المتطورة من خــلال التواصل الإنترنيتي و الفضائيات، و أتذكر نفس الشيء عندما أستلم في بريدي رسائل تضامن و اســتنكار و استهجان قرار أو أي شيء يحدث هنا و هناك، حتــى تلك الصور التــي يتناقلها الناس بالبريد الألكتروني عن نســاء عراقيات مسجونات في العراق و ممارســات الجنــود الأمريكان معهن و إســتنكارهم»، يجعلني أقــف في حيرة من أمري و أتساءل — إضافة إلى تساؤلي السابق:-

هــل كل مــا يحــدث — الآن — في العــراق من حــروب أو حتى ما حدث من دخــول تلك الدول إلى الأراضــي العراقيــة يعد مونتاجــاً؟ كما تقول الكاتبة: (و رغم أنني أعلم أن بإمكان التكنولوجيا و وســائل إعلام البريطانيين و حتــى الأمريكان

أنفسهم أن يمنتجوا كل شيء في سبيل زرع البلبلة بين أبناء الشعب الواحد و زرع الحقد و الكراهية و إستمرار عدم الإستقرار في المنطقة حتى ولو كان على حساب سمعة قواتها في المنطقة). و ماذا تعني حروب الشعب الأمريكي ضد سلطته بسبب العراق؟ و ماذا عن كل ضحايا العالم الذين ماتوا و سكت عنهم تماماً مثلما حدث مع الشعب الكردي الحبيب؟ إنني اعتقد أن الكاتبة قالت هذا الكلام مدفوعة بقسوة ما حدث للأكراد، أصحاب المجد القديم، الذي لا ينساه أي عربي مخلص، و هي معذورة بأنوثتها الرقراقة التي ما ان ترى الخطأ أمامها حتى تنهار و ربما تحيد عن جادة الطريق، ثم إننا نستنكر مع إخواننا الأكراد ما حدث لهم في حادثة الأنفال و نأسى لمثل هذا تماماً كما نأسى لما يحدث في العراق اليوم أو في أي بلد آخر.

لقد أصابني شيء من الأسى حينما قرأت للكاتبة مقالها الآخر عن الأنفال و الذي وضعته تحت عنوان مؤثر هو «وأأنفالااااه» بحيث إنني أعتقد أن الكاتبة أبدعت في هذا المقال و أشعر أنها اختطت كلماتها بزفراتها و أناتها، و كنت أود أن تصيغ هذه الكلمات في قصة قصيرة تجعل منها عملا أدبياً، تقول فينوس:- «كلما أردت الكتابة عن الأنفال إرتفعت درجة كآبتي، هل هناك من يتفهم هذه الحقيقة؟ كلما تذكرت حلبجة، تخيلت نفسي ضائعة و يطاردني أشباه بشر نصفهم وحوش و نصفهم الآخر مومياء، هل تفهمون هذا الكلام؟ لا أدري لماذا علي أن أبكي و أنا أكتب هذه السطور، لن أبالغ و أكتب أنني أكتبها بالدموع، فدموعي لا لون لها، و لأني لا أرى دموعي بغلاوة أرواح ضحايا و شهداء تلك الجرائم البشعة وشهدائها لأكتب بها هذه السطور، ثم من أكون أنا حتى أكتب لهؤلاء العظام بدموعي، لن أبالغ و أقول أنني أجهش بالبكاء حين كتابة هذه السطور، لكنني سأكون صادقة و أقول إن دموعي تتساقط بهدوء و كبرياء و ألم و حسرة، و الألم يعتصر قلبي، و الوجع يحفر موطن الراحة في صدري، و تضيق الغرفة و ينعدم الهواء و تذهب أنفاسي و أرفع رأسي إلى السماء و أقول ماذا كان ذنبنا لنموت هكذا جماعات جماعات؟ ماذا كان ذنبنا أن ندفن أحياء بين أنقاض قرانا و بقايا بيوتنا المحروقة.»

اعترف أنني لم أشعر ببشاعة هذه الجريمة إلا عندما قرأت هذه السطور، و لم أحن لمعرفة المزيد عنها إلا حينما تداخلت بين سطور الكاتبة و أحسست بها و بقضيتها، و لقد كان من الأحرى بالمبدعة أن تنسج هذه الجريمة في شكلٍ روائي أو قصصي، لعله يزيد من أهمية القضية و يجعل المتلقي قريباً منها.

بيد أن أسلوب الصحافة عند المبدعة يميل إلى الانتقاد الشديد بل و العصف بالمنتقد. و إذا كان غالبية العرب ينتقدون سياسة صدام حسين العنيفة الداعية إلى تدمير أي خطر كان يقترب من النظام العراقي، بشكل يدعو إلى الاستنكار، إلا أننا – نحن العرب – لا نقبل أن يهان رئيس دولة عربية إسلامية في يوم مجيد هو يوم « عيد الأضحى « و كأنه قدم قرباناً و أضحيةً، و كان من الأفضل تماماً أن يعدم في وقت لا يمس بالمعتقد الديني و يسيء إلى كل مشاعر المسلمين، نعترف جميعاً بأن « صدام حسين « قد أخطأ في حق

الأكــراد جميعاً و أنه يســتحق أن يقام عليه الحد و ينال عقابه جراء ما فعل، و لكننا نتســاءل لماذا في هذا اليوم بالذات؟ و إنني أســأل المبدعة نفسها و التــي قالــت:- « أكثر ما يحزننــي أن دكتاتور (عصره و أوانه) صدام حسين سيقف (شامخاً أبياً) (بجلالــة قدره) في قفص الاتهــام (معززا مكرما) ليحاكم بتهمة ارتكابه جريمة الأنفال، و ســيمنح (بضم الياء) الوقت الكافي ليتكلم و يدلي بأقواله، و يمنح وقتاً ليفكر و يعترض و يعارض و يستنكف و يرفع يده و صوته و قامته بكل حرية و أمان»، أوليس من حق أي إنســان في العالم — مهما كثرت جرائمه - أن يحاكم؟!

و على كلٍ فإنني لازلت أكرر أن أنوثة المبدعة دعتها إلى إطلاق العنان لفكرها و قلمها، للنيل ممن أصاب كل الشــعب الكردي بالحزن الشديد، و رمل الزوجات و يتم الأطفال و هلك الحرث و النسل، و هذا أمر طبيعي لا غرابة فيه، و لكننا لازلنا نؤكد على أن التدخل في قضايانا أمر مشــين، و ســوف يؤدي إلى الفرقة و يزيد من الصراعات بين العرب و كذلــك بين العرب و الأكــراد، فنحن نعلم تماماً أن صــدام نال من الأكراد، و لكن لا يجب أن يكون صدام ســبباً في الفرقة بين العرب و الأكراد، و أن يكون سبباً في إيجاد من يسوس لنا أمورنا و يحرك زمامها، و إذا كان صدام قد تســبب في هذا، فليس صــدام هو كل العرب، و ليســت جريمــة الأنفال ذريعة للتفريق بين العرب و الأكراد، بل علينا أن نقدر للأكراد تواجدهــم الفعال، و أن نعترف لهم بتاريخهــم الطويل المشــرف، و نعترف أنه لا فرق بين عربي أو كردي إلا بالعمل، و إن القائد «صلاح الديــن الأيوبي» الكردي الأصل هو خير دليل على أن الأكــراد قادوا العرب للنصر و التقدم، و لكن في وقت لم تظهر فيه قوميات أو مشاحنات لأنه كان وقتاً يعترف للعالم بعلمــه و المخترع باختراعه، و المتفوق بتفوقه دون النظر إلى قوميته، و أفعاله.

و علــى كلٍ فالكاتبــة و إن كانــت قد انحازت لقضيتها دون النظــر إلى الغير، إلا أنها كانت مثالاً رائعــاً للدعــوة إلى وحدة العــراق، و أعترف أنني رفعت لها القبعة حينما قرأت قولها:- «لقد ضحى الكورد كثــيراً و بعدها، قدم التنــازلات الكبيرة و عندما شــاركت هاتفياً في الرد على الســيد طالب الرماحي - للأســف - لم يسمح وقت البرنامج أن أكمــل كلامي، فقد أردت أن أقــول إن الكورد قدم التنــازل الأعظم عندما تخلى عــن حلمه بإقامة دولــة كوردية و قبل كرســي رئاســة الجمهورية في العــراق، و لا أقول هذا الــكلام و كأنه منة من الكورد، و إنما عندما أقدم الكورد على تلك الخطوة كان ذلــك من إيمانه العميق أنه مــازال هناك ما يمكننا أن نتعايش من أجله كإخوة في عراق واحد موحــد، و قدمنا الخيار الفيدرالي، ليقال لنا و في وجهنــا أننا خونة و ندعو إلى تقســيم العراق، في حين أن كلمة الفيدرالية تهدف إلى لم الشمل أكثر مما تمهد للتقســيم كما يتصور البعض، ولم يشر الدستور لا من بعيد و لا من قريب إلى حق تقرير المصير ولو لذر الرماد في العيون.»

إن ما قالته الكاتبة يجعل الشعب العراقي عرباً و أكراداً أمة واحدة لا يمكن المســاس بوحدتها، و من هنا اســتطاعت الكاتبــة أن تبرز قضيتها دون المساس بتلك الوحدة

وخلاصة القــول، فإن المبدعة اســتطاعت أن تضع بصمة قوية لإبداعها، واستطاعت أن توظف أشعارها لخدمة قضيتها، و من خلال غواية القضية الكردية لها و انجذابها الشديد لخدمة أبناء جلدتها من الأكراد، استطاعت أن تستدعي هذه القضية، و تضمنها أشــعارها و كتاباتها إلى الحد الذي أدى بها إلى أن جعلت هذه القضية ركيزة أساسية أفصحت من خلالها عــن موهبتها الشــعرية، و ألمعيتها في الكتابة الصحفية.

## المصادر و المراجع

١- أوراق كردية، مجلة انترنتية شــهرية تعنى بشؤون الثقافة الكردية، شــخصية العدد، الشاعر ملا أحمد بالو، إعداد:دلزار أمين.

٢- Arshak Safrastyan: Kurds and Kurdistan,The harvill Press LTD, -London ,١٩٤٨. P. ٢٢.

٣- الأكــراد والطموح....عباس عباس – ألمانيا

>. <٣٤٢.=http://lazgin.eu/gotar/View.php?NewsID

٤- معلومات مرســلة بالبريــد الإلكتروني من قبل الشاعرة نفسها بتاريخ ٢٤مايو لعام ٢٠٠٥ م.

٥- الصحافية فينوس فائق

<htm.http://www.alhurraa.com/sira/venus١ >

٦- خلــدون الشــمعة، تقنيــة القنــاع دلالات الحضــور و الغيــاب، مقال بمجلة فصــول، المجلد الســادس، العــدد الأول، الهيئــة المصريــة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧م ، من ص ٧٣- ص ٨٥.

٧- عبدالله محمد الغذامي، من «تأنيث القصيدة»، جريدة عراق الكلمة، العدد ٣٠، ٢-٢-٢٠٠٦م

٨- http://www.iraqalkalema.com/article. php?id=٥٢١

٩- محمــد عناني، المصطلحــات الأدبية الحديثة: دراسة و معجم إنجليزي – عربي، سلسلة أدبيات، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان القاهرة ١٩٩٧م.

١٠- عاطــف الجبالــي تقريــر حالــة: حالة الأكراد في سوريا، ٢٠ ابريل ٢٠٠٤

/٠٥reports /http://www.kefaya.org >

<٠٥٠٤٣٠agibali.htm

١١- كهــف هزار ميرد المرشــد إلى مواطن الآثار والحضارة ،الرحلة الرابعة ،بغداد-

http://www.kurdistandirectory.com/historic/<

>suly/locations/hizarmerd/hizarmerd.htm

١٢- أسطورة نرسيس، ٢٥-٥-٢٠٠٥

http://forum.qunaya.com/showthread. >

< ١٣٢=php?t

١٣- فينــوس فايــق، و إذا المؤنفلة ســئلت بأي ذنب أنفلت ٣١ مارس ٢٠٠٦م

<٦٩٦٥=http://www.doroob.com/?p >

١٤ - فينوس فايق، وأنفالاااااااه ٢٩ أغسطس ٢٠٠٦م

<١٠٥٨٩=http://www.doroob.com/?p>

١٥- فينــوس فايــق، الكورد و المرأة و أشــياء أخرى في الدستور العراقي ٨ أكتوبر ٢٠٠٥م

<٢٣٥٧=http://www.doroob.com/?p>

دكتور/ خالد محمد أبوالحسن حسن

مــدرس النقد الأدبي بكليــة الآداب – جامعة سوهاج - مصر



# سليم بركات... الولد الجزراوي
# القليل من السيرة.. والشعر

**طه خليل - قاميشلو**

للشاعر والروائي الكردي السوري سليم بركات، دور ريادي لم يسبق اليه احد في الكتابة باللغة العربية عن الاكراد السوريين، وأحوالهم وميثولوجياتهم وحياتهم حاضرا وماضيا، داخلا في شرايين مجتمعه وخصوصياته التي كانت تقترب من التابو في كثير من الاحيان، وبدأ سليم بركات بتوصيل بيئته الى الآخر، شريكه العربي الذي يجهله او يتجاهله، يقول بركات في هذا المعنى:

«لم أذهب في اتجاه الترجمة الى لغة أخرى، بل في اتجاه ترجمة روح الكردي الى عربية تخص شريكي العربي، الذي ينبغي ان يتعرف الي بعد اغتراب في صحوة قوميته التي ألزمني بتهجئة اعرابها، ذهبت في اتجاه شريك منعني عن اللغة الكردية فذهبت اليه، متسامحا، بلغته التي هي أقداري على تدبير حريتي في بلاغتها، وتدبير هويتي في نبلها العميق، مستغلا استغلال العاشق تواطؤها مع أعماقي على تدبير المعنى، الذي يستحقه كردي في الاشارة الى دجاجات أمه، وتبغ أبيه».

اذا لم تكن غاية سليم بركات من الكتابة باللغة العربية الذهاب باتجاه الترجمة، الا لترجمة روحه، عندما صعبت عليه اللغة الكردية في نقل تلك الروح، فوجد في اللغة العربية نبلا وعونا، فكتب بها وعشقها، وصار يتخذها هوية له أينما حل، وكثيرا ما ردد في حواراته ومقالاته: «اللغة هي

هويتي» ومن هنا كان اهتمامه الشـديد بهذه اللغة، وتعمقـه في دلالاتها وانزياحاتها وامكانياتها الكبيرة، وراح يستخدم اللغة العربية الجذر، اللغة التي سلمت نفسها له راضية مرضية، فراح يتفنن في عشقها.

وقبل ان نسترسل في علاقة سليم بركات باللغة العربيـة وبما حولـه من حيـوات، وموضوعات وتأثـيرات، لا بد لي من المرور على سـليم بركات الانسان، من هو سليم بركات؟

من قريـة «موسيسـانا» التـي لا تبعد عن القامشلي مسافة العشرين كيلو مترا، جاء اهل سليم بركات، الذي ولد عام ١٩٥١ ليسـتقروا بعد ذلك في القامشـلي، ويبدأ ابوه الرجل الديني الفقيه (ملا بركات) بالعمل في تجـارة الحبوب، كمعظم اهالي البلـدة المتناثرة شـمالا في ذلك الوقـت، وليعيش سـليم بركات طفولته كلها في القامشلي ويتعلم في مدارسـها وثانوياتها، كانت هذه الحقبة بالنسـبة للطفل سليم بركات الخزان الذي تجمعت فيه كل مآسي بيئته، حبها وكرهها لينها وقساوتها سلمها و عنفها، وكان ذلك قاسيا على طفل، ليعيش منذ اليـوم طفلا بلا طفولة ويراقب كل ما يحدث من حوله ويختزنه لأزمنة قادمة، وسنوات لم تتأخر كثـيرا، فقد أصدر في بـيروت كتابين عن طفولته وصباه هما الجندب الحديدي، وهاته عاليا (سـيرة الصبا) في كتابـه الاول الجندب الحديدي يوضح سليم بركات كيف نشأ وكيف عاش القهر، كطفل كردي بشكل خاص، في بلدته، المحكومة بالغموض والانقسـامات والعنف، أنـاس يعاقبون ان تحدثوا في شـؤون دجاجاتهـم ومعزهم بلغتهـم، تلامذة مـدارس يضربون بالعصي ويطردون من المدارس ان هم تكلموا بلغتهم، اثناء الاستراحات، كان كل ما حوله يعاقبه، يعاقبه لطفولته، لمنبته، لتنفسـه، للعبه، وحبه، يقول سليم بركات:

«كنـا صبية آنئـذ، يخرج بنـا المعلمون على هواهـم، في التظاهرات الوطنيـة، ولم يبق واحد منهـم لم نهتف بشـعار حزبه، وكانـوا يختلفون فيما بينهم، فيقود فريق منهم بعض التلامذة في شـارع اول، وفريق عبر شارع ثان وثالث، ورابع... بيد اننا جمعنا شعارات الفرقاء جميعا كما نجمع الطوابع، متسـللين من شارع الى شارع هاتفين في كل منها كما يهتفون».

ضمـن هذا الجو المفعـم بالقلق والتوتر، عاش سليم بركات اللاطفولة كما يسميها، نزرع في نفسه من يومها كما يبدو روح القلق والتحفز والصخب، والمواجهة، وكل ما حوله كان يوجهه باتجاه العنف ودائرتـه، حتى كانت سـنوات الصبـا، التي كتب عنها بـركات هي الاخرى كتابه (هاته عاليا، هات النفير على آخره) كانت سـنوات الصبا أكثر قسوة عليه، بعد ان تفتحت بعض مداركه وراح يتلمس الظواهـر من حوله، وعرف ان الامور ليسـت كما يتصورها طفل صغير وان الحدود المرسومة بسكة قطار وبعض الاسلاك الشائكة بين بلدته قامشلي وبلدة نصيبين في الجانب التركي، هي حدود دول، وليس من حقه ان ينصب الفخاخ للقطا والعصافير التي تكثر ايام الشـتاء حول تلك الاسـلاك، تبدأ روح التمرد تكبر فيه، وتعلو، ويحمل سليم بركات راية الرفض ليوجه الصبية، ويرسـم لهم ذهنية جديدة، فقد كتب سـليم بركات في مقدمة كتابه هاته عاليا، ما يأتي:

«لديك بيت» رمو «ولبغل» زيري «ندبج كلمة الانشاء، وللآدمي خطاب اللهاث، كل وسحره،فلا تصغوا الى أحد ايها الصبية، سيقولون لكم كم احبوا، وكم كدحوا، وكم سدوا مهب اقدارهم بالجسارارت،سيمتحنونكم بما لم يمتحنوا انفسهم به، وسيرفعونكم قليلا قليلا كالقطط الى صدورهم، متمتمين: «تصبحون على خير ايها الطيعون».

لا تصغوا الى أحد، لا تناموا. ارفعوا الغطاء في نزق وانزلوا عن اسرتكم هاربين من الباب. لا تقلقوا حين تصبحون خارجا، فالظلام لا يخيف، بل يخيف النهار. لا تقلقوا فانا جاهز لأدلكم على المخبأ، حيث لا عمارات، ولا مداراس ولا وقت الا لكم والمكان مشاع تحوكون فيه الاحابيل للأرواح، وتقهقهون حتى تتشظى الارض.

سآخذكم الى العراء، سآخذكم الى الفحيح الغامض السكون، حيث المرتع البهي لأقدارنا التي لا ترتطم بسور البلدية، اوبالأشجار المنمقة في حديقة القائمقام. سيختبئ بعضنا من بعض تناوبا، وسنضرم الحرائق الصغيرة حول القنافذ. سنقلد بنات آوى، زاحفين على الحقول نقضم الخضار مثلها. وسننام، اذا تعبنا، في الاوكار والشقوق.

سآخذكم الى المستنقعات، سنتعرى وندخل المياه لنجمع العناكب الطافية وبيوض الافاعي. سيقذف بعضنا بعضا بجذورالاشنة ويرقات الضفادع. واذ نجوع سنأكل الحرشوف، والحميض وبصيلات «البيفونك» وسآخذكم الى الحهة التي لا يراها الانا، جهة الساحري، جهة التنكرات الكبيرة، حيث لا ترتدي الفصول قناع الآدمي، وتخرج الغيوم والأرانب من اوكار واحدة.

لست اغويكم، لا. انظروا الى مروضيكم، يتناوبون على جعل مسافاتكم أكثر هندسية، مرتدين امامكم قبعة الحكيم، واذ تنصرفون ينكب كل على احابيله، العتالون، والمزارعون،والشاحنات والحكومة، ومدن الملاهي، والمقامرون، والزوجات، والديكة والقطط الشاردة والغيوم والله كل ينكب على احابيله، فلا تناموا. لتبق عيونكم على اهلكم، فان ناموا اتبعوني.

سنخطط لاصلاحات كبيرة بين الاعشاب، سنخطط لأن تتجنب عربات المرور من هذا الدرب او من ذاك،سنخطط لانقلابات تحيل البغل الهادئ الى نمر: ضعوا في مؤخرته بعض النشادر وسترون. سنخطط لاطفاء حرائق نشعلها نحن، وسندلق المحابر على ثيابنا التي نكرهها ليشتري آباؤنا غيرها،سنضرب بأحذيتنا الحجارة بدل الكرات لتتفاق، وسنخطف طاسات الشحاذين امام ابواب المساجد لنجمع مصروفنا.

لست أغويكم. المكان يغوي لتكونوا لائقين به، فاشعلوا حروبكم قبل ان يشعل الآخرون حروبهم واتبعوني»

في أواخر الثمانينات، طلب مني صديقي كتاب بركات «هاته عاليا» وبعد ايام أعاد لي الكتاب، وهو مكتئب، وخرج، وجدت انه قد كتب تعليقا بخط يده وبقلم الرصاص، في آخر الكلمات السابقة ومباشرة بعد كلمة «اتبعوني»: «أعاهدك يا سليم انني سأتبعك... اتبعك.. سأغادر هذه المدينة الصغيرة... فامشلي، ولكن قبل ذلك سأشعل هذا الشمال.. أقسم لك».

عرفت لا حقا ان هذا الصديق التحق بصفوف المحاربين في حزب العمال الكردستاني في جبال

كردســتان، وظل هناك أكثر من عشــر ســنوات يقاتل، وقبل مدة ســمعت انه استشــهد في احدى المعارك مع الجيش التركي.

لا شك ان الحقبة التي عاشها سليم بركات كانت حقبة اضطرابات وقلاقل وانقلابات سياسية كانت تؤثر في عموم البلد من جنوبه حتى شماله، ونظرا لوضع الجزيرة وتناقضاتها كانت الامور تبدو في اعلى مراتب العنف الاحتماعي والسياسي، قهر وتسلط، ثم وحدة مع مصر وزيــارة الرئيس جمال عبدالناصر الى بلدة قامشلي في الخمسينات ايام الوحدة ومن ثم الصخب الــذي رافق تلك الزيارة، والاثر المدوي التي تركتها الزيارة في نفوس شــرائح واسعة من الناس، حيث افترق الشــركاء وتآلف الخصوم، وتفرقوا، كان صراعــا مدويا، يدفع ثمنه الفقراء وأولادهم ، وبعد ذلك الانفصــال،و تلــك المرحلة التي شــكلت وعي بركات السياسي الفطري حقنته بجرعات من العنف الحياتــي والمهني لن يفارقه حتــى في قصائد الحب (هل لدى بركات قصائد حب؟)

ثــم يأتي الانفصال وتختلــط الامور في اذهان الناس، وتفور المدينة لتســتقر بعــد ذلك، ويبدأ العنف المبرمج، العنف الذي راح يهندســه حزبيو الحكومــة الجديــدة، وحزبهــا الذي راح يمســك بمقاليــد الدولــة والبشــر والطيــور والتلاميذ ومدينة الملاهي التي خربها الهياج ذات يوم، ويأتي معلمون حزبيون من مناطق بعيدة، ليعلموا الكرد في القامشــلي ويفهموهم ان الكل امة واحدة ولهم رسالة خالدة، وان كل الناس متشابهون، وعليهم ان يتحدثوا باللغة العربية فحسب، ويستشري العنف الخفي من جديد، كان ذلك في أواخر الخمســينات من هذا القرن:

«معلــم الرياضة الحزبي الــذي يعد في المرتبة العاشــرة تصنيفا بين المعلمــين، لكنه كان ـ بحكم حزبيته ـ اله الآلهة، يعنف المدير ويضرب المعلمين ان اقتضى الامر، مختالا بسلطة تقاريره التي يرفعها عن المشبوهين الى مكتب حزبه ـ الحزب الاوحد في عراء لا عراء بعده، ويشتم امهات التلاميذ، وآباءهم وآباء ابائهم، وارضهم وسماءهم، يشتم كيفما اتفق، في مدرسة كان همها ان تقول لنا: «لا تشتموا» وكان يراقبنــا في الصباحات الباكــرة حين نقف صفوفا مرددين أناشيد الكرامة والفخر الوطني، ناعسين، شــعث الشــعور، وحول اعيننا من القذى ما ينفر حكومة بكاملها، وينفر الجيش والشرطة وموظفي الدولة. وعلينا مظاهر اللاتناسق تجعلهم، جميعا، يحزمون سلطتهم ذهابا الى شعب آخر.

هكذا نحــن ايتها الدولة، هكــذا نحن يا معلم الرياضة الحزبي. لكن المعلم لم يكن يغفر لنا هذا «الا يملــك آباؤكم ثمن احذية يا أولاد العاهرات؟ الا تملــك امهاتكــم الخيطــان؟» يقــول ذلك في استعراضه الصباحي برفقة المدير الذي ينكمش في ثيابه خجلا من ســلطته المفقودة، الى درجة لا نلمــح معها مديرا، بل ثياب على مشــجب منحن، تتنفس وحدها، وتتحرك بفعل هواء خفي».

وبعد ان تغلق المدارس أبوابها، كان الصبي سليم بــركات، يعمل أجيرا في مكتب، عند أحد أصدقاء والده، لكنه لم يتحمل العمل كأجير، وحدث ان ابن صاحب المكتب وهو طفل بعمر سليم بركات، طلب منه ان ينحني ليركــب على ظهره، وعندما طلب الأب من الصبي ســليم ليحقــق رغبة ابنه المدلل،

ما كان من سـليم النزق الا ان رفس ابن «المعلم» رفسـة، اوقعته أرضا، وكانـت النتيجة طرده من العمـل، وحرمانه من المجـيء الى البيت عدة ايام (هذا ما يرويه سليم في سيرته).

بعد ذلك وفي سنين مراهقته راح يعاون والده، تاجر الحبوب في حراسـة اكياس القمح وتسجيل بعض الحسـابات في دفتر يخص والـده، الا انه لم يتمكن من الاستمرار في ذلك كذلك لما كان يلاقيه من معاملة قاسية من الزبائن الذين كانوا يكثرون عليـه بالطلبات: هات لنا شـايا، خذ ذلك الابريق واحضر لفلان ماء ليتوضـأ.. الخ.. فما كان منه الا ان هرب ذات يوم الى البيت تاركا العمل، وهاجما على قن في الحـوش كان أهله يربون فيه الارانب، فارتكب مجزرة بحق الارانب، كانت حصيلتها أكثر مـن نصف الارانب الموجودة هنـاك، وبذلك وجد فرصـة أخرى ليغادر المنـزل هاربا، ويتخلص من العقاب على ترك العمل، ولم يعد الى البيت الا بعد تدخل الأقرباء عند والده.

هكذا انهى سـليم بركات سني طفولته وصباه في القامشلي، مليئا بالاحداث والصور،ولكنه كان في الوقت نفسه يجد الوقت اللازم ليقرأ ما يتيسر له من قراءات صوفية ودينية في مكتبة ابيه المنزلية، فقد كان والده رجل دين كما اسـلفت، ونهل سليم بـركات من امهات الكتب التراثيـة، وتأثر بلغتها، واسـاليبها وهو لا يزال في سـنوات المراهقة، ولعل الجاحـظ كان من الذين اسـرو سـليما، بكتابيه الحيوان والبيان والتبيين (كما يستشف من اسلوب بـركات في البناء اللغـوي) وهكذا انهى دراسـته الثانوية في عام ١٩٧٠ ليسجل في جامعة دمشق قسم اللغة العربية وآدابها.

في تلـك الفـترة كان سـليم قد بـدأ بالكتابة وراح يفكـر في النشـر، ولكن قبل ذلـك لا بد لي مـن القاء نظرة على الاجواء الثقافية في دمشـق، اذ كانت الحركة الشعرية السورية في اوج تطورها وتحديثها، وكانت هناك بعض الصفحات الثقافية المهمة التي كانت تهتم بهذا الجانب، كمجلة الطليعة الاسـبوعية وملحق الثورة الثقـافي ومجلة الملحق الادبي التي كان اتحاد الكتاب العرب يصدرها، كان هناك جيلان من الكتاب والشـعراء جيل مكرس، له تجربته واسمه في الكتابة امثال : على الجندي، وممدوح عدوان، ومحمود السـيد بالاضافة طبعا لاسم الشـاعر محمد الماغوط الذي كان قد اصدر ديوانـه الجديد «الفرح ليس مهنتي» كان بمثابة درس لقصيدة النثر.

جـاء بعد هـؤلاء جيل جديـد راح يبحث له عن موطـئ قلم، بعيدا عن المؤسسـات الحكومية والتيارات الحزبية، وكانوا شبابا من الشعراء الذين وفد اغلبهم الى دمشـق من خارجها مثل: ممدوح عدوان، ومحمـد منذر مصري، وعـادل محمود، ونزيـه ابو عفـش وبندرعبدالحميـد وابراهيم الجرادي، كانت الامور واضحـة، والحالة الثقافية تسـير على ظهر سلحفاة والكل قانع راض على ما هو عليه، كان اصحاب التفعيلة يحترم جيل النثر الجديد ويشجعه وكان جيل النثر يكن احتراما لمن سـبقه، هنا ظهر سليم بركات، الجزراوي العنيف، العنيف لغة وسـلوكا ـ كان نزقا غضوبا لا يتحمل المزاح ولا المجاملات، لم يترك شـاعرا الا وتشاجر معـه، وكان كثيرا ما يسـتخدم يديه وعضلاته في

اسكات الآخرين، ليس هذا فحسب بل انه كان يخفي في جيب بنطاله على الدوام موسى كباس، كان لا يتوانى عن استخدامها ان تطلب الامر ـ نشر اولى قصائده في ملحق الطليعة الثقافي، وكان حينئذ طالبا في السنة الاولى في جامعة دمشق وكانت قصيدة التفعيلة هي التي تسود الساحة بشكل عام، ولكنّ شعراءها كانوا لا يحاربون أشكال الكتابة الشعرية الأخرى لا سيما قصيدة النثر التي كانت بدأت للتو تجد لها مكانا الى جانب الاشكال الكتابية الاخرى، وكان هناك مجموعة من الكتاب المكرسين الذين يدعمون هذا التوجه عند الشباب ويشجعونهم، وهكذا وجد الشباب في ذلك الوقت فسحة للنشر في صفحات ذلك الوقت، مثل مجلة (الطليعة) وملحق (الثورة) الأدبي، وشهرية (الموقف الأدبي) الصادرة عن اتحاد الكتّاب. «آنذاك، اخترق سليم بركات هذا السطح الراكد، الرتيب، المتوافق علي تعايش سلمي بين الأجيال والأشكال والموضوعات» وذلك حين نشر اولى قصائده (نقابة الأنساب) في مجلة الطليعة، حيث أحدثت ارتجاجا قويا في الساحة الثقافية الهادئة، وبدأ الكل يسأل عن هذا الاسم الجديد، حتى ان ممدوح عدوان استغرب الضجة التي اثير حول بركات وكتب مقالة استنكارية بعنوان: «من هو هذا الولد الجزراوي ومع ان الجميع قد انصت اليه، وتفاجأ بما يكتب هذا الفتى القادم من الشمال ويوقع قصائده باسم «سليم الجزيري» الا انهم لم يقتنعوا تماما بسليم الموضوع ، سليم الذي طرح ما عاشه وميثولوجياته وغرائبياته في دمشق، وكانت تلك الامور نوعا من المواجهة الصريحة والواضحة لسليم مع ما حوله، من توجهات ومواقف سياسية وثقافية لم يقتنع بها وتمرد عليها وازداد نزقه وتبرمه بما حوله، وبما لقيه من خيبة، على الرغم من انه سليم بركات لم يقل شعرا مسيسا، وان بدا ذلك من خلال الذهنية الجديدة التي أحضرها معه من بيئته، دون ان يفكر بأنه يطرح الموضوع من زاويته السياسية. فمن قصيدته الاولى التي نشرها عام١٩٧٠ بعنوان «نقابة الانساب» نقرأ:

«هذا وجهي العصري

أنا آت

بلا نعل أرحل نحو بلاد الفرس وامصار الروم وارفع وجهي للظلمات أسائلها، اسائل رجليّ الداميتين عن الارض العمياء وهمس خفافيش سمائي

تصهل أفراس الحرب على ابواب الكعبةيا أهل الشام ووحدي ابسط للملتجئين الى ظل الاحجار السوداء ردائي»

وبعد هذه القصيدة احس الشاعر بردة فعل الآخرين عليه، فكتب بعدها قصيدته الثانية «قنصل الاطفال» وكأنه يفسر للجميع ما يمثله سليم بركات الشاعر في دمشق، انه ببساطة القنصل الفخري لأطفال الكرد ضحايا العنف الاجتماعي والطبقي والسياسي، يقول في بعض مقاطع قصيدته الموجهة اساسا للشاعر ممدوح عدوان:

الجزراوي

جدي الماء

ابي

امي

أرضان تكسر بينهما النبذ وكسرني الماء

...............

لافتة الى ممدوح عدوان:

عالمي واسع

عالمي كرة تتدحرج بين الظنون

عالمي بينكم

فانكروما أرى

وانكروا راية أعشبت في يميني»

ويبدو ان الشاعر لم يستطع التكيف مع الاجواء التي تقبلته شعريا ولم تتقبله انسانيا (او بالأحرى كرديا) وبدأ يشعر ان قصيدته هي الاخرى يضيق بها المكان فخرج من دمشق الى بيروت ليستقر هناك وقد ترك خلفه مجموعة من الاصدقاء والاعداء في الوسط الثقافي، ومن هؤلاء الاصدقاء ممدوح عدوان، وابراهيم الجرادي، وآخرين كثيرين، ولكن القلق الذي لازم روحه واستأصل فيه جعله لم يستقر في مكان محدد، وسيظل متنقلا، حاملا حقيبته من بلد الى آخر:

«ظننتُ العاصمة قصيدتي الضائعة. ركبت الباص من القامشلي الى دمشق و أنا في التاسعة عشرة، سنة ١٩٧٠. عام واحد، لا غير، أدركت بعده أن القصيدة ليست هناك. ركبت سيارة أجرة الى بيروت سنة ١٩٧١، وفي جيبي إحدى وثلاثون ليرة سورية. تهدمت المدينة.تهدمت قصيدتي. تهدم المكان الشفيف و الكثيف معاً. خرجت على متن باخرة من بيروت الى لارنكا سنة ١٩٨٢، ومن لارنكا، في اليوم ذاته، الى صحراء البربر في الجزائر، على متن طائرة عسكرية بلا مقاعد. تهتُ خمسة عشر يوماً في ظلال سور مقفل، لأعود على متن طائرة ياسر عرفات الى تونس. بعد شهرين عدت أدراجي، بأوراق مزورة الى قبرص لأدخلها من البوابة الدبلوماسية شريكاً لشعب يبحث مثلي عن قصيدته. في الطريق أضعت حقيبتي التي حوت ممتلكات أعماقي المنقولة وغير المنقولة، وبضمنها مجموعة شعرية عن الحيوان لم ينج منها إلا أربعون سطراً. في السنة الثانية عشرة من إقامتي في نيقوسيا عدت الى بحر التيه بلا عمل. انتظرت معجزة فلم تحدث المعجزة. كنت منسياً من أخمص قدمي حتى قمة الجبل الذي يشرف من بيدر الله على ألمي. شجرات البيت وحدها كانت تدون الوجود المتقوض: أي قلب للسماء أن ينام المرء كل ليلة بقلب مكسور؟»

في بيروت التي كانت آنذاك عاصمة للثقافة وللفكر الليبرالي ومنتجعا ومشغلا لذوي الاحلام من الكتاب والشعراء الذين ضاقت بهم بلادهم العربية، وجد سليم بركات قصيدته التي راح يبحث عنها، ووجد المتسع ليكتب عما عاش ورأى في حياته المصادرة، فكان ان نشر هناك قصائده التي تحمل همومه، ودهشته الكريهة التي لم يستسغها شعراء دمشق ومثقفوها اذ ان احواء الشعراء (لاسيما القابضين على الاقسام الثقافية في الصحف) وميولهم كانت تتأرجح بين القومية العربية التي لا تعترف بغيرها، وبين ماركسية وشيوعية كان قد فصلها خالد بكداش الشيوعي السوري الذي كان يرى الاكراد جزءا من «الامبريالية والصهيونية» ربما لحرج كان يشعر به حتى يوم مماته من انه ينتمي للأكراد، ليموت بكداش غير مأسوف عليه وقد تنصل من كل القيم الكردية.

لم يغادر سليم بركات الا بعد ان استطاع ان يحفر صدعا في تفكير الكثيرين من الكتاب والشعراء السوريين الذين بدأوا بالتعرف الى حالة جديدة في بلادهم، وترك أثرا واضحا في ذهن الكثير من الشعراء الشباب في تلك المرحلة فقد رمى ذلك «الولد الجزراوي» حجرا في بركة ساكنة، لم تتوقف ارتداداتها الثقافية والسياسية حتى هذا اليوم.

وبعد ان راح ينشر في الصحافة اللبنانية، استطاع في حقبة قياسية قصيرة ان يصبح اسما، في خارطة الشعر العربي، كشاعر كردي سوري، وهناك توطدت العلاقة الشخصية والصداقة بينه وبين محمود درويش، واحتفت به بيروت وكتابها، ولم يهمل شأنه الشاعر أدونيس اذ أحب فيه روح الشاعر المتمرّد، الباحث عن حرّيتة الشخصية أولا و قصيدته الغرائبية ثانيا، وهكذا وجد الهامش الحرّ الذي أتاح له نشر قصائده ذات الروح المتمردة.

في بيروت كانت قصيدة سليم بركات «دينوكا بريفا تعالي الى طعنة هادئة» قد نشرها في في مجلة (مواقف) قد أحدثت صدمة في الساحة القافية اللبنانية، وكانت القصيدة مفاجئة بلغتها وعنفها وخروجها عن المألوف التي كانت تسير عليه القصيدة العربية الحداثية هناك ايضا، فما كان من ادونيس رئيس تحرير مجلة مواقف في ذلك الوقت الا ان يتبنى المشروع الصاخب والجارح لسليم بركات، ويحتضنه ويدعمه، اذ وجد فيه صوتا ليس جديدا فحسب بل بل هوغرائبي وحداثي وانشقاقي و متمرد على الخطط المعروفة في بنية القصيدة العربية، وقصيدة دينوكا بريفا هي مزيج من الفانتازيا والواقع، بحيث يتداخل المزيجان فلم تعد تعرف الفصل بينهما، انها الحالة الكردية التي عاشها ورآها بركات، لا سيما بعد المجازر التي ارتكبها الاتراك بحق الكرد، ونزوح الكثيرين منهم الى مناطق الجنوب (جنوب سكة القطار) الذي يرسم الحدود بين الدولتين السورية والتركية، والقصيدة تعج بحيوات ورموز جديدة لم تألفها القصيدة العربية الحديثة وقتذاك، هناك خلخلة للذهنية الشعرية السائدة، اذ تمتزج مصائر البشر بمصائر الحيوان من بنات آوى وثعالب وذئاب وكلاب سلوقية، وراح بركات يتناول المكان ليس من منطقه الجغرافي فحسب بل انه ادخل المكان وساكنيه الى مشرحة القصيدة، فلم يترك بشرا الا وروى لهم وعنهم حكاياتهم من أكراد وارمن وعرب وآشوريين وكذلك النبات الذي راح يلعب منذ ذلك الحين دورا اساسيا في كتابات بركات النثرية منها والشعرية بالاضافة للطير واجناسه:

دينوكا بريفا تعالي الى طعنة هادئة

عندمت تنحدر قطعان الذئاب من الشمال وهي تجر مؤخراتها فوق الثلج وتعوي فتشتعل الحظائر المقفلة وحناجر الكلاب، اسمع حشرجة دينوكا «شهادة»

دينوكا

ماذا أقول للصيادين الذين يضعون سروجا فوق ظهور الكلاب السلوقية في سفح سنجار وجبال عبدالعزيز؟ انت مختبئة في مكان ما، ربما في زريبة، تشمين التراب ومزاود النعاج، كبيرة انت، بليلة، مسكونة بالحصاد وبي.

اسمع والدك يصيح: دينوكا.. اسمع والدتك

تصيح: «دينوكا، احملي خبز
الشعير هذا إلى المهاجرين وقولي ان يستريحوا قليلا».
كان عددهم يزداد يوما بعد يوم.. من طشقند وخوزستان وارمينيا والجنوب
الغربي لروسيا حملوا أشرعتهم وصرر السرخس الى الجزيرة بلا أحذية أو مناجل.
وكنت صغيرة لم تدركي انهم يحتاجون الى الماء والى مرأة مجنونة او ارملة
يدفنونها بعيدا في شقوق البراري لتنبت في سني الهجرات عدسا وجنادب. انت
تجهلين كيف يمتلئ الأخدود بين «عامودا» و «موسيسانا» بجثث البغال والاعضاء
المتبورة. تجهلين من اين يحصل البدو على بنادق فرنسية. ولماذا ينتفخون على تخوم
القرى حين يهجمون عاصبين رؤوسهم بعباءاتهم.
قيل: خرجت من جهة العراء، وخرجت «بريفا»من جهة العراء، ومن جهة العراء
خرج الله ,وجاءت الدهشة والطلقات الفارغة التي جلبها الصبية من براميل قمامة
السراي. وقيل انك عدت بقطيع من النعاج المبتهجات وكبش واحد يخر كالمحارب
في كل موضع مبلل بالبول.
دينوكا.. دينوكا..
انا متعب، ولا اسمع صوتك حيث ارى هضاب «معيريكا» وعربات الاكراد
المحملة بالقش.
.............................

قلت غدا امضي لغد يتراجع أو ينعطف
في زاوية قبل حدود الإنسان
سمعت الانسان يرتق حاضره ويموت فهرولت الى السنبلة
لتبلغ دينوكا اني قادم
ومعي بعض الاعذار على ورق خشية ان اتلعثم حين الاقيها,
ومعي هاويتي.

في بيروت بدأت مسيرة سليم بركات الادبية تتضح وتستقر، ومن هناك صار همه الشغل على قصيدته التي صارت تؤرخ لتاريخ شعب مرمي في الشمال، ينتظر اقداره التي يرسمها له الآخرون دائما، ولم يكن سليم بركات بعيدا عن المكان الاول الذي عاشه، كان مطلعا على دقائقه وتفاصيله، وهذا جعل المادة الكتابية لديه تسير وفق المنظور الذي اختاره بركات منذ انطلاقته في دمشق.

حارب في بيروت مع الفلسطينيين، وعاش ايام الحصار لبيروت في الاقبية، والغرف المظلمة جنبا الى جنب مع صديقه محمود درويش، الذي كتب عن ايام حصار بيروت كتابا آسرا بعنوان «ذاكرة للنسيان» يتحدث فيه درويش مطولا عن صديقه سليم «ديك الحي الفصيح» هكذا يسميه في الكتاب،ويورد الكثير من الامثلة والوقائع التي عاشاها معا، يقول ان سليم بركات كان مولعا بتناول لحم المعلبات، وأثناء الحصار، وحين كانوا مختبئين في قبو مظلم لأيام عديدة، نفد طعامهم، هنا أصر ان يخرج بركات الى الشارع ويجلب الاكل، والاحرى، ليجلب المعلبات، ومع ان الجميع عارض خروجه، فقد كان القصف على اشده والنار في كل

مكان، خرج بركات وهو يتمنطق مسدسا حربيا ويحمل بيده مسدسا آخر، ولا يرتدي الاالفانيلة الداخلية، وبعد ساعة او أكثر من القلق والتوتر عاد سليم بركات وهو يقهقه حاملا كيسا مليئا بمعلبات اللحم.

كان بركات ولا يزال في شعره عنيفا، صارخا في كل اتجاه كما في حياته، وفيه من الرفض والمواجهة تماما كما في كتاباته، ولعل هذا كان العائق في طريق الاستمرار في علاقاته الشخصية، اللهم علاقاته المتينة وصداقته الطويلة التي بقيت مع صديقه الاقرب الشاعر محمود درويش، اللذان بعد ان باعدت بينهما الجغرافيا راحا يتواصلان شعرا، كل يكتب عن الآخر بحميمية واضحة، فبعد ان كتب سليم بركات قصيدة حميمة لصديقه درويش كنب الآخر ايضا له ما يقابلها، بعنوان «ليس للكردي الا الريح» في ديوانه (لا تعتذر عما فعلت) يقول فيها:

«يتذكر الكردي، حين أزوره، غده..
فيبعده بمكنسة الغبار: اليك عني!
فالجبال هي الجبال. ويشرب الفودكا
لكي يبقي الخيال على الحياد: أنا
المسافر في مجازي، والكراكي الشقية
اخوتي الحمقى. وينفض عن هويته
الظلال: هويتي لغتي. انا.. وانا.
أنا لغتي. انا المنفي في لغتي
وقلبى جمرة الكردي فوق جباله الزرقاء...
........
باللغة انتصرت على الهوية،
قلت للكردي باللغة انتقمت
من الغياب
فقال: لن أمضي الى الصحراء
قلت: ولا أنا..»

ولعل روحه النزقة والمتوترة على الدوام كانت وراء فشل العديد من علاقاته النسائية، حتى سقط فيما بعد بضربة حب قاضية، من قبل زوجته الحالية «سنثيا» او سندي اليونانية من طرف الام وفلسطينية من جهة الاب، والتي تعرف عليها في قبرص عندما كان مديرا لتحرير مجلة الكرمل، وكانت تعمل هي في التنضيد، فقد أحبها بطريقة مفاجئة وانجبا معا طفلا اسمياه «ران»، قبل ان يغادر الى السويد ليعيش هناك حتى هذا اليوم، هو وزوجته وطفله، منتظرا قوانين الاقامة الاوربية، مرتديا في البرد و الحر فانيلة داخلية او قميصا بلا اكمام، يتدرب على الحديد ورفع الاثقال، ويملأ جدران بيته بالسكاكين، ولا يكتب الا في المطبخ، المطبخ الذي يكاد لا يغادره، فهو ماهر في الطبخ واعداد اللحوم، كما يعد الشعر والرواية.

في رسالة أرسلها لي ذات مرة كتب قائلا: «لو قدر لي ان أعود ذات يوم الى القامشلي فسأقضي حياتي في الصيد، بفخاخ او دونها، مقرفصا في حقل حتى الموت».

الحياة الصاخبة التي عاشها سليم بركات شعرا وحياة، لم يكتف بها، بل فاجأ الجميع بعد خروجه من بيروت بأصدار رواياته تباعا، حيث بدأ برواية فقهاء الظلام، ليرسم ملامح ذهنية، بدأت بوادر حداثتها تتأسس على وقع رواياته وكتبه وقصائده التي راح الناس يحصلون عليها كما لو انهم يبحثون عن مؤنة السنوات.



# حرب الفراشات

**قوباد جلي زاده**
**ترجمة: آزاد برزنجي**

آه.. كم كان خفيف الظل
وطني كان دمية خفيفة الظل
كم كان بريئا.. آه
قومي كانوا مثل ظبي بريء
صَلِعَ رأس وطني باكراً
أكان ذنبنا أم ذنب الأعداء؟
أدردت أسنان قومي باكراً
أكان ذنب الأعداء أم ذنبنا؟
خسرته..
خسرتُ حبّ وطني
خسرته..
خسرت حبّ شعبي
من مسخ وجه وطني في عيون قومي؟
من مسخ قومي في قلب وطني؟
مــن هناك عرض شــقائق النعمــان وأذوى حياء الفراشات؟
من أنزل العروس من على السرج وأرسل الأحصنة البيض إلى الجحيم؟
من نهب الشمس ودفأ بها رُكَبَ الشيطان الخَدِرَة؟
من أغوى الأطفــال العميان بصافرة فطردهم من مدن الألعاب
إلى حقول الألغام؟
أيا وطناَ بلا وطن
لم يكونوا هكذا..
حين كنا نود الاعتصام.. كنا نستأذن الشوارع
لم تكن هكذا..

لم يكن فيها :»مەرگەوەر»[1]
حين كنا نتوق للاستشهاد.. كنا نستأذن الضحايا
لم تكن الحدائق هكذا
لم يكن للحدائق حراس.. أو اسيجة.. أو أسلاك شائكة
حين كنا نرغب في استرواح الأزهار.. كنا نستأذن الفراشات
لم تكن المساجد هكذا
ولم يكن السدنة ينسجون المحاريب من البارود
حين كنا نود الصلاة.. كنا نستأذن ندف الثلج
لم تكن الحانات هكذا
كنا نضع أيدينا على صدورنا أمام القوارير في حانات السكرى
لم يكن يجرح احدنا قلب الكأس
أيها الوعي..
يا أيها الطائر القاتل..
إني أهزأ من تلك الأعالي بلحظات جهلي وجهل أصدقائي الحمقى
باللحظات الضائعة التي فيها
كنا نعشق الزنزانات الموبوءة
وكراسي الاستشهاد الخدِرة
من تلك الأعالي أبكي على سيرتي العفيفة
وسير أصدقائي المصروعين
أصدقائي الذين كانوا يحفرون الخنادق والمواقد والقبور
داخل أرواحهم البيضاء وعضلاتهم الناحلة
إني خجل أمامك ايتها الرقبة
فتحت عينيك على بريق السيوف وشابت لحيتك بين مثانية الحبال
إني خجل أمامك ايتها العين
فقد أريتك ظلام الزنزانات وقوس قزح الجراح
ومعامل الموت لا غير
أعذريني
يا أصابعي العمياء
يا ألسني المكتوبة
يا أضلعي المفتتة
يا أرجلي المقطوعة
يا سيوفي المخصية
اعذريني..
كان ذنب جهلي وذنب وصية والدي (الكاژيك)[2]
وترنيمات والدتي المثيرة للحماسة
أعذريني ايتها الأيام الملونة لشبابي- ايتها الجارات الحسناوات..
أيتها العزباوات الذاهبات الى المدارس
(شەونم)[3] أيتها الظبية المدللة في محلة (شۆرش)[4]
أطلب منكن المغفرة..
لم تمهلني البندقية كي أكتب إليكن رسالة حب
واحتطف منكن قبلة زفاق ضيق
وأهديكن وردة..
آه.. أيتها البندقية. تاريخك أكثر إسودادا من وجنة الخطيئة
مستقبلك أكثر مرارة من السم
أيتها البندقية.. ذبلت اوراق السلام وبقيت وحدك خضراء
ايتها البندقية.. انهزم الجمال وبقيت وحدك حصانا أشهب
ايتها البندقية.. سقطت أسنان العشق وبقيت

وحدك في ريعان الشباب
أيتهــا البندقية.. فقــد الفانــوس البصر وبقيت
وحدك عيون اليمامة الزرقاء
لقد كذبت الأمواج
كذبت المراقد
كذب (الشيخ لقمان) يون[٥]
كذبت الآلهة
لقــد بقيــت في أرض البــور والفــراغ والوحــدة
واللاجدوى..
الجروح اوسع من مساحات الجسد ومساحات الدم
ومساحات الكون ومساحات الروح
أغلالها أكثر عددا من المعاصم
حفرها أكثر عددا من الأقدام
مسلاتها اكثر عددا من العيون
والحبــال أكثر عددا من الطيــور والنمل والنجوم
والأعناق
لقد صادقنا العاصفة وتزوجنا من الحجر لاغير
لقــد طارحنا البندقيــة الغــرام وحاربنا الجمال
لاغير
أطعنا الذئب ولم نستمع الى نصائح الخطاف
حطــت اليمامات علــى أعمدة حروبنا عشــرات
المرات
فأطلقنا عليها النيران
نقرت الفراشات شبابيك مستودعات بارودنا
ولم نفتح لها الباب
هذي المرة
احصت الحــرب جميع الرجــال واضمرت ارحام
جميع النساء
هذي المرة.

ســرقت الحرب نهــود جميــع الفتيــات ومنعت
الصبيان من البلوغ
لقــد كنا في حلم ســعيد حــين اشــتبكت القبب
والمنائر
وتقيأ المصلون على السجادات البيض
توزعت الجيوش المندحرة على ازقة المدن
أخرجت الرضع من المهود
ومد فيها المحاربون القذرون سيقانهم الخدرة
فشدوا جراحهم بالملابس الداخلية لزوجاتنا
ودلكوا أجسادهم الخشنة في الحمامات الملساء
وأخمدوا شموعهم الملتهبة في أسفل بطونهم بالمرأة
نصف العارية
على أغلفة الشامبو
قالوا.. هيا رافقنا رحلة الجبهات
قلت.. لكني لا امتلك بندقية كي اتنكبها
لا امتلك معولا احفر لي خندقا في ساحة الوغى
لا أمتلك ناظورا أفهم أسرار الخنادق المقابلة
قلت لكني..
وقبل ان تتعارف معنا خنازير الخرب
مددت يدي اليسرى الى زنبقة
فاستحالت يدي ورقة خضراء على ساقها
قلت لكني..
وقبل أن تشرب معنا الحرب ام أربع وأربعين قهوة
الصباح
مددت يدي اليمنى الى اهتزازة صدر ناعم
ولكــن اصابعي اســتحالت الى قــلادة ذهبية بين
النهدين
لم تعد لدي اصابع لاضغط على زناد البندقية؟
لم تعد لدي يد لأدفئ بها قلب قنبلة خدر

لعبنا لعبــة «الدعبــل» بالجماجم مــع الأطفال المزقين فخسرنا
رقصنا مع النعوش التي رضعت من ثدي الحرب
غنينا مع الجروح التي لثمت شفاه الطلقات
امرت الحرب
أن نبني داخل كل بيت مقبرة
وداخل كل جسد مصحا
امرت الحرب
ان نقايض عرائس شهر العسل اجسادهن برؤوس الحراب
امــرت الحــرب ان نجعل مــن الزوجــات الميتات حبالى
ولاتزال رائحة الشهوة تفوح من شفاههن
مدينتي.. الحانة والمسجد
مدينتي.. المئذنة والمشنقة
من الذي خلط الألوان هكذا
لئلا تميز بين صرخة الهزيمة ونأمة الانتصار
من الذي خلط الأصوات هكذا
لئــلا تميز بــين ملامح قطــاع الطرق وســيماء البيْشمرگه
من كان السبب في أن نكحل عيون «زين» اتنا بالابرو شفاه كل «مەرگەوەر» بالابتسامة
مــن كان الســبب في أن نخضــب جــروح خرافنا بالجذى
ومخالب ذئابنا بالحناء
ياقة من امسك كي يعيد لاطفالنا الدمى
والياقات قد احرقتها النار
يد من نقبل كي تمسك قطعة من القطن
لتبلل حلقنا اليابس بقطرات من الراحة والأيدي تأسرها البنادق
مدينتي.. الحانة والمسجد
مدينتي.. المئذنة والمشنقة
كل مــا بوســعي هــو أن اتناول مــن بحر روحي الأبيض كأسا تلو الآخر
وأن أطفئ أشجار جحيم جسدي
كل ما بوسعي أن أســحب ذراعي من تحت رؤوس الملائكة العمياء
التي تحلم بإحراق الكتب المقدسة وقتل الأنبياء
هربت وســع قواي من صياح السناجيب العفاريت التي
ظنت حنين فؤادي لب الجوز
اقتربت من مراقد المشايخ
ظننت راياتها كفنا للسكينة وقماطا للراحة
ايتها الحرب الجميلة..
لا تتركينا وحدنا في غابة الفراق هذه
ايا قطعــان خناجر الرعب المســمومة.. لا تهربي منا
كي لاتبني الخطاطيف وأزهار البنفسج أعشاشها على خصورنا
لايعرف أحدنا رائحــة الندى ولغة الأزهار وعتاب الفراشات
ايــا نســور الفتــن ذات العيون الحــادة.. لاتجري قلاعنا ومآذننا
فقــد تعلمنا الابصار علــى رؤية ديكة الرصاصات والدخان
نخشى ان تقتلع طيور الوداعة عيوننا الحمر
ايتهــا الحــرب الرائعــة- لاتديري لنــا ظهرك في صحراء الغربة هذه

فقد تعودنا الاضطجاع مع داعرات الفتنة
كيف بوسعنا الآن ترويض ملائكة السلام
اجبرونـا في ريـاض الأطفـال على ختـم الكتب المقدسة
كيف بوسعنا في سن الشيخوخة هذه
ان نفهم الأناشيد الطازجة للأزهار
أيتها الغيوم السود
أيا غيوم السم السود
ها نحن
عـراة. نحـن وأطفالنا. نحـن وزوجاتنـا. نحن وكلابنا
نحن وبنادقنا المكسورة. نحن والصئبان وقملنا
نحن وسذاجتنا
نحن وكتبنا الجاهلة
في سـوح المدينة. في المعسكرات. في القرى الخالية.
في المقابر المزدحمة
نفتح ايدينا
واجسادنا
وافواهنا
وارواحنا
لزخة اخرى من زخات مطرك.. مطر الرحمة..
مطر بلا نهاية.. مطر أبدي
ايا عربات الأنفال الملونة
هـا نحن.. بصررنا وامتعتنا ومعنا دفاتر النفوس المزورة
ننتظـر في مـرأب كبير.. ننتظر رحلة وسـياحة أخريين
ننتظر في مرأب كبير أسمه كردستان
ننتظر بين سيف هابيل وسيف قابيل
ننتظر بين ماركس اشقر ومحمد اسمر
كي تحملنـا الى زوجاتنا الأخريـات – إلى قبورنا التي تنعدم فيها القبور
في رحلة الى مراقص الموصل وملاهي ابي غريب
الى ذرى مرتفعات حفر الباطن
الى حدائق العرعر المعلقة
في رحلة بلا نهاية – رحلة أبدية.
ايا وطنا بلا وطن
ايا وطنا يسـبح على ظهر ثور الشك واسماك من البارود
ها انذا أكاد انزلق على جسدك الأملس
فأنت أكثر ملاسـة من السـمك واكثر تملصا من الغزال
واكثر انزلاقا من الجليد
بم اتمسك اثناء تسلقي
يا من شعره من الشقى
وقامته من السراب
ونهده كتلة من الجمر!

**الهوامش:**

١-مەرگەوەڕ: شخصية ماكرة في قصة «مم وزين» ملحمة الحب الخالدة للشـاعر الكـردي «احمدي خاني» حيث تتجسس عليهما وتفرق بينهما.

١-الكاژيك: اسـم حزب كردي تأسـس باكرا وكان قومي النزعة.

٣-شەونم: اسم فتاة كردية.

٤-شۆڕش: اسم احدى محلات مدينة «اربيل».

٥-الشـيخ لقمـان: شـخصية ظهـرت في مدينـة السـليمانية في الثمانينيـات. كانـت لهـا قدرات باراسايكولوجية للتنبؤ بما يحدث.



# حوريات الغيوم

شعر: كريم ده شتي
ترجمة: عبدالله قادر كوران

1

اتجول فتتمسك يداى بغزل الغيوم
ويهطل مطر غزير
تحمر الارض مثل محيا الجمرات
وتدفىء غرف الاعوام
يمر الشتاء قرب كوخ زوربا فيقف
ويقول لي فى الخريف انشد الاغاني
لاوراق اشجارى الذابلة
اسراري كبيرة حصلات منحدرات الجبل
تتخضب بدم التعازي
وتأسر لك نيران هم عميق
اتجول ويداىتحترقان من نار سراج
ويلتف لليلة
لا المطر يهطل هذه المرة
ولا النار تطمر كوخ زوربا
يقول لى
اوقف الرياحي فى مواسم الخريف
انها تحمل ترانيمي
وخطفت منى الحروف
انغامى تطفح بالبكاء والانين
وتملأ حقل فؤادك هذا بالمطر

2

اتجول وكتاب رؤيتي يبكى ويمر
يأخذنى الى اشجار الصحو والكلمات الحمر
والافق المتلألئة

يقول لي لم يبق لاورفيوس شقائق
خدودى كى تذوى
قيثارقيده اصبحت على امواج البحر العميق
ابحث عن الالحان التى تنبثق
من اوتار هذه القيثارة
عن تلك الاغنية الخالدة
التى تلتهب فى فم الامواج
هذه شجرة الارز تغني لك اغنيتها بانفعال
وتلك كمنجة ريح الصبا
تبكي للقمم والذرى
لم اعثر لاعلى الصوت
ولاعلى قيثارة حنجرته
مساء الشاعر
انا وقلبى عدنا الى ذللك القبر
الذى هو ملك جسد التاريخ

3

انا الان شعور بلا جناح
فى بحر الشعر القرمزي اللامتناهي
وابل الملحمة والاسطورة
اضاع نجم همومي
وقعت فى فخ صياد فظ
إحدى يدي تبكى والاخرى تقول
اين مصيرنا ؟
حبيبتى يقولَ: الدباغ ينتظرنا
فى المحطة الاخيرة ليقبلنا
آه يا ميداس لاتعسر الامر هكذا
انه ندمك غدا ذاهب
رضيعك منح خد وردة شبواه
صدقة لنشوتك
صرحك تمثال ملحمة بدون روح
لماذا تبكي؟
إني نادم من رغباتي
ارجعنى الى طبيعتي
لتمتزج أنفاسي الباردة سطرا سطرا
بلهيب نيران الجحيم

4

صفق بجناحيه،
ممزوجا مع الصحوالازرق
منقاره مخضب وامتزج مع الافق المائى
والاحمر ابدا
اين حبيبتى؟ إن دمائي تحترق
فى قارورة سيملئها المجهولةَ
علوي اصبح فى شواهق المنخفضات
وقمحى فى الارض تحترق
وامتزجت دموع عينى مع
جمرات اعماقى السحيقة
لن يعيش راسى المثقل بالعبء
مع فؤادى المفعم بالحنين
حتى غدونا جسدين
احدهما العقل والاخر عاطفة
بين الجمرة ونديف الثلج
جرحى هو ورقة نبات (الفومى)
الى ان تحترق الجمرة
ويودعني الثلج ويذوب
والسحب تمطر والفيضان يحدث
فإن عمرى ينتهي

5

**يصب الجبل جام غضبه على السفح**
**بغدو لونه قرمزيا**
**عاد اورفيوسويعزف قيثارة لسانه**
**والشبح يبكي**
**هذه الطيور تتلألو النار فى عيونها**
**وهى من سلالة الانسان**
**يبكى اساكوس والمس عينيه**
**يخترق اعماقه بغضب**
**- فتاتي ملاذي لم اكن ادري**
**إنك تصبحين عشبا خالدا وتختنقين**
**لم اكن أدري لماذا السراج خامد هكذا**
**فى غرفتي وتحرقين حشاي**
**فتاتى ملاذي عنف بكائي يبكم البحار ويحرق الوطن**
**الاطراف غدت قفراء**
**إنني وحيد فى هذه الاثناء**
**أدخلي عيونى ثانية**
**ماذا اصبحت احمرت جروحك**
**وحفرت القبور؟**
**يبكى اساكوس وتبللت لحيته النيرة**
**والنار اشتعلت فة اساه**

6

**سرب طير يغطى أشجار منزلي**
**وامتقع لونى**
**من رأى منهم حبيبتى؟**
**انا الساهر فى هذه الانحاء**
**اى منهم قنديل غرفتي المظلمة فليتوهج**
**سرب طير يغطي اشجار منزلي**
**ولا يطير**
**لم تبق حدود بين فؤادي والاشجار**
**ويزخرون بتغاريد الطيور**
**جميعهم يجعلونهن جراحاتي**
**ديوان اللهب احترق بهدوء**
**قبري شجر ومنزلي قبر**
**اني شجر وقبر ايضا**
**حبيبتى طير اختلط بسرب كبير**
**والآن لم اعد اعرفه**
**اخضر لونه وامتزج ببريق القرى**
**ويبكي بين فينة واخرى**

7

**لتترسخ يداي فى فروع القمم**
**ويشيخ قلبى فى المياه**
**ليتجول فى البلدان وتغدو اعماقي**
**اتون المدن الحار**
**ليغدو انينى شلالا يشق بعنف**
**جوف الوديان**
**منقاره ابيض وامتزج بالثلج**
**انني الان لم اعد اعرفه**
**اتجول فتتمسك يداى بغزل الغيوم**
**ويهطل المطر اصله ولااصله**
**يحلق الجميع نحو الجهة الاخرى**
**فتاتي نبتت لها اجنحة**
**ها انها تبدو ازرق**
**ممزوجا بالصحو البعيد**
**وابل الملحمة والاسطورة**

اضاع نجم هوموى
منقاره مخضب وامتزج بأفق احمر
وبلا ملاذ

٭ كريم ده شتى من مواليد ١٩٥٥ اربيل.
٭ له من الدواوين الشعرية ما يأتي:
١- الارض والصقر
٢- ضباب الروح البيض
٣- بيانو الشرق
٤- سفر النار
٥- دائما هناك حبيب ينتظرنا
٦- البرج الابيض
٧- الكتاب المقدس للعشاق
٨- شجرة الحكمة

وله من التراجم مايأتي:
١- الجذور الكس هيلى النص الكامل عن الفارسية
٢- وسوسة المسيح الاخيرة كازانتزاكى النص الكامل عن الفارسية
٣- رحلة نحو الشرق هرمان هسه عن الفارسية
٤- الكتاب مجموعة من القصص عن الفارسية
له من الروايات القصيرة (نوفليت) مايأتي:
١- الضبع
٢- القيامة
٣- فرس فى الريح
اما الدراسات المكتوبة والمترجمة:
١- الادب والفلسفة دراسات معاصرة
واخيرا طبع مجموعته الكاملة بعنوان بيانو الشرق



محطات فكرية وادبية، ترجمة: آزاد برزنجي
من مطبوعات دار سردم، الطبعة الثالثة - ٢٠٠٨



حبيبتي العزيزة جدا، رسائل بين جيخوف و اولكا كنيبر
ترجمة: رؤوف بيكرد - من مطبوعات دار سردم



# غربُ المَوت

دانا سعيد صوفي

ترجمة: دلور ميقري

حينما أضحى الإلهُ تعباً، منحَ الإنسانَ موهبة الخلق:
عطشُ العاشق يُطفأ بالنور؛ النور الذي يقطر في الجسد.
النور يسطع بأثر خطا الناسك، النور يسطع في الأشياء
المبحرة. في الجانب الآخر من الحقيقة، لا يوجد أيّ
نور بقادر على تمسيد الكلمة.
مُلهمي يُبصر قيمة النور في تلك القبور المتجوّلة والسائلة؛
يبصر عظمة الجسد في التطبيق والإتعاظ.
ملهمي آخر، يقول: الحياة في نظر عين الميّت،
هي رصاصة في ضيافة الجسد.
دعنا نموت؛ فالموت هو قراءة رواية السراب.
أنا عبرتُ بجانب تاريخ معلق، ثمة حكاية الجسد
لم تكتب بعد. إذا كانت الحقيقة هيَ ماءٌ جار في حجرةٍ
لا مرئية، فماذا سأفعل مع السراب المشتعل
وأغنية الرغبة؟
هذه النار التي تقذفني إلى ذلك العناق المطفأ،
والذي يجعلني
مجنوناً بمتعة الرؤية، ذاك اللحن الذي يجعل
وجودي مستحيلاً
خلال ثورة عابرة، أو في سفر بلا شرَفٍ.
إلى إشراق بسمةٍ، قدمتُ أنا من منبتٍ لم يعرف

الماءَ أو
الغروب، والذي لم يدرك معرفة فرع المطر؛
المنبت الذي
بدأ تواً بقراءة طرق النسيان، هذا الذي بدأ للتوّ، أيضاً،
بتفسير رغبةٍ وقدر من الألف إلى الياء، ولكن التي تنكر
هي ذاتيّة القبلة.

دربٌ يفضي من البحر؛ دربٌ بعيد المنال
ثمة، أين الطفولة بعين مفتوحة تبحث عني.
دربٌ يؤدي إلى السراب؛ دربٌ إلى ملكوت الله
هناك، أين الشيخوخة تودّعني.
في هذا المُنتهى من رحلة التطهّر والخطايا
يوجد ضياعٌ أجمل، فحسْب.
أنا أحتملُ موتَ البياض هذا كله، كي يتبرعم مكانٌ للهدوء
وراء الأحرفِ ؛ ولكي يأتي أريجٌ من رسائلها ؛ ولكي يتمكن
الجوّالُ التائه إستجداءَ الصفح من نور القمر.
طالما وجدَ الضوء، فالتيْه غير موجود ؛ طالما وجد الروح
فالطفولة موجودة. دعنا نحلم بالإله، ما دمنا نتذكر النجم.

*

تقريرٌ سريّ لموت:
لأرفعنّ، لحظة موت الإله، نخبَ الذكرى.
بين السفر والسراب، بين الورد وعناصر
الطمانينة،
لنكتشف مقبرةً من أجل الحياة، ولنرجع إلى راحتيْ
أمان الإله.
الحياة، خيانة الماء للجسد. إذا لم نستطع، يا صاح،
أن نكتبَ تاريخاً من المحبّة، فلندع للبحر تلك الأجداث.
في جذور الدمع تلملمُ المقبرة تفاصيلها. غيرَ أن تلك لم تك
النهاية. إذا تركني الوطن، أردتُ أن أستعيدَ مدينتي.
في ثقل الأسئلة ومفردات الثورة، أجدُني الرجلَ الأكثرَ
صبراً في العالم. أغاني السراب ليست بأغان للمنفى،
إنما لعبة بين الذاكرة والنسيان.
الشيطان يضحك تلقاء النسيان، ما فتأ الضحك وجوده:
غيرَ أنّ هذا ما كان اورغازم السّفر.
ثقافة متجوّلة منحتنا شيئاً من قيمة هالة القمر.
قال: هاكمُ القداسة والحرب، كيما تصير آية لأخلافكم ؛ هاكم
هذا السيف وزمن الموت صيرورة طريقكم. عليّ، يجب،
الإعتذار لوفاء الفراشة للوردة، لو ما استطعتُ أن أسلمَ
الجسدَ اللا زمنيّ للتربة المقدسة.

أيها الوطن! أيها الأب! أيها القائدُ الحبيب:
أعذروني إذا
كنتُ في أورغازم حروبكم المجنونة أشعلت أصابعَ
اللذة
والسراب؛ في معبد ثورتكم عرضت جسداً عار
وتمثالاً
من رميم، واغواء وخطيئة.
من بعد لن أعود إلى معبد الحرب.
*

دعنا نستهلّ بالموت:
لما تكلمَ الموتُ، ما كان فضاء بيتي مائياً ؛ كانت
أذني
منذورة لحكمة الأخوّة. بيتي صغيرٌ وليسَ كما
هو الماء،
الموتُ كالماء والسفر عبثٌ.
دعنا نمضي إلى ذلك المكان، أينَ الأيدي النورانية
للملائكة لا يوصلنا ؛ المكان، حيث كلّ شيء بلا
وزن؛
هناك، حيث الكلمات لا تستطيع أن تحتلّ الجسد؛
ثمة
سنجمعُ الصمتَ حسْب، نبعثر الصمتَ نحوَ
السماء؛
صمتٌ، من أجل الحبّ ؛ هذا الصمتُ، نحيا لأجله.
*

الموتُ، بحسب وجهة نظره:
دعنا نموت
أن نموت معناهُ نوم الروح ونبضة القلب، أو
جرعةَ
نشوةٍ في موسيقى الجسد. دعنا نلهو بميداليات
الفردوس
بلعبة الإنتظار، بمآثر حكماء الثورة في وقتٍ
نشفقُ
فيه على عَظمَة العنب.
فلنلهوَ بأولئك الوعاظ، الذين استلوا حيوية
الجسد.
دعنا نلهو بأزقة الطفولة وخطايا المطر. دعنا
نحيي
اللحظات الغرائبية للقدَر ؛ فعبْرَ الحكمة الأولى
تلك،
سنؤوب للموت.
*
بضعة من ذاكرة صديقي الشاعر، إثرَ السراب:
وراء السلطة ضحكة تقول، هذه التفاحة هي
جسدكَ
إنها ذاكرة الأجيال. الماضي غير ذاخر بالحياة،
والمستقبل مكانٌ بلا عاطفة، أما الحاضر فقد
فتحَ
باباً على العشق في دفتر السراب.
أكان ذلكَ هوَ العشقُ أم ذكريات الجسد، من
إختطفَ
ذاكرة بلدي؟
آه! أنتِ، المتخمة بالنهاية التي ليسَ لها مبالاة.
فحقيقة، أنّ سفرَ السنونو لا ينتهي بعد التفاحة،
فليفتح ذلكَ القلب من أجل غزوة الأرواح الأكثرَ
ألماً ؛ إفتح تلكَ الأجساد من أجل تهدئة شهوانية
الزهّاد ؛ دعنا نرجع لقدَر الجسَد. لن تتمكن من

إستعادة العشق الذي فقدته في حرب إخوتك.
الآن، لا وقتَ كافياً للعبادة، أو الإنصات
لتمنيات المطر ؛ ولا وقتَ، أيضاً، ليقين القمر
أن يمنحَ هالته لأجسادنا.
حان الوقت لكي ننتقل بأنفسنا إلى منفى رحلة
النعاس ؛ هذه التي لا تأخذنا إلى الأحلام المائية
هذه التي لم تجعلني عالماً بشبهة الماء.
هذا وقتُ الموت، فلمَ لا نموت؟
حفنة أقنعة كانت قد تركتْ بُعَيد سفر إخوتنا:
أهُمُ قطراتُ الندى أم أجزاءٌ من أبديّة الحياة؛
أهم لحظات من زمن التفهّم أم نبضات القلب؟
ماذا عليّ فعله مع سراب الفوضى؟
هذه هي صحيفة الفشل وملفّ الفضيحة.
اللحظات تمضي، وليس ثمة من يشكّ وردة
على صدر منتصف الليل؛ وما من أحدٍ يحتفي
بالسفن المبعثرة؛ ولا أيضاً من هوَ بقادر على
إنقاذهم من مصيرهم القاتل. السفر ما كان
بقادر
على أن يخلق مني إنساناً، ولا محارباً ينأى
بنفسه عن الزمن. إنني أرغبُ أن نبدأ القبل،
وبالموت ننتهي مع ذروة اللذة.
من أجل أولئك الموتى الذين غسلوا خطايا
الأرض؛
فلتفتح تلكَ النوافذ المطلة على جثث الأخوة؛
فلتفتح
النوافذ ذاتها للعنة الأرض على الأجيال.
لا أحد يُفكر بعلامة الولادة، جميع الذين
يشعرون
بنسيم الجسد، يحتسون عدمَ الريح الخفيفة.

من هنا نؤوب إلى تفسير الهدهد لجدليّة العلاقة
بين
الثدي والحرب ؛ ثمة لا أحد، سواء من العشاق أو
العرّافين يطيقُ قراءة الرسائل وترجمة الأنبياء؛
هناكَ، لا أحد من العشاق يطيق قراءة الرسائل
ولا العرافين بقادرين على ترجمة أحلام الأنبياء
والبحارة ؛ وليس ثمة من غروب، يُشرف على
كينونة الجسد ؛ هناك، أينَ عناقيد العنب
يُحتفى
بها بلا رغبة.

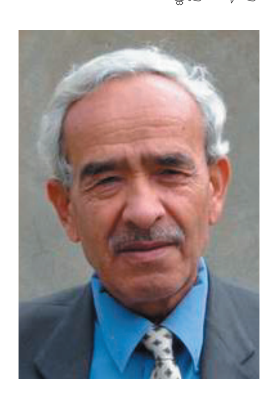
*

آية جديدة لحاشية الموت:
هذه الآية قرأتْ للمرة الأولى، من أجل جوّال
كانت هوايته الموسيقى.
إلهي لا تغفر لي ولا تأخذ خطاياي،
إنني أحيا بذنوبي ؛ إنها بيتي.
الموتُ يقول: شاركتُ بإخفاء آلام الحياة؛ والحياة
أيضاً، بصدد يقين الأزل، تشدّ تشرّدها البوهيميّ.
بلا مأوى الحياة، بيتها مسافرٌ
هيَ في يأس الطريق.
عاشقُ السراب يقول: ما بينَ الإختيار والقطيعة،
ثمة زمن يتكوّن من آخر طبعة للحياة،
وجغرافيّة
الطفولة.
أنا أحيا بذنوبي. يا للتاريخ!
في تلك اللحظة التي لم نشعُر فيها بموت الفراشة
خسرنا، ولم ندرك ثمن تلوّن الصديق.
لا تغفر لي، إلهي. إلى أمان راحَتيْ اليوتوبيا

تلك، أعودُ وينقلبُ تاريخي إلى مأواي الخطيئة.
رغباتي أعلقها، مُلاحقاً هذيان الثورة في فراغ
الآية. دعوني أيتها الفروع الموقرة للنارنجات،
مُجسّداً في أجسادكنّ؛ في فِراشكنّ دعوني أدفن
نفسي وآيتي؛ هناك، حيث يتصالح الله والشيطان
هناك، حيث يتزاوج الجلاد والضحية؛
تخمدُ حينئذٍ شعلةُ الحياة زمنَ الخطايا.
فلنمُتْ في الغربِ ونحلم بشواطيء المكان الزمانيّ
في جرحكَ، الحلم المائيّ هدانا إلى خمسة أنجمٍ
مُقنّعة لعِبَتْ بالزمن؛ إثنان منها تهاويا واثنان
تصاعدا
وواحد على قلب الزمن تهادى.
غادَروا
في الأسفل حيث أمواج البحر، كان عليهم أن
يدفنوه
بلباس الطفولة وبآيةٍ من إقليم الخطى الكافرة.
غادروا
وفي ضفة بحر ما، جغرافيّة الحبّ القصيّة
إستدعوها
ومع المريدين الشائخين، بحثوا عن القانون المائيّ
في الإقليم الأكثر مثاليّة.
ما من جرح مطلّ على البحر، كي يُطهِّرَ بعبث
تاريخِ الحروب، أزماننا.
إستلقِ الآن في أمان اليقين، وتأمّل شفافيّة
التفاحة
أنظر البحرَ واجرع قدَحَ الخطيئة: حينئذٍ
تتفتح العراةُ
كدفترٍ شعريّ، والعالم يولدُ من جنون الخطيئة.
لن أعودَ من بعد ربيع الآباء، الذين أخمدوا
الدروب
أناشيدكم تلك، لم تدعنا نبكي على ميتتنا غير
المرغوبة
حان الوقت لنشكّل إطارَ لحظاتٍ موسيقيّة،
جديرة
بالرقص، والموت نعلقه هناك خلف ظهر
الطفولة.
يأتي الأمواتُ ويجعلون الفضاءات لهم ولأحفادهم
مُلكاً. وهذا البحر، وهذه الدنيا أيضاً، لا مكانَ
فيهما لجسدي اللا مُجدي.
إجتازوا ذاكَ البحر أيضاً، غادَروا
وفي الأسفل، حيث أمواج المياه، كان عليهم أن
يدفنوه ومستقبله.
لن أعودَ من بعد وطن التفاحة، وجثتي ما فتأت
على الطريق.

١٩٩٧ ـ ١٩٩٩ (طهران، أوبسالا)

* دانا صوفي: من مواليد ١٩٧١ في أربيل ـ كردستان له مجموعة شعرية مطبوعة، بالكردية، أسهمَ في كردستان بتأسيس وإدارة تحرير مجلات أدبية وهو يعيش حالياً في السويد، ويعمل باحثاً في قسم علم الإجتماع بجامعة ستوكهولم.



# قصتان من الادب الكردي الحديث

كتابة وترجمة: جليل محمد شريف

## ١-الإطار

عندما ولج الصالة، نهض الحاضرون هناك ووضعوا اكفهم على صدورهم ترحيبا بمقدمه. القى نظرة سريعة وحاذقة على الجميع، وانتبه الى ان واحدا من المتواجدين لم يحرك ساكنا. نزل خيط رفيع من الخوف من اعلى ظهره الى اسفله وتحول الى خميرة هم عميق لديه.

وقبل ان يعيد نظره الى لوحة الحضور، عاد الى وعيه الذي افتقده للحظات: (لابأس فهو ملقى مكتوف اليدين في زنزانة اطار جامد معلق على جدار الصالة.. يا ترى لم لم ادرك ذلك من أول وهلة..؟!).

كاد ذكاء الرجل الساكن في الاطار وقابلياته يستلب كل بصمات اصابع زملائه يوما ما ويكتسبها لنفسه، وكاد يسحب السجادة الحمراء من تحت قدمي صاحبنا. لكن فاجعة غير محسوبة له رمته الى عالم العدم، حيث تعثر بواقعة كبيرة، فكبا كبوة قاتلة.

عاد الهدوء الى الصالة وعاد هو ايضا الى تجميع مشاعره، بدأ بالقاء كلمة ارتجالية، كان يرى في نفسه متكلما بارعا ومتمرسا، لكن لوحظ ان الجمل والعبارات التي دشن بها خطابه آنئذ كانت متقطعة وغير مترابطة. وكلما انتبه الى الاطار عم هزال وخفوت نبرات حنجرته بشكل لفت احساس المستمعين الى

ذلك. وأحيانا كان يستقدم ويستأخر الجمل دون قصد او يستبدلها بجمل اخرى. كان هو الوحيد الذي يعلم ماذا يفعل في تلك اللحظات، فقد كان يعمل المستحيل من اجل تقريب محتويات جمله من آراء وافكار الرجل المستقر في الاطار الآن.

انتهت الندوة بانتهاء خطابه، فغادر المكان مودعا بعاصفة من التصفيق وهياج الجمهور. لكن الذي افقده التمتع بزهوه وفرحه هو وخزات آلمت دواخله. جعلت خشيته من ذلك الرجل وخوفه من ان يفك الاسار من ذلك الاطار يوما ما، جعلته لايعرف النوم طريقه الى اجفانه الا في وقت متأخر من تلك الليلة، فقد قضى ساعات ليله بين الحلم الحقيقي وأحلام اليقظة..

تناهى الى سمعه اعلان مفاده.. (إن شهداءنا سيعودون) وجاء في مقطع آخر من النداء: (ها قد وصل موكب الشهداء الى بوابة المدينة) وفوجئ بذكر اسم الشخص المستقر في الاطار على انه رأس القافلة..

تخيل حينئذ ان آلافا من المستقبلين قد انتشروا على الارصفة مهلهلين ومرحبين، وكانوا يلوحون للعائدين بايديهم الحاملة اكاليل الزهور، واستطرد في تخيله، حيث ذهب على جناح السرعة الى أحد صانعي الاكاليل: (اريد منك ان تصنع لي أكبر اكليل ممكن، كي اقدمه بنفسي الى من هو على رأس العائدين..).. (مرحبا بعودتكم.. واهلا بمقدمكم..).

كان يعلي بصوته خلال تلك الدقائق اعلى فأعلى، تحول صوته الى باقة من الاشواك، وكادت الغصة تخنقه، استفاق..! في الصباح روى الحلم لصاحبته، بعد تلك الليلة بيوم شوهدت الاواني المملؤة بالسكاكر الخارجية من داره توزع على الدور المجاورة، وزوجته هي الوحيدة العالمة بأن مناسبة ذلك هي كون الحلم لم يكن يعني شيئا وبعيدا عن الحقيقة!! فتحولت الخشية من عودة الساكن في الاطار الى بخار تسامى في الهواء..

## ٢-الجدار

ثلاث سنوات من التاريخ او عمر انسان، تمثل لحظة عابرة تمر بسرعة. ليست اهلا لان تخط فيها خطوط فاقعة الالوان بحيث تمتزج تلك الالوان ببعضها، تلك حقبة قصيرة من الزمن، لاتقدر ان تغطي الاحداث الحلوة والمرة بتراكم غبارها بشكل يجعلها صعبة القراءة او لاتنكشف بنغة على صعنها. ان هذا الامر معادلة غير متوازنة في قوانين الطبيعة. فثلاث سنوات غلالة رقيقة ترى ماتحتها من الوجوه بكل ملامحها وتقاطيعها الى حد ماينبت عليها من شعيرات.

ومع انقضاء ثلاثة ارباع قرن من عمره، فها هو يريد ان يجتر ما جرى له في السنوات الثلاث تلك، وهو لايقر بمضمون ذلك الاجترار الا بان تحمله على الحديث وتحاصره بأسئلة حادة كالخناجر.

(لايعرف احد كيف كانت تلك السنون ما عداي، كانت تمثل الملك القابض للارواح داس وسحق كل ورود الرغبات والآمال بقسوة. لو لم تكن السور مستمرة الوجود ولو كان قد اصابه الانهيار، كان يحزم

جمله وأعادها الى جعبته وذلك لكي لاخدر قشعريرة اليأس اعصابه.

ماكان يمنحه احساسا رومانسيا هو مظهر كل كهل متكامل في هيئته وتمالكه الشخصي. ومن مميزات شخصية هذا النمط، هو الملبس المتكون من القطعتين (السترة والقباء) مع غطاء الرئس القريب الشبيه بالعمامة السوداء والمعروفة بـ (مشكي) مع المستلزمات المتممة لتلك الشخصية مثل الحزام الملتف في وسط القامة والمزين بممسك خنجر ممتد الى الصدر، كانت تلك الهيئة تمنحه مايعني المقام الرفيع والسطوة المتمكنة.

كان يرى اباه على تلك الهيئة وذلك قبل ثلاثة اعوام انفصلا فيها، لاينكر ان مظهر سلسلة الساعة المدلاة على جانب صدر ابيه وسبحه يده الثمينة يتممان الاحساس بالفخار عند صاحبنا. لكن الوجه الآخر لذلك الزمن القصير هو تحوله الى جدار سميك يحيل كل الطموحات والفخار الى كائنات متفرغة عن معانيها. كان قد ابعد عن مدينته ثلاث سنوات ليس الا، نشأ جدار بين الوالد وولده، كان جدارا منيعا اصم وأبكم بدرجة لايسمح بتسرب اخفت الاصوات الى الجانب الآخر. وآخر مشاهدة لهيئة ابيه كان اليوم الذي سمح للسجناء مواجهة اهليهم، رآه من بعيد وهو يسلب منه خنجره، وقبل ان تقع نظره على وجه ابنه السجين، دفع خارجا من قبل اثنين من رجال الشرطة، صرخوا في وجهه (انتهى موعد الزيارة..!!).

كان للسنوات الثلاث تلك اثر وفعل ثلاثمئة عام، يوم انعتاقه من سجنه، كان اول ماهمه ساعة دخوله البيت هو اللقاء بأبيه. سأل رجلا مسنا جالسا على حصيرة في فناء الدار (اين أبي..؟)، استقرت عكازة جنب الرجل، كان هزيلا غير محلوق الذقن، رفع رأسه ببطء وتأمل فيه بعينيه الغائرتين.. (أأنت..؟!!) نزلت عبرتان من مآقيه، رفع يديه المرتجفتين الى اعلى، اعاد رأسه الى وضعه السابق، وكأنه لم يرد ان يريه مظهرا غير الذي غادره قبل تلك السنين. وعندما تجرع صاحبنا هذه الحقيقة تجرع السم، رأى فيه هيئة رجل مشرد متسكع، تذكر كيف كانت ادوات عمل القهوة المرة ومستلزماته حاضرة في مجلسه كل حين، وقارن ذلك بالعكازة التي كانت الشيء الوحيد بالقرب منه.

تحولت الاحلام التي كان يرى فيها اباه الى عدم ووهم، وانقلبت رغبته وطموحه الى خلافهما مشوبا باللون الاسود القاتم. تيبس حلقه ولسانه بأثر السم، تأمل فيه قليلا، لولا الجدار الذي وقف عنده معتمدا عليه، لأصابه التهالك والدوار مرتميا على الارض. تغير عنوان رغبته فغدى (الرغبة في العودة الى ماخلف الجدار الاصم الأبكم).

يظهر انه لاميقات يقف حائلا دون انهدام الزمن، فالحقائق جميعها تكتسى بكساء النسبية.. جلس عنده بهدوء، ولم يكن يريد ان يتأمل في وجهه لكي لايفتقد ما في اطر ملامحه المعهودة. لم ينبس كلاهما ببنت شفة، الجدار فصل بينهما، تحولا الى وجهين غريبين عند بعضهما بشكل لم يلتئما قط..

استكرت جلسته هنيهة، تحول الملل واليأس الى وخزات جرت في اوردة كيانه، قام وسار نحو الباب تاركا اياه خلفه.. غدا ابن سبيل سارح لأيام تفرغت من الآمال وصلت فيها روح اليأس.. في تلك اللحظات ذاب وجود كليهما وانقطعت الخيوط الرابطة لصفحات عمره واحدا تلو الآخر..!!!



# الجروح البيضاء

**قصة: ئاكو كريم معروف**
**ترجمها: حسين عثمان نيركسجارى**

**ملاذ الطيور**

قبالة المعسكر وبين الربايا المنهارة التي قبل ليال بيضت الامطار الغزيرة أرضها المالحة واطلالها، رويدا.. رويدا خلطتها بالتراب، وصبتها في المستنقع المغطي بالطحالب والاسماك الميتة.

هناك في الجانب الآخر من المستنقع مرقد سيدة زاهدة، كانت خلال جميع الحروب الضروسة وعند حملات النهب والغنائم تقوم بالعبادة والصلاة على النبي، ذلك المرقد وكما يرويها الجنود؛ المكان الوحيد الذي لم تصلها نيران المدافع البعيدة المدى والصراخ واستغاثات الجرحى، قبيل الغروب وعند أفول خيوط الشمس من خلال غابات القصب والبحيرة الخضراء؛ تلون الطيور أجنحتها بالألوان وتعود الى ملاذاتها وهو مرقد السيدة الزاهدة.

في تلك الأوقات وعلى الصخور المسطحة التي يصلي عليها المصلون ويتضرعون الى الله؛ كان صبي ناعس يبدو كأنه لم تمسسه أشعة الشمس، وحول قامته قماش أبيض يقوم بفتح باب المرقد لتخرج الطيور، وبعدها تقوم طيور جارحة وآكلة اللحوم وبطات المياه بصيدها.

في الصباحات يعود الجنود مع بنادقهم الموحلة وأحلامهم الخائبة من خنادقهم المهدمة وعن طرق موحلة آسنة، والبسمات تغسل وجوههم الباكية وبعضهم قاعدون على الخلاء، ونسمات باردة تمس

شباك المرقد، فتنطلق الطيور من المرقد الى أماكن بعيدة.

رأيت بين الأسراب الطائرة شعاعا ناصع البياض، شعاعا متألقا كلؤلؤة الدنيا ومرعبا مليئا بالحسرات والآلام، شعاعا يشبه في تألقه كأنه نار في الفردوس، وأمام هذا المنظر أجهشت بالبكاء.. البكاء في هذا الصباح الباكر يا الهي كم هو قاس.. الصباح مازال (حميد بصراوي) خادرا في نومه العميق وهو يضحك بالاجازة العسكرية ألتي أخذها لوفاة والده، ما أردت ايقاظه من نومه العسلي، لأن ما أعرفه وأراه الآن يعرفه هو أيضا ويراه، الا ان أحدا في المعسكر لايصدقه أنه احيل مرة عن طريق طبيب المعسكر الى مستشفى عسكري ومكث في قسم الأمراض النفسية عدة أيام وتحت رعاية مركزة.

كان حميد بصراوي من الجنود الذين يحتاج اليه القادة والضباط الكبار، ولذلك كلما جاء أمر بنقله أخفي عنه من قلم المعسكر والقادة، هذا التلاعب بحميد بصراوي كان مستمرا منذ ثلاث سنوات. انه حكى لي بأن تغييرات كثيرة حدثت في المعسكر، ومكث عشرات الليالي قرب جثث الجنود التي قطعتها الكلاب قطعة قطعة، وتجمعت الفئران والثعبان والديدان البيضاء على اللحوم والدماء المراقة على تلك الأرض الرطبة المالحة. حميد يؤكد لي دائما على انه لن ينسى تلك الليلة التي عاد من فرنه وهو يحمل حزمة كبيرة من الخبز البارد، في تلك الليلة الرهيبة لايسمع صوته واستغاثته سوى جندي وحيد بقي وهو يصرخ ويستنجد ضد الكلاب السائبة وأنيابها، استمر حميد على حديثه فقال: (كان منقذي الوحيد في تلك الليلة هو الخبز، وحتى وصولي الى المرقد التهمت الكلاب الخبز وكيسه المترب، رجعت الى المعسكر والكلاب تدعك ألسنتها في دماء).

حميد الآن يبكي في منامه، أرى دموعه البيضاء تسيل على بقايا الأمطار، ومنذ ثلاث سنوات يستيقظ من النوم بفزع وهو يبكي. في قمة نشوتي وضحكي؛ أشم رائحة الخبز البارد الذي ينبعث منه البخار كبخار البحار، ارى رأي العين أصابعه وهي تمتد وتتدلى منذ ثلاث سنوات الى النار، أشخص عينيه اللتين تلونتا بلون النار وأتعرف على زفيره الذي يسيل من صدره وهو نائم، الصدر الذي لايحتفظ الا بالأنفاس الأخيرة للجنود المقتولين، وذكريات الأيام التي كان فيها على قارب صغير يجدف ويعبر المياه بين غابات القصب ويغني.

كان حميد بصراوي في صغره يجمع قطع الخبز التي تلقى في صفائح الزبالة، وكما روى لي:(وجد في البحيرة التي غطاها القصب قطعة أرض سماها (الوطن الصغير)، صنع من علب دهن الراعي والدبس تنورا، في تلك البقعة ألتي لايحس فيها أحد برائحة قشرة الأشجار ألمحروقة والخبز المشوي، ويقوم بتحويل قطع الخبز الى العجين ليصنع منه الخبز، وفي علبة مكسورة يخلط التمور التي أخفاها في يده بالدهن. في ذلك العالم الهادىء لاترى الا عدة طيور وطيور مائية، حميد يحادثني وكأني جالس وسلة تمر أمامي، ولحلاوته يسيل ريقي.

ألآن وبعد مرور ثلاث سنوات؛ لايشتري الخبز ولا يأكل من خارج المعسكر الا حميد، يقول الجندي

الذي قتل البارحة:-

ـ في خبز حميد عصارة رحيق التمر.

ويقول جندي آخر هرب مجنونا:-

ـ لو يوضع خبز حميد على عيني الميت، تعود اليه الحياة.

كان ضابط في المعسكر يسيء الظن في زوجته، في كل اجازة عسكرية يحمل معه كمية من الخبز، لأنه يعتقد ان خبز حميد بصراوي يطرد الأرواح الشريرة من البيت، لأنه يعتقد بأن كل امرأة وحيدة حين تنام فالشيطان مختبيء تحت مخدتها..!. وعندما يكون حميد في الخندق وحيدا ويتمدد ويستمع الى تلك الأقاويل؛ يرنو الى المرقد وكأنه يقول لنا:(ان الطفل الذي ترك هناك.. هو أنا، وأنا عبارة عن بقايا بطن جائع وليس أي شيء آخر).

النار البيضاء

في أول يوم وصل فيه حميد المعسكر والاستفسار منه عن مهنته والعمل الذي يجيده؛ اجابهم بأسلوب فاتر:(خباز)، ثم قال: (أنا خباز ولا أعرف أي عمل غير هذا)، وهو يعتقد ان هذا العمل سينقذه في حالته هذه، ويبعده عن الخنادق الدموية والأحذية الغارقة في المياه، ولكنه لم يفكر في ان عمل الخبازة ستصبح له جحيما صغيرا ولا يستطيع الأفلات من جحيمها المستعرة، من تلك اللحظة التي بدل ملابسه التي تفوح منها رائحة ألمدنية بملابس أخرى؛ بنى عند مرقد السيدة الزاهدة تنورا على بقعة أصبحت احجارها وأتربتها نتيجة مشي الجنود عليها كالطحين.

في الليالي التي يغرق الجنود في نومهم بعد أن تعبوا من اطلاق النار، يذهب حميد بصراوي نحو المرقد، ومن الصناديق الخالية التي جمعها الجنود قسرا كعقاب عليهم، يبدأ بأشعال النار في تنوره، رويدا.. رويدا ومع عملية التعجين يغني أغنيته المحببة العالقة في ذاكرته الطفولية، ثم يبدأ من خلال وهج النار بلصق الخبز بالتنور.

في صباح يوم من الأيام؛ وقبل أن يعود مع خبزه خرج من شباك المرقد دخان أزرق واتجه نحو الأراضي المنخفضة فغطى السهول المالحة، وكان الدخان من النوع الثقيل الذي تغير الأمطار لونه الى الأزرق الفاتح، وبعد هزهزة الدخان ظهر ظل أبيض في صورة حمامة وكأنها تجمع الحشائش لعشها، ولكن الحريق بدأ وكأنه أحدث عمدا، قلت لحميد بصراوي:( هل رأيت شيئا..؟!).

اجاب: -كلا

أحسست ان عينيها تقولان شيئا آخر، ولكن كان فرحا بصيانة السر لديه فقط، وبعد هنيهة من الصمت منحني الخبز وقال: (اذهب للنوم)، وقبل وصوله الخندق قال لي: (الخبز يكفيكم جميعا). الآن فهمت أن حميد بصراوي يعيش في بدايات الجنون واختلال العقل، وان ذلك الخبز كانت الوجبة الأخيرة للمعسكر.

كنت وحيدا وكأني جالس في المكان الذي سماه حميد ب (الوطن الصغير) في غابة القصب، والعلب المقعرة وقطع الخبز المرمية وسلة التمر أمامي. أشعلت نارا بيضاء وأنا جالس ولا أعرف متى أتجنن في خندق مليء بجثث الجنود القتلى، ومتى تحضر الكلاب على جثتي ألجريحة وتوغل في دمي..؟!.

عند العبور من الجروح البيضاء

شمت وهبت من المرقد رائحة الدخان و نكهة الخبز الحار، وقبل عدة ليال من إعلامنا بأن هجوما كبيرا واسعا يكاد أن يبدأ؛ لايترك حميد بصراوي نار التنور خامدا، وكانت رائحة الخبز تخيم على المعسكر، في تلك اللحظات العصيبة كان حميد يحبس دموعه الباردة البيضاء ولا تسمح لها بالسقوط، لأنه يعتقد أن سقوط دمعة يكفي لأخماد التنور، يقول في نفسه: (لمن أصنع كل هذه الكمية الكبيرة من الخبز..؟). كان حميد واثقا من إن لا أحد غيره سيستطيع أكل قطعة خبز، رأى حميد ذلك في المنام، ولكنه لا يتجرأ البوح به لأي شخص، لأنه قد عوقب مرة وشد اذنيه سابقا لأجل الحلم و رؤية المنام، وبعد ذلك العقاب أبلغوه بأن ألرؤيا في الزي العسكري ممنوعة ولها عواقب شديدة منها الاعدام رميا بالرصاص، اما اعفاؤه في تلك المرة فكان من أجل (ان الشخص الوحيد الذي يخبز للمعسكر، كان حميد وليس غيره). أنه يرى ويعرف من مكانه العالي والمطل على جميع الخنادق، كم هي اعداد الجنود الباقين، والى أي حد هم مرتبكون ومندحرون، وكم هم مبعثرون ومحرومون من الراحة والنوم الجاثم على أهدابهم..؟. عندما خيم الظلام على كل شيء، أو عندما كان المعسكر لازال خادرا في نومه الصباحي العميق؛ رأى حميد بصراوي عدة جنود بملابسهم الداخلية ومع جروحهم العميقة وعبر غابات القصب والمستنقعات المالحة يهربون الى الجانب الآخر لينقذوا أرواحهم بأي ثمن. هذا المنظر كان مضحكا لحميد بصراوي بقدر ماهو مؤلم، لأنه يرى رأي العين..، أن هروب أي عدد من الجنود يؤدي الى تقليل الخبز، أو بمعنى أدق، يعني الوحدة والانفراد وفقدان الأحباء والأصدقاء وهذا لايسعده.

وقبل ليلة من الهجوم المعهود حدث ما ليس متوقعا في الحسبان. كان حميد أمام تنوره نائما نوما عميقا، وفي هذه الاثناء وبغتة.. سمع نداء استغاثة من جندي جريح وهو يتألم ويصيح و ببندقيته يشير الى الخنادق ويقول:(ها.. هم وصلوا.. اترك الخبز وانقذ نفسك..!!). من الشباك المكسور للمرقد أطل حميد على الخارج ورأى أن النار تحاصره من كل الجهات، وأن الهجوم الموعود انقلب الى هجوم معاكس من العدو، فها.. هو الوحيد الباقي مع تنوره ورغيفه ولا يرى أحدا حوله، بخار الدم يعلو من السهل الأبيض، السهل الذي أصبح لهيبا قانيا وكأن النفط سكب عليه.

أفراد مبعثرون مشتتون من الجنود انقذوا أنفسهم بالصدفة من ذلك الهجوم غير المتوقع، ووصلوا الى الجبهات الخلفية، انهم يتساءلون في ما بينهم عن مصير حميد بصراوي، منهم رأى أنه وقع في كمين لجان الاعدام، تلك اللجان تستقر في الجبهات الخلفية ومهمتها اعدام الجنود الهاربين من الجبهات الأمامية. منهم قالوا، على حافة الطريق العام بين البصرة والعمارة رموه عاريا وعلى جسده جروح

كثيرة تكفي لعشرات اعشاش ألعصافير. جندي آخر وهو يحمل دائما على صدره نسخة من القرآن قال:( يمينا بهذا القرآن رأيت حميد بصراوي وهو يهرب نحو غابة القصب مجروحا وهو يحمل الخبز ولفه دخان أبيض، اللهم لاتكتب عليه كفرا؛ أنه يشبه ذلك النور الذي يرسمه أحد ألرسامين حول الأنبياء).

قبل عدة ليال.. كنت منشغلا بقراءة رواية (الثلج) فجاءني نداء هاتف، كنت في حيرة من رقم الهاتف والشخص الذي يطلبني في هذا الوقت المتأخر من الليل:

هو أنا.. من هو جنابك..؟.

ـ (بصوت حزين)، أنا محمد خضير من البصرة.. من مدينة السياب، رأيت قبل أيام شخصا وهو يعرفك..!!.

ـ ما اسمه..؟.

ـ حميد بصراوي..!.

ـ نعم أعرفه.. وكنت معه مدة طويلة وفي معسكر واحد..، ولكني لاأعرف الآن.. ماذا حدث له..؟.

ـ أنه الآن جارنا.. وقد تزوج.. وله ابن وابنتان..، انه يعيش في فقر، وبجانب داره المؤجرة بنى دكانا صغيرا بالصفائح والقصب لاعاشة عائلته..، وعلم ابنه وابنته مهنة الخبازة.. وتقوم زوجته ليلا ونهارا بعجن الطحين...

ـ قلت له باكيا..، أخي العزيز بماذا تأمرني..؟

ـ اريد أن أكتب قصة عن هذا الرجل.. قصة لاتشبه قصصي الأخرى..، يجب على أن أروي حياته..!!.

ـ مهلا..، بعد ليال سأجيبك في رسالة..

ـ نعم، واني انتظرك.. وداعا في امان الله.

ـ عدت الى قراءة رواية الثلج، وما نمت حتى كتبت له الرسالة الموعودة.



# آباؤنا

قصة: نجاة نوري
ترجمة: كاوه حسن محمد

سمه البعض (أرشيف الحروب) لأنه حفظ عن ظهر قلب الكثير من حروب العالم ألتي أندلعت، ففي دفتر ذكرياته دَوَن المعارك التي خاضها منذ طفولته الواحدة تلو الأخرى. لقد أصبح رجلا من مخلفات تلك الحروب التي قضت على جميع أصدقائه في الحارة. (ولادتنا هي حروب، والموت حياة أخرىللحروب) يسمع الناس منه مثل هذا الكلام، وكان يقول لأخيه (لم نستطع في نعش هذه الحياة، أن نوهب لبعضنا لحظة حب، هل تستطع ان ترد علي، متى ننظف منازلنا من روائح الحروب) في كل الأوقات كان أخوه يتمعن ليعونه المجوفة ويعطف على جسده المنهك، (في مقدمة كل الأخبار، نستمع الى موت الناس، ولكن ليس هناك من يدعو الى خطايانا ويكفر عن ذنوبنا من قتل بعضنا البعض).

خلال عشرة اعوام كان أسيرا، عندما ارسله الى الخطوط الأمامية للحرب، لم يكن يعرف شيئاً عن الخنادق والأسلحة، ففي ليلة من ليالي شهر تموزأُسر، ومن تلك الليلة عرف الشيئ الكثير عن الحروب، ففي السنة الأولى كتب واحدا وعشرين رسالة الى أختيه، داخل القاعات الباردة والرطبة من حياة الأسر في شرق البلاد، وكتب كلمة عن حياته المريرة، (لو قرأ الرؤساء ذكريات أسرنا، فلن يصدروا مرة أخرى أوامر القتال) هذه الجملة كانت مدونة على غلاف دفتر ذكرياته.

حينما أطلق سراحه، تغيرت ملامح وجهه ونبرات صوته، كأنه سلخ من جلده وارتدي جلد رجل

عجوز، وعند خروجه في الأسبوع الأول كان يختار أكثر الأوقات صمتا، ويقول لزوجته (انني جثة هامدة بأمكانك تركي أو البقاء معي الى الأبد) وحينما يسأله أخوه حول أخبار الأسر، كان يرد عليه (لقد دفنت الإنسانية مع سقوط أولى الجثث في ميادين القتال، الرجال في هذا البلد إما أن ينهوا حياتهم في ميادين القتال أو في الشوارع) في أحدى زوايا حوش البيت كان يتمعن الى السماء المتربة، لبضعة لحظات كان يتحدث عن ذلك الجنرال الجريح الذي لقي حتفه في الليل أثناء الأسر) إننا متسولون في ميادين القتال ومكافأة توسلاتنا هو تابوت لا غير، أسألوا الحرب، متى نستطيع العودة الى زمن طفولتنا، أصبِح ذلك الطفل الذي كنت أبيع المثلجات، وأذهب الى وسط ميادين الملاعب مستصرخا ببيع المثلجات المغطى بالكاكاو، لا اريد أن اكبر مرة أخرى، لأن كبرنا كل لحظة من لحظاتها هي خسارة) في تلك القرية ألتي جعلت الحرب منها مقبرة، كان يتحدث عن أختيه ذواتي الملابس المهترئة، يتحدث عن الأسرى الذين ماتوا، وعن جسده المتعب حينما كانوا يعذبونه، وكان يتعرى أمام أختيه ليريهم أماكن الجروح ألتي كانت ظاهرة على الصدر والفخذ والظهر، أمتقعت وجوههم، وكان يلمس أماكن جرحه كطفلٍ عار يتمعن ألى جسده، (من يكافئني على عشر السنوات هذه، لا أحد..) كان يخاطب نفسه (الحرب مقابل الجمال يجعل منا وحوشا أمام الناس، يجعل منا أكذوبة) حينما أرتدى ملابسه لعشرات المرات، أومأ لزوجته وأضاف(تعالي لنفهم لماذا خلق الله الإنسان، وهل تفهمي لماذا أمطرت طيور أبابيل جيش أبي جهل بالحجارة، لماذا لا تأتي ألآن وتًرجم هذه الجيوش الشريرة، فمن حقنا أن لا نفهم الحاضر و الماضي، فحتى الطيور و الناس والأحلام قد تغيرت، إلى أواخر عمرك ومن خلال نعشك هذا، أحلمي بصعلوكِ مثلي، إحلمي بتلك الدنيا المعتمة ألتي جعلتك تمكثين خلال عشر سنوات في أنتظاري) لو بحثت تحت فراشه و وسادته، لوجدت بعض الدفاتر الكبيرة، ألتي خصصها لتدوين ذكرياته، فالكثير منها مليئة بالكلمات... دوّن على أحدها، كيف أن الأسرى كانوا يمارسون اللواط مع بعضهم البعض، وعشقوا بعضهم الآخر، وكتب عن تلك الأيام كيف ان اثنين من أصدقائه المقربين قد ماتا بعد ثلاث سنوات من الأسر، وقد أطلق عليهم أسم (الطيور المبللة) حيث كتب (إلهي لا تغتفر لخطايانا إذا ما قُتلنا في الحرب) وكتب عن الناس في الخنادق وأطلق عليهم أسم السحالي المتحاربة، (في الخنادق، نحارب كي نعيش ليومٍ آخر).

اعتلى بأقدامه على دفاتره صارخاً، وكانت أختاه تبكيان (إبكيا حتى تختنق كل الأصوات الشريرة وقوانين الحرب في دموعكما) وأراد أخوه أن يهدئه، ولكن أجابه قائلاً (يا أخي الحرب ستستمر بدماءنا نحو النهاية، علينا ألا نصمت حتى ننهي تارخ الحروب، تلك الأيام القاسية ألتي تفدي لحظاتنا لأشخاص آخرين، وتهدي سعادتنا ألى الرجال الخائبين ومثل البوم نضيع في الشوارع المقفرة، هذا هو قانون الحرب، لا يدعنا ان نعيش مثلما نرغب، رجاءً أبتعدوا عني حتى لا يصيبكم أنفاسي بالأنهاك، يا أختاي لم تستطيعا بين أخوتكما أن تسردا حكاية نضجكما) وأمام الصورة الكبيرة لرئيس البلاد يأتي بأختيه

ويوقفهما متحدثا (من منا هنا ليس متسولاً..والرئيس بشكل يومي يصلي على إنتصاراتنا، لأنه مكتئب لأنكسارنا، يا أختاي رئيس البلاد يرحمنا جميعاً) عندما كانت أختاه تتوقفان عن الحديث، و يضيف قائلاً (أيها الرئيس المحترم خلال يوم واحد أرجو أن تعلن التعازي صغيرة كانت أم كبيرة في جميع أنحاء البلاد، وأقرأ علينا جميعا دعاء رحيلنا) وكانت زوجته كامرأة تتارية منهمكة في التمشي، فقد أنذهلت خلال أحدى الليالي من تعري زوجها، تمعنت الى (قضيب) زوجها لم يكن موجوداً، وأدركت في تللك الليلة أن شظايا أحدى قنابل الحرب قد فصلت هذه القطعة عن جسده، وقال لها في تلك الليلة (كنت جثة لقد بعثني الله كي أحيا مرة أخرى على الأرض) ومن تلك الليلة كانت تشاهد زوجها مع إنهماكه في التدخين، يسير من حارة الى حارة، مناديا أمه، ويخبر الناس عن وصول أبيه. يمر على الباعة والمحلات والسواق، يسرد عليهم أيام الحرب، مع كل حكاية كان يوقد سيجارة، في تلك الأيام كانت جيوبه ممتلئة بالسجائر. وبمحاذاة الجدران كان يبحث عن ذكريات طفولته ويسأل الناس (إذا رأيتم جنرالاً في هذه المدينة، أبعثوه إلي، وإذا جاء الليل أعطوه قنديلا لأنه لديه رسائل كل القتلى، وإذا ما رأيتموه لا تدعونه يموت).

حينما كان يعود الى المنزل هكذا كان يتحدث مع أخيه (يا أخي انت لا تعرف أمك، فرأسك يشبه شخصاً ورجلك يشبه أثنين آخرَيين، عيناك ورقبتك النحيفة تشبه واحدا آخر، فخلال تسعة شهور وتسعة أيام رأيت الكثير من وجوه الرجال، حتى وصولك الى هذه الدنيا كان الرجال يتحرشون بأمك كي يضاجعونها المرة تلو الأخرى، يا لعجب هؤلاء الرجال دون أن يتخوفوا من طفولتك، كانوا يأتون إلى فراش أمك، كم كنت أتألم من تلك الأيام، الرجال كانوا يمسحون منيّهم على الغرف وأرجاء الصالة، ويتغنون بفحولتهم، تعال يا أخي لنفهم من هو أبينا، فآباؤنا كثيرون، واحد منهم يملأ غرفنا بالمني، والآخر يعد الجثث في الخنادق، يا أخي آباؤنا كثيرون، دعك من هؤلاء الآباء، سوف نموت ذات أمسية والكلاب تنبح في الدروب، فهذه الآماسي يتقزز الآباء من جثث أبنائهم) حينما يقف وسط الحوش مع انهماكه في التدخين، يتحدث مع أختيه بكل غرابة، يترجى منهن كي يرجموه بالحجارة ويحرقونه، وفي الليالي وحتى بزوغ الشمس وكأنه يحرس البيت، لم يكن ينام، كان يتمشى في الحوش، وفي الليل يذهب ألى أخيه ويتكلم معه حتى ينهك قواه، (يا أخي هل تحفظ تلك الأناشيد ألتي تعلمناها وسط القمامة، هل تتذكر تلك الأدعية ألتي كنا نتلوها أثناء بيع الصمون حول الجثث المرمية، التي كانت تفوح منها رائحة، كرائحة قلادة أمي القرنفلية، كم كنا نشفق على تلك الجثث، التي لم نكن نعرف الى من تعود، وهل تتذكر تلك الأغاني ألتي كنت ترددها للرجال المسنين، سوف يقتلونك يا أخي، لذا لا تفشي عدد الجثث المرمية، كل من لديه ذكريات عن الحرب سوف يقتلونه، اياك أن تعطي أعداد الجثث ألى الصحف لأن المدن والشوارع والدروب عبارة عن مستشفى للمجانين، لن ننهي عمرنا فيه، لقد ورثنا من أجدادنا داراً للمجانين، يا أخي كيف نقضي ليالينا في هذا الدار. كان هناك أحد الأسرى يبكي بأستمرار، فأطلقوا

عليه أسم الطفل الباكي، وكان هناك رجلُ آخر لا يقوم من فراشه إلا أثناء تناول الطعام، الأول عن طريق بكائه أراد أن يقول لنا بأن الحرب قد قتل كل أمانينا، وكان الثاني يقول نفس الشيئ ولكن بشكل صامت، لقد تركونا في فضاء من العفونة، لا هم يقتلوننا ولا هم يحيوننا، أخي أخرج من تلك الأغطية القذرة، تعال لنبحث في الحارة عن غاسل الأموات، فهو الوحيد الذي يستطيع أن يغسلنا جيدا من البركة التي يشرب منها الكلاب، فهو يستطيع أن يكشف عن خطايانا للناس، بمقدوره أن لا يغسلنا، بل يتيمنا بالتراب الأحمر من التعاسة والبؤس، يا أخي من نكون نحن، غاسل الأموات هو وحده الذي يعرفنا، بأستطاعته في كل الأوقات أن ينقذنا من هذه العفونة، أيدينا ليست لنا، نقتل بها الرجال...ونوّقع على كل الحروب، نحن لسنا أصحاب تلك الأيادي، فبهذه الأيادي ومنذ الطفولة يختارون لنا أماكن قبورنا، تكلم بسرعة وأعطني أسم الأرض ألتي أرمي فيها جثتك، يا للعجب تحملنا حتى الأن كل هذه المآسي، لا ماضينا نستطيع أن نتخلى عنه ولا نستطيع أرضاء آبائنا الأشرار، كم صعب أن نبحث عن مثل هذه الأشياء، يا اخي منذ أن سلب الحرب هويتنا، فلا أحد يعرف منا الآخر).

بعد عدة أسابيع كان الناس يشاهدون رجلا في الشارع، منهك ووسخ، حاملا على كتفه بأستمرار حقيبة مليئة بالأوراق،

وكان يتحدث للناس (مصيركم جميعا في هذه الحقيبة، سوف أحرقها غدا).

وفي الليل كان ينام تحت جدران الشوارع..

المصدر: أغاني بائع السمك وقصص أخرى، للقاص نجاة نوري، أصدار ٢٠٠٦ السليمانية.

---



# الرمز والتغريب في مسرحية (الجراد)

ابراهيم باجلان/ خانقين

(( يجب تصوير الحياة لا كما هو، ولا كما سيكون بل كما يبدو في أحلامنا))
تشيخوف في مسرحية طائر البحر

يمكن اعد مسرحية ((الجراد)) للكاتب محي الدين زنكنة، من النتاجات المسرحية الجادة المبدعة التي تبشر بمستقبل زاهر للمسرحية العراقية الملتزمة. وهنا لست اطلق الكلمات على عواهنها، بل مستندا على البناء الفكري المتين لهذا العمل الادبي الفني الرائع وتناسق الهيكل والمضمون فيه، ولاعتبارات فنية وادبية عديدة، لاننا لا نستطيع تناول أي نص ادبي بالنقد والتشريح .. كما نهوى، دون الرجوع الى مضمون العمل نفسه ولكن نستطيع تعيين موقع هذا العمل او ذاك من النتاجات وتأثره بالاعمال العربية والعالمية، اذا توصلنا الى مكان تأثر النص بالمدارس الادبية الاخرى سواء في الادب المحلي او العالمي مع البحث عن روح الابتكار فيه. ومن هذا المنطلق نحاول البحث عن موقع مسرحية ((الجراد)) وتأثرها بالمذاهب الادبية المختلفة والفنية الاخرى.. ولاول وهلة تبدولنا هذه المسرحية وكأنها تحذو حذو مسرح اللامعقول، ولكن بعد التوغل في احداثها يتبدد هذا الظن من اذهاننا، ولقد قرأت (الجراد) اكثر من مرة حتى ادركت انها مسرحية ملتزمة وليست من اعمال الضجر والتقزز واللامبالاة، كما اشار المؤلف نفسه، وايقنت انها تستند الى فكرة (التغريب) الذي دعا اليها (بريشت) وهو تكنيك..

تقصد بـه اثارة الاندهاش وهـدم العادة والتالف اليومي للانسان بعلاقة مع العالم. فاختيارعنوان الجـراد للدلالة على ما اراد المؤلـف ان يوحي به للقارئ كرمز لكل ماهو شـرير وفاسـد وجشـع وسيء ولكل ما ينغص عيش الانسان، او يحاول ان يسـلبه ارضه او ثمار جهده او حريته او ان ينال من كبريائه وشموخه.

مما تقدم لايمكـن اعتبار (الجراد) من اعمال مسرح اللامعقول، لان رموزه مفهومة عند القارئ الواعي، ولانه في مجمله لايتفق مع مضمون مسرح اللامعقول واساليب دعاته سواء في نظرتهم للحياة او في تعاملهـم مـع الآخرين. فأدبـاء اللامعقول وانصـاره كما يقول عنهم الاسـتاذ يوسـف عبد المسـيح ثروت:- (يرون ان العدمية هي المنتصرة وهي التي تتغلغل في العمل الذاتي نفسه والانسان لديهـم ظاهرة عرضية والعقل عاجز عن الادراك .... الخ) اما كاتب الجراد فعلى النقيض من اولئك الكتاب اسـتعمل (التغريب) لكي يشـد القارئ او المتفرج بعد اخـراج المسـرحية وربطه بأحداث عمله ولا يتركه الا وهو غارق في اجواء البحث عما حدث او يحدث امامه وفي عوالم ذلك البحث.

ويقـترن اسـم الجـراد في اذهـان المجتمعات الزراعية، وابنـاء الريف بالقحط والغلاء والاوبئة والمجاعـة. ولقد جعل (برشـت) التغريب ملازما للدرامـا الاجتماعية او الصـراع الطبقي بمعناه الواسـع فهل في الجراد اثـر للدراما الاجتماعية ؟ ... والجـواب اجل فالدراما الاجتماعية او الصراع الطبقي يبدو واضحا وجليا في مسرحية (الجراد) وأبطال المسـرحية ينتمـون الى مختلف الطبقات وهم لا يتحركون بلا هدف وليسوا اناسا بلا هوية ولا تحركهم العقد النفسية والازمات الفرويدية .

فالمسرحية هنا ليسـت عملا سيكلوجيا وانما ابطالها بشر اسـوياء يحبون ويكرهون ويقاومون ... لاسـباب وجيهـة ويموتون ليـس من اجل لا شـيء وانما في سـبيل خير قضيتهـم وفصيلتهم ومصلحتها. فالشـاب العامل يعـرف طريقه وهو يحاول دوما التسـلح بالمعرفـة، فالكتاب لايفارقه لحظـة، حتى خلال مدة انتظاره لسـيارة المعمل. وهو يقـول: للرجل الذي يدعوه لان يركب رجله بـدلا عن السـيارة هذه المـرة قـررت ان انتظر وسأنتظر هذه السيارة الملعونة، لان صاحب المعمل يسـتنزف اجرتهـا من دمي .فهو يشـخص عدوه الطبقـي جيـدا ،وحتى صديقه الاعـرج مع كبر سنه باستطاعته ان يميز اصدقاءه من اعدائه فهو ناقم علـى زوجته لانها باعت المبيد. اذن الصراع في الجراد، صراع طبقـي وليس صراع الاجيال او الجنس.

لان الخطيب والشـاب والزوج، كلهم من جيل واحد ولكـن العامل والـزوج مناضـلان واعيان والخطيب دجـال منافق. ومن المآخذ التي وجهت لهذه المسـرحية ماكتبه السيد عبد الستار ناصر، علـى صفحات مجلـة (الـف باء) عقـب صدور المسـرحية وهو ان الحوار الذي يجري بين الزوج وزوجته حوار رومانسي غير واقعي ومكثف لدرجة الغثاثـة. لقد غاب عن الناقد، ان العوائل الكادحة تنطلق على سـجيتها حين تتحاور وتتحادث فيما بينها بلغـة القلب والعواطف. بعيدا عن الزخرفة الكلامية والبلاغة اللفظية، والدبلوماسية في اظهار

المشــاعر فهي تحب وتكره بعمق. وما اورده المؤلف مــن حوار يقارب ويتطابق مــع الواقع. فكثيرا ما يتحاورون هكذا في لحظة صفاء. او حتى في اســوا الاحوال وكلمــا توغلنا في اعماق هذا العمل المبدع تكشفت لنا اشياء وصور خافية .. تتضح لنا شيئا فشيئا وحيث نقرأ نزداد خبرا وادراكا.

ففــي الحركــة الداخليــة للاشــياء المرفوضة – المشــهد الثالث – وفي (ص٤٩). يشــير السائق الى وكيل، الشــركة عندما يتحرك هــو ورفاقه لصد هجوم الجراد متســائلا: وهذا الاخ ألا يساعدنا..؟ ويكون جواب الوكيل مرتبكا ويعتذر عن المشاركة بذريعــة انه لا يســتطيع ترك محلــه لان الناس لصوص، وكان بوده ان يساعدهم كما يزعم.

فالوكيــل يتقاعس عــن اداء الواجب ويختلق المعاذيــر مع انه يتعمد عدم المشــاركة. بل ينتهز هــذا الجو غير الطبيعي لكي يســرق فواكه البائع الذي كلفه حراســة عربته ومراقبتــه. فالوكيل يرمــزالى (الكومــبرادور) المرتبــط بالاجنبي اما البائع والســائق والشــاب والفلاح ،فانهم من قوى الشعب العاملة وعنوان الثبات، والدفاع عن الارض والوطن بوجه الغاصب .

فهم يتصدون للجراد بصدورهم العالية ،ببسالة واقدام، في حــين يتحين الوكيل الفرص للصيد في الماء.العكر فهو يطلب عشــرين دينارا ثمنا لبضع قطرات من المبيد المغشوش المسروق. والطفل رمز البراءة والسذاجة ،لانه يرى في الجراد لعبة جديدة وشــيئا غريبا يحاول ان يلهو به فالمؤلف يريد ان يقول .. ان الذي يحب الجراد او يهادنه ،شــخصان احدهما شرير وفاســد ومتعمد ومنتفع ، والاخر برئ وساذج وبسيط ،وهو يذهب ضحية لسذاجته حيث يفترسه الجراد، على الرغم من أنه رفض ان يبدله بالتفاحة الحمراء – فالجراد لايرحم حتى الابرياء.

والوكيــل يدعو النــاس للخنوع والاستســلام ولمــداراة الجــراد (ص٧١). وخلال اشــتداد هجوم الجراد وعنف المقاومــة يولد طفل جديد، ويولد امل كبير، ويعلن الشاب: ها قد جاء الوليد فالجراد لن يخنــق الحياة قــد يعطلها ولكنــه عاجز عن خنقها.

وفي المشــهد الرابع (في المنفــى) دعوة للتكاتف والوقوف بوجة الشــر المتمثل بالجــراد الزاحف. وفي هذا الفصــل، يمتاز الصراع بالقــوة والعنف. وهنا يكون الانســان امام الامتحان العسير، وعليه الاختياربــين الخنــوع و التحول الى مســخ ،وبين المقاومــة وحيــث لاينفع الانتظار. ونجد الشــاب مخاطبــا امه، التي تحاول منعه من المشــاركة مع الاخريــن في صد الجــراد ومقاومتــه خوفا على حياتــه قائــلا: - ان الوحــدة والخوف، والجشــع والانانية وحب الذات. هي التي تمهد الجو المناسب للجراد، ليمارس غزوه في حربه. فالشاب هنا رمز للوعي.

ان كل مــا يحدث في المســرحية ليس مفاجئا ولا طارئا، وعملية التحول والمســخ ليست مفاجئة ولا مصطنعــة، فالجو ممهــد لكل بطل من ابطال المسرحية ليصنع مســتقبله في النهاية، فالخطيب اناني وغشــاش لايهمه ان يتمتــع حتى باجازات الاخرين. فداخله كان ممسوخا، لذا لا نجد غرابة من ان يتحول الى مســخ في مظهــره، وأيضا رغم

استحالة هذا الامر في الواقع الشكلي المتعارف عليه .والعجوز الشرهة الحقود الناقمة، على كل شيء جميل في الحياة على الحب والسعادة، وعلى الابتسامات الحلوة على شفاه الاخرين، ولو كانوا اقرب الناس اليها، اضافة الى ماتحمل في دخيلتها، من طباع ذميمة كالحسد وحب الذات، وهي هنا رمز للرجعية المعادية للتقدم. اما شخصية الدكتور فهو انسان مصاب بداء العظمة وعظمته فارغة،لانها حلم بالمكاسب الشخصية والجاه الفردي لذا ينهار منذ ظهور بوادر المعركة، وعندما ينهار يعتقد ان العالم انهار معه. وحيث يشير بيديه ،علامة الانهيار فأنه يرمزلانهيارالقيم الانانية.وكل الذين تحولوا الى مسخ كانوا يحملون بذور الاستعداد لهذا التحول وفي المشهد الخامس (المحاكمة).

محاكمة كل قائد لايكاشف الجماهير حقيقة الامورحتى لوكان مخلصا وادانته، وحيث يمنعه المنهزمون عن اداء واجبه، على الوجه الاكمل. ويظهر اخلاص (الاب المتهم) وعلى الرغم من الانتكاسات التي لحقته يظل مؤمنا بالمستقبل ومخلصا لما يعتقد من رأي، وبما يحمله من عقيدة، وقوله: ان الانسان هو الذي خلق المزرعة ان ماتت المزرعة فنحن باقون .وان متنا فسيأتي احفادنا فهذا القول ينطوي على ثقة تامة بالنصر وبقدسية رسالته في الحياة .أما في المشهد الاخير (المقاتلون بالكلمة) ،فيتضح ماكان غامضا وتكتمل الصور ،ويكون الصراع على اشده بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع التي بدون الدفاع عنها لايمكن حماية حقوق الفرد كذلك. ويشتد غزو الجراد ويكون الصراع على اشده ويبدأ غزو الجراد وهجومه الى داخل البيت عن طريق المدخنة (ص١٨٨). وهنا يتشابه هذا المنظر مع هجوم(الغراب) في فيلم الطيور للمخرج (هتشكوك). حيث تهاجم الطيور المنزل من المدخنة ايضا. وربما شاهد الاستاذ المؤلف الفيلم المذكور فانطبع المنظر في عقله الباطن او انه مجرد توارد خواطر.ولا يقلل هذا الشيء من شأن المسرحية مطلقا ايا كان سبب اختيار المدخنة، وفي هذا المشهد ينكشف جوهرالام، التي لايهمها مصير الاخرين ولا تستجيب لصراخ الجائعين وحشرجات المحتضرين . وتظل تفكر بموعد زفاف ابنتها في خضم تلك الاجواء الحالكة حتى ينتهي بها الامر الى مرحلة الاستسلام وتنوي النطق بالقبول، ولكن ابنتها تنهي حياتها قبل ان تتفوه بالقبول. فكل الصور الباهتة تكتمل خلال (المقاومون) وكل ماكان مجهولا مصيره يتضح تماما، فالنهر ممتلئ بالجثث والجراد يملأ الفضاء والخطيب مسخ ،والدكتور مسخ ،والعجوز ايضا. فكل هؤلاء تحولوا الى جراد لكونهم ضعفاء وتضحي الشابة. لكي لا تسلم الوديعة (ابنتها). امل الغد الذي تخشاه العجوز الشرهة، والجراد والصبي بائع الخبز يضحي وتظهر جثث المقاومين العامل والسائق. ففكرة الموت مسيطرة على اجواء المسرحية — يموت خلالها الخيرون والاشرار وتموت الفتاة التي ابت ان تكون مسخا ويموت الاخرون — وكذلك تموت الام المستسلمة والطفل الساذج ولكن الوليد والشاب يظلان على قيد الحياة كإشعاع وامل للغد ومن جثث المستسلمين والخانعين، تفوح رائحة النتانة والقذارة، واجساد المكافحين تعانق السماء

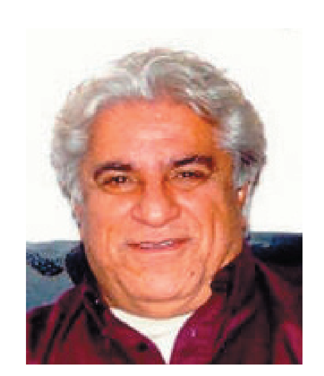
،كأعمدة من ضياء تنير الدرب للاجيال القادمة.

ويفـوح العطر من اجسـاد الشـهداء، ليطرد عفونة الجراد وعفونة الخونة والخانعين. فالموت في الجراد ليـس عبثا، ولاهبـاء. وانما هو كالموت الـذي ماته (جيفارا)، مستشـهدا من اجل قضية الثورة، فابنه زميله في الكفاح قائلا (نحن الثوريون نؤمن بخلود عمل البشر ومبادئ البشر ونحن اول من يتعرض على مافي حياة البشـر الجسدية من قابلية للزوال ومافي افكارهم وسلوكهم ومثلهم من اسـتمرار. مادام المثال هو الذي ألهم وقاد الشعوب على مدى التاريخ) . والمسرحية هذه بعدما تقدم، يظهر فيها التفاؤل من خلال نجاة الشـاب والوليد الوديـع الغالـي. ورغم ان الحـوار طويل وخاصة المشهد الا انه حوار شاعري جميل يقترب من لغة الشعر بل يكاد يكون.

وامتازت المسـرحية بتعدد شخصياتها، مع ان دور بعضهـم كان ثانويـا كالممـرض والفرح وان المؤلف قد اسـتخدم المارد كذلك. وان كان لابد ان نضيف شـيئا فـأن الجراد تجاوز (السـر) الانتاج الاول للمؤلف وجاء مسـاهمة جادة، من اجل رفع مستوى المسرح العراقي واخراجه الى الحيز العالمي، واخراجـه من نطاق المحلية. ويشـكل بالنسـبة للمؤلـف طفرة واجتيازا لمرحلـة البداية، وحلقة الوصل في مرحلة النضوج والتكامل. ولا اذيع سرا ان قلت ان مسـرحية الجراد مـن البداية وحتى النهاية تذكرنا بانقلاب شـباط الاسـود،عام ١٩٦٣ وجرائم المنحرفـين وان الفصل المعنون بالمحاكمة يعد محاكمـة لنظام الزعيم عبد الكريم قاسـم ذلك الزعيم الذي كان مع نزاهته واخلاصه لايثق بالجماهير ولا يصرحها بالحقائق. بقي ان نقول ان فكرة المسرحية عموما صرخة هادرة بوجه اعداء الحياة واعداء الانسـانية وادانة لقول الاستسـلام والظـلام وبشـارة بمولد عالم بلا جراد يسـوده الحرية والسلام.

ملاحظة – كتبت هذا النص عام ١٩٧٤ وحفاظا على الامانة التأريخيـة والادبية لم اضف اليه الا رمز انقلاب شـباط الاسـود والذي لـم ادونه في حينه (أ.ب)

# المثقف والمدينة الدراماتورج في المسرح



ياسين النصيِّر - هولندا

1

كتبت في مقال سابق عن " الملقن" في المسرح، بوصفه شخصية من انتاج المدينة الحديثة. وفي هذه الحلقة اعود للكتابة عن شخصية أكثر اهمية،وأوسع مدى من الملقن، تلك هي شخصية الدراماتورج.. وهو ايضا كائن من إنتاج المدينة. وقبل أن تصبح هذه الشخصية مفهوما يتداوله العاملون في حقول عدة، كانت نواة في رحم النصوص المقدسة والدراما وعلم السياسة والاقتصاد. وعلى الرغم من أن مثل هذه الشخصية غير مسموع بها خارج العاملين بالمسرح، تكفي لان نعرف انها اليوم من اهم البنى المعرفية في ثقافة المدينة، اعني الدراما والملحمة والسياسة والفلسفة. ويحدوني الأمل بان أجيب عن تساؤل لأديب مهتم بكتابة اطروحة ماجستيرعن الدراماتورج في المسرح، وقد كتب إلي رسالة، يستحثني فيها ان أكتب عن تجربتي الخاصة كدراماتورج في المسرح العراقي، فستكون الفرصة لي مضاعفة؛ أولاً الحديث عن بنية شخصية الدراماتورج كجزء من حداثة المدينة ً،وثانياً تجربتي المتواضعة كدراماتورج في مسرحية دزدمونة تأليف يوسف الصائغ واخراج ابراهيم جلال. وثالثاً عن قابليات هذه الشخصية في توليف نص للحداثة يتألف من مستويات متباينة من الفعل الإنساني. فمثل هذه المهمة المركبة، لايوفرها النص، ولا الاخراج، ولا التمثيل.

وهو ما سوف اتطرق إليه في تجربتي. ومن هنا يفيض الدراماتورج على اي نص، واي اخراج، واي تمثيل، واية مدينة، لأن ميدانه العملي هو مسرح الحياة بكل ما تعني مفردة مسرح الحياة من اصول وفروع واشتقاقات.

لقد اولى المسرح الحديث هذه الشخصية اهمية استثنائية بعدما اكتشفها واعطاها اهمية المايسترو في الفرقة السمفونية.يقود العمل الموسيقي ويشرف عليه وينفذه بطريقته الخاصة دون ان يمسك غير العصا المتحركة في فضاء المسرح.هذه الشخصية تعيش بيننا،وتتفهم كل ما يجري في محيطنا والعالم،هي المطبخ والدماغ والممارسة، وهي القيادة والتنفيذ، وهي الصحيفة التي يجتمع فيها كل ما يمكن ان يقرأ ،هي الإيديولوجيا المهيمنة التي تعيد صياغة الحدث بما ينسجم وروح المرحلة، وهي التكوين الذي نراه ويختفي عنا وكأنه جزء من بنية النبوءات المستقبلية. هذه الشخصية موجودة في الكتب القديمة بصيغة الانبياء والرسل، وفي المقدسات بصيغة الاولياء والعلماء والمفكرين، وفي الحياة اليومية بصيغة الحاكم والمسؤول. شخصية تعيش معنا في الشوارع، وفي البيوت، وتتقاسم الهموم اليومية،لتصوغ منهجية الدراما القادرة على اشاعة الحب والطمأنية.

من الواضح انني ابحث عن توصيف لشخصية الدراماتورج، يتناسب ودورها الكبير الذي نعيش نتائجه.هذا التوصيف سأجلبه من المسرح إلى الحياة،ومن الحياة إلى الثقافة، ومن كليهما إلى النقد. وعلينا أن ندركً ان هذه الشخصية هي في صلب كل مؤسسات البحوث والدراسات التي تسيّرالعالم، وتمنهج الاقتصاد والسياسة،والسلم والحروب،انها كاتبة السينورياهات المغيرة والقادرة على انتاج نص جديد، ولذا فهي تكوين هجيني يجمع بين المؤلف والمخرج، وبين الممثل والسينارست، بين الجمهور الحاضر وجمهور المستقبل، وبين الأدب والاقتصاد،وبين الشخصية والنمط،. ولذا يمكن ان تكون هنا في هذه البقعة من العالم أوهناك. في هذا الزمن او في الازمنة القديمة. فلا تهملوها إنْ شاهدتم افعالها على مسرح الأحداث دون حضورلها، أوإن سمعتم كلامها في ندوة تلفزيونية دون ان تطل علينا ،أو عرفتم منشأ بضاعتها الأجنبية في السوق دون ان تعرفوا مستوردها، أو قرأتم خططها في درس جامعي لتغييرالمناهج دون أن تعرفوا اين هي، أولقنتكم تعاليم جديدة في الخلق والتكوين والفكر والذين دون ان تنتمي لنا، أو سمعتوها تتحدث في محافل دولية عن مشكلات القرن الخامس والعشرين دون ان تقوم بوظيفة. انه الدراماتورغ الذي يصنع نصا جديدامن مرجعيات عدة، فالحداثة بحاجة دائما إلى من يسوق اطرها خارج سياق اي تنظيم او طبقة، وهكذا يشار إلى مدن الحداثة: باريس ولندن وموسكو وبرلين، على انها مدن بهويات قومية وثقافية عريقة، تكونت بفعل إرادات ارتبطت بخطط تحديث واسواق وسياسة منفتحة وطرق مواصلات وعمارة ، وفلسة وتعليم واصول حكم وقوانين، ونصوص وفنون جديدة، وأشير إلى بغداد ودمشق سابقا من انها مدن الهوية العربية لارتباطها بحلقات مفصلية في التاريخ الإنساني، لذا علينا أن ندرك أن المدن لا تصاب بالشيخوخة إلا متى ما فقدت الدراماتورج - المايسترو- الذي يكمل معزوفتها

التي ابتدأت باطـــر قديمة ثم تطورت لاطر اكثر حداثة. وربما نعيد إلى الأذهان الصراع الدائر الآن في العراق بين القوى المختلفة من اجل اعادة بغداد لهويتها كمركز لحاضرة الدولة العربية الأسلامية، بعد ان ضعف هذا المركز وتناهبته مدن اخرى مثل القاهرة والرياض ودمشـــق وطهـــران وغيرها،وكل طرف مـــن اطراف الصراع يفهـــم مركزية بغداد بطريقة مختلفة.

لاشك انني احلق بعيدا عن السرب الذي يغني وهو طائر، لايحث على شخصية لم نتعرف عليها في ثقافتنـــا بمـــا يكفي، بينما هي جـــزء من نتاج المدينـــة الـــذي تحرك فينـــا كل مفاصـــل التقدم والتأخر،فكما هو في المســـرح لا تظهر على خشبة المسرح ولا يمكن للمشاهد أن يتعرف عليها، كذلك هي في حياة المدينة ترى افعالها دون شـــخصيتها، وتعيـــش في منهجيتها دون ان يتـــاح لك الفرصة للحوار معها،لا تكتب نصا بل تكتب سيرة للنصوص التي تظهر في مرحلة معينة.

2

وقبل أن نبدأ الحديث عن ماهية الدراماتورغ في مســـرحنا العراقي علينا أن نفهم ما هو مفهوم المســـرح الحديث عندنا. ففي المســـرح التقليدي لا يوجد دراماتورغ، وإن وجد كان عبارة عن شرائح غير واضحة شـــرائح مكونة من عدد من مفردات العرض المسرحي، بما فيهم المؤلف والمخرج ومدير المسرح والمنتج والصحافة والناقد. ومن هنا ستكون اللفظة غريبة على مسرحنا العراقي، قبل اخراج مســـرحية دزدمونة ليوسف الصائغ، وقد اخرجها الفنـــان إبراهيم جلال، وأصر علـــى أن يكون ثمة دراماتورغ معه في العمل المسرحي. وكان قد اقترح أن أكـــون أنـــا الدراماتورج للعمل.هـــذه المرة الأولى المفاجئة بالنســـبة لي. لذا يمكـــن القول وبوضوح أنـــه قبـــل نهايـــة الثمانينـــات لم نجـــد حضورا لمفهوم الدراماتورغ في المســـرح العراقي. وقبل هذا الوقـــت جرى تداول لمصطلحـــات جديدة من قبل المســـرحيين العراقيين خاصة القادمين من الدول الغربية والشـــرقية من قبيل: العرض المســـرحي، والميزانسين، والدراماتورج،وقراءة العرض. وانتاج العرض المسرحي... الخ. وهي نزعة اسلوبية رافقتها اجتهادات فنية اثبتت قدراتها على ترســـيخ مثل هذه المصطلحات لاحقـــا خاصة لدى المخرج المبدع قاســـم محمد، فقد نقل لنا بحرفيـــة فنية عالية الكثير من مفاهيم الاخراج في المســـرح الســـوفيتي اضافة إلى قدراته الفنية العالية كمجدد في الإبتكار والتنفيذ والدقة للمفهوم. ورافقه الاســـتاذ الكبير ســـامي عبد الحميد الـــذي كان بالفعل ديناميكية الاخراج وسعة نشاطه الاكاديمي والخاص، وبالقرب منهم مخرجـــون فاعلـــون لعل الاســـتاذ المرحوم ابراهيم جلال في قمة من استثمرجهوده الدراسية والفنية في تثبيت تيار اخراجي متميز الى ان جاء بعده رعيـــل متمكن من الاخـــراج منهم الدكتور عوني كرومـــي ونخبة متميزة مـــن المخرجين لا يمكن تعدادهم الآن.

كنـــت اعتقد ان عملي بالمســـرح ناقدا ومتابعا قد اعطـــى انطباعا للأخرين، وخاصة المخرجين، أن اكـــون صالحـــا للدراماتورغ، وكان اســـلوبي في المرافقة للمســـرحيات اثناء التمارين والتي دربت

نفســي عليها طوال عشــرين ســنة،قبل ان اكون دراماتورجا،هو صيغة شعبية لمفهوم الدراماتورج. أي كنــت ابــدي ملاحظاتــي علــى كل مفردات العــرض المســرحي، وكان صدى تلــك الملاحظات ايجابيــة في معظم الأحيــان. وقبل هذه المهمة لم يكن لــدي او لدى الأخرين اي تصــور عن موقع الدراموتورغ، أوالكيفيــة التي يعمل بها.ولذا قلت مع نفسي لابدأ بالطريقة التي كنت اعمل بها مع المخرجين أثناء مشــاهداتي لأعمالهم قبل العرض من تقديم ملاحظــات، وحول الخطة الإخراجية وكيفية تنفيذهــا من قبل الممثلين،وعلى الترابط بين المشاهد، وعلى الأداء، وعلى بنية النص نفسه وســير العملية الفنية كلها. ثم عــن العلاقة بين النــص والمرحلة وقــد قمت نتيجة تلــك المتابعة بأول احصــاء ميداني للجمهــور وقاعات العرض وتكاليف العرض واجور الممثلين والنصوص المحلية التأليــف والاجنبية التأليف وتلك التي اعدت عن مســرحيات ثم تأثير مدارس المسرح العالمية على مؤلفينا ومخرجينا وتعد دراستي المسندة ببيانات أحصائية عن مواسم المسرح واحدة من الدراسات القائمــة التي تفهم عملي للمســرح. ولذلك كانت معظــم ملاحظاتــي قائمة على المســرحية قبل العرض وبعد العرض، داخل المسرح وبين الجمهور، في الثقافــة الخاصــة وفي الصحافة، هــذا الدوران النقــدي المتابع انتج روحية منفتحة على تجارب الشــباب ايضا فمكنني من اكون قريبا لكل اعمال الفنانين كبارهم وشــبابهم.. وهــذا هو الحصيلة النقدية وتجدني اليوم اهتم بالعلاقة بين المثقف والمدينة بغية تشــخيص ملامــح حداثة الثقافة العراقية مستقبلا.

كان الاســتاذ ابراهيم جلال خريج المدرســة الامريكية ومتشوقا جدا لتطبيق منهجية برشت في المســرح الملحمي على الطريقة الأمريكية، لذلك كان يعمل وفق منهجية شبه مغايرة لسياق الأخراج الحديــث، وهي الجمع بين كلاســيكية مدرســية والتجريــب. ويــوم جلســنا في مديرية الســينما والمسرح؛ المؤلف يوســف الصائغ، والمخرج أبراهيم جلال، وأنا، للتداول بعرض مســرحية ديزدمونة والكيفيــة التي تســير عليها الخطــة الاخراجية وكتابة النص الجديد الذي سيعرض، كانت مهمتنا صعبــة. فثمة ثلاث إرادات بــدأت تطرح افكارها على العمل، المؤلف يريد الألتزام بالنص كما كتبه هو، لإيمانه بأنه نص مكتمل، لكن هذه النزعة لم تخل من هيمنة المؤلف على سياقات العمل، لاسيما وان المؤلف يومذاك كان مديرا للمســرح والسينما، وشاعرا له صوته الشعري الخاص، ومثقفا متعدد الأهتمامات في الرسم والصحافة والكتابة. وللدقة، فالنص مكتمل البناء، ومن الصعب أن تحذف منه أو أن تضيــف إليــه، نص فيه مــن الأدبية الكثير وفيه من المسرحية الكثير أيضاً. واستغرقت عملية الاخــذ والرد جلســات عــدة، إلى أن وافــق المؤلف علــى ان يختصر بعض المشــاهد الخاصة بالمحقق وعطيل.وكان ذلك إيذانا بقبول أن يكون ثمة رأي يغــير من مادة النص وحجمه، أما المخرج ابراهيم جلال فقد أراد أن يحذف مشاهد كاملة من النص خاصة المشاهد التي تقال على لسان المحقق لطولها ويكتب بدلا عنها مشاهد جديدة تؤكد على رغبة ديزدمونة بالتمرد على ســلطة القانون– هل ثمة

رغبة دفينة لدى يوسف الصائغ بان يكون ثمة ممثل للعدالة في النص المسرحي لغياب العدالة تاريخيا من حياته السايسة وبلده بحيث جاء تمسكه بنصوص المجقق بمثابة دفاعه الشخصي امام مدعين عليه؟ لذا رفض الاستاذ يوسف الصائغ أن يغير الكثير، واكتفى بانه سيدرس الموضوع. لقد وجد المخرج أن لغة بعض المقاطع ترتبط بتفسيرات نفسية لدزدمونة، وكأنها ربة بيت، وهو مالا ينسجم وطبيعتها وطبيعة الدراما التي تنهل من خلفيات شكسبير التراجيدية. ثم جاء دوري كدراماتورغ مبتدئ لابدي ملاحظاتي على الحوار وانا بين قمتين اخراجية وتأليفية، ولا اخشى القول انني كنت خائفا من أكون على غير ما يرغب المخرج والمؤلف من ان صوتي يضيف الى النص او ينقص منه، حيث ما زلنا في مرحلة اعداد النص قبل قراءته من قبل المثلين، وقد شهدت التمارين تفاوتا بين رؤيتي ورؤية ابراهيم جلال إلى الحد انه استخف في احد الايام بوجودي لاني لم اكن متوافقا معه. فقلت: ثمة شيء ما في يوسف الصائغ من السينما، خاصة اللقطات الكبيرة، حيث التركيز على انفعالات الجسد كانت واحدة من ثيماته سواء في الشعر أو في القصة، وربما ما قرأناه في روايته اللعبة والمسافة وفي أشعاره يؤكد أن جمله القصيرة وكثافتها كانت عامل تركيز على ردود الافعال التي تستجيب لها الشخصيات المتحاورة، لذا ليس من سرد يتأمل أو يشرح، ولامن وصف يفسر، إنما كل بناء الجمل يقوم على الشحنة الشعرية، وثمة شيء في طريقة ابراهيم جلال من ابهة الكلاسيكية الحديثة التي لا تريد ان تعزل النص عن السياق الاجتماعي العام، لذا فالاحداث وان حدثت في بيئة السرير والصالة انما تخرج للمجتمع، ولذا لابد للمحقق ان يكون شاهدا ومفصلا في تحريك النص من الدراما الأسرية إلى الدراما الاجتماعية. هذا الجو خلق نوعا من فهم المخرج للنص مغاير لطبيعة الحوار والسرد عند المؤلف، لذا كان العرض كما لاحظنا اثناء التمارين متأرجحا بين موقعي السرير والصالة،وهو ما لا يتلاءم وسياق تقديم نص شعبي ولكن بابهة كلاسيكية، وكانت ملاحظاتي تنصب على تغيير هذا الفهم الامر الذي تطلب تغيير المحقق من وجدي العاني إلى جواد الشكرجي، واعتماد شخصتين لدزدمونة ليلى محمد وداليا فخري بدلا من شخصية واحدة ليلى تميل لاظهار الفعل الخارجي جسديا ولفظا وداليا تعتمد على البعد النفسي الدفين لتظهر بصوت مفجوع وقوي. لان الشخصيات لم تتفهم طبيعة التحولات اليومية التي يجريها فريق العمل حيث كانت تصطدم بملاحظات المخرج المتكررة والمتغيرة الامر الذي خلق نوعا من الارباك. بينما وكان الاستاذ ابراهيم جلال يريد العرض أن يكون في الصالة وبين الجمهور وليس تحت استر وألسن وحركات تعبيرية للوجوه والأعين، يريده أن يكون مشتركا مع الجمهور يحسسه ان مأساة دزدمونة ومأساة عطيل ليست مأساة قصور واحداث حربية، بل هي إنسانية ويمكن ان تكون هنا او هناك. هذه الثيمة البرشتية يحولها ابراهيم جلال إلى واقعة ولكن على النص ان يكون اكثر شعبية على الرغم من لغتة الشعرية المتماسكة وايحاءاتها

الفكريــة ودلالاتها العامــة.. كان دوري هو الجمع بين هاتــين الرؤيتين وليس التوفيق بينهما، أملا في إيجاد مســار ثالث يوحد الاثنين دون أن نـركز على احدهمــا. فقد ركــزت بملاحظاتي على أن يكون العرض واقعيا شــعريا،يغذي شحنة يوسف الصائــغ الشــعرية ويحلــق بالموضــوع إلى مصاف التراجيديــا الحديثة التي تنزل من ســماء الحدث إلى البشر،ولكن البشر النماذج: ديزدمونة وعطيل وياغــو والمحقق والوصيفة، وكلهــا مفردات خلق يوســف الصائغ لحمها ودمها، فاراد منها ان تحلق بعيدا عــن شكســبير، وتســكن في ادمغتنا كنص شعري درامي يقرأ ويمثل، وفي الوقت نفسه يبحث عن انعكســات الحوار داخل الشــخصيات بطريقة تقرب المشــاهد من ردود الأفعال وتأويلها. وركزت على طريقة الاستاذ ابراهيم جلال التي يريد ان يبني بها دراما برشــتية قائمة على التغريب من خــلال المفارقة بين ما يجري وما يمكن ان يعاش واقعيا، فكانت اولى مهمات الدراماتورغ كما سجلت في يوميات الممارســة هي : البحــث عن التوافقات فنيــا، دون ان يعني ذلك التوفيــق بين منهجين أو رؤيتين.وهذا ما حصل.فقدم العمل وهو يحمل خصوصيــة مؤلف معاصر يكتــب نصا تراجيديا معاصــرا بحلول اجتماعيــة وبرؤية مخرج جعل النص الممثل ممكن الحدوث شــعبيا لما يمتلكه من روح المدينة الحديثة.

كانــت حصيلــة تجربتــي كدراماتــورغ في ديزدمونــة هي كتابة ثــلاث مقالات تحت عنوان رئيس هو "دزدمونة بين الادب والدراما" وركزت على مفهــوم "الرؤية" لدى المؤلــف والمخرج. كان المقال الاول عن "النص والرؤية" وهو عن التأليف، والمقــال الثاني عــن "الاخراج وتشــكيل الرؤية" وهو عن الاخراج، والثالث عن "التمثيل وتجســيد الرؤية" وهــو عن الممثلين. ويلاحظ انني ركزت علــى "الرؤيــة" كمفهوم مشــترك لثلاثة حقول: النص والاخراج والتمثيل..

وخلاصة الرؤية ان يوســف الصائغ كان يركز علــى صراع حضــاري بــين عطيل المنحــدر من البيئة الشــرقية ودزدمونة المنحــدرة من البيئة الغربية،وتتلخــص رؤيــة المؤلــف في جعــل هذه الثنائية قطبين على فراش واحد كل منهما يمارس اخلاقياتــه. اما الاخــراج فركز علــى إظهار هذه الثنائية مفترقة ومغربة على المســرح مشــحونة بوحــدة جدلية تعــبر القارات والشــعوب لتصبح معطى فنيا خــارج اي توصيف محلي، وهي رؤية إنســانية بعيدة عن انتمائية قوميــة او دينية او مركزية.في حين ان التمثيل كان يركز على اظهار الرؤيتــين تجســيديا وكأن عصرنا الحاضر يعيش بكلتيهمــا معا،وعلينــا أن نفهم التجــاور ومن ثم المحاورة.كل هذه المفهومات التي جســدت والتي لم تجسد كنت اسجلها يوميا بعد التمارين لنجتمع في اليوم الثاني في غرفة الاســتاذ يوســف الصائغ أوفي مسرح الرشــيد لنطرح افكارنا بصددها، وللامانة كان الاســتاذ ابراهيم جلال يســتمع إلي اكثرمن الشاعر يوسف الصائغ الذي وجد بعض طروحاتي تدخلا في فهــم نصه لأؤكده كمبــدأ قار في ثقافة يوسف الصائغ ونتاجه وهو: جدلية الخيانة، وقد كتبت عنــه هذه الجدلية قليــلا، ويكمن ان افرد له بحثا في المســتقبل ابين فيه ان كل ادب يوســف

الصائـغ ينهل مـن جدلية الخيانـة كمبدأ درامي مسـتحدث له، كتب فيـه كل نصوصه القصصية والشعرية والمسـرحية. وهو موضوع مؤجل مثل بقيـة الموضوعات التي اشـرت إلى افكارها الكبيرة ثـم تقاعدت بين رفـوف مكتبتـي. ومنها دراما الشـخصيات الخمس في كل اعمـال المرحوم غائب طعمة فرمـان. لماذا جدلية الخيانة عند يوسـف الصائـغ؟ ولماذا الشـخصيات الخمـس عند غائب طعمة فرمان؟ هذا هو السؤال الذي يشكل جزءا من شغل الدراماتورج الذي اشتغل على ميادين عدة في الثقافة العراقية ، وهـل يمكن عد ذلك ناتجا من نتائج بنية الدراماتورج في الثقافة العراقية؟.

3

هـل يمكننا الحديـث عن الدراماتـورغ دون الحديـث عن المؤلف وعـن المخـرج، وعن وجود فكرة نص ووجود خشبة تمارين، ووجود ممثلين ووجود خطة للإخراج؟ لا يمكن ذلك فالدراماتورج هو نتاج كل هذه المفردات ومحرك لها أيضاً،ولكن ضمن اطر منهجية،. ومن هنا فموقعه في المسـرح هـو موقعـه في المدينـة: شـخصية تتلبـس كل الشخصيات، وفكرة توجد في كل الافكار، وشريحة مهمة في كل الطبقات الاجتماعية، لذا لم يستقر في ثقافتنـا المحلية على توصيف كامل له بعد بحكم أن دراسـتنا لتركيبة المجتمع غير ناضجة. في حين انـه في الثقافة الغربية قد اسـتقر وفعل وتفاعل وتوصف، يلجأ إليه السياسي في حملاته الانتخابية لتحديد اتجاهات الرأي العام، وتلجأ إليه الشـركات في دراسة الجدوى والعمالة والاسواق لفتح مجالات الإنتشـار والتسـويق، وتلجأ إليـه القيادات لوضع سـيناريو متحرك للعمليات، وتلجأ إليه الدول كما يحدد الافراد مسـاراتها في القرون القادمة.. ربما أتى الاستقرارله في الغرب من ثقافة انتاج المجتمع تلـك الثقافة التي تعتمد علـى الحرية والتنظيم الشـاملين لكل مرافق الحياة، وربما تغذى بعد ان اصبح فاعـلا في التنظيم من فن السـينما حيث السيناريسـت يلعـب دورا كبـيرا في تقليب فكرة المؤلف الأساسية،وتحديد مسار التصوير ومراحل الكلام، بما يجعل العمل ملائما وسـياق المعاصرة، يمكـن للدراماتورج أن يعيد تقليب المشـاهد مرة ومرات تبعا لمسـتجدات العمل.. الدراماتورغ اليوم هو جوهر فكرة الحداثة في مسـرح الحياة، حيث جـرى تعويم المؤلف، واصبحـت مرجعيات النص نصوصـا ممتـدة في التواريـخ، وهـذا يعنـي ان الدراماتورغ ما ان وضع قدميه على خشبة المسرح، حتـى هيمن على بنية النص والاخراج والتمثيل، فالدراموتورجيـة لغة مخزونـة في كل تفاصيل العمل. ومن هنـا لا ويفكـر الدراماتورج بالنص فقط،بل بالحركة،وبالفعل،وبالعلاقات بين لوحات العرض، كما يفكربالجمهوروبالصحافة وبالاعلان وبالنقـد، وبدورالعـرض، وبالانتـاج، وبالدعاية وبالتسـويق وبتطـور تقنية المسـرح، وبالعلاقة بينـه كمفكر حركي فاعـل وتطـورات المدينة، واخيرا يفكر بان يضع النص ضمن سـياق الثقافة الوطنية وتياراتها المعاصرة...هذه المهمات الجديدة للدراماتـورج تزيده أعبـاءً وتحمله مسـؤوليات البحث عن افق جديد للدراما اعني للحياة، وعليه ان ينهض بها كلها بطريقة متوازنة.

# حديث قد لا تنقصه الصراحة..
# في حوار مع محمد الملا عبدالكريم المدرس

اجرى الحوار: خالد النجار

**-البدايات الشخصية للكاتب محمد الملا عبدالكريم المدرس: المواليد/ مكان الولادة/ الدراسة/ الشهادة/ العائلة/ السجن والاعتقال، الوالد رحمه الله وتأثيره على شخصيتكم؟**

اني محمد الملا عبدالكريم المدرس، ولدت في ١٩٣١/٨/١٤ في قرية بياره الواقعة على الحدود العراقية- الايرانية في سفوح جبل هورامان، وهي مقسمة منذ تخطيط الحدود بين العراق وايران اوائل تأسيس الدولة العراقية. فبعض منازلها تقع داخل القطاع الايراني، بينما تقع بعض بساتين اصحاب تلك المنازل في القطاع العراقي. واكثرها على العكس، الامر الذي كثيراما كان يضطر اصحاب تلك البساتين في كلا القطاعين الى الحصول على رخصة اقامة في بعض شهور السنة حيث تقع بساتينهم، من اجل رعايتها وجنى ثمارها. فتأمل ما فعلته السياسة المعادية لاماني الشعوب بمصائر اولئك المواطنين الكرد، ولعن الله مابنوا من حدود فاصلة وجدران وهمية نظرا وواقعية عملا، على ارض شعب مقسم مقطع الاوصال هو ووطنه.

وقرية بياره تابعة لناحية خورمال في قضاء حلبجة بمحافظة السليمانية في كردستان العراق، وكانت تشتهر بخانقاهها العامرة على مر السنين بعشرات المتصوفة التابعين للطريقة النقشبندية وبمدرستها الحافلة بعشرات الطلبة القادمين من مختلف اصقاع كردستان والبلاد المجاورة ومن مختلف المستويات الدراسية ايام كان والدي المرحوم

الملا عبدالكريم المدرس يسكن هناك وقبله ايضا غيره منذ عشرات السنين.

في هذه القرية ولدت، كما ذكرت، وفيها نشأت وفيها درست معظم سني دراستي الدينية، الى ان تركها والدي لأسباب تتعلق بنا نحن انا واخي الاكبر فاتح رحمه الله من سلوك مسلك ديني متحرر لايروق لمشايخ الطريقة وكانوا يظنونه مضرا بجوانب من مصالحهم. وكنت طوال تلك السنين ادرس على يد والدي باستثناء سنة او سنتين درست خلالهما القرآن الكريم وبعض الكتب الاولية باللغتين الكردية والفارسية ومبادىء الخط لدى احد ملالي الكتاتيب. وبعد ان انتقلنا الى السليمانية حيث تعين والدي مدرسا في مدرسة حاجي حان الدينية واصلت دراستي الدينية لدى الوالد الى ان اكملت المنهاج المقرر دون ان يروق لي الانتماء الى مسلك علماء الدين، فقد استهوتني الصحافة وفيما بعد وعن طريقها السياسة التي جرتني بدورها الى سجون العهد الملكي وفيما بعد الى سجون العهد العارفي والى الاختفاء في العهد البعثي البغيض الاول. اما الصحافة، فقد تعرفت عليها وعشقتها عن طريق العدد الكبير من الصحف اليومية التي كانت ترد من بغداد الى ديوان شيخ الطريقة النقشبندية المرحوم علاء الدين العمري العثماني، فكنت اتلقفها ممن يأتون بها من حلبجة قبل ان يوصلوها الى من ترسل اليه فأطالعها وانقلها فيما بعد الى صاحبها الذي قلما كان يلقي نظرة عليها، وكذلك عن المجلات الاسلامية التي كان والدي مشتركا في بعضها، كما عن طريق المجلات الثقافية والسياسية السرية والعلنية التي كان يحصل عليها نفر من معلمي مدرسة بياره الابتدائية الوطنيين الواعين. وهذه الهواية هي بالذات ما دفعتني الى اصدار مجلة



دينية سياسية باسم (العروة الوثقى) اقتباسا من مجلة السيد جمال الدين الافغاني التي اصدرها في باريس بهذا الاسم، وقد واصلت اصدار هذه المجلة بخط يدي وبنسخة واحدة سنة كاملة. وشد مايؤسفني اليوم انني جعلت اعداد هذه المجلة الاثنتى عشرة التي لم يطلع على عدد منها احد سواى، جعلتها وقودا للهيب النار عندما تركنا بياره لنقيم في السليمانية، كما ذكرت، وكان يخيل الىّ ان شرطة العراق كلها على علم بهذا السر الذي لايعرف عنه شيئا احد سواى، وانها ستأتي لتلقي

القبض علي جراء هذه الفعلة الصحفية!

وهكذا يتضح انني لم ادخل المدارس الحكومية الاعتيادية ولو لصف واحد فقط، ولذلك فاني لا احمل اي شهادة مدرسية من اي منها، ولكني بحكم دراستي الدينية احمل شهادة الصف الثاني عشر، وهي آخر شهادة ينالها المرء منها وتعد بمثابة الشهادة الاعدادية، وقد نلتها من المعهد الاسلامي في السليمانية، وكانت تؤهلني للدخول في كلية مثل كلية الشريعة والحصول على البكالوريوس منها بل وحتى لنيل الماجستير والدكتوراه فيما بعد بحكم مستواى الدراسي وثقافتي الدينية والعربية العالية، وحتى ان العلامة المرحوم الشيخ امجد الزهاوي استأذن والدي ليسمح له بأن يبعثني الى الازهر في مصر، واعتقد انه رحمه الله كان يرمي من وراء استئذانه هذا الى ابقائي في حظيرة العمل الديني، الا انني وبدافع من تطرف يساري رفضت رغبته هذه، دون ان انتبه الى انه يمكنني الجمع فيما بعد بين حمل شهادة عالية وممارسة السياسة اليسارية التي لم يتغير موقفي منها عنه آنذاك وحتى اليوم، ولا اطنه يتغير حلال ما تبقى لي من عمر اوشك على الانتهاء بعدما اقتربت من اكمال العقد الثامن منه.

تكوني العائلي تكون اسلامي في الاساس كما اسلفت. فوالدي هو من تحدثت عنه وعرفتموه جيدا، ووالدتي، رغم انها رحمها الله كانت امرأة أمية، الا انها كانت من عائلة دينية وعلمية عريقة هي عائلة المشايخ المردوخيين الذين انحدروا قبل عدة قرون من القطاع الايراني من هورامان في كردستان الايرانية الى القطاع العثماني ونبغ من بينهم في كلا القطاعين وعلى مر السنين علماء دين كبار هم من مفاخر الحركة العلمية في كردستان بقطاعيها الايراني والعثماني، والبيئة التي تربيت وترعرعت فيها هي الاخرى بيئة دينية هي خانقاه بياره ومدرستها بمن كان فيهما من صوفية وطلاب علم وعلماء مقيمين وزوار. وفيما بعد اذ انتقلنا الى السليمانية، كنت على صلة وثقى بمناخ علماء الدين وطلبته ومدارسهم رغم انني انخرطت هناك مبكرا في صفوف الحركة الوطنية التقدمية وكنت من انشط المناضلين في صفوف حركة السلم خلال عامي ١٩٥٣ و ١٩٥٤، ومن الذين اسهموا اسهاما كبيرا في تأسيس اتحاد لطلبة العلوم الدينية (فەقى) يفودهم ويوجههم الى ما فيه خيرهم سياسيا وثقافيا ومهنيا، وقد اصدرنا لهم مجلة بخط اليد سميناها (دەنگى فەقى) اي صوت طالب العلوم الدينية، وكانت تصدر شهريا وتوزع في العديد من مناطق محافظات السليمانية وديالى وكركوك واربيل وكان لها دور كبير في توجيههم مما دفع الكثيرين منهم الى الانخراط في المدارس الرسمية المسائية اضافة الى دراستهم الدينية ودفع بعضهم الى دخول كلية الشريعة ومنهم من سافر الى مصر للانتساب الى الازهر، بل وحتى الى الانتماء السياسي الى احد الحزبين الوطنيين العاملين على الساحة الكردستانية يومذاك الحزب الشيوعي العراقي والحزب الديمقراطي الكردستاني.

اما عن السجن والاعتقال، فقد اعتقلت لأول مرة في اعقاب تولي نوري السعيد وزارة جديدة في عام ١٩٥٤ وبدئه حملة شرسة جديدة من التوقيف والسجن والملاحقة والتشريد للشيوعيين

والبارتيين وانصارهم وانصار السلم وغيرهم من الوطنيين والديمقراطيين تمهيدا لادخال العراق في الحلف التركي – الباكستاني الذي ظهر الى الوجود الفعلي والقانوني تحت اسم ميثاق بغداد وانخرط فيه اضافة الى تركيا والباكستان كل من العراق وايران وبريطانيا والولايات المتحدة ايضا بصورة ملتوية. حكم علي اثر اعتقالي الاول هذا على خلفية نشاطاتي في حركة السلم بتقديم كفالة شخصية للحفاظ على ماكانوا يسمونه «حسن السلوك والسيرة والمحافظة على الامن» لمدة سنة وعند الاخلال بالتعهد فقضاء مدة السنة في السجن. وفي الشهر الرابع من العام ١٩٥٥ اعتقلت مجددا بتهمة اعتناق الشيوعية والانتماء الى الحزب الشيوعي العراقي وحكم علي بالسجن لمدة سنتين وبالوضع تحت مراقبة الشرطة لمدة سنة ونصف، وقد خفض هذان الحكمان فيما بعد من قبل محكمة استئناف منطقة كركوك الى السجن لمدة سنة ومراقبة الشرطة لمدة سنة اخرى. وقد قضيت السنة الاولى في سجن بعقوبة الذي خضنا فيه اضرابا عن الطعام لسوء اوضاعنا السجنية في تموز من العام نفسه لمدة ٢٣ يوما، وقضيت سنة المراقبة في منفى بدرة. وعندما اكملت المحكومية الثانية ايضا اعدت الى السليمانية وابقيت في التوقيف حوالي شهرين وقدمت الى محاكمة جائرة اخرى بتهمة الاخلال بالامن والخطورة على المجتمع «امنهم ومجتمعهم بالطبع» فحكم علي بتقديم كفالة شخصية لمدة سنة او دخول السجن للمدة نفسها فقدمت الكفيل وخرجت من التوقيف وابعدت من السليمانية في اليوم نفسه فسافرت الى كركوك حيث اهلي وعائلتي بعد ان كان متصرف السليمانية في حينه اللواء عمر علي نقل والدي منها اثر اعتقالي الثاني في ربيع ١٩٥٥.

ومادمنا نتحدث عن فترات السجن والاعتقال، علي ان اذكر انني جرى التحقيق معي وقدمت الى المحاكمة بتهمة التوقيع على نداء للسلم في كردستان مع شخصيات وطنية اخرى في عهد المرحوم عبدالكريم قاسم، ولكن القضية ظلت معلقة الى مابعد انقلاب شباط المشئوم فدعيت وسائر الذين لم يكونوا رهن الاعتقال ممن جرى التحقيق معهم في القضية من قبل الى ان نسلم انفسنا للسلطات لتجري لنا محاكمة، ولكن احدا لم يسلم نفسه فسمعة السلوك البعثي كانت من الرداءة بحيث لايجد احد ادنى درجة من الاطمئنان في تحقيقاته ومحاكماته. وقد اغلقت هذه القضية بعد اتفاقية شباط بين الثورة الكردية وحكومة عبدالسلام عارف في شباط ١٩٦٤ بشأن وقف الحرب في كردستان.

وفي تموز من العام نفسه القي القبض علي للمرة الثالثة وبعد حوالي سنتين قضيتهما في مختلف المواقف والسجون قدمت الى المحاكمة وحكم على بالحبس لمدة خمس سنوات وبالوضع تحت مراقبة الشرطة لمدة ثلاث سنوات. وقد قضيت من مدة السجن ثلاث سنوات ومن مدة المراقبة اكثر من سنة، اما بقية مدة السجن فقد ذهبت ادراج الرياح بعد صدور مرسوم جمهوري بالعفو عني بجهود مشكورة بذلها المناضل جلال الطالباني لدى حكومة المرحوم عبدالرحمن

عارف. واما بقية مدة المراقبة فقد الغيت بالعفو العام الذي صدر عن المحكومين السياسيين بعد انقلاب تموز ١٩٦٨.

هذا كل ما لدي من محكوميات. بقي ان اذكر انني اعتقلت مرة اخرى في ايام البعث الثاني في ايار من العام ١٩٧٩ خلال الحملة الهوجاء التي شنها البعث على الشيوعيين واصدقائهم عشية انفراط ماسمي، دونما وجه حق، الجبهة الوطنية والقومية التقدمية، وشملت الوف الوطنيين والديمقراطيين ايضا تمهيدا لانقلاب صدام حسين على البكر ونخبة من كوادر البعث القيادية واعدامهم، ليتولى بنفسه ما اطلق عليه قيادة الحزب والدولة.

اما عن تأثيرات والدي على شخصيتي انا، فرغم انني لم اشأ الانخراط في السلك الديني وان كنت قد اكملت الدراسة الدينية المتداولة في كردستان، ورغم ان السبيل تفرق بي عما كان يسلكه والدي المرحوم، ورغم انني كنت انأى بنفسي عن الحضور في مجالسه الا فيما ندر، ورغم انني كنت اقول امامه على الدوام انني لا اؤمن بأن النصح يمكن ان يفيد بمجرده احدا، وان الدهر وحده الذي يجعل المرء يقتنع بصواب اي فكرة يعتنقها او أي سلوك يسلكه، فانني ارى نفسي مدينا بالعديد مما اراه في نفسي من خصال حميدة، ان كنت امتلك شيئا منها، للاقتداء بوالدي. وخلال السنتين اللتين مضتا على وفاته، رحمه الله، ازداد اقتناعا، يوما بعد يوم، بصواب الكثير من الملاحظات التي كان يبديها لي وما كنت آخذ الكثير منها مأخذ الجد. ولا يسعني الآن ان اتحدث عن اوجه من التأثيرات التي تركتها في، ولذلك اكتفي بالقول انها كثيرة وذات أهمية، وتتبدى لي مع الدوام كم كان صائبا ومصيبا في كثير مما كان ينصحني به، وكم اراني ملزما بالاصغاء اليه واستذكار ما كان يتحفني به من نصائح بين الحين والحين، ولو بعد فوات اوان الكثير منها..

**-في اي مرحلة من مراحل العمر بدأت رحلة الكتابة والمشوار الثقافي، وما هو اول عمل ثقافي انجزته؟**

⋆خطواتي الاولى في الكتابة كانت باللغة العربية. وقد خطوت الاولى منها في العام ١٩٤٩ بكتابة سوآل اقتصادي موجز قدمته الى جريدة (النداء) البغدادية، وكانت اجابة المحرر عليه يدل على عدم المامه بالموضوع كما كان شأني انا. ثم نشرت قطعتين شعريتين عن السلام في جريدة (العصور) او (الزهور) – لا اتذكر اسم الجريدة بالضبط- وفيما بعد نشرت مقالا استغرق عمودا في جريدة (النداء) ايضا، اعقبه مقال عن تزوير الانتخابات عام ١٩٥٤ في حلبجة ارسلته الى جريدة (الاهالي) او احدى اخواتها التي كانت تصدر يومذاك (صوت الاهالي، او صدى الاهالي، او نداء الاهالي، لا اتذكر الاسم بالضبط). وقد وقع في ايدي رجال الامن العام في احدى مداهماتهم لمقر الجريدة، بعد حملة اغلاق الصحف وتعطيل الاحزاب والجمعيات والنوادي، من قبل حكومة نوري السعيد التي جيئ بها لفرض حلف بغداد. اما بدأى الكتابة باللغة الكردية، فقد كان في جريدة (ژين) التي تولى تحريرها في اواخر العام ١٩٥٢ الشاعر عبدالله گۆران وانضممت اليه بعد لحاقي بحركة السلم ولجنتها العاملة في السليمانية. كما

ألفت كتابا نقديا في العام ١٩٥١ او ١٩٥٢ لمفاهيم غير علمية منسوبة الى الدين، ولم اشأ حتى الآن ان افكر في طبعه وهو في رأيي يستحق النشر، ولست ادري هل يتسنى لي ان انشره يوما ما ام لا؟ اما اول عمل ثقافي مؤثر انجزته فقد كان دراسة عن شاعر النهضة الفكرية والسياسية والاجتماعية في كردستان حاجي قادرى كويى الذي توفي في استانبول في العام ١٨٩٧. وقد اطلعت للمرة الاولى على مجموعتيه الشعريتين اللتين طبع الاولى منهما عبدالرحمن سعيد العام ١٩٢٥ والثانية گيوى موكرياني العام ١٩٥٣، وكان ذلك في العام ١٩٥٧. وقد كتبت دراسة عن شعره باعتباره «شاعر مرحلة جديدة من حياة الشعب الكردي». وهذه الدراسة، وان كانت جد موجزة وحصيلة مستوى الثقافي والفكري يومذاك، الا انها اكثر شمولية من كل ما كتب عنه من حيث المواضيع التي تتضمنها، ولذلك آمل ان تنال الطبعة المزيدة من الدراسة التي صدرت في الشهور الاخيرة ما قد تستحق من اهتمام من لدن قراء ايامنا هذه بين مثقفي شعبنا الكردي.

-**من هي الشخصية التي اثرت في كيانكم ادبيا وسياسيا وشخصيا وهل هناك انعكاس وتأثير على كتاباتكم من تأثيرها؟**

*لا استطيع القول انني الآن، ومنذ امد طويل من الكتابة الادبية والثقافية والصحفية، واقع تحت تأثير اي شخصية ادبية او سياسية بعينها او ان هناك انعكاسا لها ولكتاباتها وتاثيرا في كتاباتي باستثناء القرآن الكريم في العربية والامثال الشعبية في الكردية، ولكن ما من بأس في استعراض اسماء اشخاص وعناوين كتب كانت مؤثرة في فيما مضى او كنت قد اعجبت بها وتركت تأثيرات في نفسي وقد تكون لها بقايا فيَّ حتى الوقت الراهن، ففي المرحلة الاولى من بدء مراحلي الثقافية، كشخصية مستقلة قائمة بذاتها، كنت الى حد كبير تحت تأثير السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده المصري ومازلت اقدرهما وانظر اليهما باحترام عميق. وفي تلك الحقبة المبكرة من تطوري الفكري كنت ابذل جهودا كبيرة من اجل الحصول على مؤلفاتهما وقد جمعت النقود رغم قلة حصولي عليها واشتريت كتب (الرد على الدهريين) للافغاني و (رسالة التوحيد) و (الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) لمحمد عبده و (تفسير المنار) على هدى آراء الاخير وافكاره للشيخ محمد رشيد رضا، وعلى هداهما قرأت (العدالة الاجتماعية في الاسلام) لسيد قطب ونظائر له عديدة لآخرين. وعلى هذا النسق قرأت سلسلة اعلام الحرية لقدري قلعجي وسلسلة تاريخ الاسلام لاحمد امين، ومن الروايات قرأت (الدكتور ابراهيم) لذنون ايوب و (الام) لمكسيم گوركى وكثيرا من القصص التقدمية التي كانت تصدر عن دار العلم للملايين وهلم جرا، كما كنت اتتبع مؤلفات الدكتور جورج حنا. ومع انني كنت اتابع ادبيات الحزب الشيوعي العراقي الا انني لم اكن استطيع الحصول على كتب ماركسية ولينينية لعدم وجودها في السوق والحظر الرسمي الشديد المفروض عليها ولعدم تمكني من الحصول عليها لدى من قد يمتلكونها، فيما عدا الكراريس والكتب القليلة التي كان يصدرها الحزب.

وفي عالم الشعر كانت ومازالت تستهويني دواوين شاعر العرب الاكبر الفقيد محمد مهدي الجواهري، حتى انني عندما اخذت الى سجن بعقوبة في العام ١٩٥٥ اخذت معي الجزأين الاول والثاني المتوفرين عندي يومذاك من ديوانه وكنت احفظ قدرا كبيرا مما فيهما، وقد سطت عليهما الادارة عندما شنت علينا هجومها الوحشي في تموز من تلك السنة والذي ادى الى اضرابنا عن الطعام الذي استمر ٢٣ يوما ونصف يوم كما اشرت الى ذلك من قبل. واشد من تأثرت بشعرهم في الكردية الشاعر المبدع عبدالله گۆران والشاعر عبدالرحيم مولوي، وقد يلاحظ المتتبع آثار گۆران في القليل الذي نظمته من الشعر. ومن اشد الروايات التي تأثرت بها ثلاثة هي (الشيخ والبحر) لهمنغواي و (ألعقب الحديدية) لجاك لندن و (الساعة الخامسة والعشرون) لكونستانتيان جورجيو على ما اتذكر. فقد انجزت قراءة الشيخ والبحر في احد ايام نيسان ١٩٥٥ وفي اليوم التالي القي القبض علي، وفيما كنت اتعرض لعذاب جلاوزة الامن في السليمانية، كنت اتذكر العزيمة القوية لشيخ همنغواي وهو يصارع حيتان البحر لتخليص صيده من بين انيابها والوصول به الى الساحل، وكان ذلك مما يمنحني المزيد من القوة لمجابهة ماكنت اكابده، اذ لم يكن قد سبق لي التعرض الى مثل تلك المواقف الصعبة فقد كان ادنى انزلاق مني يؤدي الى تحطيم كل ما كنت اعتزبه من كرامة وطنية وتاريخ سياسي نضالي. وعندما حدث انقلاب شباط الفاشي في شباط ١٩٦٣ كنت منشغلا بقراءة العقب الحديدية لجاك لندن، وكنت اسمع انباء ما كان يتعرض له مناضلو شعبنا من وحشية البعث، فكان مايعانيه القس المصلح في الرواية وموقفه منه خير عون لي لتلقي كل ما يطرق سمعي من انباء سيئة برباطة جأش. في تلك الفترة نفسها قرأت رواية (الساعة الخامسة والعشرون). وحسب فهمي كان يتنازعني اذ ذاك امران روعة تعبير الكاتب عما كان يعانيه ضحايا الفاشية وهم في معتقلهم وعداؤه الشديد للشيوعية ووضعه اياها في ميزان واحد مع الفاشية التي كان هو نفسه احد ضحاياها، وكثيرا ما قررت في تلك الايام ان ارمي الرواية وسط لهيب النار بعد الانتهاء من قراءتها، ولكني عندما كنت اتذكر ابداعه الادبي الكبير وتأثيره البالغ في نفسي اطرد تلك الفكرة عني حتى تركتها نهائيا وماتزال الرواية موجودة في احد ادراج كتبي الادبية.

في المجال السياسي تأثرت كثيرا بالقليل الذي قرأته لماركس وانجلز ولينين. في الاولين اراني معجبا غاية الاعجاب باحسن صفاتهما وهي في رأيي تواضعهما الجم وعزوفهما عن البت بان الحق في جانبهما، وفي الثالث اكن له اكبر الاعجاب لعدم مهادنته مع خصومه العقائديين، وقد يبدو هذا متناقضا مع وجه اعجابي بالاولين، الا انني لا اجد فيه اي تناقض حقيقي، كما ان علينا ان لاننسى ان الاولين كانا رجلي نظرية، اما الثالث فقد كان يمارس السياسة على ارض الواقع، وشتان مابين الموقفين.

وعلى النطاق المحلي فاني اكن التقدير الكبير لشخصية الرفيق يوسف سلمان يوسف (فهد) وكتاباته السياسة وحرصه الشديد المتوازي على تقوية حزبه وتقوية الحركة الوطنية عموما

في آن واحد، وقدرته البالغة على تشخيص الاهداف الوطنية العراقية التي لخصها في الشعار الخالد «وطن حر وشعب سعيد»، وانني ارى بؤسسه الشديد يكمن في انه ظهر في زمن كان الجمود الستاليني هو الطاغي على حياة الاحزاب الشيوعية. ولو انه قيض له ان يقود الحزب الشيوعي العراقي في عصر كعصرنا لقدر له ان يحرز اكثر بكثير مما احرز من نجاح سواء في المجال التنظيمي او السياسي وتمتع بقدر كبير من حرية الابداع في العمل الحزبي والسياسي.

اعود الى مجال الادب والادب الكردي بالذات لاعبر عن شديد اعجابي بلغة حسن قزلجي وعبدالله حسن زاده الكاتبين الكرديين من كردستان الشرقية والكاتب الكردي العراقي ابراهيم احمد والقصص القصيرة التي كتبها علاء الدين السجادي ونشرها على صفحات (گەلاوێژ).

وفي محور آخر اشرت اليه من قبل علي ان لا انسى اشتداد تأثري، باستمرار، بروعة الادب القرآني الذي اؤمن بانه رائعة الادب العربي. ولهذا فشد ما افرح عندما اجد آية قرآنية كريمة اضمنها مقالة سياسية اكتبها لصحيفة، وشدما اتمنى لو كنت احفظ القرآن، ولو كان في لغتنا الكردية ايضا نظير له لاستفيد منه في كتاباتي الادبية والسياسية.

**-ماذا قدمت بغداد، وماذا قدمت كردستان للمدرس، وماذا قدم لهما المدرس، واي التأثيرين اكثر؟**

*عشت في المنطقة العربية من العراق وفي بغداد بالتحديد مايقارب الخمسين عاما اعطتني هذه المدينة الرائعة خلالها الكثير الكثير من خيراتها، ففيها اتسعت مداركي الثقافية والفكرية وفيها كونت العلاقات مع صحف عديدة وصحفيين مرموقين وادباء مبدعين كثيرين، وفيها عايشت اتحاد الادباء العراقيين ونقابة الصحفيين من اول تكوينهما في ١٩٥٩ وحتى سقوطهما بعد الانقلاب البعثي الفاشي، وفيها كذلك تعرفت على المكتبات العامة وزاولت النشاط الثقافي المتعدد الالوان الذي تمثله مرافق شارع المتنبي، وفيها تعرفت على الجواهري الكبير وعملت في جريدته (الرأي العام)، وكذلك على الاستاذ لطفي بكر صدقي وعملت في جريدته (صوت الاحرار) حينا من الزمن.

ومن بغداد اخذت الى سجون العراق المتعددة الى بعقوبة وسجنها الانفرادي والموقف العام والرمادي ونقرة السلمان والحلة، وتعرفت فيها جميعا على مناضلين معروفين وآخرين بسطاء ممن لم يبخلوا براحتهم وحتى بحياتهم في سبيل الشعب والوطن ومثلهم العليا. وفي بغداد زاملت صحفا عديدة مثل آزادي واتحاد الشعب وصوت الاحرار والرأي العام والحضارة والثبات والانسانية والتآخي وبرايى والفكر الجديد وملحقها الكردي وطريق الشعب والاتحاد وصحف ومجلات دار الثقافة والنشر الكردية وغيرها، وكنت اتردد على المطابع وتعرفت على عمال نالوا من خلال عملهم المطبعي حظا وافرا من الثقافة التقدمية وفي بغداد نشرت دراستي عن شاعر مرحلة جديدة من حياة الشعب الكردي حاجي قادري كويى، كما نشرت شرح والدي المرحوم على ديوان مولوي واسهمت في تحريره، فكان اول فتح لنا في مضمار

تحقيق وشرح ونشر بعض من روائع الشعر الكلاسيكي الكردي.

وفي بغداد ايضا عملت في المجمع العلمي الكردي منذ اول تأسيسه وحتى الغائه وفي المجمع العلمي العراقي ايضا. وكانت سنوات عملي في الاول حافلا بالانجازات الكبرى ومنها نشر رائعة خاناي قوبادي (شيرين وخسرو) واسهاماتي في نشر دواوين الشعراء العظام بيخود ونالي ومحوي و بيّكەس و گۆران، وترجمة كتاب (كردستان في سنوات الحرب العالمية الاولى) للدكتور كمال مظهر احمد الى العربية وتأليف ونشر عدد آخر من الكتب والكراريس الادبية باللغة الكردية، كما نشرت خلال وجودي في بغداد مئات البحوث والدراسات والمقالات السياسية والادبية والنقدية وغيرها على صفحات الصحف والمجلات الكردية المتنوعة. كما فيها اسهمت في تأسيس اتحاد الادباء الاكراد. ومن الاعمال التي قمت بها في بغداد اشتراكي في المظاهرة الجماهيرية الكبرى التي نظمها الحزب الشيوعي العراقي في ربيع ١٩٦٢ والتي انطلقت بربع مليون مشترك من ساحة الجندي المجهول الى شارعي الكفاح والجمهورية مارة بالباب الشرقي هاتفة: يا شعب طف النيران.. السلم في كردستان، فكانت اروع تعبير عن التضامن الاخوي والاممي من جماهير بغداد مع شعب كردستان الذي كان يتعرض الى القمع وتطمس حقوقه القومية. كما فيها اسهمت بكل ما اوتيت من قوة في النضال المجيد ضد الحكم البعثي الاسود عام ١٩٦٣ وحتى اعتقالي السابع في تموز ١٩٦٤، وبعد انتهاء محكوميتي في عام ١٩٦٧ وحتى ان غادرتها في آب ٢٠٠٦.

وفي بغداد وبعد عزوبة طويلة دخلت وانا على مشارف الستين من عمري عش الزوجية واقترنت برفيقة حياتي شيرين فرج سعيد الفتاة الكردية من عائلة نضالية قدمت فداء للوطن اثنين من ابنائها، والتي تقدم الى جانب كل اعبائها المنزلية مساعدات لي لاتقدر بثمن في اعمالي الثقافية التي اقوم بها وانا بين جدران المنزل، وفيها رزقت بأولادي الثلاثة: بيارة (١٩٩٠) وژيوار (١٩٩٢) وپيران (١٩٩٣).

وخلاصة القول انني نلت من خيرات بغداد الروحية والثقافية الكثير الوفير. وعندما عدت الى كردستاننا الحبيبة في اواسط ٢٠٠٦، كما ذكرت ودعتها بكلمة مؤثرة ضمنتها كثيرا مما في نفسي من مشاعر جياشة تجاهها، وقد نشرت في كل من (الاتحاد) و (طريق الشعب).

اما كردستان الحبيبة موطن آبائي واجدادي، فقد قدمت هي الاخرى، ايضا، الكثير لي من افضالها. ففيها تفتحت عيناي للحياة، وفيها شببت عن الطرق وتعلمت الحروف الاولى التي فتحت لي ابواب المعرفة، وفيها تكونت بواكيري الثقافية وترعرعت انسانيا وثقافيا وخطوت خطواتي الاولى نحو عالم الوعي الوطني والاجتماعي، وفيها تعرفت على المشاكل التي ينوء بحملها كاهل شعبي المستضام وطبقاته الكادحة، فانخرطت في صفوف النضال من اجل وطن حر وشعب سعيد متحرر من القيود التي كانت ومازال الكثير منها تكبله في مختلف المجالات من ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية وقومية وغيرها، وكان ابرز مجالات ذلك النضال نشاطي المثابر في حركة السلم الى جانب

رهط من خيرة المناضلين، الذين اعتز بذكراهم، ذلك النشاط الذي ادى بي في آخر الامر الى السجن والنفي والابتعاد عن السليمانية العزيزة لما يزيد عن خمسين عاما..

**-من هم الكتاب والمثقفون الذين تقرأ لهم وتحترم كتاباتهم على الصعيد المحلي والعربي والعالمي؟**

*اود ان اقول اولا اني انظر باحترام بالغ الى كل كتابة تستهدف خير الانسان، وكلما سنح لي الوقت الذي اعاني من ضيقه بسبب الالتزامات الاجتماعية الي لامفر منها رغم ظروفي الصحية غير الملائمة، وبسبب عدم توفر الكهرباء نهارا وفي قدر كبير من الليل، في ظروف الضعف الشديد في نظري لاعتلاله، وبسبب استغراق الكتابة الكثير من وقتي المتوفر، اقول كلما سنح لي وقتي خارج هذه المعوقات مددت يدي الى كتاب لاقرأ منه فصولا. فاذا استهواني لم ادعه حتى اكمله. ومع ان لي كتابا عديدين احرص على متابعة كتاباتهم ان استطعت الوصول اليها، الا ان معياري في اختيار الكتاب هو موضوعه قبل اي اعتبار آخر. وعلى وجه العموم اهتم بالكتب والكتابات ذوات النفس التقدمي من سياسية وادبية وثقافية عامة. وفي مجال التأريخ بالتحديد اهتم بمذكرات الشخصيات التي كان لها شأن في المجال السياسي اكثر من غيرهما.

**-ماهي المترجمات العربية الى الكردية وبالعكس التي نشرتموها وكانت مؤثرة جدا في عملكم؟**

*اكثر ترجماتي من العربية الى الكردية وبالعكس انما هي المقالات والبحوث الصحفية والثقافية والسياسية، الا ان بينها عددا من الكتب والكراريس، فقد ترجمت كتاب (كردستان في سنوات الحرب العالمية الاولى) للاستاذ الدكتور كمال مظهر احمد، وترجمت الى جانب استاذي المرحوم شكور مصطفى كتاب (تاريخ الامارة البابانية) لحسين ناظم بيگ، من التركية الى العربية (الترجمة الاصلية من شكور والتعريب والتحرير مني)، وترجمت من الكردية الى العربية (موجز تاريخ امراء سوران) لحسين حزني المكرياني، ومن العربية الى الكردية قصة روسية طويلة للاطفال هي (ڤيتيا مالييف في المدرسة وفي البيت) لنوسوف، كما ترجمت من الفارسية كتابين احدهما سياسي الى العربية والثاني تأريخي الى الكردية، ولم تكن اية من هذه الترجمات مؤثرة في حياتي بمعنى الكلمة الدقيق، اما بالنسبة الى القراء فالامر متعلق بهم.

**-شخصيا ماذا قدم المدرس لكردستان، وهل تفضلون الكتابة بالعربية ام بالكردية، ولماذا؟**

*لا اعتقد انني بخلت بما في وسعي من خدمة ونضال من اجل الكرد وكردستان، وان كنت عندما استعرض ماقدمت، اتوصل الى انه كان بالامكان ان اقدم اكثر لو كنت اكثر عقلانية في عملي مما كنت. واذا قيض الله لي ان اعيش سنوات اخرى متمتعا من الصحة بما يمكنني من العمل، فهناك في مخيلتي مشاريع اخرى اريد أن انجزها وقد تكون هناك اخرى قد ترد في ذهني.

اما بصدد تفضيل الكتابة بالعربية عليها بالكردية او بالعكس، فرغم انني احسب نفسي، ولا فخر، من كتاب الكردية المجيدين، مازلت استسهل،

ولا اقول افضل، الكتابة بالعربية منها بالكردية. غير ان علي القول انني لا استطيع ان افضل ايا منهما على الاخرى، فكما ارى من واجبي ان اقدم كل ما اتمكن من تقديمه للقراء العرب وقراء العربية عن مختلف اوجه حياة شعبي الكردي، ارى كذلك من الضروري القيام بما في وسعي من ترجمة لبعض من احسن ما كتب بالعربية الى الكردية من اجل شعبي ايضا. ولكني عندما ارى بضاعتي في هذا المضمار في اقصى المحدودية يصيبني الم جارف واعاتب نفسي على ماصرفت من عمري في امور ليست على قدر من الاهمية كبير بالنسبة لحياة شعبي السياسية والفكرية والثقافية.

**-كيف تنظرون الى المفاهيم الجديدة التي دخلت عالمنا وما هو تأثير ذلك عليه ثقافيا، ومنها (الشفافية) و (العولمة) و (الديموقراطية) و (التكنوقراط) ووو.. الخ؟**

*اجيب على هذا السوآل رغم قلة بضاعتي. اذا كان المقصود بالشفافية مكاشفة الشعب صاحب الامر الحقيقي في الامور المتعلقة بوطنه وبكل مايتعلق به، فانني الى جانبها بكل ما اوتيت من قوة، فانعدامها يعني ابقاءه جاهلا بحقائق الامور مما ليس الا في صالح المستغلين. هذا مع العلم بانني مؤمن بأن المسألة بالنسبة لمن يجب مكاشفته مسألة تظل نسبية على الدوام او الى امد بعيد على احسن تقدير، وانا لم اجد حتى الآن من يتحدث عن ضرورة الشفافية ويمارسها بالفعل، الا مع قدر كبير من الضئالة.

اما بالنسبة للعولمة فاراها ذات جوانب حسنة واخرى سيئة في الوقت نفسه. وفي الظروف السياسية المعالمية الراهنة اراها سلاحا ذا حدين وفي يد الاقوياء اكثر منها وسيلة لافادة الشعوب المغلوب على امرها لعدم تساوي الجانبين في التمكن من الاستفادة منها اما بالنسبة لـ (الديمقراطية) فاراها احسن الطرق لادارة الامور، رغم انها تظل دائما ناقصة لانها محكومة بقانون الاكثرية والاقلية من جانب، ولعدم تعبير مصطلح (الاكثرية) عن مصالح الاكثرية او الاكثرية نفسها من جانب آخر، ولامكانية تكوين اكثرية من عدة اقليات حتى تتغلب هذه الاكثرية على القائمة الفائزة بالاكثرية النسبية اذا نظرنا الى كل مجموعة على حدة. والديمقراطية محكومة على كل حال بالمصالح الطبقية الاستغلالية مادام في المجتمع طبقات متناحرة، وهي لا تؤتي اكلها الا في ظل وعي شعب على مستوى عال من ادراك ما له من حقوق واصرار على التمتع بها وفي ظل احسن قدر ممكن من فرص الحياة السعيدة للشعب كما هو الشأن في البلدان العريقة في تقاليد الديمقراطية السياسية كالبلدان الاسكندينافية على ما هو شائع.

وبشأن التكنوقراط فاني افهم الكلمة على انها تعني الكفاءة والخبرة، ولذلك ارى انه ايا كان الحزب الذي يتولى مقاليد الحكم، يجب ان يوكل امر الحكومة الى فئة من التكنوقراط اصيلة في الديمقراطية بالمقدار الذي يمكن توفرها في البلد المعين. فما اشد المي عندما ارى وزراء ومسئولين كبارا لايعرفون من الأمور الموكلة اليهم مايمكن ان يقوموا معه بادارة المرافق التي وضعت في ايديهم، وكل بضاعتهم المزجاة هي انهم ينتمون الى الحزب الذي حصل على اكثرية الاصوات، كيفما كان ذلك، في الانتخابات. واخيرا، يمكن معرفة تأثير هذه

المفاهيم على عالمنا، في رأيي، على ضوء اجاباتي المدونة آنفا.

**-اين بغداد حاضرة الزمان من كتابات المدرس الجديدة، وكيف سيكتب عنها ولها بعد ان غرز خنجر الارهاب نصله في قلبها؟**

⋆لا ادعي انني وفيت بغداد دجلة الخير بعض حقها كمدينة احتضنتني قبل حوالي خمسين سنة وحتى الى ماقبل اقل من سنتين، وهي المدينة التي مازلت وسأظل احن اليها بكل قوة. وكل ماكتبت عنها في تلك الفترة وحتى سقوط النظام، كانت كلمة كتبتها في موسكو في اواخر ١٩٧٣ ونشرتها لي التآخي يومذاك، وكان ذلك بعد اسابيع من وصولي اليها، واخرى وداعية كتبتها قبل ان اغادرها الى كردستان بايام ونشرتها لي الاتحاد ومن بعدها طريق الشعب.

اما عنها كمدينة تعرضت بعد الاحتلال للاعمال الارهابية والسلب والنهب والقتل والاختطاف، فلم اقصر قدرما استطيع في الكتابة عنها في التآخي وفي الاتحاد. وقد نشر القسم الاول مما نشرت، في الجزء الاول من كتابي (حصاد اعوام) وهو يتعلق بسنوات ٢٠٠٣-٢٠٠٥)، وآمل ان انشر ماكتبت عنها في بقية عام ٢٠٠٥ والى حين عودتي منها الى السليمانية في ٢٠٠٦، في الجزء الثاني من الكتاب خلال العام الحالي او الذي يليه، واما عما سيأتي فالمستقبل كشاف، كما يقولون. فهل سيساعدني الحظ؟ لا اعلم!

**كيف تجدون الوضع الثقافي اليوم وما هي توقعاتكم الشخصية عن مستقبله؟**

⋆رغم وجود اتحاد للادباء العراقيين ورغم وجود منظمات ادبية اخرى فاني لا ارى الوضع الثقافي العراقي جيدا، فالجامعات والمؤسسات الثقافية الاخرى لاتعمل في ظروف طبيعية، والسبب في ذلك الوضع المتدهور الذي يعيشه العراق في مختلف نواحي الحياة وهجرة الألوف من الأساتذة والأدباء والمثقفين الى خارج البلاد وعدم التمكن غالبا حتى الآن من ان يتولى ادارة الامور من هم اهل لذلك من رجال حكم اكفاء نزيهين ديموقراطيين يؤمنون حقا بأن الحكم يجب ان يكون للشعب وفي يديه وليس للزمر الانتهازية النفعية واصحاب المصالح الضيقة الخاصة ممن لاهم لهم الا ايجاد المناصب لأعوانهم ونهب اكبر قدر ممكن من ثروات الشعب الجائع، ولن يتحسن الوضع الثقافي واي وضع مادامت هذه الظروف قائمة على قدمين وساقين.

**-ماهي مشاركاتكم في المحافل الثقافية على الاصعدة كافة، محليا وعربيا وعالميا؟**

⋆لم اشارك في اي محفل عالمي، ذلك لأن الظروف السياسية والاجتماعية التي عشت فيها حتى سقوط النظام، بل وبعده ايضا، لم تدع لي امكانية ان اسهم في اي محفل عالمي، فانا لا أحمل شهادة عالية تضطر من بيدهم الامر الى ان يضيفوا اسمي مرة من المرات الى قائمة اولئك الذين يرسلون للاشتراك في محفل عالمي. اضافة الى انني لم اكن يوما ضمن المحسوبين على اي جهة بيدها الحول والطول حتى تضعني في عداد من يوفدون الى اي بلد عربي او غيره. ولذلك لم يتح لي حتى الآن مجرد السفر الى اي بلد عربي

فيما عدا الاردن الذي رأيته كمحطة سفر ال المانيا مرة واحدة وبدعوة من صديق وعلى حسابه هو. وسافرت الى برلين في العام ١٩٧٣ موفدا من التآخي كصحفي الى المهرجان العالمي للشباب والطلبة، والى موسكو مرات كانت اولاها بزمالتين احداهما من الحزب الشيوعي لدراسة اللغة الروسية في معهد العلوم الاجتماعية والاخرى من جريدة التآخي للغرض نفسه. وفي موسكو كان في انتظاري موفدان كل منهما عن واحدة من الجهتين اللتين منحتاني الزمالة. اخترت الأولى منهما ودخلت معهد العلوم الاجتماعية وسرعان ماندمت على مافعلت، دون اي مساس بالجهة التي حصلت لي على الزمالة، ويرجع سبب الندم الى انني كنت اريد الوصول الى موسكو لتعلم اللغة الروسية لعمق اعجابي بالادب الروسي، ولو اخترت الثانية لأرسلوني الى خارج العاصمة حيث لايوجد الا المواطنون الروس، مما يجعلني اتعلم اللغة بالضرورة اذ لا لغة سواها اتفاهم بها مع اي احد. بعكس الاولى التي كان فيها على الدوام عدد كبير من العرب والكرد كزملاء، ولم توفر لي من الروس لاتعلم منهم لغتهم الا اقل القليل. لقد خرجت عن الصدد، ولكنني رأيت ذلك ضروريا لانني اردت ان ابين حقيقة ما جرى.

اما على النطاق المحلي، فقد شاركت في كثير من المحافل الادبية والثقافية التي اقيمت في العراق بعد ثورة الرابع عشر من تموز، من جهة، ولأن الهيئات الشعبية التي كانت تقيم تلك المحافل ماكانت تريد ان تتجاهليي من جهة اخرى. اضف الى ذلك انني كنت قد فرضت نفسي بروحيتي الاقتحامية المتحدية على الساحة الادبية والثقافية منذ السبعينيات والتي كان الكثيرون ينأون بأنفسهم عن دخولها تحاشيا لبطش النظام الدكتاتوري الذي كان من المتوقع ان يلحق بأي احد يبدي رأيا حرا، في اي لحظة. غير ان ذلك ايضا لم يكن امرا ثابتا على الدوام، فالمقاييس السابقة ظلت ومازالت تعمل عملها وان بقدر اقل.

واليوم فان تردي حالتي الصحية يجعلني اشبه. برهين المحبس المنزلي. ولذلك فانني لا اسهم في اي محفل ادبي او ثقافي حتى في مدينة السليمانية نفسها الا نادرا، غير انني مازلت اواصل الكتابة، وآمل ان اظل متنعما بهذه النعمة الى ان يقضي الله امرا كان مفعولا.

# الاكراد منذ فجر التاريخ

## ٢-٢

رفيق حلمي

### الفصل الثالث
### لغة الكورد وآدابهم

كثيرا ما سـمعت من بعض مـن ليس له علم باللغـة الكوردية انتقادات مرة بعيدة عن الصواب بحق هـذه اللغة التي لو درسـت جيـدا لظهرت انها من ابدع اللغات الشـرقية من حيث الانسجام والرقة وامكان التعبـير بها في جميع فروع الادب والحكمة والفلسفة والفن وانها من اللغات الشعرية الموسـيقية بطبيعتها فلاجل ان لا احسب شخصا عاطفيـا او خياليا، انقل لكـم هنا ما يقوله الاب بول بندر «L'abbe, Paul Beinder" في كتابه المطبوع[1] في باريس سنة ١٩٢٦ حرفيا:

Allegre; Harmonieuse; sinple; precise," riche et variee; Facile a apprender, cette langue grande vogue et ils sont admirables; ils Forment la base et le naeude de toute la conversation et ils sont vraiment L'apanage de la langue kurde sur chaque; chose; sur toute de code et de regle de vie. Toute la nature y passe et la sagesse des Kurdes a toute vue et dit des las premoers temps. Non moins loquente que philosophe, la langue Kurde est Foncierement poetique et sa poesie embrasse toute las brancges el 'traite de toute la nature".[2

"ان اللغـــة الكوردية لغة مبهجـــة، ذات نغمات موزونـــة، غـــير متكلفـــة، صريحة غنيـــة، قابلة للتحوير والتصرف، سهلة التعليم، جذابة رقيقة، فيها امثال بديعة كثيرة التداول تلك الامثال التي تشكل اســاس جميع المحادثات ومواردها وانها تعد بحق مـــن مميزات اللغة الكورديـــة. فان الكوردي مثل لكل شـــيء وفي كل موضوع. فهذه الامثال هي نظام حياته وقاعدتـــه فالطبيعة كلها تمر باللغة الكوردية والذكاء الكوردي رأى كل شـــيء وقال كل شيء منذ اقدم الازمنة، ولا تقل بلاغة هذه اللغة عن فلســفتها. واللغة الكوردية لغة شعرية والشعر فيهـــا يحتضـــن جميع نواحـــي الحيـــاة ويتناول الطبيعة بكاملها».

اني اشـــكر هذا الاب الفاضل لدراسته العميقة للغة اجدادي ووصفه البديع بهذه الدقة العلمية ثم اقول ان الاب، لم يبالغ قط في ذلك الوصف بالنظر الى كل من لـــه اطلاع على آداب اللغـــة الكوردية. اجل، ان هذه اللغة التي لانرى لها شأنا بين اللغات الحية في الحال الحاضر يجب ان يعرف بانها ليست لغة ميتة مختصة بطائفة قليلة لم يكن لها شـــأن في التاريخ وفي المدنية العالمية فاندرست. ان باحث ماضـــي اللغة الكوردية وحاضرها يرى عكس ذلك تماما، لان هذه اللغة كانت في العصور القديمة من اللغات الســائدة في بـــلاد امبراطورية عظيمة هي الامبراطورية الايرانية الاولى وكانت منتشـــرة في الشـــرق الادنى باجمعها بواسطة شعوب منظومة زاغروس السالفة المذكورة سالفا كما بيناه. فها اني اشـــرح لحضراتكم اصل اللغة الكوردية وتطوراتها ربما تأتي ايضاحاتي هذه ببعض الفائدة ان اللغة الكوردية كســائر اللغات الآرية الشرقية. متفرعة من البهلوية والسنسكريتية والميدية. وكانت هذه اللغة تكتب قبل الاســلام من الشــمال الى اليمين بابجدية مســتقلة مشــابهة الابجدية الآشــورية والارمنية وقد تركت هذه الابجدية بعد الاســلام اكتفاء بالابجدية العربية لانها لغة القرآن. واللغة الكوردية الحالية تنقســم الى اربع لهجات مختلفة وهي الكرمانجية والطورانية واللورية والكلهورية. فاقـــرب هذه اللهجـــات الى البهلويـــة القديمة هي اللورية نظرا لقرب مكان اللور من مركز البهلوية الاول ولعدم تأثرهم كثيرا بالكلدان والآشوريين.

وتليهـــا في القـــرب الكلهوريـــة فالطورانيـــة ثـــم الكرمانجيـــة، لان الاخيرتـــين اي الطورانية والكرمانجيـــة تأثـــر كثـــيرا باللغتين الآشـــورية والكلدانية لمجاورتهما لهما.

وان اقـــدم لغـــات (آريانـــة) اي بـــلاد الآريين الواقعة بين نهر الســـند وبين وادي دجلة والفرات شـــرقا وغربا هو لغتا الزند والبهلوية (البهلوان). اما اللغة الزندية فهي لغة الكتب الدينية القديمة مثل (زند آوســـتا) وكانت تسود هذه اللغة المناطق الشـــمالية من هضبـــة ايران ولا تـــزال هذه اللغة مقدســـة عنـــد المجوس في هـــذه العصـــور كاللغة السنسكريتية المقدسة عند علماء الهنود.

وامـــا اللغة البهلوية اي لغة الابطال والمحاربين فقـــد كانت منتشـــرة في العـــراق العجمي وميدية الكبرى والبرثـــة (مقاطعة فارس). وترجمت كتب المجوس قديما من الزندية الى البهلوية، واصبحت البهلويـــة فيما بعد لغة الساســـانيين ايضا بدليل ظهور كتابات منقوشـــة بهذه اللغة من ذلك العهد،

الا ان الساسانيين تركوا تدريجيا (ابتداء من سنة ٢١١م) الى سـنة ٦٣٢م استعمال لغة البهلويين الذين ورثوهم في المجد والحضارة واصدروا اوامر ملكية لاستعمال لهجة اقليم فارس اي اللغة الفارسية (مقاطعة شيراز الحالية) وذلك لان الفارسية كانت اسهل من البهلوية كما كانت البهلوية اسهل من الزندية ولما استولى العرب على البلاد الايرانية وقضوا على الدولة الساسانية في القرن السابع للميلاد فقدت هذه اللغة بهاءها. ولكن الديالمة لما شعروا بالخطر الداهم للغة اجدادهم وارادوا احياء احدى اللغات الايرانية القديمة (٩٧٧م) رأوا ان اللغة الفارسية قد تغيرت معالمها باختلاط كثير من الكلمات العربية وغيرها من اللغات معها لذلك وقع اختيار شعرائهم وخطبائهم على انتخاب لهجة سهلة ذات معان كثيرة واصوات موسيقية عذبة مكونة من الفارسية شبه المندرسة واللغات القديمة كالزندية والبهلوية (اي الكوردية القديمة) فسموها بالفارسية الحديثة وهي الشائعة الآن في ايران. وقد بقيت الفارسية القديمة بفضل كتاب شهنامه الشهير للفردوسي وبفضل كتب المجوس الدينية مصونة ومحفوظة في الكتب القديمة فقط.

يتلخص من هذا كله ان الامة الكوردية من اقدم الامم الايرانية التي اسست حضارة زاهية في هضبة ايران الكبرى فامتد سلطانها من وادي السند شرقا الى وادي دجلة والفرات غربا وسادت لغتها الكوردية باسم اللغة البهلوية (اي لغة الابطال والمحاربين) في جميع بلدان الامبراطورية الايرانية الاولى التي قضى عليها الاسكندر المكدوني سنة ٣٣٣ ق. م. فاعاقها بعد مدة من الزمن ملوك الطوائف الذين يسمون من قبل الفرس بالاشكانيين الذين اخذوا حينا من الدهر يتطاحنون ويتنازعون السيادة الايرانية العليا الى ان تغلب ملك اقليم فارس (مقاطعة شيراز) على سائر ملوك الطوائف الايرانية فأسس امبراطورية ايرانية ثانية دعيت فيما بعد بالساسانية، واصبحت كلمة فارس مترادفة مع كل ماهو ايراني قديما وحديثا وهذا الامر ادى الى وصف الامبراطورية الاولى بالفارسية مع انها كوردية بهلوية، اي ان الامة الفارسية احدث عهدا من شقيقتها الامة الكوردية التي سبقتها في تأسيس الحضارات الايرانية الاولى[٣].

ان الكورد على الرغم من تعصبهم للاسلام ولغة القرآن كما يظهر من وضع علماء الكورد وادبائهم اكثر مؤلفاتهم القيمة باللغة العربية او باللغات الاخرى كالفارسية والتركية لم ينسوا لغتهم الاصلية واستمروا في استعمالها فيما بينهم للتفاهم والمكاتبات وفي شرح العلوم التي كانوا يدرسونها في مدارسهم العلمية وفي تأليف الكتب في مختلف العلوم والفنون ولم يقرضواالشعر خاصة الوطنية او الفلسفية منه، الا بها وبذلك فقد خلفوا لنا مخطوطات كوردية نادرة المثال تلك التي تدل على مبلغ مطاوعة هذه اللغة وقدرتها في التعبير عن الافكار السامية في مختلف نواحي الحياة.

ومن يتصفح الدواوين الشعرية الوطنية والفلسفية التي وضعت بهذه اللغة يندهش من ادبها الراقي الذي يرى بين طيات تلك المخطوطات وينحير كيف ان الجهل يبلغ بالبعض لانكار وجود

لغة باسم اللغة الكوردية على وجه الارض.

قام اخيرا رجل من الترك فوضع كتابا باسم (كوردار حقنده تتبعات) جاعلا فيه نصب عينه انكار القومية الكوردية ولغة الكورد. اني لا اتداخل في الموضوع من باب السياسة، لاني عارف تمام المعرفة العلائق الودية التي تربط العراق بتركيا، ولكن لا ارى بأسا من ان اقول، بان على كل من يطلع على ذلك الكتاب البعيد كل البعد عن الحقائق العلمية والتاريخية الثابتة، ان يعرف بان لاحد الكورد المثقفين تثقيفا عاليا كتابا قيما جدا وضعه ردا على هذا الكاتب المجهول يتناول فيه البحث عن اللغات واقسامها والادوار التي تمر بها كل لغة من اللغات ويذكر اللغات التي بقيت في مختلف مراحل الرقي، فاللغات الواصلة الى المرحلة الاخيرة (اي دور التكامل) ثم يبرهن بصورة علمية على ان اللغة الكوردية هي من اللغات التي تعد في الصف الاول اي في الدرجة الاولى من هذا الترتيب ويرهن بنفس الطريقة على بقاء اللغة التركية بين لغات الدرجة الثانية وعدم وصولها الى مصاف اللغات من الدرجة الاولى.

ان البحث في هذا الموضوع المهم خارج عن استطاعتي انا ولكن اقول بان العالم الكوردي الفاضل الذي دحض مزاعم الكتاب المجهول بصورة علمية هو أحد المشتغلين بتدقيق الالسنة الشرقية في جامعة مونيخ ومتضلع في اكثر اللغات الحية شرقية كانت وغربية.

فهذا الكوردي يحصر اللغات جميعا في ثلاثة اشكال او فصول اساسية تحت اسماء (monosyllabique = وحيد المقاطع) (agglutination = التصاقي)، (flecion = عطفي)، ويرجع اللغات التي تدخل ضمن الشكل الثالث الى اصلين مختلفين حسب الطراز او النسق وهما – systeme indo europeen، و systeme sematique اي الطرزين الهندو اوروبية والسامية ثم يرجع اللغة الكوردية الى الطرز الاول من الشكل الثالث او الى الدرجة الاولى من الطرز الهندو اوروبية.

اظن في هذا القدر كفاية لرد من يدعي ان اصل الكورد من التورانيين وينكر عليهم لغتهم، لان اللغة الكوردية على االرغم من العوامل القوية الهدامة تتفوق على اكثر اللغات ولولا وجود عناصر قوية اساسية فيها لما كان الكورد بوسعهم ان يحافظوا عليها.

اعتقد انكم تعترفون معي بهذه الحقيقة الراهنة اذلا يخفى على حضراتكم كيف ان اكثر الامم القديمة كالآرانيين والفينيقيين والمصريين والبرابرة والكلدانيين والآشوريين سنوا للغتهم الاصلية واخذوا العربية وذلك بتأثير العوامل السياسية او المدنية والدينية. وفقد اكثر الشعوب الغربية لغاتها الاصلية تحت سلطان العوامل الثلاثة المذكورة سالفا. فهل للكوردي بعد ان فقد دينه القديم ومدنيته القديمة واستقلاله القومي ما يصونه من التمثل والاندماج باحدى القوميات الحاكمة غير تلك العناصر الخفية الكامنة فيه؟

المصادر:

.1-Grammaire kurde
2-Le question kurde
٣-راجع المقالة الخامسة والخمسين من تخطيط

آســيا من ترجمة جغرافية ملطيرون العربية ص ١٢١ (نقلا من شــرفنامه ومــن الكتاب الخاص من القضية الكوردية).

الفصل الرابع

المدنية الكوردية

ان الكورد كانوا من امهــر الامم المعاصرة لهم في الفنون والصنائع النفيســة وكان لهم باع طويل في الهندســة بفروعهــا لذلك ترى المؤرخ الشــهير (ســترابون) يقول في ســياق كلامه عــن حكومة الارمــن: ان (تيكران) ملك الارمن كلن يســتفيد من خــبرة الكورد في الامور التي كانت تتعلق بفن الهندسة كما ســبق لنا ان قلنا و (آشورناصربال) الملك الاشــوري كان قد اخذ عــددا غير قليل من الكرج (لوللو) الى بلاده ليزينوا له المدن الآشورية وينشــروا الصنائع التي كلنوا قــد برعوا فيها في بلاده. نرى اننا يجب علينا ان نقر بفضل الكورد الاقدمين على المدنية الاولى في بلاد وادي الرافدين كما ان للكاشــيين الذين ادخلــوا فن الزراعة وفن ركوب الخيل واســتعمال الخيــول في جر العربات الى هــذه البلاد ضلعا كبــيرا في الاضافة الى المدنية البابلية.

ســادتي، ان الكورد بعد اسلامهم بذلوا اقصى جهدهــم للقيــام في اقامــة المدنيــة الاســلامية والشرقية وهم الذين دافعوا عن تلك المدنية وعن الدين الاســلامي والمراكز المقدسة بصدهم غارات الصليبيــين في عصر كان امراء الاســلام وملوكهم منغمسين في لذاتهم وفي احضان بنات الهوى ثملين تحت تثقل بنت العنب[1].

مؤلفات الكورد وخدماتهم للمدنية الاسلامية والثقافة العربية:

ان للكورد خدمات كبيرة وجهودا فائقة بذلت في ســبيل المدنية الاســلامية في مختلف النواحي العلمية والادبية والسياســية والحربية وحتى في الناحيــة البحرية وان ما ألفــه نوابغ الكورد من الكتــب في مختلف العلوم والفنون الاســلامية من فقه واصــول وتوحيد وفلســفة وتاريخ وتراجم ومنطــق وحديث كانت تــدرس في مدارس بغداد والقاهــرة والحرمين وأصفهــان ومراغة وبتليس وآمد ودمشق وحلب وشهرزور (منطقة السليمانية الحالية) و غيرها من المدن والعواصم الاســلامية الشــهيرة في عدة عصور، ذلــك لان بلاد الكورد في عهــد الامارات الوطنيــة الكورديــة كانت مركزا عاما للعلوم والفنون الاسلامية وان اساتذة الكورد وعلماءهــم الذين يعدون بحق مــن فحول علماء العصور الاســلامية قد كرســوا حياتهم للتدريس والتأليــف، وكانوا ركنا قويمــا ودعامة متينة في بناء المدنية الاســلامية. فهنــا اورد لكم مايقوله المسيو الكسندر يابا في كتابه (مجموعة ملاحظات وأخبــار عن الكورد = recueil de notices et "recites Kurdes

المذكور سالفا:

Avait jadis un bon nombre d,ecoles dons le "Kurdistan et l'on y montrait beaucoup de gout pour "les science. Dans toutes les bourgs et villages du Kurdistan "on ne pouvait manquer de rencintree une; deur; trois "ecoles et quelques fois .meme davantage

C'est a L'envi que les gouvernements" (Kurdes) et "les habitants protegeaient les ecoles et les savants, "Crands et petils dans le Kurdistan estimaient a leur "valeur les arts et les sciences.On trouvait des profess- "eurs distingues a Djezire; a Imadi; a Soran; a "Saard et dans d'autres endroits. Pour devenir "licencie il fallail suivre douze differents cours. Les "ecoles; Las profsseurs et les Lettres ont aujoued hui "psesque entierement disparu ou du ."mons ils y sont "bien rares

"كان في كوردستان حينذاك عدد كبير من المدارس، وبيد وللمرء ان هناك رغبة زائدة في العلوم. ففي كل مدينة وفي كل ولاية او قصبة او قرية في كوردستان ولم يكن للمرء أن لا يصادف اقل من مدرسة او مدرستين او ثلاث او اكثر في بعض الاحيان وذلك بفضل الخدمة التي كانت تسديها الحكومات الكوردية والاهلون بكل شوق للمدارس ولاهل العلم. وكان الكبير والصغير في كوردستان يقدر قيمة العلوم والصنائع، وكنت تجد اساتذة ممتازين في الجزيرة والعمادية وسوران وسعرد وغيرها. وكان على كل من يريد نيل الشهادة (ليسانسية) ان يجتاز اثني عشر علما مختلفا، ان المدارس قلت في اليوم الحاضر وان الاساتذة والمتعملين قد زالوا تقريبا زوالا كليا او على الاقل اصبح وجودهم نادرا».

اجل ان المدارك كانت منتشرة انتشارا كبيرا في الامارات الكوردية قبل ان تقضي على هذه الامارات الدولة العثمانية لذلك كنت ترى ان ما يؤلف من الكتب العلمية والفنية من قبل اساتذة الكورد كان يشكل قسطا كبيرا من مجموع ما كان يؤلف في مختلف الممالك الاسلامية. وللبرهان على ذلك اقول ان عدد مؤلفات عالم واحد من علماء السليمانية وهو الشيخ معروف النودهي العلامة الاكبر والجد الاعلى للشيخ محمود الزعيم الكوردي الحالي بلغ ٥٤ مؤلفا واني اذكر لكم اسماء تلك الكتب التي حصلت عليها من مقدمة كتاب للعلامة المشار اليه:

«١-الفوائد في العقائد ٢-الفريدة في العقيدة ٣-زاد المعاد في مسائل الاعتقاد ٤-قطر العارض في علم الفرائض ٥-سلم الوصول في علم الاصول ٦-عقد الدرر في مصطلح اهل الاثر ٧-ترصيف المباني في نظم تصريف الزنجاني ٨-الشامل للعوامل ٩-الاغراب نظم قواعد الاعراب ١٠-كفاية الطالب نظم كافية ابن الحاجب ١١-القطوف الدواني في حروف المعاني ١٢-فتح الموفق في علم المنطق ١٣-تنقيح العبارات في توضيح الاستعارات ١٤-نظم الرسالة العضدية في الوضع ١٥-نظم آداب البحث ١٦-عمل الصياغة في علم البلاغة ١٧-فتح الرحمن في علم المعاني والبيان ١٨-غيث الربيع في علم البديع ١٩-الجوهر النضيد في علم قواعد التجويد ٢٠-فتح المجيد في علم التجويد ٢١-تنوير البصائر في التحذير عن الكبائر ٢٢-روض الزهر في مناقب آل سيد البشر ٢٣-عقد الجوهر ٢٤-نظم العروض ٢٥-تخميس البردة ٢٦-تخميس بانت سعادة ٢٧-تخميس لامية العجم ٢٨-تخميس المشرية ٢٩-تخميس يا من يرى ٣٠-تخميس انعم عيشا ٣١-تنوير العقول في احاديث مولد الرسول

٣٢-تنوير القلوب في مديح حبيب علام الغيوم ٣٣-الاحمدية في ترجمة العربية بالكوردية ٣٤-الهمزية ٣٥-تخميس الهمزية البوصيرية ٣٦-الجوهر الاسنى في الصلوات المشتملة على اسماء الحسنى ٣٧-تنوير الضمير في الصلوات المشتملة على اسماء البشير النذير ٣٨-ازهار الخمايل في الصلوات المشتملة على التماثيل ٣٩-راحة الارواح في الصلوات المشتملة على خصايص حبيب الملك الفتاح ٤٠-كشف الاشف في الصلاة والسلام على سيد اهل الشرف ٤١-كشف البأساء باذكار الصباح والمساء ٤٢-فتح الرزاق في اذكار رفع الاملاق وجلب الارزاق ٤٣-شرح الصدر بذكر أسما أهل البدر ٤٤-الروضة الغناء في الدعاء باسماء الحسنى ٤٥-التعريف بابواب التصريف ٤٦-شرح نظم الاستعارات ٤٧-البرهان الجلي في مناقب السيد علي ٤٨اوثق العرى في الصلاة والسلام على خير الورى ٤٩-ايضاح المحجة واقامة الحجة على الطاعن في نسب سادات البرزنجة (صاغ هذا الكتاب) ٥٠-السراج الوهاج في مديح صاحب المعراج ٥١-وسيلة الوصول الى علم الاصول ٥٢،٥٣،٥٤ دواوين شعرية باللغتين العربية والفارسية على قافية من النغمات الكوردية..»

اعتقد ان هذا يكفي للبرهان على ما للعلماء الكورد ونوابغهم من الايادي البيضاء في النهضة الاسلامية والثقافة العربية. هذا ولقد انجبت الامة الكوردية بجانب علمائها الافاضل وادبائها ومؤرخيها ملوكا وقوادا وامراء قلما انجبت مثلهم امة اخرى، امثال (رستم) الذي اشتهر اسمه في العصور القديمة بالاعمال الخارقة التي قام بها والذي يليق ان يسمى بـ (هير كول كورد) وشيركوه الايوبيء وصلاح الدين وعبدالكريم خان الزنج وابو مسلم الخراساني المؤسس الحقيقي للخلافة العباسية والامير احمد بن مروان الكوردي الملقب بنصر الدولة والامير ذو الفقار السيء الحظ المؤسس للدولة الكوردية في العراق وبلاد عيلام والامير حسين بك الامير الكوردي «قائد الاسطول[٢]» في العهد الفوري في مصر وغيرهم، العظماء الذين ليس لدي متسع في هذه العجالة لذكر بعض من اعمالهم المدهشة التي قاموا بها في سبيل خدمة الشرق والاسلام.

وقبل ان اختم هذا الفصل ارى من واجبي ان اشير الى نقطة مهمة جدا في تاريخ الكورد وهي عدم ظهور ملك او قائد او بطل من بين ابنائها قد اشتهر بالظلم او سفك الدماء او اعتلى قمة المجد على جماجم المظلومين، اي ان الامة الكوردية النجيبة تمتاز عن غيرها من اكثر الامم الشهيرة ذات المجد بعدم تلوين تاريخها بالدماء، على الرغم من ان هذه الامة انجبت رجالا لم يكونوا بأقل من هيركول ونابوليون وعمر بن الخطاب وتيتوس وباربarوس وامثالهم من الرجال الذين تفتخر بهم الامم وتمجدهم، ولم تنجب قط رجالا مثل هولاكو او تيمور او جنكيز او نيرون او على الاقل الحجاج وامثالهم من الطغاة الذين لم يشتهروا الا بالقسوة والظلم وشرب الدماء.

المصادر:

١-راجع كتاب ذكرى موقعة حطين لناشره نجم الدين الخطيب، المطبوع في القاهرة.

٢-راجع السفن والملاحمة بمصر للدكتور علي مظهر.

## الفصل الخامس
## تاريخ الثورات الكوردية

قبل الخوض في ذكر تاريخ الثورات الكوردية اريد اولا ان اشير الى نقطة اخرى وهي العقيدة الراسخة في الافكار بان الثورات الوطنية الكوردية الاخيرة التي ظهرت منذ انتهاء الحرب العظمى الى اليوم، ليست الا وليدة تحريضات اجنبية، لان هذه العقيدة الخاطئة التي سادت حتى على الشبان المثقفين شوهت بدوافع وطنية صادقة جمال تلك الثورات التي لم تشعل نارها الا بافع الوطنية الصادقة.

نعم، ان الكورد لم يقوموا بأية ثورة من ثوراتهم بتحريض من الاجنبي، بل ان الدعاية التي بثت لتشويه ظاهر الثورات الكوردية، هي بعينها من نتاج تلك التحريضات الخفية اي الاجنبية كما يقال، وان المروج لمثل هذه الدعايات لايخدم الا مصالح ذلك الاجنبي الذي يتظاهر له بالعدوان، لان الكورد ما كانوا يفشلون في كل هذه الثورات المدهشة لولا تعصبهم الشديد وعدم رغبتهم للاتفاق مع الاجنبي ولو كان ذلك في مصلحتهم. فليس من المعقول ان نستمع لاقوال جهة واحدة من الطرفين المخاصمين في مثل هذه الاحوال، لان الحكومات مهما تكن فهي ظالمة، لها من الوسائل المادية والادبية ما تكفي لاظهارها بمظهر العادل المحق. فالرجل المحنك هو الذي يخرج من الظلمات الى النور ويرى الحقيقة ببصره النافذ، وليس الرجل الذي لايصغى الا الى ما تنشره الاقلام المأجورة لمدح القوي الجبار بدافع المصالح الشخصية.

ان من الظلم او قلة الذوق والادب على الاقل ان نلصق هذه التهم البعيدة عن الحق والصواب الى امة بريئة منها، براء الذئب من دم يوسف، لاسيما اذا كانت فيها مصلحة الاجانب الذين تعودنا ان ننسب اليهم كل عمل نحن عاجزون عن ادراك حقيقته، لان تلك الاسنادات لاتدل الى على جهلنا المطبق لحقائق الامور او على حبنا للثرثرة والضوضاء دون الالتفات الى تدقيق جوهر الحوادث. اني اعتقد بانكم ستقرون معي الخشونة المستعملة في وصف الكورد وثوراتهم الوطنية بعد ان تطلعوا على ما سأذكره لكم في هذه العجالة.

لنرجع قليلا على ماذكرناه من انضمام الامارات الكوردية الى السلطان سليم العثماني. ان هذه الامارات بعد ان انضمت الى الدولة العثمانية كانت تحتفظ باستقلالها الداخلي بموجب المعاهدة المعقودة بين الطرفين (بين العثمانيين والكورد) كما اسلفنا سابقا. ولكن شاءت الدولة ان تقضي على كل واحدة منها باساليب تخجل الانسانية من ذكرها على الرغم من ان تلك الامارات لم تكن إلا دعامة قوية في بنيان السلطة العثمانية ولم تتأهر اية واحدة منها في تقديمها انواع التضحيات المادية والمعنوية لها في ايام محنتها وفي سبيل اعلاء شأنها والذود عن كيانها. مع كل ذلك سقطت الامارة اثر الاخرى بفعل الدسائس حتى كادت البلاد الكوردية العامرة بمدارسها، الحافلة بعواصمها الغنية بثرواتها المادية والمعنوية ان تصبح قاعا صفصفا. فانتبه لذلك ادباء الكورد وشعراؤهم اخيرا ولكن سبق السيف العذل! ان اول رجل من الكورد الذي نفخ في بوق الوطنية الكوردية، هو

الاديــب الخالد الذكر احمــدي خاني الذي لقب بـ (هومــيروس كورد) تقديرا لاثره الشــعري الرائع «مــم و زين» الــذي لا مثيل له في عالم الشــعر والادب، غير (الايلياذة) اليونانية الخالدة.

ان هذا الاديب الكوردي الكبير الذي استقى مادة روايته التمثيلية من قصة خيالية اهلية لايبحث في أثر كهذه من المقدمة الى الخاتمة الا عن كوردستان وعن القومية الكوردية. والاشخاص الذين يكلمهم ليســوا إلا تماثيــل خياليــة (Symbol) فهــو يصور الشــخص الذي يمثــل القومية الكوردية في الاسرويزجه في اعماق السجون، ثم ينبه الكورد الى الخطر الداهم، الى تحري طرق اســتخلاص الاسير ومن ثم يرشدهم الى الطرق الناجحة هو بنفسه. فهــذا الاثــر الخالد الذي الف ســنة ١١٠٥ منذ ٢٥٠ ســنة تقريبا هو المبشــر الاول للوطنية الكوردية ولــه ابلغ تأثير في تغلغل الفكرة القومية في صدور الكورد[١].

ان الآثار الشعرية والادبية التي خلفها الشعراء الكــورد وادباؤهــم كثيرة جدا كما ان قســما غير قليــل من تلــك الآثــار او الدواويــن منحصر في وصــف مظالم الاتراك ضد الكــورد وفي وصف ما لهذه البــلاد وغنائها القديم مــن مفاخر قومية ووطنية. كدواوين الشــعراء خالــدي الذكر نالي، وسالم وكوردي (او هجري) من شعراء السليمانية في العهــد البابانى وديوان الحاج قــادر من علماء كويســنجق القدمــاء وغيرهــم وهــذه الدواوين مطبوعة ومنتشرة بين الشباب الكوردي.

بعد هذه المقدمة الوجيزة ابدأ بذكر مختصر عن تاريخ الثورات الكوردية والتطرق الى اهمها:

ان الحكومــة البابانيــة التي كانــت من اقوى الحكومات الكوردية في العهد العثماني قد تأسست في بلادنا هذه في العصر السابع للهجرة (٦٥٦-٦٧٥) وقبل تأســس الدولة العثمانيــة بمدة نصف قرن تقريبا. وقد تمكنت هذه الحكومة من بسط يدها على بقعة واسعة تمتد من بحيرة اورمية الى جبال حمرين من جهة، ومن انحاء الموصل الى كرمانشاه من الجهة الاخرى حتى انها تصرفت يوما في بدرة المعروفة في عهد العباسيين باسم (بادورايا) وجصان وكلتيهما من اعمال كرت الامارة، وتصرفت بضعة ايام في بغداد (في زمن الســلطان محمود الثاني) في وهمدان (في زمن حســن باشــا وولده احمد باشا ولادة بغــداد) حتى انها مدت حدودها الى اصفهان عاصمة ايران حينذاك[٢].

ولما جــاء الدور العثمانــي وانضمت اليها اكثر الامــارات الكوردية طوع ارادتهــا بدوافع مذهبية بقيــت حكومــة آل بابــان تدافع عن اســتقلالها وتقاوم نفوذ العثمانيــين تارة وايران تارة اخرى زهاء ٣٥٠ ســنة حتى عهد سلطان عبدالمجيد الذي أمر نجيب باشــا والي بغداد ان يزحف على رأس قــوة كبيرة لتأديب آخر الحــكام البابانيين احمد باشا الذي كان يستعد استعدادا تاما لمقاومة النفوذ التوركي الذي اخذ يهدد استقلاله. لكن العثمانيين تغلبوا اخيرا على هذا الامــير الكبير وذلك بتأثير العواطف الدينية.

بعد ان انهزموا امام صولته وكادوا ان يفنوا عن آخرهم في عدة معارك تغلبوا على الشاه اسماعيل الصفــوي الجبار بفعل العواطف المذهبية. فنجيب باشــا لم يكن يقدر علــى مهاجمة الامير الكوردي

الذي كان ينتظره في قلعة كويسنجق الحصينة مع عشرين الف مقاتل من ابطال الكورد الذين كان القسم الاكبر منهم مدربا على النظام الاوروبي ومجهزا بالاسلحة النارية الحديثة وبعشرين مدفعا من المدافع المعروفة في ذلك العهد.

ولكن الذي أدى الى انكسار هذا الجيش الباسل هو العاطفة الاسلامية. لان نجيب باشا بعد ان رأى قوة الامير وشدة بأسه عمد الى الحيلة فاخذ يراسل علماء الكورد وفضلاءهم ويدعوهم الى التوسط عند الامير لنزوله عن التمرد والعصيان ضد خليفة المسلمين.

ان هذا الامير الخطير لم يصغ الى هذه الدعايات بل قرر الاستمرار على القتال حتى آخر قطرة من دمه في سبيل الحرية والاستقلال ولكن الدعاية اثرت في نفوس الجند الذين كانوا يقدسون العلماء تقديسا لا مزيد فيه. والانكى من ذلك ان القائد (بريندارا غا) الذي كان رجل دين وجاهلا بالامور السياسية اتفق سرا مع قسم من جنود الامير للانضمام الى العثمانيين اثناء القتال ان لم يرجع الامير عن فكرة المقاومة لمثل الخليفة. ولكن كيف يخضع الامير الذي كان قد ورث بلاده من اجداده العظام منذ ٦٠٠ سنة تقريبه تلك البلاد التي لم تبق بقعة من بقاعها الا وسقيت بدماء آبائه واجداده الزكية فلذلك امر الامير جنده بالقتال لما عرض عليه الخضوع للمرة الاخيرة فاشتبك الفريقان واشتد القتال بين ابطال الكورد والجيش العثماني. وكاد الامير يقضي على اعدائه ويفنيهم عن آخرهم لولا خيانة القائد (بريندار) كما قلناه وانضمامه مع ثلث الجيش الكوردي تقريبا الى جانب العدو. وبهذه الصورة المؤلمة انتهت المعركة الفاصلة وانتصر الوالي العثماني على الامير الكوردي فاعمل السيف في رقاب الكورد الباقين فاضطر الامير وبعض اخوته الى الذهاب الى الاستانة وتقديم الطاعة للسلطان. فاختفت حكومة البابان الكوردية القوية من عالم الوجود بعد ان دامت اكثر من ستة قرون بسطت اثنائها سلطانها على قسم كبير من ايران والعراق وتركيا الحالية[٢] ثم اعقبت هذه الثورة ثورات عديدة اخرى (بين ١٨٢٩-١٨٣٩) اهما ثورة جبل سنجار التي دامت ثلاث سنين كاملة (١٨٣٠).

ثورة الامير بدرخان

لما تولى الامير بدرخان الشهير امارة الجزيرة واقليم بوطان (سنة ١٨٢١) فكر في انقاذ كوردستان باجمعه من الادارة التركية وتأسيس اتحاد عام بين امارات كوردستان المختلفة. فدعى هذا الامير جميع زعماء الكورد وامراءهم الى الاتحاد تحت لوائه وقبل الدعوة اكثر الزعماء والرؤساء وقام كل من الشيخ محمد من اعالي الموصل والشيخ يوسف من اهالي زاخو -وكانا من اشهر علماء كوردستان- بالدعوة الى الاتحاد طائفين كوردستان من ادناها الى اقصاها يخطبون في الناس ويبينون لهم الامنية التي يرمي اليها الامير. ولم تقتصر دعوة الامير بدرخان على كورد تركيا، بل وصلت الى كورد ايران فلبى منهم امير اردلان (ايالة كوردستان الفارسي) الدعوة ودخل الحلف. ولم يكتف الامير بالاعمال السياسية وانما قام بجانب هذه الاعمال بالاستعدادات العسكرية وانشأ بمدينة الجزيرة معملا للاسلحة وآخر للبارود وبدأ في اعداد مئة

من الطلبة لارسالهم الى اوروبا للتخصص في تجهيز الاسلحة والمستحضرات الحربية واخذ في بناء السفن لتسييرها في بحيرة وان.

وقد اتفق في هذه الآونة امتناع النسطوريين عن دفع الضرائب للامير حسب المعتاد فجرد عليهم الامير قوة عسكرية تناهز عشرة آلاف جندي فأدبهم وخضعوا له. ولكن اوروبا هاجمت باسم الدين واحتجت على اعمال الامير (بحجة العطف على الضعيف) كما فعلت اثناء مذبحة الارمن في الحرب العظمى نعم احتجت انجلترا اولا وفرنسا ثانيا لدى الحكومة العثمانية على تأديب الامير لرعاية النساطرة وطالبتا بابعاد الامير عن امراته.

وكانت المخابرات السياسية جارية من مدة بين الباب العالي وبين أيالة دياربكر ومشير الاناضول، في كيفية القضاء على اطماع الامير وافساد حركاته فجاء تدخل انجلترا وفرنسا واحتجاجهما هذا فرصة سانحة للباب العالي لاتخاذ الاجراءات الشديدة ضد الامير ولاسيما ان الدولتين المذكورتين وعدتا الحكومة التركية بتقديم المساعدات اللازمة. فاوعز الباب العالي الى المشير حافظ باشا ان يرسل مندوبا من عنده يعرف اللغة الكوردية الى الامير يستوضحه عن نياته نحو الخليفة فارسل الباشا رجلا يدعى محمود افندي ليفاوض الامير ويدعوه باسم الخليفة للذهاب الى الآستانة. فعز على الامير ان يترك باختياره بلاده وحكومته ويطفي بيده نور آخر حكومة من الحكومات الكوردية العديدة التي قضت عليها الدسائس والنكبات لذلك رفض الطلب وضاعف جهوده في الاستعداد للطوارئ.

جردت الدولة العثمانية على الامير قوة عسكرية كبيرة ولكن الامير قضى عليها بسهولة وقطع بعد ذلك علاقاته مع الدولة واعلن استقلاله التام. ثم ضرب نقودا كوردية باسمه كان مكتوبا عليها في الوجه الاول ما نصه «امير برطال بدرخان» وفي الوجه الثاني «سنة ١٢٥٨هـ» وامتدت فتوحاته الى مدينة وان من جهة وصاوجبولاق وراوندوز والموصل من جهة اخرى واحتل قلعة سنجار ومدينة سعرد وويران شهر وسيوەرەك حتى وصل الى اسوار دياربكر الحصينة.

واثناء ذلك قامت ثورة في الموصل فترك جيشه محتفظا بخط «دياربكر- سيوەرەك- نصيبين» الحربي وسافر هو على رأس قوة كبيرة الى الموصل واعاد الامن فيها الى نصابه.

وفي اثناء رجوعه الى مقر حكومته بالجزيرة عطف على الشرق فاستولى على صارجبولاق وسنة (سنندج) واورمية ببلاد فارس. ولكن الباب العالي كان قد استعد هذه المرة استعدادا هائلا فحشد جميع القوى النظامية وغيرها من المتطوعين والباشبوزق بالاناضول وساقها تحت قيادة عثمان باشا على الامير بدرخان وكان قائد الميمنة في هذا الجيش التوركي الكبير الفريق عمر باشا وقائد الميسرة اللواء اركان حرب صبري باشا. فحدثت اول معركة بين القوى الكوردية وبين هذا الجيش اللجب على مقربة من (اورمية) فكان النصر فيها حليف الامير. ولكن وقع ماكان قد وقع للامير احمد باشا البابانـي اثناء حربه مع العثمانيين في قلعة كويسنجق، اي ان قائد ميسرة الجيش الكوردي عزالدين شير انضم مع جنوده

للترك واحتل بمســاندة الجيشــي التركي الجزيرة مقر حكومته. فاضطر الامير الى ترك قوات كافية امام الترك في ساحة القتال والزحف بقوات اخرى لمجاربة عزالدين شير والاتراك الذين معه وتمكن بعد معــارك دموية من طرد الاتــراك وحليفهم عزالدين شير من الجزيرة.

ولكن هذه الخيانة من عزالدين شــير ســببت الهزيمــة للقــوى الكوردية الواقفة امــام الجيش التوركي المعســكر بجانــب اورمية وحرمت الامير مــن اقتطاف ثمار انتصــاره الباهر. لذلك اضطر الامير اخيرا الى الانســحاب من الجزيرة والتحصن في قلعة (اروخ) فضــرب الاتراك ومعهم عزالدين الحصار عليها مدة ثمانية اشــهر والحرب ســجال بين الفريقين.

فنفدت الارزاق والمؤن في القلعة واضطر الامير للقيام بحركة هجوم فجائي من الداخل ولكن القدر لم يســاعده في هذه المــرة واصيب بهزيمة منكرة وهكذا خاب امله الكبير وهو الوصول الى استقلال كوردســتان التام وقد ســر البــاب العالي من هذه النتيجة سرورا مدهشا فوضعت الحكومة العثمانية مدالية ســموها (مدالية حرب كوردستان) تخليدا لذكرهــا مكتوبا علــى احد وجهيها»كوردســتان مداليةســي= مدالية كوردســتان» وعلــى الوجه الآخر رسم قلعة اروخ الحصينة[٤].

ثورة حسين كنعان باشا وعثمان باشا

ولما حدثت الحرب التركية الروســية (في سنة ١٨٧٧) جنــد الباب العالي كثيرا من المتطوعين من كوردستان فكان قسم كبير من هذا الجيش المتطوع تحــت قيــادة اولاد الامير بدرخــان. فانتهز هذه الفرصــة من هؤلاء القواد كل من حســين كنعان باشا وعثمان باشا واتفقا مع ضباط ورؤساء الكورد الذين تحت قيادتها ليذهبا الى كوردستان لتحقيق الامنية التي فشــل والدهما العظيــم في تنفيذها وفعلا ســافر هذان الامير ان الكورديان ســرا سنة ١٨٧٩ الى كوردستان ودخلا الجزيرة فجأة فاستوليا على مقاليد الامور فيها واعلنا استقلال كوردستان فورا وتغلبا مرارا على القوات العسكرية التوركية المجــردة عليهمــا مــن كل الجهــات الى ان امتدت فتوحاتها الى حكاري وزاخــو والعمادية وماردين ومديان ونصيبين وقرأ اسم الاخ الاكبر وهو الامير عثمان في الخطب بدل اسم سلطان الترك.

فلما رأى السلطان عبدالحميد الداهية العثماني هزيمة قواته المتوالية وانتشار نفوذ الامير عثمان في جميع البلاد الكوردية عمد الى تعديل سياسته نحو كوردستان والكورد.

فمــن ذلك اضطر الى اطلاق ســبيل كل الذين كان قد القى القبض عليهم من العائلة البدرخانية وارسل الى الاميرين في كوردستان يدعوهما الى حقن دماء المسلمين واستعداده لاجابة مطالبهما بالطرق الســلمية. فدخل الاميران المفاوضة مع الترك على شــروط الصلح وتحقيق مطالب الكــورد. وزادت ثقة الاميرين بالترك للحفارة التي قوبلا بها في كل الاجتماعات فاخذا يقللان من عدد الحرس الذين كانــوا يرافقونهما في حضورهمــا الى مقر المؤتمر والاجتماع. وبعد هذه الغفلة اخذ الترك يتعمدون تغيير مكان الاجتماع ويحشدون القوات في الاماكن اللازمة الى ان اصبحت القوات التركية المحتشدة في محل انعقاد آخــر مؤتمر، تزيد اضعاف مضاعفة

علــى القــوات الكورديــة فانتهزوا هــذه الفرصة واحاطــت القوات التوركية بالاميرين وحرســهما واسرتهما ثم ارســلتها الى الآستانة مخفورين فلم يكــن اقل ريــب في الحكم عليهمــا بالاعدام ولكن مخاوف السلطان من اندلاع الثورة منعته من ذلك فاكتفى بزجهما في اعماق السجون حينا ثم اطلق سبيلهما على شرط الاقامة في الآستانة.

ثورة سنة ١٨١١

قام الشــيخ عبيدالله الشــهير ســنة ١٨٨١ م في بلدة شمدينان بثورة شــديدة مطالبا بالاستقلال الداخلي لجميع كوردســتان تحت السيادة التركية فكانت هذه الثورة عظيمــة الاهمية لقيامها على اكتــاف الدراويش الكورد الاشــداء وتوســعت الى حدود الدولتين ايران وروســية فكان من المحتمل ان يســتقل الشيخ ببلاد كوردســتان ويشكل فيها دولــة كدولــة الصفويــين الدراويش لــولا قيام حكومتــي ايران وروســية واحاطتهما لقواتها من جميــع الجهات فاضطر الشــيخ الى الاصطدام مع الدولة الايرانية فضــلا عن اصطدامه مع القوات العثمانية فدخولــه الحرب مع دولتين عظيمتين ادت الى سقوط الشيخ واندحار قواته فقبض عليه ونفى الى المدينة حيث توفي.

ثورة سنة ١٩١٣

قامت في هذه الســنة ثــورة كوردية اخرى في ولايــة بتليس بقيادة ملا ســليم وشــهاب الدين وامتد لهيبها الى شــوارع بتليس غــير انها انتهت بالفشــل ايضا لكثرة القوى التركيــة المحدقة بها ولعدم انتشــار الثــورة الا في منطقة محصورة في نفــس الولايــة لذلك التجأ الزعيم ملا ســليم الى القنصلية الروسية في بتليس الى ان اعلنت الحرب الكبرى واضطر ســليم الى تســليم نفسه للحكومة التي شنقته في شوارع بتليس[٥].

هذه هي خلاصة قســم من الثورات الكوردية التي حدثت منذ ســنة ١٨٠٦ (ثــورة عبدالرحمن باشا بابان) الى ماقبل الحرب العظمى بسنة واحدة فقط.

وهنا اســدل الســتار على صفحة الثورات التي وقعــت منذ الحرب العظمى الى آخر ثورة كوردية وهــي ثورة شــيخ محمود الاخــيرة (١٩٣٠) وابين لحضراتكم نبذة من المجهودات العلمية والسياسية التي بذلت في ســبيل الوطنية الكوردية واستقلال كوردستان.

المجهودات العلمية والسياسية

ان الوطنيين الكورد الذين رأوا نتائج الثورات المؤلــة وطنــوا النفس على ان يعملــوا في ميادين السياسة والعلم ايضا. فتقرر في سنة ١٣١٥ هـ صدور جريدة كوردية لتنشر الدعوة للقضية الكوردية، وتعريــف الامــم والــدول بغاياتها وفعــلا اصدر الامير مدحــت بدرخان في الآســتانة اول جريدة كوردية باســم (كوردســتان) فاصبحــت جريدة كوردســتان هذه لســان حال الوطنيــين وعنوان الوحدة والاســتقلال لكوردستاان. ثم انتقلت هذه الجريدة لعدة اســباب الى القاهرة ثم الى جنيف[٦] ثم فولســكتون. وبعد اعلان الدســتور العثماني عادت الى الصدور في الآســتانة برياسة الامير ثريا بدرخان. ثــم في القاهرة في الحــرب العامة واول جمعية سياسية كوردية كبيرة تألفت هي (جمعية التعالي والترقي الكوردية) التي أنشأت في الآستانة

١٩٠٨ وكان كل مـــن الامـــير امين عالـــي بدرخان والفريق شـــريف باشا (تزيل باريس الآن) والسيد عبدالقادر الذي شنقه الكماليون اخيرا في دياربكر والداماد احمد ذو الكفل باشا وغيرهم من مؤسسي هذه الجمعية البارزين.

وتأسســت في نفس هذا التاريـــخ (بجانب هذه الجمعية السياسية الكبيرة) جمعية ادبية تهذيبية باســم «جمعية نشــر المعــارف الكورديــة» التي تمكنت من فتح مدرسة كوردية بجنبرلي طاش في الآستانة لتعليم الجالية الكوردية هناك.

غير ان استيلاء الاتحاديين على مقاليد الامور وتأسيســهم ادارة دكتاتورية تحت ستار الدستور افضى الى اقفال هاتين الجمعيتين والغاء المدرســة معــا. لذلك اضطــرت «جمعية التعالــي والترقي الكورديــة» السياســية ان تقتصــر نشــاطها على الطرق السرية والاساليب الخفية.

وفي ســنة ١٩١٠ تأسســت في الآســتانة (جمعية هيفى= اميد)[٧] الكوردية للطلبة وذلك بايعاز احد الوطنيين الكورد. وقد اســتمرت هذه الجمعية في نشــاطها الى حين دخول تركيــا في الحرب العامة فتعطلت اعمالها لمناســبة سفر جميع اعضائها الى ميادين الحروب. ولكن عادت الى الظهور بعد الهدنة واســتمرت في مسعاها الى عهد اســترداد الكماليين للآستانة. ومن اهم اعمال هذه الجمعية اصدارها جريدة كوردية باســم «روز كــورد» ثم «هتاوي كــورد» بالآســتانة تحــت ادارة عبدالكريــم بك السليماني كانت ناشرة مبادئها (١٣٢٩هـ ١٩١٢م).

وفي الوقــت نفســه كان بعض مثقفــي الكورد ومنهــم كمال فــوزي بك الذي اعــدم في دياربكر اخيرا يصدرون في الآستانة جريدة «ژين=الحياة» الكوردية التي كانت ناشرة هذه الغاية «الكوردستان للكورد»[٨].

وقد اســس الامير ثريا في القاهرة بعد الهدنة جمعية الاســتقلال الكوردي وأســس في الآستانة المرحوم الســيد عبدالقــادر وامين عالــي ومراد ومحمــد علي وخليــل رامي وكامــران من اولاد واحفــاد بدرخان وفؤاد باشــا وحكمت وحســين وشكري وفؤاد ومحمود علي من البابانيين والسيد عبدالله ورمزي بك الخريوطي واكرم جميل باشا ونجم الدين حســين وممدوح سليم وحسن حامد وفريــد والدكتور شــكري محمد وحســين عوني (مبعــوث خريــوط) ومحمد (مبعــوث ملاطية) وامين زكــي (مديــر الاقتصاد العــام في العراق) والميرلاي خليل بك الدرسملي ومحمود نديم باشا والمــير لواء مصطفى باشــا والفريق حمدي باشــا والقائممقام محمد امين بك الســليماني والشــيخ علي والســيد شفيق الحيزاني وغيرهم من عظماء الكورد وقوادهم جمعية «تعالي كوردستان».

وبعد ذلك اســس الامير امــين عالي وجلادت وكامران بدرخان وكمال فوزي واكرم جميل باشا والدكتور شــكري محمد وممدوح سليم وغيرهم «جمعية التشــكيلات الاجتماعية الكوردستانية» وفي الوقت نفسه كانت في الآستانة جمعية كوردية اخرى تسمى «حزب الامة الكوردية». وقد استمرت هذه الجمعيات في اعمالها ونشــاطها في الآستانة الى حين دخول الجيوش الكمالية اليها وفي غيرها من البلــدان الخارجية بعد ذلك فــكان لها مئات من الفروع والشعب في انحاء كوردستان[٩].

وقد انحل اخيرا جميع هذه الجمعيات المختلفة ولكن تأسست بمكانها جمعية اخرى كبيرة باسم «جمعيتي خويبون» التي اخذت تجذب اليها اكثر المنتسبين لتلك الجمعيات المنحلة.

لا اود ان اذكر الاسباب التي ادت الى الشقاق بين الكورد والتورك لتماس تلك الاسباب بالسياسة الحاضرة ولكن احيل الباحث عن تلك الاسباب الى الكتاب الذي نشر في بغداد تحت عنوان «القضية الكوردية» عندما كانت قضية الموصل على بساط البحث. لذلك اصرف النظر عما جرى في اثناء الحرب من النكبات على الكورد وغيرهم من الامم غير التركية في الدولة العثمانية.

لكن لابد من ذكر المساعي التي بذلت بعد الحرب من جانب الجمعيات السياسية الكوردية في سبيل استخلاص الوطن الكوردي من نير التورك:

ولما عقدت الهدنة وخرج زعماء الاتحاديين من ميدان السياسة، تشكلت في الآستانة حكومة معتدلة، فنشطت الجمعيات الكوردية في الآستانة وغيرها وطالبت رسميا باستقلال كوردستان مستندا الى مبادئ ولسون الخلابة. ثم راجع الهيئة الدولية التي احتلت الآستانة وراجعت ايضا اللجان الاوروبية والامريكية المتشكلة لاستفتاء الشعوب المنفصلة عن الدولة العثمانية. غير ان المتشبعة يؤمئذ بروح العداء نحو هذه الدولة كانت قد فقدت رشدها بتأثير هذا النصر الكبير. فقامت باعمال لم تكن من الحمة في شيء، فتارة شكلت الديوان العرفي لانزال العقاب بالاتحاديين وطورا طاردت هذا وذاك وزوجته في السجن او ساقته الى المنفى. اجل ان اماني الحلفاء كانت متجهة الى الانتقام، الى التشفي من الاشخاص قبل كل شيء والى التضمينات الحربية، ثم الى ايجاد الطرق التي توصلهم الى بلع واستعمار البلاد التي قد انفصلت عن بلاد اعدائهم، لا الى تحرير الشعوب وتقرير مصيرها. والكلمات المعسولة التي كان يتفوه بها رجال تلك الدول لم تكن الاوسيلة سدت بها افواه المراجعين المطالبين الغافلين. وان اكبر دليل على ذلك هوما صرح به المسيو كليمنصو الداهية الافرنسي باسم الدول الاوروبية حينذاك وهاك التصريح: «ان الاتراك اثبتوا باجلى برهان انهم بفضل ادارتهم السيئة ومظالمهم المتنوعة من عصور عديدة، عديمو الكفاءة والاهلية في ادارة العناصر غير التركية، فيجب والحالة هذه الاتراك امة ما في ادارة الاتراك» كما ان اللورد آسكويث قال بلزوم فصل كوردستان من الاتراك وحصر الاتراك في الولايات التركية البحتة فقط لقطع دابر اعتسافاتهم واطفاء شرورهم من البلاد» وأيد المؤتمر رأيه ووضع في احدى البنود دساتير امكان تحرير الكورد(١٠). اجل، ان اكبر دليل عندي على كذب هذه التصريحات وعدم استنادها الى الحقائق هو ما قامت بها فرنسا، وهي صاحبة هذه التصريحات من اعمال سودت صحائف تاريخها الذهبية وذلك بعد تصريحاتها المذكورة بـ ٦ سنوات فقط.

ان الثورة الكوردية الكبيرة التي اشتعلت نيرانها سنة ١٩٢٥ كادت تقضي على الحكومة الكمالية وجيشها المرابط في كوردستان لولا مساعدة فرنسا العظيمة وفتحها طرق السكة الحديدة لبقية جيوشها المرابطة في جهة الغرب.

وهاك بعض عبارات من ذلك الكتاب الذي نشر باسم الكورد في بغداد سنة ١٩٢٥:

«فانفجرت جمرة الثورة بناء على قاعدة (اذا ضاق الامر اتسـع) واخبرتنا البرقيات الاخيرة انه لو تساعد فرنسا الاتراك باعطائهم الطريق لقضى على الكماليين اجمع ولا نعلم كيف وافقت حكومة فرنسا على هذه المساعدة التي جعلت كوردستان مذبحة من اولها الى آخرها وأزهقت الحق واحقت الباطل وهي تعد نفسها ينبوع المدنية والانسانية. خادمة البشـر فعلمنا مـن حركاتها هذه ان الحق في البشـر كلام يذكر لا اسـاس لـه، خيال ووهم وتضليل وان المنفعة الشـخصية سـارية في عروق الدول بعينها كما هي جارية في شرايين الافراد».

«ولا نعلم ماذا استوفت جمهورية فرنسا الحرة من توركيا من منافع سـوى انها وضعت في تاريخ حضارتها صحيفة سوداء مكتوب عليها بدم الكورد بحروف جلية (اطفاء الحرية وسـحق الحقوق).. الخ».

هـل عرفتم الآن مقدار عطـف الاجانب على الكـورد وهل بعد هذا توافقـون على ما قيل ولا يـزال يقال من ان الكورد ثـاروا او يثورون بفعل الدسائس الاجنبية؟ ثم هل الجرائد العراقية التي تعودت ان تسـمعنا نحن الكورد بين آرنة واخرى نغمات سـخيفة بعيدة عن الحق، ومخلة بشـرف الصحافة (صاحبة الجلالـة) كما يدعون كانت في سـنة ١٩٢٥ مخطئة في رأيها حتى شـرعت تجرح بعد ذلـك التاريخ عواطف الكـورد في كل فرصة تسـنح لها غير ملتفتة الى ما سينتج من الاضرار عـن خطتهـا النكـراء؟ لنكتف بهـذا ونرجع الى الموضوع: ان الجمعيات السياسة الوطنية الكوردية قد نشـطت وطالبت الحلفاء اسـتقلال كوردستان كما قلنا سـابقا ولكن حكومة البـاب العالي التي كانت حينذاك قد تمزقت اوصالها لم تكن تتحمل نتيجة هـذه المصيبة الكبرى لذلك فكرت في ايجاد حيلة تحول دون انفصال كوردسـتان عن جسمها الضعيف.

فاخـذت الحكومة والصحف معها تذكر الكورد بمصيبة الاسلام التي ما انزلها به الا هم انفسهم، والاخاء الاسـلامي والوطنية العثمانية وغير ذلك من الكلمات التي طالما خدعوا بها العرب والكورد. ثم قام الباب العالي وبادر بتشـكيل هيئة وزاوية تـدوس القضيـة الكوردية وتبحث عـن طريقة ادارية تنفذ في كوردسـتان بحيث لا تجعله يخرج مـن الادارة العثمانيـة. فتألقت هيئة من شـيخ الاسـلام ابراهيم افندي الحيدري الكوردي (نائب الصدر الاعظم حينذاك) وعبود باشا ناظر الاشغال وعوني باشـا ناظر البحرية ومن اعضاء (جمعية تعالي كوردسـتان) واجتمعت هذه الهيئة الوزارية في الباب العالي وعقدت عدة جلسـات قررت فيها ما يأتي:

١-منح كوردسـتان الاسـتقلال الذاتي بشرط قبول الكورد البقاء في الجامعة العثمانية.

٢-اتخاذ التدابير الفعالة لاعلان هذا الاستقلال والشروع في تنفيذ مقتضاه حالا.

ولكن حكومة فريد باشا التي كانت قد اشتهرت باسـتنادها الى الانجليز كانت قد ماطلت في تنفيذ هـذه المقررات كثيرا لذلك رأت الجمعيات الوطنية الكورديـة وجـوب تجديـد مسـعاها في الدوائر

السياســية باوروبا. فانتخب كل من جمعية تعالي الكورد وجمعيات التشكيلات الاجتماعية وجمعية استقلال كوردستان، الجنرال شريف باشا السليماني (ابن سعيد باشا الرئيس الشورى للدولة العثمانية سابقا ممثلا لها ورئيسا للوفد الذي ارسلها الكورد الى باريس[١١]. فقدم الجنرال شــريف باشا مذكرة سياســية تحت عنوان «Memorandum sur "les revendication du people Kurde الى مؤتمر الصلح في فرساي في ٢٢ مارس سنة ١٩١٩ مطالبا فيها اســتقلال كوردســتان وعدا ذلك فإن الباشا المشار اليه بذل جهودا صادقة لعقد معاهدة ائتلافية بينه وبين الوفد الارمني الذي كان يرأسه بوغوس نوبار باشــا وذلك منعا لتدخل الدول في المســائل المختلف فيما بينها وجوابا قاطعا لمساعي الترك المبذولة في حمل مسـؤولية مذبحة الارمن على عاتــق الكورد فأدت جهـود الوطنيين وعلى رأســهم الجنرال شريف باشا، الى ادخال البنود ٦٢، ٦٣، ٦٤ المتعلقة باســتقلال كوردســتان الى معاهدة (سيفر= Sever) الشــهيرة، تلك المعاهدة التي لم تطبــق لتمزيق حراب الكماليــين لها، ولكن يجب علينا ان لا ننســى بان تلك الحراب لم تخلق الا في المدرســة الوطنية التي وضع اسسها احد العباقرة الكورد وهو العالم الاجتماعي الكبير ضياء كوك آلت بــك[١١] وهو اول من نفخ روح الوطنية الصادقة في الشباب العثمانيين وخلف منهم ابطال الانقلاب في العهدين -الاتحاد والكمالي- فهذا الكوردي طالما دعا بني جنســه الكورد الى الاندماج بالقومية التركية والعيش معهــم جنبا الى جنب كاخوة متضامنين ظنــا منه ان الترك لايبخلون على اخوانهم الكورد حقوقهم الطبيعيــة. وهناك العامل الكبير في نمو الفكرة التي غرس بذورها ضياء، في ادمغة الشباب وخاصــة الضباط منهم وهو اضطهــادات الحلفاء بعد الهدنة في الآستانة وغيرها من المدن العثمانية واهانتهم لهؤلاء الضباط المتحمسين وكبار المفكرين من الترك. اجل ان سياســة الشدة هذه والتنافس الدولي كانا من اهم عوامل ســرعة انتشار الفكرة الوطنية بين طلاب مدرسة ضياء وتشكيل الكتلة الكمالية. وبوســعنا ان نقول ان التنافس الاوروبي وسياســة التوازن الدولي اللذين كان لهما اثر كبير في بقــاء (الرجل المريض) علــى فراش الموت عدة قرون، واديا اليه نشــاط الحياة مــرة اخرى بعد الهدنــة. وان هذيــن العاملين قد فعــلا فعلهما في انقاذ تركيا من هوة الاضمحلال والانقراض. وبهذه الصورة اصبحت كل الوعود والتصريحات الخاصة بالامم المظلومة وعودا لانصيب لها من التطبيق. انــي كنــت اود لو اتمكن من ذكــر تفصيلات عن الثورات التي اعقبت معاهدة ســيفر سواء كانت في تــور كيا او في العراق واشــرح -قبل صدور كتابي الذي يختص بهذا الموضوع- ســر فشل كل واحدة منها حتى تعلمون فيما اذا كان الكورد امة شريفة ضحت بكل غال وثمين في ســبيل مثلها الاعلى، ام انها كانت آلة بيــد الاجانب لاتخدم إلا مصلحتها. وبالاخير اشكركم على ما تحملتموه من المشقة في التنازل لاستماع هذه الكلمات.

١٥ نيسان ١٩٣٤

**المصادر:**

١-مكتوب لمحرره جلادة عالي بدرخان.

٢-مقال للاب انستاس الكرملي في «القضية الكوردية» لجياووك.

٣-تاريخي حكمداراني بابان لمؤلفه حسين حزني المكرياني.

٤-راجع تاريخ لطفي ج٨، وتاريخ الكورد والامن لشهباز (الاستانة ١٩١١) وكتاب مجموعة للذكرات والحكايات الكوردية لمسيو بابا وتاريخ امراء الكورد لمؤلفه الشيخ سلطان ممدوح «نقلا عن القضية الكوردية للدكتور بلهج».

٥-القضية الكوردية للدكتور بلهج.

٦-وجاء في الانسيكلوبيديا الاسلامية ان هذه الجريدة انتقلت الى لندن.

٧-ترجمة هذه الكلمة بكلمة unite اي الاتحاد في الانسيكلوبيديا الاسلامية خطأ.

8-Encyclopedie de L'Islam (1928) p. 1219.

9-La question Kurde. P. 19.

٩-القضية الكوردية لجياووك.

10-La question Kurde 24-5 والقضية الكوردية (ص٦٦)

١١-كان ضياء كرك ألب بك استادا للعلوم الاجتماعية في جامعة استانبول وهو كوردي من ولاية دياربكر اتقن لغته القومية لا كاحد الكورد فقط بل كعالم لغوي كبير وله مؤلف في الصرف والنحو الكوردي وقد بين في احدى كراسات كتابه المنشور في جريدة «كيرمسون» التركية سنة ١٩٢٦ ان اللغة الكردية هي من اغنى اللغات الشرقية دون نزاع.

* ملاحظة: زودنا بهذا الكتاب الاستاذ خالد محمد خالد ابن العلامة الشيخ محمد الخال مشكورا.

## شخصيات كردية

# الشيخ محمد الخال

د. عدنان محمد قاسم



من ابرز اعلام الكورد في التاريخ المعاصر شهرة وإنتاجاً عرف بالعلم الغزير والعطاء القيم الواسع، والخلق الرفيع، والتقوى، والورع، والأمانة والصدق، وصفاء السريرة، وحب الخير، والإخلاص في أسداء العون، واتقان العمل المقرون مع حسن المقال وطيب الخصال.

ولد الفقيد عام ١٣٢٢هـ - ١٩٠٤م في محافظة السليمانية منحدراً من اسرة كوردية عريقة بآدابها وتراثها وتقاليدها الطيبة ورث أفرادها حب العلوم الدينية والأدب ودراستها وتدريسها والتأليف فيها... وقد درس اباؤه في مدرسة بقرب قرية مريوان وفي قلاجولان، ثم في السليمانية وحرصوا في كل مدرسة يدرسون فيها على جمع الكتب والعناية بحفظها مع التمسك بالدين والحرص على توضيح تعاليمه وغرسها في نفوس الطلبة والأهلين، ناهيك عن إهتمامهم الشديد بتشجيع التأليف

باللغة الكوردية والمحافظة على التقاليد والآداب والموروثات الكوردية وبدأ الصبي محمد الخال منذ أن بلغ التاسعة من عمره برعاية جده الشيخ أمين الخال وهو من الوجوه البارزة بين العوائل الكوردية يومذاك، فختم القرآن الكريم، وتابع دراسته لكتب الدين والنحو والأدب باللغة العربية وكان من أبرز اساتذته الشيخ عمر امين القره داغي، وبعد أن اجيز في العالمية تابع تدريسه ومطالعاته وعني بصورة خاصة بدراسة تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ومؤلفات الشيخ محمد عبده.

وفي أواخر ١٩٣٩م دخل سلك القضاء فكان قاضياً في محافظات السليمانية وكركوك والموصل ثم عضواً في مجلس التمييز الشرعي، وظل في عمله الى سنة ١٩٦٧م حيث أحيل الى التقاعد لبلوغه السن القانونية... وكان قد اختير في سنة ١٩٥٤م عضواً بارزاً في المجمع العلمي بدمشق، ولما تشكل المجمع العلمي العراقي في سنة ١٩٧٨م كان الفقيد من أبرز اعضائه.. وكان عضواً في المجمع العلمي الكوردي ويشغل منصب نائب رئيس المجمع فيه.. وكان له تأثير فاعل في الحث على التأليف باللغة الكوردية وبتأريخ الكورد قديماً وحديثاً... ثم أخذ يتابع اهتمامه بالمعرفة ونشرها، فنشر في مجلة المجمع العلمي وفي عدد من المجلات التي تصدر في العراق، مقالات أدبية وعالج كثيراً من القضايا الاجتماعية والدينية وأسهم في صياغة المصطلحات في قوالب لغوية وعلمية رصينة.

ونشر في سنة ١٩٣٥م باللغة الكوردية تفسيراً للجزء الثلاثين من القرآن الكريم، ثم أتبع ذلك بتفسير تسعة أجزاء أخرى.. ثم الف رسالة في فلسفة الدين الاسلامي ورسالة في سيرة الرسول الأعظم (ص) ضمنها عددا من القصائد التي كانت تتلى في الموائد، ورسالة في تفسير سورة الفاتحة ثم نشر تفسير الخال، وطبع منه على حد علمنا ستة أجزاء شملت سورة البقرة وسورة آل عمران وسور الاجزاء الأخيرة من القرآن الكريم وألف كتاباً في سيرة حياة الشاعر ملا محمد خاكي، وفي سيرة جمال الدين الأفغاني، وفي حياة محمد فيضي الزهاوي في بغداد.

كما الف (انين الفؤاد) وهو مقالات علمية ودينية وإجتماعية في أربعة اجزاء.. وأعد للنشر كتباً في اللغة الكوردية التي كان يحبها حباً جماً، الى جانب شغفه بمتابعة تاريخ الكورد عبر العصور... وهيأ للنشر ايضا مجموعة خطب عصرية في غاية البيان والايجاز والتعبير عن المقصد. وأولى الفقيد عناية خاصة باللغة الكوردية وآدابها فألف قاموس الخال وهو قاموس واسع يضمّ ما يقارب (٤٠٠٠٠) كلمة كوردية بمختلف لهجاتها.. وألف كتاباً في الأمثال الكوردية، ورتبها على ترتيب حروف الهجاء، وبحثاً في المؤنثات السماعية وفي السوابق واللواحق في قواعد اللغة الكوردية.

وألف في العربية كتاباً عن حياة الشيخ عبد الله البيتوشي ضم كثيراً من اشعاره وقصائده وآثاره المخطوطة .. وألف كتاباً في سيرة الشيخ معروف النودهي البرزنجي.. ونشر ايضاً بحثاً عنوانه حلقة مفقودة من تاريخ البصرة، وتأريخ الأمارة الافراسيابية في البصرة وطبع كتاب كنز الألسن لاحمد فائز البرزنجي، مع تعليقات قيمة.. وأعد للنشر حواشي على كتاب البرهان في علم المنطق لاسماعيل الكلنبوي

وحواشي على كتاب سعد الله الصغير في علم النحو وعلى شرح السيد عبد الله على حاشية أبن الحاجب في علم الصرف، وعلى كتاب الآداب في علم المناظرة للملا اساعيل الكلنبوي كذلك وبعد مسيرة علمية حافلة بالعطاء الثر والإنتاج الغزير ومواصلة البحث والدراسة والتحصيلات المعرفية المتعددة والاسهام في النشاط العلمي تأليفاً ونشراً وتحريراً للمقالات وقف به المطاف فأنتقل الى جوار ربه يوم الجمعة المصادف ١٣ ذو الحجة/ ١٤٠٩هـ، المصادف ١٥/ تموز/ ١٩٨٩م بعد مرض عضال أقعده في الفراش أكثر من سنتين وتحمل منه صابراً محتسباً.. وبموته رحمه الله فقد الكورد والعرب وسائر الأمة الإسلامية وكذلك الحضارة الانسانية، علماً كبيراً عرف بالعلم الواسع، والإنتاج المثمر، الى جانب ما تحلى به من خلق رفيع مع تقوى وورع وروح شفافة تحمل في ثناياها عبير التواصل مع حب الله والانسانية والخير والحق والعدل.

لقد تميّز الشيخ محمد الخال رحمه الله بإستقامة التفكير ونفاذ البصيرة، والاتزان في الأقوال والاحكام مع هدوء في الطبع ودماثة في الخلق، وإحترام الناس.. لقد كانت وفاة الشيخ محمد الخال خسارة للعلم والمعرفة والمجتمع العراقي بكل اطيافه لانه كان منفتحاً على الكل ومحباً لهم بالمساواة.. وسيبقى ذكره الطيب حياً عليهم.. ونأمل أن تقوم حكومة كوردستان بصنع تمثال له في مدينة السليمانية تخليداً له ولاعماله.. اللهم هل بلغت ... فاشهد

من اعلام التاريخ الكوردي المعاصر سيرة العلامة الشيخ محمد الخال وآثاره

---

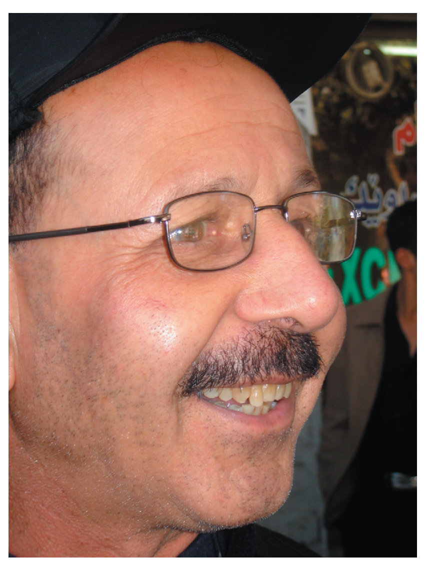



سوسيولوجيا المدينة
تأليف: فريدة ممتاز

ترجمة
كريم قادر بور
عزير عثمان

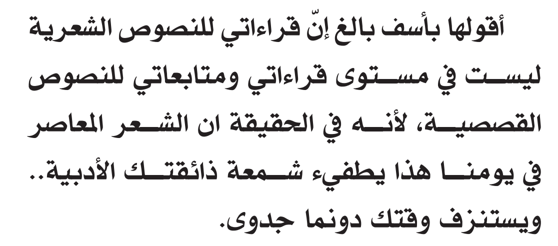
من مطبوعات
مكتب المنظمات الديمقراطية
في السليمانية - ٢٠٠٨

## محطات ثقافية



# نزهة في آفاق جمهورية (لطيف هەڵمەت) الفاضلة

كتابة: صباح إسماعيل
ترجمة: محمد صابر محمود



أقولها بأسف بالغ إنّ قراءاتي للنصوص الشعرية ليست في مستوى قراءاتي ومتابعاتي للنصوص القصصية، لأنه في الحقيقة ان الشعر المعاصر في يومنا هذا يطفيء شمعة ذائقتك الأدبية.. ويستنزف وقتك دونما جدوى.

وحينما تراجع نفسك ترى أنك تراوح في مكانك.. وأنك على أمتداد المدة التي قضيتها في القراءة والتتبع كنت تستمع الى خطاب عقيم، لايحمل في طياته أي مضمون يذكر.. وهذا مبعثه ان ذلك الشعر كان شعراً عاطفياً وحسياً خالياً من أي مضمون معرفي أو فكري أو صورة شعرية.

لاجدال في أنه يوجد بيننا شعراء ومن ذوي المواهب والقدرات الشعرية الخلاقة، حيث من الممكن ترجمة اشعارهم باعتزاز إلى لغات أخرى، لكي تمثل بطاقة لشخصية شعب لازالت آثار سياط القمح والاضطهاد بادية على جسده.

إن أولئك الشعراء باستطاعتهم أن يتحولوا الى لسان حال أناس منكوبين ومضطهدين، ويوصلوا اصوات آهاتهم وتضرعاتهم وأستغاثاتهم الى الشعوب الأخرى.

تقول احلام مستغانمي: (إذا صادف المرء شيئا جميلا، وجميلا جدا تنتابه الرغبة في البكاء)[1] وأنا بدوري حينما أتناول ديوانا شعريا، أو مجموعة من القصائد، بغية قراءتها تنتابني الرغبة في تقديرها واحترامها ومن ثم إبلائها ماتستحق من العناية.

في احيان كثيرة أذوب في بوتقة حرارة قصيدة شـعرية، بعدئـذ أراجع نفسـي أراهـا وقد رقت حواشي احاسيسـي، وعندئذ تنهمل دموع الفرح من عيوني واشعر كأن تلك القصيدة تتحدث عني وتعبر عن آلامي.. تتحدث عن تلك الكائنات الحية النتنـة التي تحيط بنا لاتبث القرف في نفوسـنا فقـط وانما ازعجـت روائحها حتـى الموتى. انها تتحدث عن حرب كارثية مدمرة وشيكة الوقوع.

وهكـذا حينما تقرأ تلك الاشـعار تشـعر ان نسـيانك للشـعر واهماله هو نوع من الاضطهاد، لأن الشـعر يمهد الطريق للعثور على دنيا مفعمة بالروعة والجمال وبالأوجاع، بغية الدخول الى دنيا جديدة.. وعلى العموم فان الشعر كوكب خارج عن مداره ولم يكتشف بعد.

في الآونـة الأخيرة حصلت علـى الجزء الثاني من ديوان لطيف هەڵمەت، وبعد قراءته رسـخت عندي قناعة تامة بـأن لطيف هەڵمەت هو حقا أرض شعرية خصبة، لكنه لم ينل مايستحقه من اهتمام وعنايـة، وانه بقي خارج نطاق اهتمامات الدراسة النقدية، إلاّ أنه مع كل ذلك لايزال مستمرا على الابداع.

أي ايقاع خطاب انساني يشنف آذاننا من خلال سـطور اشـعاره، واي احسـاس حميم من المودة ينبع مـن اعماق قصائـده!! انه يريـد ان يقيم صرح جمهوريـة بأنامله وقلمه الشـاعري بعيدا عن تصورات جمهوريـة افلاطون ومدينة فارابي الفاضلة ويوتوبيا توماس مور:

يا جياع العالم
ادخلوا جمهوريتي

هـو يرتئي إثارة ثورة لكـي يحيل تلك الدنيا التي يرسـمها بشـعره ويبنيها بخيالـه الى واقع، ولكنه واقع معكـوس، أي ان يغير واقع الاضطهاد والقمع والمتضـادات ويبنيها مجـددا لبنة فلبنة بنفسه وبحسب ما يرتئيه هو:

القطة سيدة سياسة المطبخ وبيدها مفتاحه..
الفار أشد بياضا من الثلج
الفار ثري شحيح
الثلج اسود مثل محمد علي كلاي
الخنفساء تلبس اللباس

ادونيـس يقـول: (الشـعر يغير الواقـع.. انه لايغيره مـن الوجهة السياسـية او الاقتصادية او الاجتماعية بل مـن الوجهة التي يتجاوزه ويقدم بدله صورة جديدة لواقع مغاير جديد، افضل من سابقه، وأكثر غنى وثراءً)[٢].

انه لايكتفي بتغيير العالـم فقط، وانما يريد كتابة تأريخ الانسانية برمته لأن التأريخ المكتوب والمتداول، هو تأريخ للبطولات والأباطرة والأمراء والملوك والزعماء ليس إلا:

التأريخ قطة..
تتغذى على موائد الملوك
وتحتلم في احضان وصيفاتهم
أيها الحزن.. إياك أن تمزق احلامي
وإلا سوف اشكوك لدى الفرح !!

تبلغ المشاكسـة والعناد والتمرد لدى الشـاعر لطيـف هەڵمەت درجة تراه في صراع دائم مابين (أناه ونفسه.. وبين ذاته واناه). وأن اجساد قصائده مضرجة بالدماء تنزف باسـتمرار لتأخذ مجراها على شكل ميازيب، تسيل دون هوادة حيث لامكان

ولا بلاء، كمثل محمد النحيل (بطل احدى روايات يشار كمال) تقطع الحواجز والحدود، واينما يعشش الاضطهاد والنكبات تحط رحالها هناك.. تهيم وراء (عبدي خان وعلي صفا بيك والخانات) لتنتزع القرى والمناطق والبلدان من اماكنها، لتمحق آثارها وتمحوها من الوجود.

انها شبيهة بالـ (كوموناريات) الباريسية، ترفع لسجناء الجوع في العالم، شعار (سحقا للفقر.. ينبغي ألا يظل فقير على وجه الأرض).

وفي نهاية المطاف يصر الشاعر كمثل رابعة العدوية، على ان يضرم النار في الجنة ويصب الماء على نيران جهنم.

ان الشاعر لكثرة ماهو منشغل ومترع بالالام نسي رغباته الشخصية، ومصالحه الخاصة، وتجاهلها الى الحد الذي ليس له مجال للايفاء بمواعيد العشق ولا حتى بتقبيل محبوبته:

كل مشاوير الدهر
لا تكفي للقاء عاشقين
ما أقصر العمر !!
لا يتسع لتبادل قبلتين.

بعيدا عن تلك الحرية المتاحة يتمنى حرية واقعية.. واقعية تجدر بكل الناس، دون اضطهاد واذلال، بعيدا عن التفرقة والصراعات الطبقية. هو يرفض ان تكون الحرية معرضة للخوف..

وان يكون (الجدار الفاصل بين العبودية والحرية أرق من غشاء البكارة)

لذا فهو يطالب بعدم انجاب الاطفال، لأنه الى الآن يعقد قران الاطفال الرضع المقمطة داخل المهود عوضا عن النساء، او عوضا عن الدم وتترك مصائرها لمهب الرياح، لتطفأ بها نيران احقاد العداوة فيما بين القبائل وتخمد بها شهوات الرجال.. او بسبب ضيق ذات اليد للوالدين يضطرون ان يحملوهم منذ نعومة اظفارهم ما لاطاقة لهم لحمله، ويضعوهم تحت وطأة الاعمال المرهقة، بحيث يضطرون الى اهمال دروسهم وتركها جانبا، ومن المحتمل ان لايعودوا بعدها الى المواضبة على الدروس مطلقا.

او ان معظمهم منذ البداية يعاني القطيعة والغربة في التعامل مع دروسهم ومدارسهم.. فالتلفاز والسينما وممارسة الرياضة والألعاب لمثل هؤلاء المنكوبين، تعد في عداد الرغبات والاحلام والخيالات لاغير، وان رغباتهم كمثل الامنيات بعيدة التحقيق تدفن في اعماقهم ولن يحققوها ابدا:

لا تولدوا..
لكي لا تساقوا الى محرقة اقتتال الأخوة
هنا وحال ولادة الطفل
يستأصل لسانه، فيحشر مكانه
لسان لحذاء.
لكي لا يترنم الاطفال بأغاني العشق
هنا وفور الولادة
ترمي القابلة بلقب الطفل
لتزرع في صدره حفنة من البارود

ان الاطفال ومنذ اللحظة التي يولدون فيها، يواجهون جحيما يعايشهم طوال أعمارهم، حيث يستنشقون يوميا أبخرة احدى الكوارث.

لست ادري أهي رائحة دخان
قرية محترقة؟ ..

أم هي تشيش قلب ام شهيد؟

يؤمن لطيف ايمانا قاطعا بأنه لن يستطيع ان يغير العالم والسياسات بالنصائح والارشادات، لأنه يعرف جيدا انه لو كانت المسألة تتعلق (بالنصائح لكان يستوجب على الكوردي في كوردستان ان لا يطلق رصاصة على بعوضة من بلاده)[٣]...

إن لطيفا لهو شاعر واع (لا يحبس نفسه داخل القفص الحديدي الضيق للشعر، لأن مديات طيران طيور افكاره ومشاعره هي السماوات الواسعة لكل العالم)[٤].

لا يمكننا ان نفهم لطيفا واشعاره بسهولة، لأنه هو بمثابة رسول، يتقمص (بوذا) مرة ومرة أخرى يتحول الى (مسيح)، تارة قومي النزعة واخرى شيوعي، هذا من حيث الايديولوجية.. اما من حيث مذهبه الأزلي، فهو لا ينتمي الى اية مدرسة أو مذهب معين..

هو تارة يلبس جلد حافظ الشيرازي، وتارة اخرى هو جورج اورويل، وثالثة هو كازانزاكي وغاستون باشلار.

هاهو كذلك في قصيدته (الوفاق والصراع فيما بين مواطني جمهورية لطيف هەڵمەت الالكترونيين)

نراه يتلاعب بالمذاهب الادبية، هذا التلاعب هو بحد ذاته مذهب جديد، لم اصادف احدا من الشعراء الذين سبقوه قد اتخذ مثل هذا المنهج وطبقه.

اما فيما يخص استخدامه المنهج مع المذهب الماركسي، وفيما بعد مزجه وجعله منسجما مع النزعة القومية، والتحول من اقصى اليمين الى اقصى اليسار وبالعكس، فأنه بحد ذاته نوع من انواع خلط الافكار والتشتت وضياع الخطاب العلمي..

إنه في آن واحد، اشتراكي ورأسمالي وعلماني وديني وديمقراطي وظالم وقومي وطبقي)[٥].. وهذا يصل بنا الى قمة اللامعرفية واللامنهجية في الاعمال الثقافية والفكرية والسياسية، والاجتماعية وهلم جرا..

في حين انه يقصد ان يعلن عن نفسه كشاعر انساني وان يروي حناجر قصائده بماء حياة الانسانية وان لا يظهر على الملأ مثل شاعر سياسي أو على الاصح مثل شاعر فكري ومبدئي..

اننا قد انتهينا منذ مدة من انه لا وجود للادب من دون مبدأ او فكرة او غير انحياز.. حتى ان مذهب (الفن للفن) بدوره، هو نتاج الملل والضجر واليأس من قبل الكاتب، بسبب اغترابه وشعوره بتفاهة الانسان وانسحاقه في مرحلة الرأسمالية.

هذه بلاد اولئك الشعراء
الذين يضعون تاج الشعر الذهبي
على رأس أي حزب
يضمن لهم كرسيا مضعضعا
في أحدى زوايا البرلمان.[٦]

في هذه القصيدة المطولة التي هي تحت عنوان (الوفاق والصراع فيما بين مواطني جمهورية لطيف هەڵمەت الالكترونيين).

تفقد لطيف تساؤلات الموضوعات الآنية واحدا واحدا، مثل (الاقتتال الداخلي) حقوق المرأة/ حقوق الاطفال/ الانفال/ كركوك/ و......)

لذلك نرى ان هذه القصيدة المطولة التي

استوعبت (٧٨) ثمانيا وسبعين صفحة، تستوعب قـدر طولها واضعافا اخرى عديـدة ايضا للكتابة عنها وتحليلها، وتستنبط منها موضوعات ومقالات جديدة.

**الهوامش :**

١. احلام مستغانمي/ ذاكرة الجسد/ ترجمة: صالـح محمـد امين/ مؤسسـة سـردم للطباعة والنشر/ السليمانية سنة (٢٠٠٣) صفحة (٥٥).

٢. مجلة (شيعرستان) العدد (٥) لسنة (٢٠٠٠) الصفحة (٧١).

٣. كتـاب كوردسـتان/ مريـوان وريـا قانع موديـلات الثقافـة/ العدد الثاني/ طهران سـنة (٢٠٠٣) الصفحة (٢٠٤).

٤. مقولة لحمه سعيد حسن (بتصرف)/ نظر: الأغنيات الطليقة الجناح، ستوكهولم، سنة (١٩٩٤) الصفحة (٦٠).

٥. مريوان وريا قانع/ المعرفة والتعقيد/ مطبعة (رەنج) السليمانية/ سنة (٢٠٠٤) الصفحة (١٧٤).

٦. القصائـد الشـعرية مسـتقاة مـن ديوان لطيف هەڵمـەت/ الجزء الثانـي/ مطبعة (راز)/ السليمانية/ سنة (٢٠٠٠). الصفحة من ١ - ٧٨ .

**المصدر :**

صباح اسـماعيل/ مفهوم وجماليـة المكان في الأدب (دراسة)/ منشـورات اتحاد الكتاب الكورد/

# عادل كوركيس
# قديس أخر، من قديسي المسرح، يغادرنا...

**محي الدين زەنگەنه**

صباح اليوم (٤-٥-٢٠٠٨ ) بعد الساعة الثامنة، بدقائق، اوقبلها بدقائق.. أو.. أو.. بقرون أودهور، لا ادري، لـم أعـد أدري، فقد غابـت الدنيا،بكل ازمنتها وامكنتها عن عينيَ، أوغابت عيناي عنها، فالدنيا،بـكل مافيها ما تـزال قائمة، أدركت ذلك بعد هينهة، وسـتبقى ولا تـزول، بل هي لا تهتز ولا حتى تتاثر، بالفواجع مهما تضخمت وخرجت عن أطارها المألوف ولاشت طبيعتها الانسانية.

مـاذا يمكن ان يحدث لها، علـى اية حال، وقد ترهلت... وغدت مشـبعة، حد التخمـة والتقيوء بالفواجـع.. والمآسـي في زماننا هذا الشـاذ... وهي تعيـد وتكرر ببرودة صقيعية صـدى تلك النبرات المخضلة بالدم، بدل الدمـع، التي تمتلئ بها والتي سـرعان ما تتشـربها وتمتصها... ومن ثم تعلنها

وتنشــرها، خــلال تلافيــف الهواء، وهــي تفيض بهــا.. حد الاختناق.. اوتختنــق تحت وطاتها، حد الفيضان، وتكاد تحترق مــن لهيب الدموع المدرارة التي تهزَ.. وتخض َ.. وتزلزل نبرات صوت الصديق الصدوق لطيــف نعمان وتقطَع اوتــاره وتجول في أحشــائه بســكين مثلومة صدئة، يمررها عليها... جزار فاشي بلا شــفقة... لا يرحم حتى الحيوان، ناهيك عن الانسان. ليضخ الى الدنيا. وينقل لي نبا واحدة من اشــد الفواجع وأوجعهــا (وما أكثرها..) التــي تلقيتها حتى اليوم... في عمري المكدود، الذي بات الزمن القاســي يكــوم فوقــه... مصائب فقد الاحبة وفواجع رحيل الاقربين.. وانطفاء الروح في الهياكل البشرية.. التي ما تزال، على الرغم ذلك – واخجلتاه – تدب على اثنتين.. اوثلاث - اواربع...

وهــذه المرة.. تكون فجيعتــي المرَة بواحد من أكبر قديسي المســرح، عشقي الدائم، ومن أكثرهم صدقا وأكتــواءً بناره المقدســة. والتصاقاً بروحه الخلاقــة... المحلقــة في فضــاءات الابــداع.. انه.. انــه الفنان، المبــدع، المترجم.. والانســان الاروع.. (عــادل كوركيس).. الذي غاب -وافجيعتاه- عنا.. والذي يظل مع ذلــك.. حاضرا.. في ذاكرة احبته واصدقائه وفي ضمير المسرح العراقي..

أجــل بالامــس أنطفأ هــذا الوهــج وكف عن الاشعاع.. وسكت ذلك الانسان المفعم بحب الانسان.. والوطــن... وخبا ذلــك العقل المــترع... بالمعرفة والثقافة والعلم والفن .. والمحبة بلا حدود.

لقد كان عادل.. - اه... ما أشــق علي ان اراني مضطرا للحديث عن هذا الحاضر الماثل امامي حيا كالغائب. بلغة الماضي، كان وسواها.. ولكن لابد مما ليس منه بد. أنه بعض من مظاهر قسوة الاشياء حولنا – لقــد كان رجل مســرح بالمعنى العلمي والحــرفي الدقيــق. أذ كان منــذ البداية أحد أكبر عشاقه. والعشق كالقراءة والكتابة. وربما قبلهما.. هوالخطوة الاولى الاســاس.. لدخــول عوالم العلم والمعرفــة والفن والجمــال. والحافز الاكبر لايقاظ الوعي وتنشــيط العقل.. وتوســيع مداه.. وفتح مداركه واطلاقهــا نحوالفضاءات التــي لا يحدَها حدَ. مارس عشــقه للمســرح وعاشه حتى النخاع في دراسة منهجية في معهد الفنون الجميلة ببغداد وواصلــه وعمقه في "بــراغ" في دراســة جماليات الهندســة المعمارية، لصيقة الصلة بالمسرح.. ثم في كلية الفنون في بغداد... وتوج عشــقه في الاحتراق في اتون المعرفة، باللغة الانكليزية في كلية اللغات... وحقق تفوقا عاليا في ذلك كله.

وعلى صعيد العمل.. عاش المســرح.. أخراجا وتمثيلا وترجمة - أخرج مســرحية " في الخمس الخامس من القرن العشــرين يحــدث هذا " لمحي الديــن زنكنه - ومثل فيها. وترجم مســرحية " البقــرة " لناظم حكمت وأخرجها - وكتب العديد من الدراســات في النقد المسرحي، تحليلا وتنظيرا مثلمــا قام بهندســة الديكــور وتنفيذ لعشــرات المســرحيات واســهم في تصميم الانــارة واختيار الموسيقى.. بهمة ونشــاط وأبداع.. ونكران ذات.. نادر المثال...

وفــوق كل هــذا وذاك، وقبلهمــا وبعدهمــا، كان عــادل - آخ من "كان" اللعينة هذه - أنســانا شفافا.. تكاد ترى الدم يجري، مختلطا بالنيكوتين والدخان والشاي، في عروقه التي لا يكسوها.. سوى

الجلد.. بعد ان اكلت جهوده وأنشـطته لحمه ولم تترك له سوى الجلد والعظم.

***

لم اره يوماً يخاصم احداً، مع انه كان شـديد الصدق مع نفسـه ومع الاخرين... ولكن بلا عناد ولا تعصـب وفي مبدأية عاليـة وخصوبة فكرية طرية دائمـاً وروح ديمقراطية مفتوحة. أذ كان يقابل من يختصـم -اوبالاحرى، من يختلف معه في الـراي، فهومـا كان يعرف ان يخاصـم احداً- بنقـاش معرفي هـادئ... لين.. ولكـن، في الوقت نفسه، صارم.. لا ينافق ولا يهادن ولا يساوم..

كنـت أقول له مازحا، وجـادا الجد كله، وانا اعني كل حرف أقوله:

- ياعادل انت لسـت مسـيحيا.. انت المسـيح نفسه!!!

وكان ثغـره المتـواري عـن الانظـار، يفتر عن ابتسـامة خجول.. تخترق، بضعف وهشاشة، شعرات لحيته الكثـة.. التي أطالها، في البداية، منجاة له من مطاردات ميليشـيات الجيش اللاشـعبي، وصياديه الماكرين.. وعيونهم الواشـية المبثوثة في كل مكان.. مثل روائح المزابل النتنه وهوائها العفن الفاسد... ثم ثم لم يلبث ان تعلق بها ورباها.. فاضفت عليه فعلاً هيئة قديس في القرن العشرين والحادي والعشرين.

***

قلت له ذات مرة مداعبا... وكان قد عاد طالباً مثابراً، بعد ان انهى دراسته للمسرح في كلية الفنون بتفوق. كالعادة، في كلية اللغات / اللغة الانكليزية

- وكان على اعتاب الستين اودونها بقليل:

- ألا قـل لي ياعـادل... ماذا تفعـل بلحيتك هذه. اذ تدخل المحاضرة (الصف)

أطلـق هذه المرة ضحكة عاليـة صافية، صفاء روحه التي لا تشوبها شائبة وقال:

- اتركها خارج الصف...

ثم راح في قهقهة... بمرح.. وهويضيف :

- أتدري، ابوازاد، ذلك أمر.. لم أفكر فيه حتى الان.. ها ها ها..

***

عاش عادل كوركيس سـنوات الظلام كلها. في العراق ولم يهادنها قط. ابت عليه غيرته ووطنيته وانسـانيته وتقدميته ان يصالح.. اويتصالح مع قوى الظلام والموت.. وعانى جراء ذلك ماعانى من جـوع وفقر وملاحقات.. ولكنـه ظل، ثابتا، ابيا، شـامخا.. قويا..محاربا... مقاوما.. بفنه...بعلمه حتى تهاوى كل الاقزام تحت الاقدام

طوبـى لعـادل، طوبى لهذه الروح الشـجاعة، الخلاقة، المودعة في ذلك الهيكل.. النحيف، النحيل. وهويشـع.. يعمل بـدأب.. يتعلـم ويعلَم.. يكتب ويخـرج ويمثل.. ويترجم روائع المسـرح العالمي.. يهندس.. يدوكر.. الخ.. يسهم.. بكل ما يستطيع. في صياغـة الضمـير الوطني للانسـان العراقي.. وللانسـان في كل مكان.. يرفده ويسبقه من فيض عطائه... بايات الابداع والجمال..

***

بـلا دموع.. ولا بـكاء.. ولا نحيب.. أقول لهذا الانسان الفريد...

وداعا ايها العزيز.. أو.. أو... الى اللقاء..

من.. يدري.. مـن يدري...ماذا يجري في هذا الزمن الشقي.. وماذا ينظر الواحد منا.....

# كوردية الدولة الساسانية في وثيقة سريانية

د.فرست مرعي

مما لا شك أن السجلات الآشورية ذكرت لأول مرة معلومات في غاية الأهمية عن البارسيين (الفرس) والميديين، وإن أول إشارة في ذلك ما ذكره الملك الآشوري شمليمنصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ق.م) في غزواته الحربية على جبال زاكروس والهضبة الإيرانية في عام حكمه السادس عشر (عام ٨٤٤ق.م)، وعام حكمه الرابع والعشرين (٨٣٦ق.م) حيث اتصلت الجيوش الآشورية في حملاتها الحربية على مناطق جبال زاكروس بقبائل إيرانية عديدة كالبارسيين والميديين وغيرهم.

ولكن ما هي العلاقة بين الميديين والكرد..؟، ولحل هذا الإشكال يلوح للباحث بأن مؤداها تلك النظرية القائلة بأن الكرد هم أحفاد الميديين، والمؤسسة على الآراء التي تبناها المستشرق الروسي فلاديمير مينورسكي في بحثه المنشور بدائرة المعارف الإسلامية (مادة الكرد) في عام ١٩٠٥، وأثبت خلالها أن الكرد كقوم انتقلوا من الشرق إلى الغرب، وقد أصبحت هذه الأقوال فيما بعد مقياساً لطروحاته التي أعلنها في البحث الذي قدمه إلى المؤتمر العشرين للاستشراق الذي عقد ببروكسل في عام ١٩٣٨، وذكر فيه بأن الكرد —ما هم إلا أحفاد الميديين الذين هاجروا من المناطق التي تحيط ببحر قزوين غرباً وجنوباً نحو الغرب (كوردستان) بعد سقوط الدولة الآشورية عام ٦١٢ق.م على يد التحالف الميدي-الكلداني.

وكان رئيس تحرير مجلة الصوت الآخر الأستاذ سعيد خطاط قد أشار إلى كوردية الدولة الساسانية من خلال كوردية مؤسسها أردشير

عندما ذكر نصوصاً عن الطبري منقولة عن الكتاب الفارسي (خداي نامه) الذي يعد المصدر الأصيل لأقدم المصنفات العربية والفارسية التي تناولت تاريخ إيران قبل الإسلام، حيث إن هذا الكتاب لسوء الحظ لم يصلنا ولكن نجد اقتباسات كثيرة منه في مؤلفات الدينوري والطبري والمقدسي والمسعودي وغيرهم.

فمثلاً يذكر الطبري الرسالة التي تلقاها أردشير بابكان (٢٢٤-٢٤١م) من آخر ملوك الفرث (الأشكانيين-ملوك الطوائف) أردوان الخامس (٢٠٨-٢٢٦م) واصفاً إياه بالكردي، حيث يقول: ((فبينما هو كذلك إذ ورد عليه رسول الأردوان بكتاب منه فجمع أردشير الناس وقرأ الكتاب بحضرتهم، فإذا فيه: ((إنك قد عدوت طورك واجتلبت حتفك أيها الكردي المربى في خيام الأكراد، من أذن لك في التاج الذي لبسته والبلاد التي احتويت عليها، وغلبت ملوكها...الخ))، (الطبري، ج٢، ص٨١٧؛ ابن الأثير، ج١، ص١٣٣).

ويورد صاحب التاريخ الصغير وهو مؤلف سرياني نسطوري مجهول الاسم في القرن السابع الميلادي معلومة في غاية من الأهمية تلقي الضوء على النصوص المذكورة سالفا وهي أن القائد الفارسي لمنطقة خوزستان (عربستان الحالية) هرمزان ابن عم يزدجرد الثالث آخر ملوك الدولة الساسانية وحفيد الملك أردشير بابكان هو مادي الأصل –أي من أجداد الكورد الحاليين، وذكر ذلك عدة مرات في كتابه (ص١٠٠، ١٠٢) أي أنه فصّل بين الأصل الفارسي والمادي (الميدي) للهرمزان الذي أسره المسلمون أيام الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقتل فيما بعد على يد عبيد الله بن عمر بن الخطاب بعد قتل أبو لؤلؤة الفارسي لوالده عمر.

مما تقدم يتبين أن نص الطبري كان مطلقاً، وأن النص الذي أورده التاريخ الصغير السرياني قيد هذا المطلق بالنسبة لجنس الميديين مفصولاً عن الجنس الفارسي، مضافاً إليه طروحات مينورسكي وغيره من الباحثين الغربيين على كون الميديين هم أحفاد الكورد وأن الأسرة الساسانية كانت في حقيقة الأمر أسرة كوردية ولكن تركز نفوذ هذه الأسرة ومراكزها الرئيسية في الإقليم الجنوبي من إيران وغلب العنصر الفارسي على هذه المناطق آنذاك، أدى إلى نسيان هذه الأسرة لأصولها الكوردية، وجاء المؤرخون الفرس والعرب ونسجوا أصولها على منوالهم، ولاسيما أن الكورد كانوا آنذاك عبارة عن قبائل رحالة، (كوجران) ولم تتبلور بعد القومية الكوردية بعد كمجموعة لها خصائصها الإثنية في المجتمع الإيراني آنذاك.



# الروائي زهدي الداوودي سارداً شقاء أسرة فلاحية في روايته(تحوّلات)

حكيم الداوودي

عن المؤسسة العربية للدّراسات والنشر في بيروت، صدرت رواية «تحولات» للروائي والقاص العراقي الكردي د. زهدي الداوودي، روايته الجديدة تحولات ٢٠٠٧، تعد جزءاً متمماً لثلاثيته الرائعة(وادي كفران): (رواية أطول عام) ١٩٩٤،(زمن الهروب)١٩٩٨ و(تحّولات)٢٠٠٧.

وكتبت هذه الرواية بذاكرة متوقدة وكأن صاحبها لم يغادر أجواء المكان الذي وردت فيه تلك التفاصيل الدقيقة لحياة أسرة فلاحية كردية، تعكس من خلالها حياة وأسر ومجاميع بشرية أخرى في تخوم المنطقة، وقد عاشوا مأساة الحروب وويلات الحياة الصعبة وقساوة الظروف السياسية المتقلبة حسب تقلبات الأنظمة المتعاقبة في تسيير قطار السياسة آنذاك. وأجواء رواية تحولات لاتختلف عن أجواء روايتيه السابقتين.

ولكل رواية من الثلاثية، حسب ملاحظة الكاتب نفسه، عالمها الخاص المستقل. وكما أنه ليس من الضرورة أن يقرأ القارئ الروايات الثلاث كلها، فمن المستحسن الإطلاع عليها جميعاً أن أراد أن يكوّن لنفسه صورة شاملة عن حياة تلك الأسرة التي لا وجود لها الاّ في ذهن الكاتب. أستدلُ في هذه المحاولة الى رأي الكاتب جاسم المطير لفهم واقع الرواية، والى معرفة الذروة الكاشفة عن الزمان والمكان في النص الروائي، حيث يقول» تقف ثقافة المكان والزمان في ذروة التاريخ الروائي في العراق، فمن هذه الثقافة يكون الإنطلاق في البحث عن مادة الوقائع والأحداث لعمل أدبي ما» ان المكان هو المساحة الممتدة لمسرح أحداث الرواية وما جرى في وادي كفران وتوابعه بين القرى المحاذية لذاكرة أشجان الطفولة المبكرة، موجزاً لِنكبات أُسر كردية

نُكبوا بالمفاهيــم الثورية، وأُدمنوا حتى الثمالة في تمسكهم الصّارم بالمبادى الأممية، هي رقعة الماضي وفي حدودها الزمكانية.

الزمن في تحولات الداوودي هو إمتدادٌ سـحيقٌ في العودة المسترسـلة لأحـداث وقعـت في إطارها الــلاإرادي، مع حركة الوعي للتغييرات السّــريعة في بُنية المجتمــع ولكن بفوقيةٍ مستنسـخةٍ دون اعتبار لفشلها بسبب العوامل التاريخية أوالإنتباه إحتياطاً لمعوقات الموروث الديني والقبلي في مجتمع وادي كفــران التقليدي. في فاتحة رواية (تحولات) نشــهد تصابي وإرهاصات فتــى مترعرع في حضن موزاييــك إثني كركوكي النشــأة والهوى والإنتماء وهو في ســن المراهقة. وفي المشهد الأول وعبر نافذة أحلامــه الكثيرة نتأمل يفاعته في حزنه المقتحم عليه كيــف يكون وجهاً لوجهٍ مــع لحظات موت أقرب عزيز على قلبه في المستشفى، وكيفَ ينتقل مــع تلك الأحلام الى مــا وراء النافــذة وصولاً الى جبل بــروخ المُطلة على قصبــة الطفولة وهو في عالم حلمه المخّــدر لأمنياته. قد يكون متيّماً من أول وهلة بحُب مادلين تلك الحســناء الشقراء التي مابرحت ذاكرته نســيانها رغم مساعيه في اللقاء بعد وفاة والده المحزن في أروقة المستشفى في أيلول ١٩٥٥ ، زهــدي المحــدّث هو خير شــاهدٍ على تلك الأيام الماضية ســارداً لنا وبصيغــة المواجع موجز الأحداث السياسية والمراحل الصّعبة لنشوء الحركة اليســارية في العراق وتأثيرها على الوعي الجمعي لشــباب ذلــك العهد ، ورجّهــا للعقــول المناهضة لفكــر الهيمنة البروجوازيــة الصغيرة أو الإنصياع للموروثات القبلية.



هنــا يتابع الروائــي بحذق ســرده لتلــك الأحــداث وإمكانيتــه الوصفيــة في نقــل خطــوط تلــك التفاصيل الضرورية هو في وصفه وتشريحه الأجتماعي والأخلاقي لشخصيات تحولات كحذاقة فنان محترف في اســتكماله للفراغــات الضرورية في إضفاء الجماليــة الواقعية على اللوحة. يلتقط زهــدي وعبر العناويــن الداخلية لمشــاهد روايته مشــاهد مأســاوية لبعض الظواهــر الإجتماعية الشــاذة، ومنها زواج الشــيخ الكبير مــن الفتيات الصغيرات. وينقل في الســطور الأخيرة من العنوان الفرعــي وتحت عنوان إســتعادة الــدار المرهونة وعلى لســان صديقه اليساري عباس نامق : كيف إن الرجال الكبار في السّــن يتزوجون بعشــوائية ودون وعــي، من نســاء صغيرات وحــين يموتون يُخلّفون وراءهم مجموعة من الأطفال تحتار بهم الأم الشــابة. وفي ضوء قراءتنا لَمسْــنا جراح اسرو ومعاناتها وهي تعيش في بؤس اجتماعي كبير من خــلال تصوير د. الداوودي لهم ولمجموعة أخرى من شــرائح ذلك المجتمع وفي ظــل حقبة زمنية عصيبة مع ملكة القدرة على تصويرها في وقتها كوثيقة سياســية حّية وبعد مضي عقود طويلة عليهــا ، وفي قلم صاحــب الرواية تشــعر وكأنك

تعيش ذلك الزمن وتتفاعل مع وتيرة تحرك الشخصيات القلقة بكل تفاصيلها الطويلة، وكل حسب دورهم في صناعة أحداث الرواية، وعلى حد قول محرر جريدة الجريدة الذي لم نتمكن من معرفة إسمه بإن ميزة زهدي الداوودي القصصية هي أن يجمع في القصّة أو الرواية بين الوثيقة الرواية وبين الوثيقة التاريخية وبين بنية السرد الفني القصصي الخيالي. فلم تكن الوثيقة مسجلة بحذافيرها كما لم تكن الحياة المعاصرة مادة جامدة بل هما في نسيج من يصنع من مناهل تاريخية متعددة مادة قصصية حديثة .أشاطر ذلك الرأي بأن د. زهدي ينقل لنا وبإسلوب ممتع لحظات إعلان الثورة على العهد الملكي واقترن ذلك الحدث التاريخي كوثيقة مهمة في سردية فنية موفقة وبأسلوب مشوق يجعلك قريباً من لحظات فرح ثورة تموز، عنوان فرعي آخر وتحت عنوان (ثورة) يكون مع تلك الوثيقة بشقيها التاريخي والروائي، فوتيرة ذلك الحَدث الجسيم تتناغم مع فرحة الجموع وبتقنية فنية مستساغة- عندما أيقظتني والدتي في الصباح الباكر وهي تنبهني الى موسيقى وبيانات غريبة لاتفهمها، انه يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ كنت أريد أواصل نومي بيد أن النداءات الصادرة من المذياع كانت أقوى، ورحت أركض في ساحة البيت كالمخبول وأنا أصيح ثورة.. ثورة.

وعلى قول الكاتب سلمان زين الدين في كتابته عن رواية تحولات: تشكّل «تحولات» وثيقة روائية لمرحلة معينة من تاريخ العراق لايزال يعيش مثلها اليوم، وإن بأدوات وأدوار مختلفة، من قال إن «التاريخ لايعيد» نفسه فالمتتبع لاحداث رواية تحولات يّطل على مرحلة حزينة وقاسية لحياة الشعب العراقي وبكافة قومياته المنكوبة بطغيان العقول الدموية والتي نعتها الكاتب سلمان زين الدين بالأطر السلطوية المغلقة. وتبقى كل الروايات التي تكتب تعبر عن حالات عصيبة مهمة أو تدوينها بصيغة أدبية وبتعابير أكثر فنية من مدونات وملاحظات المؤرخين. فتبقى الرواية في أحسن الأحوال كمنظومة معرفية ، ويقول الناقد العراقي الكبير ياسين النصير في مقال له حول رواية الروائي العراقي برهان الخطيب موسوعة ويكيبيديا بأن « الرواية وحسب أفضل نماذجها ، منظومة معرفية لا تحصر بالأدب وحده ، بل بعلم الإجتماع وسيكولوجيا البشر» ويستشهد برأي ميخائيل باختين ويقول»بأن تفكيك مركزية العالم الأيديولوجي لفظاً، وهو الذي يجد تعبيره في الرواية ، يفترض وجود فئة إجتماعية شديدة التباين، لها علاقة توتر وتبادل حي مع فئات إجتماعية أخرى ، فاذا كان هناك مجتمع مغلق على نفسه، أو طائفة، أو طبقة لها نواتها الداخلية الوحيدة والصلبة، فإن عليها أن تتفتت وأن تتخلى عن توازنها الداخلي، وعن إكتفائها بذاتها، لتصبح مجالاً ومنتجاً إجتماعياً لصالح نمو الرواية» وفي دراسة للناقدة العراقية د. فاطمة المحسن حول الرواية العراقية المغتربة رحلة مضادة الى الوطن في مجلة(نزوى) وفق نظرتها النقدية التحليلية للمشهد الروائي العراقي في المنفى تقف عند رواية أطول عام الدكتور زهدي مسجلة ملاحظة نقدية دقيقة حول عالمها وعّدها من ضمن الروايات الواقعية التوثيقية لمراحل تأريخية ورصد جيد

لرقعــة جغرافية جبلية أثرت على ذاكرة ومخيلة الروائي نفســه:» تتخــذ محاكاة الواقــع في رواية زهدي الــداوودي أطول عام١٩٩٤ تجاه ما يمكن أن نسميه الطبيعية أي النظرة الواضحة المنبسطة الى الطبيعة، بل الى الحياة الرعوية، النظرة المحسوبة علــى الواقعية الأكثــر تقليداً للحيــاة فهو يرصد منطقة تمتــد في وادي كفران أحد المعابر الجبلية التي تربط كردستان العراق بالموصل. تبدو رواية الداودي كما حال روايــات الخطيب لجهة توثيقها المراحل وتحديد هوية المــكان وأزمنته ومناخاته عــودة الى ما فــات القاص العراقــي في الأربعينات والخمســينات، من إشــباع للمســاحات المتروكة في المشــهد القصصي الذي كان بعــد مرحلة ذوالنون أيــوب التعليمية يشــكو مــن الإختصــار، فكانت القصــة الطويلة أنســب تعبيراً عن تلــك المراحل من الرواية» أمــا د . زهدي وفي روايته (تحولات) فليسَ ناقلاً حرفيــاً لطبيعة تلك الأحداث الممتدة في تلك الرقعــة الجغرافية التي طالتها ملاحظاته التحليلية، ولا هي مســألة ملء الفراغات أو حشــو الصّفحات بالتفصيلات المُمّلة. فالرواية هي تدوينٌ ونقلٌ موفق لمراحل حياتية مُضّمخة بالمآسي وفقَ بنائيــة معمارية مشّــوقة. وفي روايــة (تحولات) وعبرصفحاتها المقاربة الى ثلاثمائة صفحة، تشكل الرؤيــة الإنســانية الواعية من أهــم محاورها في تصويرها لتلك الأحداث الجسيمة من تاريخ العراق السياسي. فالصراع الرئيســي في الرواية قائم بين الجديد والقديم ، وبين الفكر التقدمي ومناهضته للعقليــة القبلية . وهنا نذكــر مجموعة من تلك العناويــن الفرعية التي أحتوتهــا رواية د. زهدي لنؤكــد على تلك الحقيقة مثــل: الحرية المطلقة، الدراســة ، الثورة ، المسرح بين الحياة والكواليس ، مادلــين ، قرية الحب العذري، في الطريق الى وادي كفران، فصيل وادي كفران، في الطريق الى خورنه و ه زان، في الطريق الى الســجن، والى آخر العناوين الفرعيــة (العودة الى عالم الحريــة). ومن خلال مطالعتنا لتلــك العناوين الفرعية المثبتة يتوجب الوقــوف عند لحظة النقد الواقعي وحســب رؤية الناقــد المغربي محمد أمنصور، هــو التركيز على التوتر المشدوه لمخيلة المتلقي ، والتنقل من مدارات الروايات التقليدية الى أســلوبية الروايات الحديثة، ويعنــي التحديث في منحى الخطــاب الروائي. وفي نظرتنا الأستقرائية نبدو شبه قاصرين أمام النقد الموضوعــي وفي تعاملنا مع الأدب الروائي بإعتباره موضوعًا سردياً , والبعض من النقاد يقرأون الرواية قراءة نقدية ولكن بأساليب التذوق الشعري وبفهم أحادي من منطلق النثر الأدبي. ونكون إزاء مفهوم الروايات وجودتهــا و مدى تركها لعلامة فارقة في ذهن الناقد قبل المتلقي ، فالناقد لمثل تلك النماذج عليه معرفة كل معايــير الرواية الجيدة مقاربتها أوقراءتهــا قراءةً ذكيةً وحســب قول الاس مارتن، ترجمة حياة جاسم. ونكون بعد ذلك أمام حتمية الإجابة على كل تساؤلات الخطاب الروائي للرواية الجيــدة أو الهابطــة، وأعجبنــي رأي الناقد الكبير اليوســف في تقييمه للرواية الجيــدة بأن الرواية الجيدة» هي حقًا تكثيفٌ شاملٌ للروح الإنساني، أي للقيمة، بما هي لُباب الوجود أو نسغه الداخلي؛ بل بما هي نداء يحضُّ الإنســان على أن يجعل لحياتهِ معنًى، بحيث تصير العيش الذي يستحق أن يُعاش.

إن الرواية الجيدة، شــأنها في ذلك شــأن كلّ إنجاز نبيل أو أصيل، هي تحية من الروح، أو من الإنسان، يقدِّمها للحياة؛ لكنها، في الوقت نفسه، إعادة تأسيس للوجدان، أو دعم له، في عالم ساقط يتصدَّع وينهار على الدوام، وذلك بحكم كونها قيمة، أي سندًا من الأسانيد التي تملك أن تدعم الروح».

إضــاءات أخرى بمثابة خاتمــة المطاف لفضاء رواية تحولات الداوودي.

بعد جولــة غير قصيرة أمضيناهــا مع أجواء وأحــداث رواية (تحــولات)، نســتطيع القول بأن زمن ومكانها الشــخصيات المحوريــة في الرواية قادتنا الى الشــعور بدفء ذكرياتنــا الجميلة التي عشناها في مســرح أحداث الرواية. وأجمل تلك الروايات هي التي تمتزج معها السير الذاتية، التي تســتمد أكثر أحداثها من حياة الروائي أو القاص نفســه وتزيينه بالمشاهد والشــخصيات الخيالية، وتركه لعنان تفكيره متّســعاً من الخيال الجميل. مثــل تلك النمــاذج الروائية الممزوجــة بالوقائع الحياتية التي عاشــتها الكاتب فتجد الإقبال عليها مــن قبل القراء كبيراً, فرواية تحولات هي أشــبه بســيرة الروائي الذاتية وأنعكاساتها على الأحداث مع ملاحظة جرأته في تســمية الكثير من الأشياء بمســمياتها دون خجلٍ أو وجلٍ من شــيٍ. فورود بعض الفقرات الأيروتيكية أو الألفاظ العارية من الصّرف الأخلاقي المذكور على لســان بعض أبطال الرواية وهم في زواية معزولة عن المجتمع لا تمنع ارتقاء تحولات الداوودي من الّرقي والسّمو ، فهناك العديد من مشــاهير الروائيين العــرب والعالميين ضّمنوا في ثنايا سيرهم ورواياتهم عبارات جنسية ومشاهد جارحة لبعض المُحرمات في المجتمع . أسماءٌ لامعةٌ كبيرة وكثيرة أمثال محمد شكري في روايته الخبــز الحــافي والبرتومورافيــا في امرأتان، وعلاء الأسواني في عمارة يعقوبيان، وآخرين لا تحضرني أســماؤهم. يقول الدكتور جابر عصفور في كتابه في( محنة الادب) بصَدد كتّــاب الرواية الذاتية أو الســيرة الروائية» تجد شــجاعة الإعتراف مقابل الخوف، وتجد الجرأة في تناول التابوهات المُحرمات: الإجتماعية والجنسية والدينية والسياسية، مقابل إيثار السلامة بعدم التعرض للمناطق الحسّاسة من الحيــاة» ويُحمّل الثقافة غيرالجريئة تبِعات ذلك الهاجس فيّعلــق عليها» ثقافتنــا بحُكم أوضاعها وشــروطها لاتتيح للكاتب وضع شجاعة الإعتراف، والكاتب يخشى من نتائج هذا النوع من الشجاعة، فيؤثر الســلامة، ويلجأ الى فن الرواية حيث يمكن للتقنية والمراوغة الفنية أن تكون بديلاً لشــجاعة الإعتراف» وأفضل الروايات هــي الروايات التي لا تهرب من المواجهة بل التي تتمكن كيف تكون عند المجابهة وتسميتها للكثير من الظواهر غيرالمرضية أو الصّحيــة دونَ ترددٍ أو تراجع مخافة التســاؤل أو المســاءلة. فالروائي هو بمثابة العين الثاقبة في رصده وفي تعريته للظواهر الشاذة في المجتمع طالما هو مرآة لضمير الأمة. فزهدي الداوودي أســتطاع تشــخيص جوانب مهمة من تلك الظواهر، وكيف عبّرعــن بعض أمنيــات طفولتــه المدجّنة تحت حــراب التقليد والمــوروث، والى حــد التنازل عن أزهى مراحــل طفولته ومراهقته مقابل حصوله على شــهادة حســن الســلوك في البيت والمجتمع. وطمره لــلآلاف مــن أمانيه ورغباتــه في مقبرة

الصّمــت والكبت الإجتماعي، دون الإعتبار لمراحل نمو الإنســان وكينونته في الحياة. نتمنى لزهدي في أعمالــه القادمة التحرر مــن ربقة الماضي ومن عــبء ذكرياته عبر ثلاثيته الشــهيرة, ويقدم لنا أجواء أخرى مشــوبة بالفرح ويضفي على معالم كتاباته شيئاً من تجربته الغنية في المنفى كتجارب ومواقف، ونقله لمشاهداته الطويلة للحياة والناس في المنفى بأسـلوبه الروائي الشّـيق ولانقول له أن يبتعــد بالمرة من أجواء بيئته، بل من الحَســنات الطّاغية التي تُسجل للروائي زهدي الداوودي بأنه لم ينس موطنه وبيئته وأصحابه وكل التفاصيل الدقيقة من يومياتــه منذ أكثر من ثلاثين عاماً وهو لم يلتــق أصحابه ولم يزر وطنه إلاّ لحقبات محدودة. وأجمل وصف هو ما ذكرتها شبكة النبأ عنه وعن روايته تحولات:» زهدي الداوودي مقيم في المانيا منذُ ثلاثين عاماً، ولم يزر العراق إلّا لمدة قصيرة، لكن كتابته وهواجســه الروائية تحديداً، مفعمة بالعراق وأهله، نكباته وإنتصاراته، أحلامه وعذاباته الطويلــة. الرواية هي الجزء الثالث من ثلاثيتــه (وادي كفران) وتدور أحداثها من خلال حياة عائلة كردية عراقية وبأسـلوب يجمع بين الواقعية الســحرية، والســيرة الذاتيــة الوثائقية. الثلاثيــة تحكي عن الفترة الممتــدة من عام ١٩٠٨ حتي نهاية السبعينات من القرن العشرين» ونحن في إنتظار إبداعات أخرى من المبدع الكبير زهدي. وســتكون لنا وقفة متواضعة أخــرى في محطات كتاباتــه القادمــة. فالثناء الصّريــح على العقول والأقلام التي تحافظ على نقاء مبادئها ورســالتها في خدمــة المجتمع هو واجبٌ أخلاقي إزاء أي نص أدبــي أو أثر فنــي قبلَ أنْ يكونَ واجبــاً أدبياً من قبل متابعي الآثار الأدبية الراقية في تنوير النّاس والمجتمع.

**المصادر:**

١ - غائب طعمة فرمان واسئلة التأمل، الذروة الكاشــفة عن الزمــان والمكان في النــص الروائي، الكاتــب والصحفي جاســم المطيرجريدة (الزمان) العدد ١٢٢٩ التاريخ ٢٠٠٢ - ٦ — ٨.

٢- روايــة للروائي العراقي زهــدي الداوودي عيش الاكــراد في شــمال العراق خــلال تحولات القرن المنصرم جريدة الحياة ٣٠ ١٠ ٢٠٠٧ ســلمان زين الدين.

٣- الناقد العراقي ياســين النصير في مقال له. حــول رواية الروائــي العراقي برهــان الخطيب. موسوعة ويكيبيديا.

٤- الناقــدة العراقية د. فاطمة المحســن حول الرواية العراقية المغتربة رحلة مضادة الى الوطن، مجلة نزوى العدد١٥ تموز ١٩٩٨.

٥- الناقــد المغربي محمــد أمنصور. د. محمد أمنصور مفاهيم النقد الروائي في المغرب .اســتاذ النقــد الأدبي شــعبة اللغة العربيــة. كلية العلوم الانسانية.

٦– موقــع الباحث الحســين الشــبي لمحة عن الراوية دردشة مع الناقد الكبيراليوسف٢٠٠١.

٧- في محنــة الأدب د. جابــر عصفــور ٢٠٠٣ مطابــع الهيئة المصريــة العامة للكتــاب الاعمال الفكرية مصر.

# اعترافات الحاج باولو كويلو*

خوان ايرياس

ترجمة: خضير اللامي

مستشفى الامراض العقلية

السجن والتعذيب

(ان اسوأ شيء اكتشفته في الميتم هو، لا خيار لي سوى

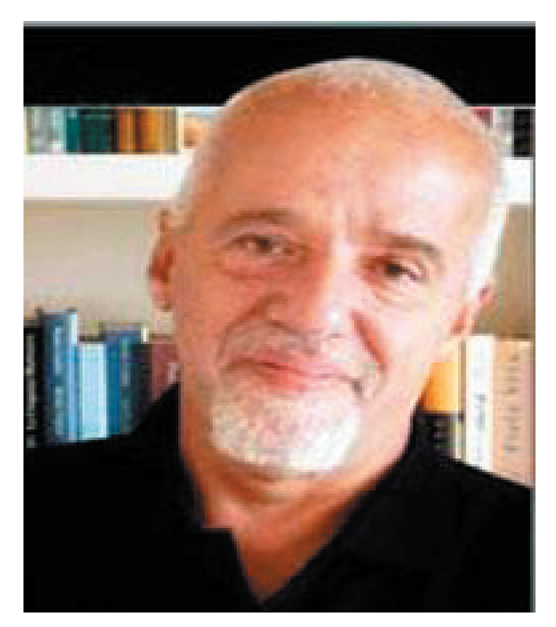
والجنون والعيش بهدوء دون عمل).

(السجن كان اول تجربة لي من الكراهية والوحشية والعجز

الجنسي التام. كان اسوأ الف مرة من مستشفى الامراض العقلية).

*هذا فصل مجتزأ من كتاب (اعترافات الحاج باولو كويلو) للكاتب والصحفي البرازيلي خوان ايرياس

كان مستقبل الكاتب الشاب ليس سهلا، كان غنيا في تنوع تجاربه، كان قاسيا في تطرفه.



مثل ايداعه مستشفى الامراض العقلية فضلا عن معاناة السجن، حيث خضع الى عملية تعذيب من قبل ميليشيا النظام، خلال عهد الدكتاتورية

البرازيلية.

كان دائمــا يتســم بالتمــرد في ايــام طفولته وشبابه. متلهفا لدخول التجربة، ومخلصا لحركة الطـلاب التي حدثت في ١٩٦٨، في فرنســا. في زمن الانفتــاح والجنون، ويبحث دائما عن شـــيء يملأ ذاتــه من الداخل. ولا يســمح لنفســه ان يخضع للتقاليد العائلية والاجتماعية. وكان منشــقا على ولاءاته. مع انه كان قادرا على الاعتراف باخطائه عندما يقترفها. واعترف هو في هذه الحوارات. ولم يشــعر بالكراهية او الضغينة ازاء اســرته عندما اودعته مستشــفى الامــراض العقلية ثلاث مرات حينما كان طفلا، وكان مقتنعا ان اســرته قامت بهذا العمل من اجل اصلاحه.

⋆كيــف كانــت طفولتــك؟ هل لديك اشــقاء وشقيقات؟

-لدي شــقيقة واحدة، هي مهندسة كيمائية. انــا الاكبروالاكثر تمردا في الاســرة. وما دمت انا الاكبر فانا دائما الملام عن كل شـــيء يحدث حولي. وبعدئــذ فانا دائما الضحيــة. في البداية ازعجني هذا كثيرا، مع انه لم يكن خطئي. وذات مرة قلت لنفســي: حسنا، اذا كانت هذه هي الطريقة فانني ســاقوم بكل شـــيء اريد القيام به خاصة تمردي على الظلم.

⋆ما هي ذكريات طفولتك الاولى؟

-كانــت طفولة غريبة. بيــد ان لدي ذكريات قليلة واضحة جدا عنها. فقد عشت في بوتا فوغو، وهي بلدة نموذجية قريبــة من ريودي جانيرو. حيث عشت كل حياتي. ساخبرك شيئا لا يمكن ان تصدقه، ولم اكن قادرا على فهمه، حتى استشرت بعض الاطباء، ان كان من الممكن ان يحدث مثل هذا لدى الاطفال الاخرين. فانا اتذكر انني قد عرفت جدتي لامي حالما ولدت. كانت هناك واتذكر انني فتحت عيني وقلت لنفســي: هــذه جدتي. وهذا طفل قد ولد الان. الا تصدق ذلك؟!

⋆وما هي ذكرياتك عن ابويك؟

- كان والــدي مهندســا، منحــدرا مــن عائلة تقليدية، اما والدتي فقد كانت تاخذ دروســا عن المتحف في الجامعة، والدي ما زال على قيد الحياة، وهوشــخصية مهيمنة وقد انعكست ظلالها بشكل واضح وكبير على والدتي.

⋆هــل تذهــب الى القــداس؟ هــل عائلتــك كاثوليكية؟

-نعم. اتذكر انها اعتادت ان تاخذني معها كل يوم احد. ولكن السنوات الاخيرة من المدرسة ومع اليسوعيين. علينا ان نذهب كل يوم جمعة ايضا. وكان تعليمــي تعليما تقليديا. وكان اليســوعيون في تلــك الايام محافظين وصارمـــين جدا. وكانت والدتي تواجه مشــاكل دينية. ودخلت في علاقة ثيولوجيــة اكثر انفتاحا، واقل تقليدية، ليســت لاهوتية ليبرالية تماما، ولكن شيئا شبيها من ذلك. جعلها تفتح عينها. وبدات تطرح مشكلة ايمانها. والتقت مع شــريحة دينيــة منفتحة، فضلا عن علماء آثار، وبدت تنظــر الى القضايا الدينية من زاوية مختلفة. اقل صرامة وتقليدية. كان هذا في زمن لم اكن انا فيه قريبا جدا من اسرتي.

⋆كان اليســوعيون اكثر تقدمية؟ هل عائلتك كاثوليكية؟

-ليس في ذلك الحين.كانوا جنود المسيح. وقد منحوني ارضية ممتازة في الانضباط، ولكن في الوقت ذاته، رسخوا فكرة رعب الدين في رأسي. فضلا عن احتوائه تعاليم الصرامة والتربية الدقيقة. ومنه نأيت بنفسي عنه، وتركت المدرسة حالما استطعت ذلك، لانني كنت ادرس دراسة اكاديمية ليست بالمستوى المطلوب. وبحثت عن حركات الطلاب التقدمية. وبعدها انحزت الى الافكار العلمانية. وبدأت بقراءة كتابات ماركس وانجلس وهيغل وغيرهم.

⋆ولكن في نهاية المطاف عدت الى الكاثوليكية؟

-عندما بدأت استعيد ولعي في البحث الروحي. كنت حينها مقتنعا ان المكان الاخير الذي كنت اذهب للبحث فيه كان من داخل الكنيسة الكاثوليكية. لانني كنت اعيش رعبها. وكنت سئما ومقتنعا واعرف تماما انها لم تكن الطريقة التي ابغيها، لان طريقتهم يمينية، ولا يهتمون بالجانب الانثوي. ويؤمنون باله صارم، دون رحمة، دون شفقة او سر. وفي الوقت ذاته، بدات اجرب مع كل الطوائف والاديان الاخرى. خاصة الشرقية منها. وجربتها كلها. كرشنا والبوذية، وفلسفة اليوغا، وكل شيء. وشرعت بالذهاب الى حضور القداس بطريقة منتظمة مرة اخرى. وفقط بعد قيامي بالحج الى سانتياغو.

⋆وكنت لا تستقر؟

-كليا، وبعد ذلك، عدت الى العلمانية، بعد تجربة مزعجة مع السحر الاسود وساخبرك عنه لاحقا.

⋆وماذا درست في الجامعة؟

-درست القانون، ولكني فقط كنت مضطرا لذلك. ولم اكمله . وبعد ان انهيت الدراسة الثانوية دخلت الامتحان في الجامعة. وحاولت ان استيطر على تمردي.كنت اعاني اضطهاد اسرتي والمجتمع والجو العام. وبعد ان تجا وزت الحواجز انفجرت تماما. حدث هذا حينما بدأت الدراسة في الجامعة. ولكن قبل ذلك، لم استطع الحصول على اية دراسة. فقد انفقت ثلاث سنوات في السنة الاخيرة من المدرسة الثانوية ولم انجزها. ولم اخرج من ذلك. الى ان دفعت اسرتي نفقات الدراسة لاجتياز السنة الاخيرة. وهكذا، انهيت الدراسة الثانوية.

⋆وعندما انفجرت بهذه الط ريقة، ماذا كان رد فعل اسرتك؟

-عندما رحلت اول مرة، فانهم قد اودعوني في سجن المجانين مثل اي رجل مجنون؟

⋆كيف يودعون رجلا سليم العقل في مستشفى المجانين؟

-كان ذلك ممكنا في ذلك الحين. وعلى كل حال، استطاع والداي فعل ذلك. فقد اودعوني ثلا ث

مرات مستشفى المجانين بسبب هروبي. ولان الملجأ كان موجودا، وحاليا، حاولت ان اكتشف ما هي الاسباب التي جعلتهم يضعوني في السجن مع الممسوسين. فقد ذكر التقرير الطبي انني سريع الغضب ومشاكس سياسيا، واقوم بمساويْ مستمرة في المدرسة، واعتقدت والدتي انني اعاني من امراض جنسية. ولم اكن ناضجا بما فيه الكفاية قياسا لعمري. فحينما ارغب في شيء ما، فانني احاول الحصول عليه بكل الوسائل المتاحة. وهذا يعكس مواقف متطرفة وراديكالية باضطراد.

*وكيف تشعر من الداخل؟

-انظر، حينما كنت في السابعة عشرة من عمري، فان الشيء الوحيد الذي اريد القيام به، هو ان اكتب. وبدات ذلك كصحفي في احدي الصحف، وقد انجزت قراءة اعمال اوسكار وايلد. كنت مثاليا في اعماقي، وفي اعماقي، فكرت: ان ثمة شخصا يناديني ويحثني على ان اكون كاتبا «. وكان من المصيب ان اتحمل عبء التجارب، بما فيها تجربة مستشفى المجانين، التي كانت قدر كثير من الكتاب والفنانين ابتداءا من فان كوخ. وقد رايت ذلك انها اسطورتي الشخصية، وكانت توقي في المخاطرة. فقد كتبت الشعر وانا في الملجأ، ولكن بعد ذلك هربت منه، لانني ادركت انني لم اكن مجنونا. وما اردته هو ان اعيش كل شيء حتى الثمالة، اي شيء يروق لي. وقد اعتقد بعض الناس انني وضعت في المستشفي بسبب المخدرات. ليس هذا ابدا. ولم يحدث لي ان جربت اي نوع منها. وتجربتي معها ابتدأت متاخرة جدا، عندما بلغت العشرين من عمري.

*وماذا تعلمت من المجانين خاصة وانك لم تكن واحدا منهم؟

-أريد ان اكون صادقا معك. اعتقد ان الخطر الكبير للجنون ليس الجنون ذاته، ولكن عادة الجنون. وقد اكتشفته خلال الوقت الذي انفقته في الملجا وهو انني استطعت ان اختار الجنون واقضي حياتي دون عمل، لاشيء اقوم به، واتظاهر انني مجنون. كان اغراء قويا، تجربة عظيمة في ذلك المكان الذي كان ارضية لروايتي: فيرونيكا تقرر الانتحار.»

وتجربة مستشفى المجانين ظهرت كما يأتي: في اليوم الثالث كنت اقول، حسنا، انا دخلت مستشفى المجانين، وهذا ليس شيئا سيئا، فانا اشعر بالراحة والحماية من المشاكل التي ربما تواجهني في الخارج. انها شبيهة بالام التي تمنحك السكون والاطمئنان.

*وكيف واجهت نزلاء المستشفى؟

-مع المجانين؟ بدوا لي جميعا عاديين. احيانا تنتابهم لحظات غضب، كما تنتابني وتنتابك في الحياة الاعتيادية. وثمة في الواقع، من كان مصابا بالانفصام الذهني، نتيجة فقدان الاتصال بالواقع. ولكن لا يتعدى عددهم اكثر من ثلاثة او اربعة اشخاص. تحدثت مع البعض منهم. تناقشنا في الفلسفة والكتب واشياء اخرى. كان لدينا جهاز تلفاز، وبامكاننا الاستماع الى الموسيقى، وكنا نقوم باشياء مسلية.

*وماذا عن الصدمات الكهربائية؟

-لم تكن جيدة، ولا تشعر بها كثيرا ايضا. كانت مزعجة، ومروعة، خاصة' عندما يضعونها على اعضائي التناسلية خلال عمليمة التعذيب من قبل ميليشيا النظام' عندما اختطفت بعد سنوات. كان ذلك مؤلما ومخزيا، انه الهول بعينه.

*في المرة الاولى التي دخلت فيها المستشفى سمحوا لك بالخروج منه، لحسن سلوكك. في المرة الثانية وطبقا لتقارير طبية، استطعت الهروب من الملجأ، كيف كان ذلك؟

-حجزوني في الطابق التاسع، ولم استطع الهروب. واعتبروني مجنونا خطرا، ولكن النزلاء هم الذين سمحوا لي بالخروج. اعطاني اطباء الملجأ كثيرا من الادوية والرجات الكهربائية، وقد

اغلقوا باب غرفتي اكثر من شـهرين دون ان ارى الشـمس. وقد دفعوني الى الجنون. وفي احد الايام دخلت مصعد البناية، مع اناس اخرين وهبط بنا المصعد، وخرجت بهـذه الطريقة التي لا تصدق، جلست قرب الباب، حرا، هذه العملية تشبه احدى قصص كافكا.

*كان هذا كله شيئا رمزيا، كنت سجينا، ولكن في الواقع لم تكن كذلك؟

-انها مسـألة رمزية رهيبة. ثمة قصة لكافكا تخبرنا عن شـخص جاء الى باب قلعة، وسـأل هل يمكـن ان ادخل؟ لم يرد عليـه الحارس. قال له: لماذا لا تدعني ادخل؟ اجاب الحارس الذي امسـى عجوزا: انا لم اقل لك لا.انك سـألتني ولم اجبك. فلمـاذا لم تدخل؟ هذا نفس الشـيء حدث لي في الملجا. فانا دخلت المصعد، تماما وانا مرتد بجامة. وبالطبـع لم احصل على اي شـيء. لم تكن لدي نقود، ولا شيء من هذا القبيل. وذهبت الى صديق، فاعطانـي قيثـارة، وقليلا من النقـود وعندما غادرتـه قلت لنفسـي: الان ماذا علـي ان افعل؟ وبدأت بالسفر والعمل.

*هل اتصلت بأسرتك؟

-لـم اتصل بها لمدة شـهرين، وكنـت في حالة يرثى لها. لدرجة انني لم اعد املك النقود لشراء الغـذاء. بعد ذلك، اتصلت بهـا، وبالطبع، قالوا لي تعـال الى البيت بسـرعة. ولم تكن ثمة مشـكلة. وارسـلوا لي المال.لانني كنت بعيدا عنهم.ولكن لم اعد لهم. وبعد مرور سـنة قالوا لي مرة ثانية « انك مجنون لانك تريد العمل في المسـرح « وكانت عاطفتي الجديدة هي مع المسـرح، وعلى اثر ذلك اعادونـي الى مستشـفى المجانين للمـرة الثالثة. وهربـت مرة اخرى، بيد ان هـذه المرة اخبروني ان المصعد لـن يدعني اهرب. لكـن هربت ايضا. عندما ذهبت الى طبيب الاسـنان لمعالجة اسناني، وكان مـن حسـن حظي ان الطبيـب توصل الى نتيجة، هي ان اسـناني على وشك القلع. وحينما باشر بقلعها لم استطع السيطرة على نفسي، لانها كانت تؤلمني بشدة. وعندما قدم تقريره' لم افهم ان الالم الذي ياتي من الاسـنان يجعلني عدوانيا مـع الاخريـن. وفي طريـق عودتي مـن طبيب الاسنان هربت. وعدت مرة ثانية، للسفر والعودة للاسـرة، كنت تماما منكسـرا، قلت: والان، فعلا انني مجنون، لانني كنـت مقتنعا في ذلك الحين، انني لم اكن مجنونا ولا اريد ان اهرب مرة اخرى، ومر اسـبوعان وكنت خلالهما رجلا لا اباليا، ولم يكن لدي اي رد فعل. لم يكن الموضوع سهلا لدى اسـرتك؟في الحقيقة، ان ذلك لم يخطر ببالي في ذلك الحين. اذ كنت افكر في نفسي حسب. وادركت ذلك مؤخرا. لكن شـيئا متناقضا حدث لي وكان شـيئا راديكاليـا قد غير مجـرى حياتي. في يوم مـا، تذكرت وانا في غرفتي، اننـي املك منضدة، وسـرير نوم، وملابس. وكل الاشـياء التي احبها. حسـنا، واغلقت الباب. وقلت لنفسـي، لا يمكنني الاسـتمرارفي العيش على هـذه الطريقة.لانني لا املـك عملا في الصحيفة. وفقدت اصدقائي، وبعد ذلك علي ان اتخلى عن المسـرح. وهكذا، فكرت ان عائلتـي ربمـا كانت على صـواب. وربما كنت انا فعلا مجنونا. ولاول مرة بدأت امثل دور المجنون. اوصـدت الباب المـؤدي الى غرفة نومـي وبدأت

ادمر محتويات الغرفة بكاملها. وكتبي التي احبها كثيرا. ومجموعات كتب شارلوك هولمز وهنري ميلر واشرطتي وكل اثار الماضي. ومزقتها كلها شرق ممزق. وقد سمع والداي وانا احطم كل شيء دون توقف. وهكذا، جريا لاستدعاء الطبيب الذي كان يعالجني في الملجا، ولكنه لم يكن موجودا. واتصلوا هاتفيا بطبيب اخر، اتذكره جيدا، لانه كان رجلا فضوليا، وطبيبا نفسيا في الوقت نفسه يدعى فاجارو. وعندما وصل، فتح الباب وواجه كل ذلك الدمار، واعتقدت انه سيعيدني مباشرة الى الملجا، ولكن كانت دهشتي كبيرة، اذ سمعته يسالني بهدوء، مبتسما : ماذا يحدث هنا؟ الا ترى؟ اخبرته، قد حطمت كل شيء. اجابني دون ان تطرف له عين، احسنت عملا. والان قد مزقت كل شيء الى قطع، الان بامكانك ان تبدأ حياة جديدة. فقد قمت تماما بما قد تحتاج الى القيام به، قليلا او كثيرا. فانك حطمت الماضي السلبي لكي تشرع بمستقبل ايجابي. ولكن ماذا تقول؟ اجبته دون ان اشفى من الصدمة عند سماعي الطبيب النفساني انني قد احسنت عملا جيدا بتدميري غرفتي باكملها، وكل الاشياء العزيزة علي. واخبرني مرة ثانية: انت قد قمت بشيء انت بحاجة الى القيام به. انهيت كابوس الماضي، والان يمكن ان تنطلق بحياتك الجديدة. ـ وكيف كان رد فعل والديك؟

*كانا متفاهمين جدا، او متفقين مع كل ما قاله الطبيب النفساني، وقد قالا: الان انت بحالة جيدة، يمكن ان تبدا بداية جيدة، لقد انتهى كل شيء. دعنا نلتقط كل شيء قد كسرته، ونرميه خارج المنزل. وقد انقذني ذلك الرجل، يا خوان، لانني وصلت الى حافة الجنون الحقيقية والى اسوا شيء قد قبلته وروضت نفسي عليه.وهل بقيت في تماس مع الطبيب؟

-في ذلك اليوم، الذي غادرني فيه، قال لي: ساقود العملية « وقد ذهبت اليه خمس عشرة او عشرين مرة، الى ان قال في يوم ما، الان عليك ان تمشي على قدميك، فقد شفيت من مرضك عمليا. الان، فيك مس من الجنون، كما فينا هذا المس جميعا. وعندما انفجر تمردي بقوة، قلت مع نفسي، لا يهم ان كان فِيّ هذا المس من الجنون. لانه علينا ان نواجه جنوننا. وما علي القيام به الان، هو ان اعيش بعمق وحتى الثمالة. ان اقوم باي شيء يثير في داخلي المتعة، ولا احرم نفسي من اي شيء.

فقد فقدت كل شيء، الجريدة، والاصدقاء، والمسرح، والصديقة. التي كانت شابة، وقد تركتني حينما وضعوني في الملجا لانه لم يسمح لها بالدخول. ولم يسمحوا لي بالخروج لرؤيتها.

*هل شعرت بالكراهية والمرارة ازاء والديك لانهما اودعوك في مستشفى الامراض العقلية ولم تكن مجنونا اصلا؟

-كلا. ابدا، كانا مقتنعين انني اكرهما، ولكن لم يكن ذلك صحيحا. وقد اخذاني الى هناك خارج عاطفة الحب، الحب الخاطيء، حب مهيمن . ولكنهما قالا ذلك فعلا، لانهما كانا يحباني، ولم يودعاني في الملجا لانهما يكرهاني، لاكنها ارادا ان يساعداني في بناء حياتي. انه اجراء يائس وجنون، اثر فيهما اكثر مما اثر فيّ. ولكن في ذات الوقت ذاته، سمحا لي ان ادرك المعركة الجيدة في

مواجهة ذاتي.

*وكيف كان رد فعلك حينما اكتشفت، وليس بعد وقت طويل، الاسباب الحقيقية وراء وضعك في الملجا؟

-الوقت الوحيد، كان لحظة كراهية ومرارة قبل اسابيع قليلة، وعندما قرات تقرير الملجا الذي كتب عن اسباب ايداعي فيه. تحولت الى رجل ثائر لانني لم اصدق ذلك ! وكانت المسالة عبثية جدا. ولكن الشخص الذي تحمل عبء النقد والهجوم هو محرر قسم اللغة الانجليزية الذي ايضا وجهت جام غضبي ضده. ويبدو انه لم يفهم ملابسات القضية. ولكن في الحقيقة لم يكن لدي اي مرارة ازاء والديُ. واقسمت الاُ اتحدث عن التجربة المؤلمة طالما بقيت على قيد الحياة. وانا اقول ذلك الان، لان والدتي لن تعيش طويلا. ووالدي بلغ من العمر عتيا. ومن الواضح، تماما انه يتابع انتشار روايتي « فيرونيكا تقرر الانتحار « واعتقد ان الحديث عن هذه الرواية يبعث على الارتياح في داخله. وكان ايضا يشعر بسرور غامر لتسلمي رسائل كثيرة، وقد اكتشف انه لم يكن الانسان الوحيد الذي يبدي مثل هذه الاحاسيس. خاصة وان كثيرا من الاسركانت تبدي فرحها باعمالي.

*وهل حاول والداك تبرير ما قاما به؟

-كلا لم يحاولا ذلك ابدا. بيد انهما طلبا مني ان اغفر لهما. فقد قالا: اغفر لنا كانت غلطة كبيرة في حياتنا. ولكنهما لم يخبراني لماذا تصرفا ضدي هكذا؟ ولكن، هذه الاشياء قد اثرت في كثير من الناس. وكما قال اورتيغا غاسيت «انا نفسي، وظروفي» اننا دون شك نعاني كلنا.

*وهل هذا، كان عندما بدأت مرحلة حياتك الهيبية؟

-نعم، كانت حركة الهيبز اسرتي الجديدة. وقبيلتي الجديدة. حاولت العودة الى الجامعة. ولكنها لم تكن تغريني، وخاصة حينما دخلت عالم الجنس والمخدرات. حاولت ان اوعز ذلك الى انني ربما كنت شاذا جنسيا. لان والدتي قالت ذات مرة انني اعاني من مشاكل جنسية، وحاولت ان اتغلب على شكوكي هذه التي ساحاول ان اجربها، وهكذا فعلت. ولاول مرة ما احببت التجربة ابدا. لانني كنت متنرفزا بشكل متطرف. وقد مضت سنة وما زالت شكوكي تتنابني. وهكذا حاولت مرة ثانية. وهذه المرة لم اكن متنرفزا. ولكنني لم اكن احبها. وهكذا، قلت لنفسي، المرة الثالثة كنت محظوظا، ساحاول اخر مرة، فاذا لم اكن منجذبا لها، فهذا يعني ليس لدي شذوذ جنسية. ولكن لم انجذب لها ايضا. كنت في الثالثة والعشرين من عمري. وانتابتني الشكوك، حينما كنت اعمل في المسرح. وكان ثمة كثير من الشاذين جنسيا في العالم. وربما كنت لا اعرف ذلك. وهكذا، تغلبت على تلك الشكوك. في نهاية الامر.

*والتحرر من ذلك القلق، بدأت تعمل وتسافر كثيرا في بداية شبابك. كيف تتذكر ذلك؟

-نعم. بدات اعطاء محاضرات لاجتياز مرحلة امتحان الدخول الى مدرسة المسرح. وقد جمعت مبلغا كافيا لتغطية نفقات سنة كاملة. كما اعطيت دروسا عن مسرح الاطفال. وكان هذا عملا فصليا. ثلاثة اشهر عمل وتسعة اشهر سفر. وكان السفر رخيصا جدا في ذلك الحين. واتذكر انني عبرت

الولايات المتحدة، ولم اعرف اللغة الانجليزية بعد. ووصلت الى مكسيكو بدولارين فحسب، كانت عملية جنونية، ولكن في الولايات المتحدة بامكانك شـراء تذكرة لمدة شهر، ومائة دولار كافية لتغطية نصف نفقات السـفر. ولم املك نقودا كافية لدفع اجرة المـكان والمنام. وهكذا، نمـت في الحافلة لمدة ثماني عشـرة ساعة. وعندما استيقظت وجدت نفسي في مكان ما. لا اعرف اين.. ولكن هذا لا يهم.

كنـت دائما برفقـة مجموعة مـن الهيبز، في تلك الايـام، وتجد كثيرا من التضامن بين الهيبز. بامكانـك ان تصعـد في حافلـة ليليـة، وتنام في غرينهونـد، وبهـذه الطريقـة راينـا كثيرا من الامكنه. ومنذ ذلـك الوقت، انطلقت للانهماك في الثقافة الهيبية،

*وماذا حدث لطموحك في الكتابة؟

-لم اشرع في الكتابة في ذلك الحين، ولكن حينما عـدت الى البرازيـل، وهناك بدات ظاهرة تسـمى: الحركـة السـرية ، underground والصحافـة البديلة. وكان هـذا خلال عهد الدكتاتورية، ولكن تلك لم تشـكل صحافة الجناح اليساري، بل كانت تشـكل اهمية لاولئك الذين يبحثون عن بديل لا ينسـجم في توجهاته مع النظام القائم.وكانت تلك المجموعات هـي، البيتليز، ورولنغ سـتون، وبيتر فوندا، مع « العلم الاميركي وايزي رايدر « وكانت ثقافة شعبية اميركية. وكانت لدي صديقة، لعبت دورا مهما في حياتي ـ و كانت تملك شقة. ولكنها لا تملك اية نقود. وفي يوم ما بدانا نبحث عن عمل. ووجدنا شـركة تملك صحيفة دورية، وشرعت انا العمل في مجلة جديدة، صدر منها عددان حسـب، ولكنها كانـت اداة عمل في المسـتقبل.وكان منتج اشرطة سي بي اس، ويقنرب من عمري قد تعرف علـى خلال الطبعـة الاولى للمجلـة. وكان يدعى راؤول سياكزاس الذي اصبح مغنيا شهيرا.

*وفي نفس الدوائر، كنت اعرف كمؤلف لراؤول سياكزاس صاحب الاغاني الشهيرة.

-نعم. اتصل بي، وسألني لماذالا اكتب له اغنيات شعبية؟ بيد انه ، كان منتجا، وكنا متحاملين ضد اولئك الذين يتناغمون مع النظام. لان فلسـفتنا كانـت ضد اي شـيء مؤسسـاتي، اوامنـي. وقد. تعرفت على بعض المتضرريـن من النظام. وبعد ذلك، اتخذت موقفا غير منحاز، لانني شخصت كلا جانبي الجدال.

وقد انتج سـياكزاس اغنيات لجيري ادرياني، ورقصات اسبانية لا استسيغها، وقلت لنفسي: هذا شـخص شنيع ومع ذلك في النهاية، مع ضرري من النظام قد تحول الى شـخصية جذابة، ومدهشـة وفانتازيـة. وثمـة مشـروع مذهل يسـمى: ايها الشـاعر، اظهر وجهـك. Poet, Show Your Face مع جميع الشـعراء الغنائيين البرازيليين. وقد سـالني هذا المنتج من من الشعراء تريده ان يغنـي قصائدك، وقلت المغنـي، ادرياني، لانه هو الذي يستحق. وفعلا غنى بعض قصائدي بطريقة مدهشة.

*كم اغنية كتبت لراؤول سياكزاس؟

-خمسـا وسـتين اغنية. وفي ذلك الوقت كان لدينا راتب، وقد شـرعنا مع الصحافـة البديلة، و كان ادريانـي جد سـعيدا. لاننـي اخترته لاداء قصائدي، دون ان ادفع له.

*وبدأت تهرب من الصعوبات المالية التي تواجهها؟

-بالطبع، تخيل انني تحولت الى رجل غني لاول مرة في حياتي بين عشية وضحاها. وقد ذهبت الى البنك لارى كشفا لحسابي ووجدت رصيدا ب ٤٠الف دولار، تخيل، كنت لا املك حتى مبلغ الذهاب الى السينما، او تناول وجبة طعام سريعة، واذا بي في اليوم الآتي املك ٤٠ الف دولار. كان هذا جنونا! واول شيء فكرت فيه هو ان ابتاع سيارة سباق. ولكن غيرت رايي وابتعت شقة بدلا من ذلك.

كنت في الثالثة والعشرين من عمري، وقد ساعدني والدي في شراء الشقة، حيث اقرضني ثلاثين الف دولار، ومنذ ذلك الوقت، راح المال يغُدق علي. وفي عام ١٩٧٨امتلكت خمس شقق. وكنت لم ابلغ الثلاثين. وثمة اناس يظهرون امامك احيانا مثل نذر في حياتك، ويتغير كل شيء في حياتك تماما. مثلما حدث مع فاغاردو الطبيب النفساني، ثم بعد ذلك مع شخص اخر، عندما خرجت من السجن. انه لمن الغريب الا تكون تلك اعراف او تقاليد، وانما هناك اناس يغيرون اتجاه حياتك للاسوأ او للافضل.

*وقد وضعت ايضا في السجن لاسباب سياسية، وتعرضت للاختطاف والتعذيب، اليس كذلك؟

-ثلاث مرات. في كل مرة يحدث لي ثلاث مرات. وثمة مثل في رواية « الخيميائي « كل شيء يحدث مرة لا يمكن ان يتكرر مرة اخرى. ولكن كل شيء يحدث مرتين فانه بالتاكيد يحدث مرة ثالثة « ورأيت هذه الاشياء مرات عديدة. انها رموز، وعلامات جربتها في حياتي. وفي الواقع، جربت ست مرات، ثلاث مرات منها في مستشفى المجانين، والثلاث الاخرى في السجن.

*ايهما كان الاسوأ؟

-تجربة السجن كانت الف مرة السوءى. وكانت هي السوءى في حياتي. لانها بموازاة ما قد يحدث في داخلي، فعندما خرجت من السحن كنت مثل الاجرب، كان كل من يراني، يقول لا تقترب منه، انه كان في السجن، ولابد وان يكون له سببا.

السجن كان تجسيدا للكراهية، والوحشية، والقوة القدرية، والعنُة التامة. واول مرة القوا فيها عليّ القبض، كنت مع عصابة اطفال في بارانا Parana وكانت ثمة سرقة بنك، وكان افراد العصابة يملكون شعورا طويلة. وقد القي القبض علي واودعت السجن، ابقوني اسبوعا وفي ذلك الوقت لم يقدموا ضدي اي دليل.

*والمرة الاخرى؟

-كانت اكثر جدية وغير متوقعة، لانني كنت اعمل مع راؤول في ذلك الوقت. وكنت قد اشتهرت بقصائد عديدة، جمعت نقودا كثيرة. وكنت ايضا متورطا في اعمال السحر. وشعرت ان لدي قدرة كلية، ولكن رغم ذلك انتهيت الى السجن.

*لماذا اعتقلوك؟

-اتذكر هذا كما لو كان يوم امس. وشعرت تماما انني غبي، لانني قد اوصلت نفسي الى هذا الحد وعلى كل حال، بدأ نا نؤمن بفكرة المجتمع البديل، كنت انا وراؤول نملك نوعا من اليوتوبيا. ذهبنا الى برازيليا لاداء كونشرتو، وقلت كلمات قليلة عن افكارنا في المجتمع، وطموحاتنا عن تغيير الواقع. وقد بدت لي هذه الافكار بريئة.

كنا فقط شـخصين مثاليين. ولكن في اليوم التالي تسـلم راؤول قصاصة ورق تقول: عليه، ان يقدم تقريرا للشـرطة. ذهب، وذهبت معه. جلست انا في غرفـة الانتظار. خرج راؤول وهو يغني اغنية لا اتذكرها. ولكنها باللغة الانجليزية وتختلف عن الاغنيـات الاخرى. ذهب واجـرى اتصالا هاتفيا، وقال لي: مشكلتهم معك، وليست معي. وفهمت ما ذا يعني بالاغنيـة، وحينما حاولت الخروج قالوا لي: الى اين تريد الذهاب؟ لتناول القهوة، قلت لهم. ردوا علي، كلا، كلا. اسـال صديقـك ليجلبها لك. ولم اسـتطع المغادرة. مـع ان ذلك الوقت، لم يكن بتلك الجدية ايضا. لان لدي فكرة رومانسـية عن السـجن. وفكرت انني في السجن لاسباب سياسية. وكانت جزأ من المخاطرة يجب ان نتحملها.

*هل ساعدك والداك في الخروج من السجن؟

-نعم. عينوا لي محاميا. وطلب مني ان اتحلى بالهـدوء، وعلى الرغم أنني كنت في السـجن فان الرعب الذي سـمعته عـن تعذيب السـجناء لم يتعرض لي. وكانـت هذه الدكتاتورية تقترب من نهاية أسـوا مرحلة للحكومة العسـكرية. اذ قرر الجنرال غيسـيل General Geisel، ان يدشن مرحلـة الليبراليـة. وثمة اتجاه متشـدد لليمين المتطرف. الذي يملـك آلة حرب ضخمة. يريدون من خلالهـا انهاء الاطراف المعارضة. والان، عليهم ان يـبرروا وجودهم. وقد عرفوا انني كنت واحدا من اولئـك المجانين الذين ينادون بمجتمع بديل. وليس لهم علاقة بتلك الاطراف. ولكن ليس لديهم سجناء سياسيون لانهم قد قتلوهم جميعا وعليهم ان يبحثوا عن اعداء جدد لتبرير اعمالهم.

وبعـد ان جاء المحامي، اطلقوا سـراحي بعد ان وقعت وثيقة تقول، ان الحكومة ليست مسؤولة عن اي شـيء او من حماقات مثيلة مـن هذا النوع بعد ذلك.

*ولكن حدث الشيء الاسوأ؟

-نعم. وحالما خرجـت، اختطفتني وزوجتي مجموعة من الميلشيا.كنا خلالها في سيارة للاجرة. وقـد أبرزت لهم الوثيقة التي وقعتها في السـجن. ولكنهـم قالوا: هـا، ها، اذا، انت احـد المتمردين طالما انك لم تذهب الى البيت " ثم اضافوا: انك قد ذهبت الى العمل السري مع رفاقك المتمردين "

وقد شـعرت بالاحبـاط. كان ذلك اسـوأ ايام حياتي. وفي هذا الوقت لم تبد اسرتي اي نوع من المساعدة لي، لانها لم تعرف في اي مكان انا؟

*واين اقتادوك؟

-لا اعرف. وقد ناقشـت الامر مع بعض الناس بعـد خروجي من الاختطـاف اذ ذكروا لي، انهم لا يملكـون معلومات وافية. ولكن اول شـيء قام به المختطفون هو انهم وضعوا قلنسوة فوق راسي وهكـذا، لم اعد ارى اي شـيء، وكنت اخمن انهم وضعوني في باراو ميز كوتيا سـتريت حيث كانت ثمـة ثكنات عسـكرية غير معروفـة تعد مراكز للتعذيب. وكنت معصوب العينين وتماما لوحدي ولم يكن هناك احـد معتقلا معي . وكان الخوف الاعظـم هو انتقالي الى سـاو باولو حيث يمارس اسـوأ قمع هناك. وقد تحدثـت مرات عديدة مع فـري بيتو.لان تلك اللحظات كانت لحظات رعب حقيقيـة عانيت فيهـا كثيرا. وقد ذكـر لي، ان الرعـب دائما ما يكون في الايام الاولى. وفعلا كانت

تلك ايام رعب.

*واين اُلقــي القبض عليك وعلى زوجتك وما هي المدة التي قضيتماها؟

-احتُجزت لمدة اســبوع، ولكن لا يمكنك قياس ذلــك النوع من الزمن انما يشــعرك كمــا لو انه سنون. لانك تضيع تماما، وتتحول الى انسان واهن ولا تعــرف تمامــا اين انــت ! ولا تجد انســانا ما تتحدث معه. والانســان الوحيد الذي رايت وجهه هو المصور وكان مكلفا بازالة القلنســوة من على راسي لكي يلتقط لي صورة.

*والتعذيب..

-(لا يريد باولو كويلــو ان يدخل في تفاصيل عن ذلك الاســبوع من التعذيــب، ذلك ان الحديث عنــه، يعني العودة الى حياة مؤلمة وتجربة مهينة في حياتــه. اذ قال عبارة.. لكنهــم عذبوني دائما والقلنســوة على راسي.. ولكن بعد سنة كان يملك وعيا، اذ شخص بوضوح صوت معذبيه)

*ولكن ماذا يريدون منك؟

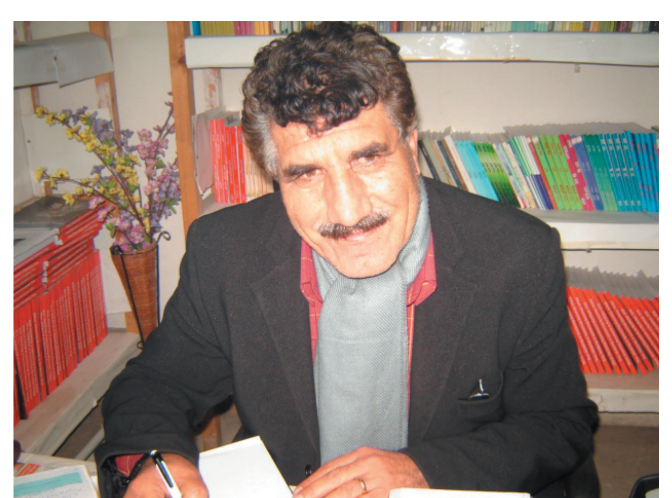
-يريدون ان اتحدث. ان اخبرهم عن نشــاطات المتمرديــن في باهيــا Bahia، لا اعرف اي شــيء عنها، وليــس لدي ادنى فكرة. والتقنية في عملية التعذيــب' كانــت كما يأتي: كان علــى المعتقل ان يتكلــم بســرعة، لانه بعد مدة مــن التعذيب قد يعتاد بعض الشــيء المفروض عليــه، وفي البداية، بــين زمن الاختطــاف والتعذيب ليــس لديك رد فعل. اتذكر انهم اخرجوني وزوجتي من ســيارة الاجــرة وكل ما رايناه هو فندق غلوريا واشــكال بنادقهم. وجرى كل شيء بسرعة وهم يصرخون بوجه زوجتي: اخرجي. وامســكوها من شــعرها، وسحبوها وفكرت: انني ساموت موتة غبية وانا انظر الى الفندق.. هناك فعلا اشــياء غبية تحدث لك في اللحطات التراجيدية جدا. وضعوا زوجتي في سيارة وانا في سيارة اخرى. وكانت مشاعر زوجتي هي الســوأى. لانهم اخبروها انهم ســيقتلونها. اما انا، فامســكوا بي، ووضعوا تلك القلنســوة اللعينة على راســي مرة اخرى. واعلموني انهم لا ينوون قتلي. وعلي، ان اهدأ. ولكن كيف لي ان اهدأ، بعدما علمت انهم يردون ان يضعوني في مخيم ويباشروا بعملية التعذيب مــن الراس الى اخمص القدمين. ولم ابح لهم باي شيء. حتى وان كانت لدي رغبة في ذلك، لانني لا اعرف اي شيء عن المتمردين.

*(في هذه النقطة من المحاورة، اراد باولو كويلو ان يقول شــيئا، باخلاص مــا زال يعذبه حتى هذا اليــوم. ففي احدى المرات كما ذكر لي، اقتادوه وهو مغطــى الراس ليرتــاح. وكانت زوجتــه في الغرفة المجــاورة قد ميزت صوته وســألته، اذا كنت باولو تحدث لــي. من فضلك. كان في لحظــة ذعر، ومع انه ميز صوت زوجته، فانه لم يجرأ على اجابتها. ومن خلال ذلك اكتشــف ان زوجته كانت ايضا في الســجن، وكانت خاضعة للتعذيب كما هو. بيد انه لم يملك الشــجاعة ليقول لها كلمة واحدة. وذهب الى زنزانتــه، كانت عينا كويلــو رطبتين، كما قال لي. كنت اجبن انســان في ذلك اليوم. وسابقى فيه نادما، طالما بقيت على قيد الحياة. وعند خروجها من الســجن طلبت من كويلو، ان يقدم لها جميلا، هو الا يلفظ اسمها مرة ثانية ابدا. واحتفظ كويلو، بالقسم. وعندما يريد ان يناديها او يذكرها فعليه ان يقول: زوجتي، دون ذكر اسمها.

# الفنان التشكيلي ئاري بابان

## في كل المراحل كان لكركوك الدور المؤثر في لوحاتي

**أجرى اللقاء: رزگار شواني**



الفنـــان الكـــردي (آري بابـــان) من الفنانين التشــكيليين الذيــن لهم باع طويــل في هذا المجال وكان مولعاً بالفن في مسقط رأسه كركوك منذ الطفولة، ففي تل شيخ محي الدين بكركوك كان هناك طين يســمى (بطــين ملاخنه) يرســم فوقــه منحوتات فنيــة، هكذا كانت طفولته مع أقرانه وبالأخص مع أعز صديقه الفنان (هوشــمند) شقيق القيادي في الاتحاد الوطني الكردستاني الشــهيد (آزاد هورامــي) وكان يقلــد رســوماته وأصبح من الذين تأثــر به كما يعزف آلة العود لهم إبان الخمســينات بمنطقة (زيويه) بكركــوك لقد تــرك الفنان (هوشــمند) بصماته واضحــة في نفوس آري بابــان وأصدقائه.. وبغية تسـليط الضوء أكثر على هذا الفنـان الكركوكي ارتأينا أن نلتقي به في هذا اللقاء:

⋆ وماذا عن مرحلتي المتوسطة والإعدادية من محطات الفنان آري بابان؟

- في هذه المرحلة لا بد أن أشكر الأستاذ القدير

(فخري جلال) الذي كان جدياً معنا وساعدنا كثيراً من أجل الوصول إلى ما نصبو إليه، لقد تتلمذ على يديه العشرات من الفنانين الكركوكيين أمثال الشهيد (عرفان محمد علي وغازي محمد أمين ومدحت كاكه ئي وحسام خالد ستار).. نحن مدينون لمرسمه المتواضع مرسم الفنان (فخري جلال) أيام كنت في ثانوية إمام قاسم علمنا الرسومات الفنية بشكل جيد ومن أولى ثمرات فخري جلال فتح معرض مشترك في عام (١٩٧٢) لي والفنانين (كَارا وأيوب شريف في قاعة ثانوية إمام قاسم، ومنذ ذلك الوقت شعرت بأن أكون بمستوى المسؤولية تجاه الفن وأنظر إليه بتجاربي، هذه كانت البداية الحقيقية لي كفنان..

* ماذا عن المراحل الأخرى التي مر بها فنك؟

- لقد مر بعدة مراحل ففي مرحلة السبعينات أصبحت لدي أعمال شخصية مؤثرة بالمدرسة الانطباعية، هذه الفترة تأثرت بـ (كَوكَان) و (فان كوخ) من خلال متابعتي لكراساتهما، وبعد الثمانينات برزت تجاربي الفنية فأكثر وأكثر، وفي كل المراحل كان لكركوك الدور المؤثر في لوحاتي، وإذا شاهدت لوحاتي تجد إن جميعها عبارة عن سماء مليء بالألوان، تلك الألوان التي تمثل مساء سماء كركوك وحين كنا ننام على سطح البيت ننظر إلى السماء البنفسجية والبرتقالية وبالأخص في فصل الشتاء عندما كان غائماً في الليل نرى النار الأزلية (بابا كَركَر) و (جبل بور) في منطقة الشورجة حيث يعطيان ألواناً جميلة فوق المدينة..

* أي وقت من الأوقات تقوم برسم لوحاتك؟

- عندما أرسم لوحة أبدأ برسم الإنسان أريد أن أكون شاهداً لعصري أي أرسم عصري مثال ذلك عندما أتأثر بحدث في عصري أقوم برسمه، ففي أحيان كثيرة أتفقد المعالم الأثرية في قلعة كركوك، أتفقد (اشتلوت) و(نبي دانيال) وأقف عند تلك الإلهة الأسطورية التي تؤثر على باكراوند لوحاتي، أنا أعتمد على الأسطورة ولكن لم أتحدث عنها كما هي ولكن أوظفها لكي تكون أسطورة معاصرة..

* مشاركاتك في المعارض الفنية؟

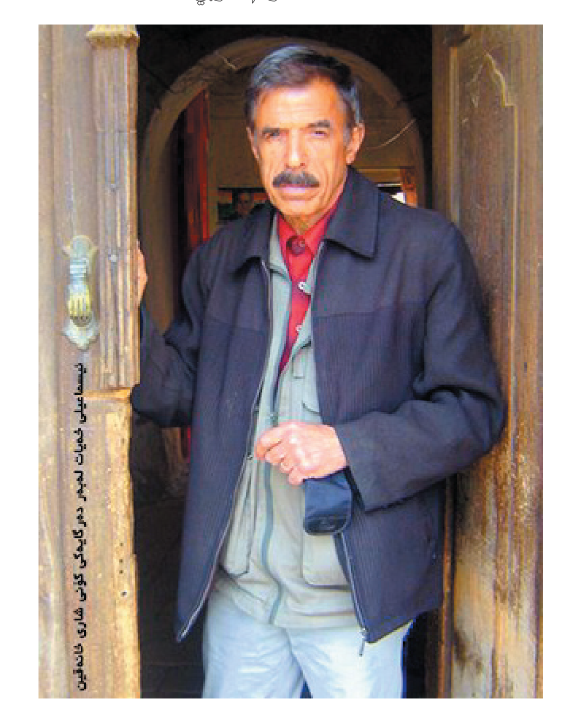
- شاركنا حتى الآن في أكثر من (٩٠) معرضاً مشتركاً في جميع مدن كردستان، وأول معرض كان في عام ١٩٧٢ في قاعة ثانوية إمام قاسم بمدينة كركوك مع كل من الفنانين (أيوب شريف وكَارا)، كما شاركت في أربع معارض شخصية، وعالمياً شاركت في معرضين بلندن ضم (٦) لوحات، هنا لا بد لي أن أشكر الفنان (ريبوار سعيد) الذي قام بتوصيل اللوحات إلى لندن، شاركت في معرض بهولندا و٦ معارض أخرى في ألمانيا ومعرضاً آخر في فنلندا..

* الحلم الذي يراود الفنان آري بابان؟

- أتمنى ان أفتح معرضاً واسعاً في كركوك مع عرض سلايد وبمشاركة فرقة موسيقية، وحدث مسرحي والمشروع قيد الدراسة حالما تستقر المدينة إن شاء الله..

* كيف تجد مستوى الفنانين التشكيليين في كركوك؟

- لا نستطيع أن نثمن مستوى الفن الآن نظراً لوجود حالة من الاختلاط فهناك فنانون لهم دور متميز ويحاولون توظيف تجاربهم الفنية.




# عالم أسماعيل خياط

**سلمان الواسطي**

طيور وأسماك ووجوه من تراب وأخرى من بقايا النار وهناك وجوه تحس أن ملامحها قد شكلتها الرياح، كل هذا نجده في عالم الفنان أسماعيل خياط الذي عرض بدار الأندى في العاصمة الأردنية عمان.

حيث تتشابك وجوه الطيور والأسماك والنساء، وكأنك تعيش في وسط بيني واحد يجمع كل هذه الأحياء دون فاصل في المادة أو المكان، ودون أن يحدهم الزمان من الأنبعاث والأنطلاق ليجددوا لنا المشهد بكل أبعاده، التي أراد الخياط أن يعكسها في أنفسنا..

قد تكون الطفولة وماعلق منها في ذاكرة الخياط قد أسهمت الى درجةٍ ما في تكوين وتعميق هذه التجربة، فنجد عنصري الطير والأسماك قد رافقا الخياط في جميع مراحل تجربتهُ، أن من البديهي مايعلق في ذاكرة الأنسان من أيام الطفولة يظهر بشكل أو بآخر في أعماله الأبداعية لكن هناك فرقا بين ظهورهذه العناصر بشكل سطحي في أعمال الفنان وبين ظهورها أو لنقل أستخدامها بشكل واع من قبله، لتجسيد فكرة موضوع ما او معالجته.

إن عجز الأنسان في تحقيق أحلامه وممارسة حريته بكل أبعادها، بسبب القيود السياسية والأجتماعية والأقتصادية، يجعلهُ يلجأ الى الأستعانة بالخرافة والأسطورة أو الرمز لتحقيق ماعجز عن تحقيقه في واقعية الحياة.

وهذا الهاجس يشكل أحد الموضوعات التي يعالجها الفنان المبدع رسما أو كتابة، ولذلك نجد أن لجوء الخياط في أعماله الى هذين العنصرين اللذين يعدان من العناصر الرئيسية في تجربته، هو لتجسيد وتحقيق حلم الحرية والأنطلاق الى أبعد



مديات الرؤى الأنسانية في جغرافية المكان وتخطي حدود الزمان.،، وكلنا يرى ويتابع كيف أن هذين العنصرين لايصدهما حاجز عن الأنطلاق، وهما يسبحان في فضائيهما سوى في جوف السماء أو في أعماق المياه، متخطيان كل أبعاد الزمان والمكان.

فالخياط نجح في توظيف هذين العنصرين لتجسيد فكرته بشكل متميز، وأحاطنا بوجوه وأشكال ورموز كانت تعبرعن هاجس روحي يملأ جو اللوحة ويحيلنا ونحن نتأمل هذه الأشكال الى أنفسنا وهي تغشاها أمواج من اللوعات.. لوعة الأشتياق الى الحرية والأنطلاق الى أبعد مديات تحقيق الحُلم.. ولوعة الحب المنتظر لوجهِ أمرأة لم يقط جمالهُ غبار الحروب.. ولم يخْطف أنوثته إسوداد الحزن.. لوعة الأشتياق الى وطن يسكنه السلام..

أن مايلفت النظرفي معرض الخياط.. أن أغلب أعماله كان يحتوي على الألوان الباردة والدرجات الخافته للألوان الحارة، ويعود ذلك للفكرة المجسدة في أعماله، وهذا مانراه في أقنعة الخياط،

فهو لم يرسم وجوه أناس يسكنها الخوف أو القلق، بل رسم أرواحهم التي تصدعت وتشوهت بسبب ويلات الحروب والحرمان والخوف الذي سكن حياتهم.. فخرجت أقنعة الخياط بهذا الشكل تعبرعن مكنون تلك النفوس حين تُصادر جمالياتها وتلغى شفافيتها فجاءت الألوان الأخضر والأزرق والاحمر الفاقع معبرة عن تلك الفكرة، (لأن سطح الشيء وشكلهُ هو ستار زائف يخفي وراءهُ.. حقيقة.. ومعنى جوهرياً ذا صفات بعيدة عن الشكل السطحي) لأن العمل الفني هو تعبيرعن ذات الفنان وتعبير عن أنعكاس الواقع في روح الفنان ومدى تفاعل روحه مع التجربة المعاشة.. فالعمل الفني يجمع بين روح الفنان واحساسه وموجودات العالم الخارجي، أذاً هو أنعكاس لهذا

التفاعــل الذي يحدث في ذاته المبدعة، لذلك نجد أن الخياط أبدع في أبراز مكنونات الأنسان وخلجاته ومايعتري روحه من مكابدات.

وأجاد في صياغة التعبير عن المرأة، بشكل جعلها تــبرز من خلال أعماله بصورة مكثفة ومختزلة.. لأن المــرأة هنــا هي أقرب الى الصمــت من البوح.. وأقــرب الى البوح مــن الكلام، أن الطيــف اللوني الشــفاف الذي يكتســي عالمها هنــا، يجعل المتلقي يصيبه الصمت مرة.. والحيرة والأســتغراق مرات وهو يجوب ببصره في فضاءات اللوحة التي أطلقها الخيــاط، إن الذي يســتوقفنا في أعماله هو ذلك التماثل الذي نراه بين المرأة والأرض، فالمرأة الحُلم نراها تنبثق من رحم الأرض وهي تحمل خصبها وأمومتهــا لكل شــيء موجود عليهــا ويعود إليها، ومن رحم المرأة تناسلت الأنسانية.

أن نساء هُ تبوح إلينا ماكان وماسيكون، ومامن كائن يتحمل خطايا الأنســان وآثامه سوى الأرض وابنتها المرأة، التي تشكل القطب الذي تدور حوله جميع العناصــر فهي تســتقطبنا وتجذبنا إليها بقــوة خفية نجهلها ولكننا ندرك مدى اهميتها في بقاء مســارتنا تمضي دون انقطاع.. وهي تشــكل في تجربــة الخياط هذه، المحــور الذي يدور حوله جميــع العناصر، فمرة يصاحبهــا الكمان أو الناي وتحلــق فوقها الطيــور.. وكأنها تعزف لأكتشــاف ســرهذا الوجود وتبوح بهواجســها له، وفي لوحة اخرى.. نرى الطيور تحوم فوق أجســاد أربع نساء تــبرز وجوههن بلون أحمر شــفاف وتحيط بهن رؤوس الطيور والأســماك، وكأنهن ولدن من رحم هذه الأرض، وهن يحملن فتنتها وفطرتها وبدائيتها الأولى.. وفي نفــس الوقت توارت أجســادهن عنا، لدلالة أن شــرط الولادة لايكتمــل ألا بتحرر روح الأنسانية الى أبعد مدياتها، لأنها تمثل المنبع الأول لهذه الأنسانية وهي المعين الذي لاينضب.. فلذلك نرى أن الطيور التي تحوم فوق أجســادهن تخبرنا بأن هاهنا يكمن سر الوجود الأول..

أن مايميــز تجربــة الخيــاط، هــو أبداعهُ في صياغة الورق الذي يشتغل عليه

فهو يصوغهُ صياغة خاصة تجعلهُ وكأنهُ يبدو معتقــا برائحة الــتراب لونه مرة، وأخــرى كأنهُ معتق بلون بشرة الأنسان ورائحتها.. وأحياناً تجدهُ وكأنهُ عبارة عن قطعة من الســجاد حيكّت عليها تلك الوجوه أو الرسوم..

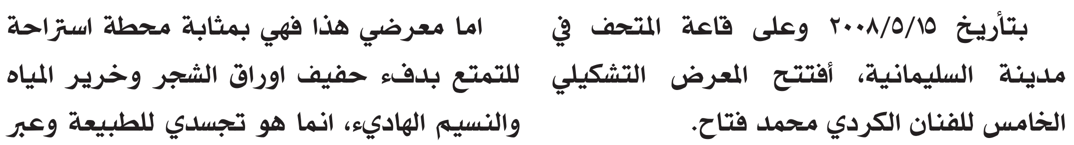
إن تميــز حرفيــة تعامل الخياط مــع الورق وأعطائــه هذه الصياغة، جعلــهُ بين مدة وأخرى يعيد تشــكيل حياة الأنسان بالعودة بهِ الى الفطرة والحلم، أي العودة به الى أنســانيته الأولى التي فقد منها الشــيء الكثير بسبب تغلب مادية الحياة على الجانــب الروحي لهُ.. فنرى في عدد غير قليل من أعمالهِ يعيد صياغة الأنســان أمــرأة كان أو رجل ببدائية الأنســان الأول وهو يحتضن الأرض عارياً، وأحياناً يغطي بعض جسده ببعض أوراق الأشجار

أن تجربة الخياط تُعد مــن التجارب المتميزة في التشــكيل العراقي والعربي والــذي يعيد إلينا ونحنُ نطوف في فضاءاتها شيء من الأتزان الروحي والجمالــي الذي نــكاد نفتقــدهُ في واقعية الحياة اليومية...



# طقس للطبيعة في معرض الفنان محمد فتاح

بروا ئاراس



بتأريخ ٢٠٠٨/٥/١٥ وعلى قاعة المتحف في مدينة السليمانية، أفتتح المعرض التشكيلي الخامس للفنان الكردي محمد فتاح.

وكان للطبيعة حضورها الدائم المستجد في شتى المجالات، ففي الأدب نرى الكثير من الروائيين يركزون على جانب الطبيعة لأنها دائما تمنحنا القوة والروح الطيبة الصافية النقية.

وإذا أخذنا الجانب السينمائي نرى دائما أن الطبيعة لها حصة الاسد، ناهيك عن الجانب الموسيقي فكلما اصغينا الى الموسيقى تنطبع الطبيعة فورا في مخيلتنا.

ولا يختلف عنا الفنان محمد فتاح حين استدرجته حول معرضه الذي كان كل لوحاته تتناول الطبيعة، حيث قال:

إن الطبيعة هي المدرسة الأم، لان الانسان في بداية حياته عندما يفتح عينيه على الحياة يرى الطبيعة ولكن على الشاكلة التي ترسمها المخيلة وفتها وتبقى الطبيعة ملازمة للإنسان طوال حياته..

اما معرضي هذا فهي بمثابة محطة استراحة للتمتع بدفء حفيف اوراق الشجر وخرير المياه والنسيم الهاديء، انما هو تجسدي للطبيعة وعبر مدارس فنية مختلفة فتارة تراها معبرة بطريقة تنقيطية وأخرى تجريدية وغيرها تعبيرية كتعبير الوجوه الانسانية المختلفة.

والمواد هنا مختلفة ايضا وذلك لخلق حالة التجسيد كأستخدامي للكنغاس والورق والخشب بمواد لونية مثل الزيت والمائية والباستيل والأقلام الملونة والأحبار الملونة، وتختلف في التركيب والسطح حيث نرى خدوشا ولمسات بالسكين على الاسطح وخصوصا في (الفوركراوند).

ويقول الفنان جزا بكر حول المعرض الخامس للفنان (محمد فتاح) المدون في الغلاف الأخير لدليله:

تصوير الطبيعة في تاريخ الرسم، له اوطأ قدم ونقش وله التأثير الكثير على جميع الفنانين والحركات التشكيلية، لأن تصوير المشهد الطبيعي



فيه مرونة تتماشى وتأتي منسجمة مع كل العطاءات الفنية والأفكار المختلفة لذا يأتي الرسم والوجهة الجمالية والبنية والأسلوب، والتشكيل فيها الكثير من المتغيرات ولكن كيف وبأي نوع تكون باثة وكيف تصبح شعارا لبث الرؤية الاستطيقية للفنان كموضوعات حرة متناصة بالتحديق، وإن لم يكن لذلك فإن تصور الطبيعة لوحدها ليس عرض (أيقوني) للعناصر الطبيعية داخل الواقع بقدرما هو سطح لبثها مرة اخرى (للرؤية) الجمالية للفنان من أجل ابداع وحدة فنية مليئة بالسمات الذاتية للباث.

هذا وقد حضر حفل إفتتاح المعرض السيد (جوتيار نوري) وكيل محافظ السليمانية وجمع غفير من الفنانين والمتابعين وأستمر العرض من ١٥ الى ٢٠٠٨/٥/٢٠.

# الآفاق المستقبلية للصناعات اللبنية في كردستان

خالد محمد الخال

من المتعذر في الوقت الحاضر ولا حتى في المستقبل القريب وضع خطة متكاملة على اسس علمية تضع في الاعتبار قيام نهضة صناعية في حقل الالبان، بانشاء مصنع للألبان يغطى كردستان ويلبى طلبات المواطنين من الحليب السائل ومختلف النواتج اللبنية على مدار السنة. ان مقومات نجاح نهضة صناعية حديثة في حقل الالبان باتباع سياسة ثابتة بانشاء مصنع للألبان لكل (٥٠) الف فرد من السكان كما هو متبع في الدول المتقدمة التي لاتزال في مهدها. ولا اعتقد بأن اسباب تخلفنا وفرض التخلف علينا في هذا المضمار بخاف على احد. الا انه مع كل ذلك هناك من الشواهد والحقائق التاريخية تدعونا الى التفاؤل بمستقبل الصناعات اللبنية في كردستان. فالمعروف عن الكرد انهم أولوا الصناعات الغذائية وبالأخص اللبنية منها اهمية بالغة، وتفننوا في صناعة اللبن والجبن والقشطة والزبد والدهن الحر، بالاضافة الى بعض المنتجات اللبنية الأخرى وبكميات تصل الى حد الاكتفاء الذاتي حتى اواسط السبعينات. و مع ان هذه الصناعة لاتزال بدائية وفي اطار الجهود الفردية، والعاملين فيها يجهلون الحقائق العلمية عن هذه الصناعة، ولم تحاول الدولة او الشركات المساهمة في تحديث هذه الصناعة بادخال المكننة والتوعية الزراعية والأساليب العصرية فيه نقول إن نواتج بنية المصنع محليا تمتاز بالجودة والدسامة نسبيا ومقبولة لدى المستهلكين.

فاللبن ذاع صيته في كل انحاء العراق، وبالأخص لبن اربيل، والجبن بأنواعه المختلفة (الطرى ونصف الجاف) وتنتشر صناعة هذه المنتجات في محافظات السليمانية واربيل وبعض مناطق دهوك. فالجبن الطري (الجبن الابيض) يستهلك طازجا ويخزن في محاليل ملحية بتراكيز عالية نسبيا لإطالة مدة حفظه ولمنعه من التلف لحين الإستهلاك. وجبن او شارى (پەنیری پێسته) وهو جبن نصف جاف يمتاز بطعم ونكهة مميزة مرغوب جدا لدى المستهلكين، ويختص بصنعه القبائل الرحل الكردية وبعض القرويين الذين يملكون قطعانا من الاغنام والماعز. يخزن رؤوس الجبن في جلد الماعز أو الأغنام طيلة مدة الإنضاج والتسويق بعد ان يغطي الفراغات الموجودة مابين أقراص الجبن بمادة (ژاژی).

ومن النواتج اللبنية الأخرى التي تصنع محليا ويستهلك على نطاق واسع القشطة Cream مع ان القشطة المحلية لاتتوفر فيها الشروط الصحية، وتستخدم الطرق البدائية في صنعها دون مراعات للنظافة، إنها تمتاز بالدسامة والطعم والنكهة المرغوبة.

نأمل في المستقبل القريب ان تهتم حكومة اقليم كردستان بالصناعات الغذائية، وتفكر جديا في انشاء معامل خاصة بالتصنيع الغذائي لتوفير المنتجات الغذائية محليا والاستغناء عن الاستيراد.

# الزواج مع الانتظار

اعداد: روژه محمد غريب

من احدى ظواهر الانفال التفريق بين الازواج، كذلك بين الرجال والنساء، اما الذين نجوا من جحيم الانفال، فكان عليهم الانتظار، انتظار عودة الاحبة دون جدوى، الانتظار غير المجدي حتى الموت، فها هي مريم صالح (٤٥ عاما) احدى ضحايا الانفال الناجية من جحيمها، اصبحت محرومة من الزواج، كانت قبل عملية الانفال بشهرين مخطوبة من ابن عمها، وهي فرحة بخاتم اصبعها، لكن الانفال لم تدعها ان تصبح زوجة واما، وهي تأبى ان تنزع خاتم الخطوبة اذ تعد نفسها مخطوبة وتنتظر حبيبها!

هذه الضحية المتشحة بالسواد، تعيش حاليا مع ابيها واثنين من اخوانها في فقر مدقع، تشكو من مصيرها، وتبكي على الدوام، كانت تتحدث بأعين مليئة بالدموع قائلة: «معظم اقربائي واهلي قضوا نحبهم في عملية الانفال، من بينهم ابن عمي وخطيبي الذي لاتفارقني ملامحه. كنا قبل الانفال نعيش في قرية تيله كو، على الرغم من تدني الوضع السياسي والامني وكنا نبحث عن زي الزفاف ونفكر بكيفية اجراء حفلة الزواج، لكن قوى الشر لم تدعنا ان نتزوج وان ننعم بالاطفال كالاخرين».

لم تتزوج مريم لحد الان، معتقدة ان خطيبها يرجع اليها في يوم ما، لكنها بعد سقوط الطاغية صدام وبعد اكتشاف المقابر الجماعية، تيقنت ان خطيبها لن يعود. ليست مريم المرأة الوحيدة من بين الشاء اللاتي عانين من هذا المصير المؤلم، فهناك عدد كبير منهن تعرضن لنفس المصير، وها هي كوله باخ محمد علي من ناحية قادر كرم، ضحية اخرى من ضحايا الانفال، حيث كانت مخطوبة، لكنها تعيش الان مع والدها ولاتفكر بالزواج.

المصدر: مجلة (عرعر)، العدد الثالث، سنة ٢٠٠٨، الصادرة في السليمانية.

# مهرجان إحياء الشاعر الكردي الراحل (خليل منور كاكەيى) في كركوك

كركوك: رزكارشواني

للمرة من ٢٩-٢٠٠٨/٧/١ أقامت وزارة الثقافة في حكومة إقليم كردستان على قاعة النشاط المدرسي بمدينـــة كركوك مهرجان إحياء الشـــاعر الكردي الراحل ميرزا خليل منور كاكه يي.. واستهل حفل افتتاح المهرجان الــذي حضره جلال جوهرعضو المكتب السياسي للاتحاد الوطني الكردستاني ونجاة حسن مســؤول الفرع الثالث للحزب الديمقراطي الكردســتاني وعبــد الرحمن مصطفــى محافظ كركوك وحســين الجاف مدير الدراسة الكردية في وزارة التربية العراقية وممثل الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق و د.فؤاد حمه خورشــيد مدير عــام دار الثقافة والنشــر الكردية و ناصرحســن ممثــل وزارة الثقافة في حكومة إقليم كردســتان وعــدد من أســاتذة الجامعات والكتاب والشــعراء والإعلاميين بمختلف قومياتهم، بالوقوف دقيقة صمت واحدة ترحما على أرواح الشــعراء والكتاب



الكرد الخالدين، ألقى لطيف فاتح فرج سكرتير فرع كركــوك لنقابة صحفيي كردســتان كلمة اللجنة العليا للمهرجان أشــاد خلالها بالــدور الذي لعبه الشــاعر خليل منور كاكه يي لخدمة شعبه، بعد ذلك ألقى عبد الرحمن مصطفى محافظ كركوك كلمة أوضح فيها أن الأنظمة المتعاقبة التي حكمت العراق همشــت دور الأدبــاء والكتاب والمثقفين في

كركوك بمختلف قومياتهم وأطيافهم،مثمنا دور وزارة الثقافة في إقليم كردستان لمبادرتها إقامة هذا المهرجان لإحياء الشاعر الكردي خليل منور متمنيا المواصلة لاستذكار رموز الثقافة في المدينة التي أنجبت العديد من الكتاب والشعراء والمثقفين، تلتها كلمة د. حسين الجاف مدير الدراسة الكردية في وزارة التربية العراقية أشاد خلالها بإقامة هذا المهرجان تكريما للشاعر الخالد خليل منور كاكه يي، مؤكدا ان الدراسة الكردية في الوزارة ستسمي أحد المدارس الكردية ببغداد باسم الشاعر خليل منور، ثم ألقى الشاعران مهدي زريان ودانا عسكر قصائدهما بالمناسبة، بعد ذلك قدم الفنانان صلاح داوده و أوميد شواني أغنيتين فولكلوريتين.. ويذكر أن المهرجان شمل جلسات شعرية ودراسات أدبية شارك فيها د. اسماعيل ابراهيم سعيد ود. محمد كساس جباري و د.مصطفى زه نكنة و د. عادل كرمياني وهردويل كاكه يي وهاشم عاصي وآزاد عبد الواحد ونوزاد محمد كاكه يي ولطيف فاتح فرج..

*ماذا قالوا عن المهرجان

- د. حسين الجاف مدير الدراسة الكردية بوزارة التربية العراقية رئيس مكتب الثقافة الكردية في الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق تحدث إلينا قائلا: بذلت اللجنة العليا لمهرجان إحياء الشاعر الكردي خليل منور جهدا مشرفا حيث قام بتوجيه الدعوات لمجموعة من المتخصصين بالتراث الكردي من الأدباء والشعراء والصحفيين وأساتذة الجامعات للحديث عن هذا الشاعر الذي أهمل ظلما لمدة طويلة، مع العلم هو من كبار عناصر التنوير في الثقافة والأدب الكرديين حيث دعا قبل أكثر من مائة عام إلى إشاعة العلم والعرفان والمدنية وخروج الشعب الكردي من براثن الجهل والتخلف واتباع العادات القديمة، ان مدينة باباكركر ومدينة أثيري وملا جميل روزبياني وشكر مصطفى وجبار جباري يسعدها أن تحتضن ذكرى هذا الشاعر الكبير، وإنني باسم وزارة التربية في جمهورية العراق الفيدرالي أعلنت في حفل افتتاح المهرجان وانطلاقا من مهنتنا كجهة تربوية إطلاق اسم الشاعر خليل منور أحدى مدارس بغداد التي فيها كثافة كردية وفيها تواجد ملموس لطلبة الكرد..

- د. فؤاد حمه خورشيد مدير عام دار الثقافة والنشر الكردية في بغداد قال: في الواقع هذا المهرجان هو أحد مهرجانات مدينة كركوك التي دأبت على إحياء تراثنا المندثر السابق وخاصة للشعراء الذين كنا نجهل عنهم الكثير ومنهم الشاعر الكردي الخالد خليل منور كاكه يي، لقد فتح لي هذا المهرجان باب الاطلاع على ديوانه وعلى لغته ومنهجه في الشعر وهو منهج النقد اللاذع لظواهر المجتمع فهو لا يختلف في هجائه عن الشاعر رضا الطالباني ومشهور أكثر منه والسبب في ذلك ان خليل منور قد لهج بلهجة محلية ضيقة تختلف عن اللغة التي كتب بها الطالباني وهذا هو سبب عدم اطلاعنا على هذه اللهجة التي تسمى محليا بلهجة (ماچو)، إن هذا المهرجان خطوة كبيرة وإنارة واضحة في مسيرة الثقافة الكردية في كردستان بشكل عام وكركوك بشكل خاص..

- د. عادل كرمياني أستاذ جامعي في جامعة بغداد قال: ان هذا المهرجان جاء في موعده المناسب وفي مكان مناسب لكون الشاعر خليل منور من مدينة كركوك التي اشتهرت بمدينة الذهب الأسود وكذلك اشتهرت بمدينة الشعراء والأدباء الكرد الذين لهم نزعة قومية تجلت في غالبية نتاجاتهم، والشاعر خليل منور هو أحد الشعراء الكرد المعروفين لكونه من شعراء الطبقة المضطهدة لذلك من يقرأ قصائده يشعر بما كان يعانيه في عهده السلف ومن حق أبناء هذه المدينة إحياء هذا الشاعر..

- الكاتب والصحفي ستران عبد الله من جهته قال : لاشك ان استذكار الشعراء والكتاب الكرد في مدينة مثل مدينة كركوك التي عانت من سياسات الاضطهاد القومي شمل أيضا سياسات الاضطهاد الثقافي, له أهمية كبيرة والشاعر خليل منور نفسه يمثل اهمية كبيرة لانه شاعر كردي كركوكي أصيل كتب الشعر باللغات الكردية والعربية والتركمانية، وكتب الشعر بلغة كردية خاصة يتكلم بها شريحة خاصة من أبناء شعبنا الكردي في كركوك وهي شريحة الكاكائية وبلهجة (ماچو)، إن أهمية الشاعر خليل منور يكمن في كونه شاعرا انتقاديا ومن يطلع على قصائده يرى انه لعب دور صحيفة انتقادية انتقد الأوضاع السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة في عهده ، ان استذكار هذا الشاعر وكل الشعراء الآخرين في عصر الحرية الجديد له أهمية كبيرة لأنه استذكار واستحضار لتاريخ كركوك الثقافي..

# مجلة «عرعر»

## قراءة: نيكار كرمياني

صدر العدد ٣ من مجلة «عرعر» وهي مجلة مختصة بأحداث الانفال، وفيها حاول كادر المجلة توضيح أهم الأحداث والوقائع الدموية التي مرت على الكرد إبان حكم صدام حسين، وتتحدث المجلة بشيء من التفصيل عن أحداث سنة ١٩٨٨ وما بعدها، حيث قام صدام حسين في السنة المذكورة بحملات عسكرية شرسة ضد الكرد في قرى وارياف كردستان وكان هدفه في ذلك ابادة اهالي تلك القرى ابادة عرقية جماعية.

يحتوي هذا العدد من المجلة التي صدرت سنة ٢٠٠٨ الموضوعات الاتية:

الجزء الاول/ البحوث: وفيه اثنا عشر بحثا مفصلا حاول الكتاب والباحثون فيه توضيح اهم الاسباب والمبررات وراء حملة الانفال وسياسة الابادة الجماعية موثقة بالوثائق والجداول وشواهد تاريخية ودراسات قيمة.

الجزء الثاني/ المقابلات الشخصية: وفيه ثلاث مقابلات شخصية مع شخصيات عامة وقع عليهم هول الانفال او لهم اقارب ومعارف مقربين ضمن ضحايا الانفال.

الجزء الثالث/ التقارير: وفيه نشر ثلاثة عشر تقريرا ملخصا عن الانفال وحياة المجموعات التي تعرضت للابادة قبل عملية الانفال وبعدها.

الجزء الرابع/ نشر في هذا الجزء من المجلة احدى عشرة مقالة كتبت عن واقعة الانفال.

الجزء الخامس/ الشعر: اختصر الجزء الخاص من المجلة بنشر الاشعار المكتوبة عن الانفال وفيه قصيدة كتبه الشاعر آريز سمكو حسين تحت عنوان احتفالية الموت في عرعر. وبهذا يمكننا تلخيص اهم العناوين والموضوعات التي وردت في مجلة عرعر كالآتي:

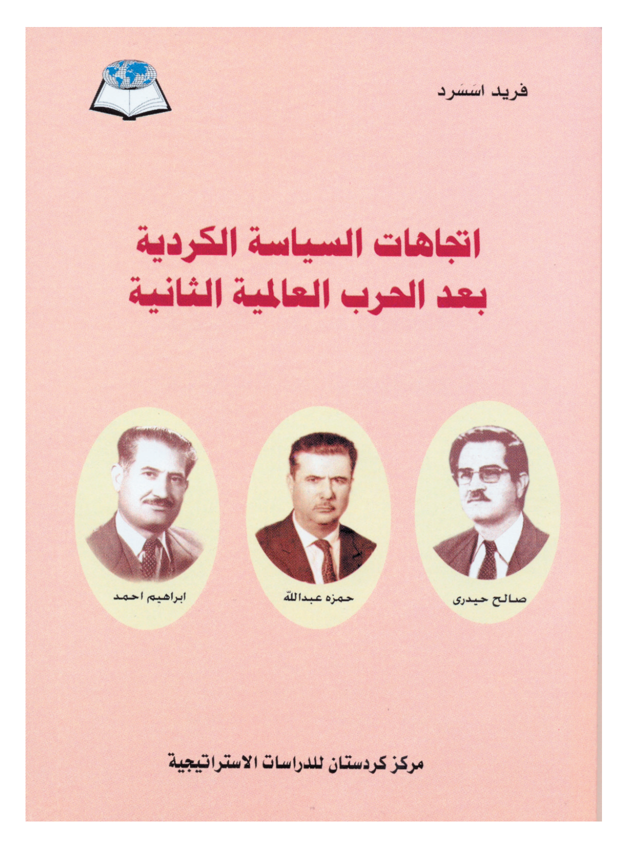
-مشكلة الابادة الجماعية لأهالي كردستان ودور الشركات والدول الغربية في الابادة الجماعية لسكان كردستان. اعده الباحث: أمير قادر.الانفال والإبادة الجماعية (الانفال مثال لجرح قومي) للباحث: مريوان وريا قانع، أيديولوجية حزب البعث ورؤيته، للباحث بشتيوان رحيم، الانفال إبادة جماعية للكرد في الصمت للباحث: هفال أبوبكر، حملات ثمانية على الأنفال خلال مائة وثمانية وتسعين يوما للباحث: عبدالله كريم، الأنفال وتأثيره على الهوية القومية للباحث: آسو أمين، تأثير الانفال على عوائل الكرد للباحث: نوشيروان صابر، عملية الانفال الرابعة وتأثيرها الاجتماعي على اقارب شباب الانفال، للباحثين هيمن كامل، انفال قرية بناركل، للباحثان: بختيار محمد امين و مظفر صالح قادر، الابادة الجماعية للكرد في عملية الانفال –بشدار قاسم، المستوى الدراسي والصحي لعوائل جمجمال المؤنفلة – شوان رحيم كريم.

-مقابلة مع الدكتور مارف عمر كول ومع الباحثين هفال ابوبكر وعارف قورباني و كوران بابا علي وعمر محمد.

-الابادة الجماعية وتراجيديا الكرد في الانفال – اعداد/ د. سالار حمه سور باسيره، عشرون دقيقة قبل الآن، اعده سيروان كريم، الانفال جزء من مشروع ابادة – شاهو غفور سنكاوي، العراق الابادة الجماعية وغموض الهوية – لطيف فاتح فرج، عدم محاكمة المذنبين والجاش الكرد محاكمة للغة الكردية – هندرين، اهمال الضحايا وتهميشها والاهتمام بالجلاد – كوردو شواني، الانفال وصورها المتكررة – بارام صبحي، الاسس التاريخية للانفال – بيستون محمد سنكاوي.



# اتجاهات السياسة الكردية بعد الحرب العالمية الثانية




خلال الحقبة الممتـــدة من ١٩٤٦ حتى ١٩٥٨ افرز المجتمع السياسي الكردي ثلاث سياسيين جمعتهم الرغبة في رؤيـــة عالم مثالي خال مـــن الاضطهاد. هؤلاء الثلاثـــةن هم كل من «صالح حيـــدري وهمزة عبـــدالله وابراهيم احمد». ان ايا من هؤلاء السياسيين لم يعمل على اساس الاعتقاد بما هو ممكن التحقيق. لقد ظلوا في الغالب الاعم ميالين الى تقديس الايديولوجيا ووضـــع العامل المعنوي، وليس المادي، فوق اي اعتبار.

لقد ترك هؤلاء الثلاثة بصماتهم على التاريخ اللاحق وقد اعطوا لانفسهم الحق في ان يعتبروا كفاحهـــم عادلا وســـعى كل منهـــم، بطريقته الخاصة ووفـــق رؤيته الذاتيـــة، الى طبع الغد الذي ينشـــد بطابعه الخـــاص، وفي الحين الذي نعيـــش فيه في العقد الاول مـــن القرن الحادي والعشـــرين. فإن تـــراث هؤلاء الثلاثـــة، الذي هو بدون شك مقيم بأشـــكال مختلفة، لايزال مؤثرا في الحياة السياســـية الكردية وســـيظل مؤثرا حتى عقود اخرى تالية.

فريد اسسرد

من مقدمة الكتاب



Vol,5 Summer - 2008

SARDAM AL-ARABI

A quarterly Cultural magazine in Arabic issued by
Sardam Printing & Publishing House

ADMINSTRATIVE BOARD MANAGER

Sherko Bekas

EDITING DIRECTOR

Nawzad Ahmad Aswad

Consulting editor

Muhyadin Zangana

ARTISTIC DIRECTOR

Jamal Darwesh

Sardam Printing & Publishing House
www.serdamco.info

Kurdistan- Sulaimany

**سعر النسخة:** 2000 **دينار عراقي**